زِن وفنُّ صيانة
الدرّاجة الناريّة

إلى عائلتي

ملاحظة المؤلف

يعتمد ما سيأتي على أحداث فعليّة. ومع أنّ الكثير منه قد غُيِّر لأغراض بلاغيّة، يجب النظر إلى جوهره باعتباره وقائع. مع ذلك لا ينبغي ربطها بالكميّة الكبيرة من المعلومات المتعلّقة بالممارسة القويمة للزِن البوذي، كما أنّها ليست فعليّة في ما يتعلّق بالدرّاجة الناريّة أيضاً.

وما الجيّد،

يا فيدروس،

وما غير الجيّد....

هل نحتاج لشخص ليخبرنا بذلك؟

وفيما اتسمت سِيرَ المستعربين الإنجليز فى عمومها بسلوكيات كانت أقرب إلى دينامية الحركة، والإقدام على المغامرة، فقد اتسمت سلوكيات المستعربين الأمريكان، فى عمومها أيضًا، على نحو ما يعرض له الكتاب الذى بين أيدينا، بالجانب التبشيرى الذى قام على إنشاء المؤسسات التربوية ومنها مثلاً الجامعة الأمريكية فى بيروت والقاهرة وغيرهما من عواصم الشرق الأوسط، فيما كان الكثير منهم قد أوغلوا فى التخصص فى الدراسات العربية تاريخًا وآدابًا وتراثًا؛ ومنهم من أوصلته هذه الاهتمامات إلى موقع السفير فى خدمة السلك الدبلوماسى للولايات المتحدة.

ومن العجيب أن يتوقف «روبرت كابلان» مليًا عند سلوكيات «هنرى كيسنجر، حين كان وزيرًا للخارجية فى واشنطن، إزاء هذه الفئة من مستعربى السلك الدبلوماسى الأمريكى... وربما راعه خلال فترة ولايته فى عقد السبعينيات (حقبة الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون) كيف أن عددًا من هذه «الأيادى العربية» - يقصد هذا الفريق من هؤلاء المستعربين الأمريكيين؛ خاصة ممن خدموا فى مواقع مختلفة فى الأقطار العربية- أصبحت تربطهم بالمنطقة علاقات وطيدة، وصل بعضها إلى مستوى التواصل العاطفى؛ حيث كان بعض هؤلاء السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين يصدر عن خلفية ثقافية ومنطلق أكاديمى أوصله إلى قدر من الشغف بالتراث العربى وبطرائق الحياة العربية وإيجابية عوائدها وأعرافها... ومن هنا يوضح مؤلف الكتاب كيف اتخذ «كيسنجر» قراره باستئصال شأفة هذه العناصر المتعاطفة مع العرب مهما قام هذا التعاطف

مقدّمة بمناسبة إصدار النسخة الخامسة والعشرين

أفترض أنّ كلَّ كاتب يحلم بتحقيق النجاح الذي حقّقته رواية (زِن وفنُّ صيانة الدرّاجة الناريّة)[1] - مراجعات مليئة بالمدح على امتداد خمس وعشرين سنة، وملايين النسخ التي بيعت في ثلاث وعشرين لغة، ووصف في الصحافة بأنّها «أكثر كتابٍ فلسفيٍ تمّت قراءته على الإطلاق»[2].

كنت في بداية السبعينيّات لَمّا انشغلت بالعمل على الكتاب أحلم بتحقيق كلّ هذا، لكن لم أسمح لنفسي التعلّق بهذه الأشياء، أو أن أصرّح بها خوفاً من نعتي بجنون العظمة أو انتكاصي إلى مرضي العقلي السابق. والآن وقد أصبحت الأحلام حقيقة، لم أعد أقلق بشأن هذه الأشياء.

وبدلاً من الحديث عن نجاحٍ يعرفه الجميع، أفضّل الحديث عن نقاط الضعف في الكتاب، ومحاولة تصحيحها إن كان ذلك ممكناً. أعتقد أنّ هناك

---

(1) (زن) مذهب لطائفة يابانية يتميّز بممارسة التأمل في وضعية الجلوس، وبتداول الأقوال المأثورة والعِبَر للوصول إلى حالة الاستنارة والتنوير واليقظة.

(2) وفقاً لمجلّة «لندن تلغراف» وإذاعة ب. ب. سي.

نقطتي ضعف في الكتاب، إحداهما صغرى والأخرى كبرى.

الصغرى هي أنّ (فيدروس) لا تعني «الذئب» في اليونانيّة. كان هذا خطأً نتج عن التجربة الحقيقيّة التي حدثت في جامعة شيكاغو عام (1960)، وظهرت في القسم الخامس. فقد ذكر أستاذ الفلسفة أنّ (أفلاطون) كان يحب استخدام أسماء لشخصيّاته تشير إلى طبيعتهم. والتشبيه في حوار (فيدروس) كان مع الذئب. ونظر أستاذ الفلسفة الذي كان اسمه حسب ما أذكر (Lamm) أو (Lamb)[1] بطريقة دلّت أنّه كان يعتقد أنّ وصف ذئب يناسبني. كنت كدخيلٍ يفضّل مهاجمة ما يدرَّس على أنّ يتعلّم منه. وتعلّق عقلي مفرط النشاط بهذه الميزة لكونها شكّلت علاقتي الواضحة بالجامعة، وشقّت هذه الميزة طريقها إلى الكتاب. لكن الشخصيّة التي شبهها (أفلاطون) بالذئب لم تكن (فيدروس) وإنّما (ليسياس) الذي كان اسمه مشابهاً للكلمة الإغريقيّة (Lykos) التي تعني «الذئب». والكلمة (فيدروس) كما أشار لي القرّاء عدّة مرّات تعني «اللامع» أو «الوضّاء». لقد كنت محظوظاً. فالكلمة يمكن أنّ تعني معنىً أسوأ بكثير.

أمّا الخطأ الثاني فأكثر خطورة لأنّه قد جعل معنى الكتاب الأساس غامضاً، فقد لاحظ العديد من الناس أنّ نهاية الكتاب لا توضح الأمور، وأنَّ هناك شيئاً مفقوداً. وسمّى بعضهم النهاية «النهاية الهوليوديَّة»، وهي صفة تنتقص من الكمال الفنّي للكتاب. وهم محقون في هذا الشأن، لكن ليس لأنَّ النهاية الهوليوديَّة هي ما كنت أرمي إليه، وإنّما لأنَّ نهاية مختلفة أخرى أردتها لم تكن واضحةً تماماً. في تلك النهاية لا ينتصر الراوي على

(1) وتعني الحمل، المترجم.

(فيدروس) البغيض، وإنّما (فيدروس) المبجَّل هو من ينتصر على الراوي الذي كان يشهّر به على الدوام. وقد جعلنا الأمر أكثر وضوحاً في هذه النسخة باستخدام خطٍّ بلا ذنابة للإشارة إلى صوت (فيدروس).

وعليّ للاستفاضة عن هذا الموضوع أنّ أعود إلى حلقة للكتابة الإبداعيّة عُقدت ذات مساء شتوي في بداية الخمسينيّات في جامعة منيسوتا. كان المدرّس (آلين تات) الذي كان شاعراً وناقداً أدبياً متميّزاً، وكان موضوع الجلسات رواية (هنري جيمس) «دورة اللولب» التي تحاول فيها مربيّة أنّ تحمي ربيبيها من وجود شبحي، لكنّها تفشل في تحقيق ذلك في نهاية المطاف، فيقتلان. كنت مقتنعاً تماماً أنَّ هذه الرواية هي قصّة متعلّقة بالأشباح بالكامل، ولكن (تات) قال لا، فـ(هنري جيمس) أكبر من هذه المواضيع. فالمربية لم تكن بطلة القصّة، وإنّما كانت الشخص الرديء. ولم تكن الأشباح هي من قتل الأطفال، وإنّما اعتقاد المربية الهستيري أنّ الشبح موجود. لم أصدّق هذا في بداية الأمر، لكن لمّا قرأت القصّة مرّة أخرى اكتشفت أنّ (تات) كان محقّاً. ونحن نستطيع أنّ نفسر القصّة بالطريقتين.

كيف فاتتني هذه النقطة؟

قال (تات) إن (هنري جيمس) كان قادراً على تحقيق هذا السحر عبر استخدام راوٍ بضمير المتكلّم. وقال (تات) إن ضمير المتكلّم هو أصعب شكلٍ، لأنَّ الكاتب محجوز داخل رأس الراوي ولا يستطيع مبارحته. لا يستطيع أنّ يقول «في هذه الأثناء، لمّا كنّا في المزرعة» عند الانتقال إلى موضوع آخر، لأنّه مسجون إلى الأبد داخل عقل الراوي. **وكذلك الحال مع القارئ.** وهذا هو مصدر قوّة السرد على لسان ضمير المتكلّم. فالقارئ لا يحبّذ رؤية

المربيّة شريّرة، لأنَّ ما تراه المربيّة هو كلّ ما يراه القارئ.

ودعونا نعود الآن إلى (زِن وفنُّ صيانة الدرّاجة الناريّة) ونلاحظ أوجه الشبه. هناك راوٍ لن تستطيع كقارئ مفارقة عقله. وهو يشير إلى شبح شرير اسمه (فيدروس)، لكن الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أنّ نعرف أنّ هذا الشبح شرير هي الراوي عندما يخبرنا بذلك. ولهذا، وخلال القصّة يظهر (فيدروس) في أحلام الراوي بطريقة تستطيع أنّ ترى فيها الراوي لا يتبع (فيدروس) ليدمّره وحسب، وإنّما يتبع (فيدروس) الراوي لتحقيق الهدف نفسه. فمن سيفوز؟

نستطيع أنّ نرى هنا شخصيّة منقسمة؛ فهناك عقلان يتقاتلان على الجسد نفسه، وهو الوضع الذي أوحى بالمعنى الأصلي «لانفصام الشخصيّة». وهذان العقلان يملكان قيماً مختلفة عمّا هو مهمّ في الحياة.

من الواضح أنّ الراوي شخص تسيطر عليه القيم الاجتماعيّة. وكما يقول في البداية: «لم أكتسب فكرة جديدة منذ سنوات». وهو لا يروي قصّته إلاّ بطرق محسوبة ليجعلك تحبه. وسيشاركك أفكاره الخاصّة التي لا يشترك بها مع (جون) أو (سيلفيا) أو (كريس) أو آل (ديويز). ولا يريد فوق كلّ هذا أنّ يكون معزولاً عنك - أيّ القارئ - أو عن المجتمع المحيط به. إنّه يحاول المحافظة على مكانة ثابتة ضمن الحدود الاعتياديّة للمجتمع المحيط به، لأنّه رأى ما حدث لـ(فيدروس) الذي لم يفعل ما فعل الراوي. فقد استوعب العبرة، ولن يتلّقى علاجاً بالصدمات الكهربائيّة بعد الآن. وعند نقطة ما، اعترف الراوي بسرِّه: فهو زنديق هنّأه الناس على إنقاذ روحه من الهلاك، لكنّه يعرف سراً أنّ كلّ ما أنقذه هو جلده فقط.

وهناك شخصان آخران علما أو أحسا بهذا. كان (كريس) أحدهما. وكان يتحطَّم حزناً وضياعاً عندما يبحث عن الأب الذي يتذكّره ويحبّه ولا يستطيع العثور عليه. وكان (فيدروس) هو الشخص الآخر. كان يعلم تماماً ما يضمره الراوي، وكان يحتقره لأجله.

ويعدّ الراوي في نظر (فيدروس) خائناً وجباناً، تخلّى عن الحقيقة من أجل الشهرة والقبول الاجتماعي من لدن أطبّائه النفسيّين وعائلته، ورؤسائه في العمل ومعارفه الاجتماعيّة. فهو يرى أنّ الراوي لا يريد أنّ يكون أميناً بعد الآن، وإنّما يريد أنّ يكون عضواً مقبولاً في المجتمع، يتملّق ويغيّر طريقة عيشه حسب ما تقتضي الظروف.

سيطرت على (فيدروس) قيم فكريّة. فلم يبالِ بمن أحبّه أو كرهه. كان ضيّق الأفق يسعى وراء حقيقة يرى أنّها ذات أهميّة مربكة للعالم. ولم يكن لدى العالم أدنى فكرة بما كان (فيدروس) يحاول فعله، ويحاول قتله من أجل مشاكله. وحين أصبح مدمراً اجتماعيّاً تمَّ إسكاته. لكن بقايا ما توصلّ إليه ما تزال عالقةً في عقل الراوي، وكان هذا مصدر الصراع.

في النهاية، حررت كربة (كريس) (فيدروس) من عذابه. فلمَّا سأل (كريس) «هل كنت مجنوناً حقّاً؟» وكان الجواب «لا»، لم يكن الراوي هو من قال ذلك، وإنّما (فيدروس). وحينما قال (كريس) «وجدتها»، فهم أنَّه لأوّل مرَّة في هذه الرحلة بأكملها كان يتحدّث مع أبيه المفقود منذ مدّة طويلة. وتبدّد التوتّر. لقد فازوا، واختفى الراوي المحطّم. وقال (فيدروس): «سوف تتحسّن الأمور الآن، تستطيع أنّ تقول ذلك».

ولمعرفة المزيد عن (فيدروس) الحقيقي الذي لا يمكن اعتباره شبحاً

خسيساً، وإنّما هو مفكّرٌ مفرط ذو أخلاق متوسّطة، أجد لزاماً أنّ أوصيكم بقراءة (لايلا)، وهي الجزء الثاني من الراوية، التي لم يفهمها كما يجب سوى قلّة قليلة من الناس. ودعوني أوصيكم أيضاً بالرجوع إلى الموقع الإلكتروني (www.meq.org)، هؤلاء مجموعة من أولئك القلة الذين فهموا الراوية.

الجزء الأوّل

1



أستطيع أنّ أعرف، بالنظر إلى ساعتي دون أنّ أرفع يدي عن مقبض الدرّاجة الأيسر، أنّ الساعة الثامنة والنصف صباحاً. الرياح دافئة ورطبة حتّى على سرعة ستين ميلاً في الساعة. وأنا أتساءل في هذا الحر: إذا كانت هذه هي الحال في الثامنة والنصف، فكيف ستكون في وقت ما بعد الظهيرة!

تنفح مع الرياح روائح المستنقعات العطنة على جوانب الطريق. فنحن في منطقة (السهول الوسطى) المليئة بآلاف المستنقعات الشهيرة بصيد البط، نتّجه نحو الشمال الغربي من مدينة (منيابوليس) نحو ولايتي داكوتا. والطريق السريع الذي سلكناه قديم ذو مسربين، مبني بالإسمنت، ولم يشهد حركة مروريّة كثيفة منذ أنّ افتُتح طريق سريع ذو أربعة مسارب موازٍ له قبل عدّة سنوات. كلّما مررنا بمستنقع تغيّر الهواء ليصبح أبرد قليلاً، ويعود إلى ما كان عليه بمجرّد أنّ نتجاوز المستنقعات.

أشعر بالسعادة أنّ أقود درّاجتي عائداً إلى هذه المناطق، إذ ليست

مكاناً ذا أهميّة تذكّر، وهي غير مشهورة بأيّ شيء، بل تنحصر جاذبيّتها في ذلك وحسب. يختفي التوتّر على امتداد طريق كهذا. نندفع طوال الطريق الإسمنتي المنهك والمحاط بنبات البوص وامتدادات المروج، ثمّ المزيد من نبات البوص وأعشاب المستنقعات. وهناك بعض المساحات المائيّة المفتوحة من مكان إلى آخر، وتستطيع إن أمعنت النظر أنّ ترى بعض البط البرّي على حواف نبات البوص وبعض السلاحف... وثمّة طيور شحرور ذات أجنحة حمراء.

أضرب (كريس) على ركبته لأشدّ انتباهه إليها.

يهتف: «ماذا؟»

- «طائر الشحرور»!

يقول شيئاً لا أسمعه، فأصرخ له: «ماذا؟» يمسك بمؤخّرة خوذتي، ويصرخ قائلاً: «رأيت الكثير منها يا أبي».

- أصرخ قائلاً: «آه»، ثمّ أهزّ رأسي، ففي عمر الحادية عشرة ربّما لا تدهشك طيور الشحرور ذات الأجنحة الحمراء.

عليك أنّ تكبر لتحسّ بهذه الأمور، ولكنّها بالنسبة إليَّ تحمّل ذكريات يفتقدها هو، كالصباحات الباردة في ذلك الوقت من العام، الذي تكون فيه أعشاب المستنقعات قد تحوّلت إلى اللون البني، ويأخذ فيه نبات البوص بالتأرجح مع الرياح الشماليّة الغربيّة. الروائح العطنة صادرة عن فضلات الحيوانات التي تحركّها الجزمات عالية السيقان عند اتّخاذنا أماكننا بانتظار شروق الشمس في بداية موسم اصطياد البط، أو الشتاءات التي تتجمّد فيها الأوحال، وتموت فيها النباتات، وقد كنت خلالها أمشي على الثلوج،

فلا أرى سوى السماء الرماديّة المتجهّمة والأشياء الميتة والبرد. كانت طيور الشحرور قد هاجرت في ذلك الوقت من العام، لكنّها الآن- في يوليو- قد عادت وعاد كلّ شيء إلى ألقه، وعمَّت كلّ شبر من هذه المستنقعات أصوات شتّى من طنين وأزيز وتغريد، تستطيع عبرها أنّ تجزم بأنَّ الملايين من المخلوقات الحيّة تعيش حياتها في نوع من التواصل الذي لا يعكرّه شيء.

لكنّك قد ترى الأشياء أثناء قضائك إجازتك على متن درّاجة نارية بطريقة مختلفة تماماً، ففي السيّارة، أنت دائماً داخل حجرة، ولأنّك تعودّت ركوب السيّارة ربّما لا تدرك أنّ الأشياء التي تراها عبر زجاج النافذة لا تعدو أنّ تكون امتداداً للتلفزيون، فأنت هنا مشاهد سلبي وجميع الأشياء تمرّ أمامك بشكل مملّ في إطار.

لكن في حال الدرّاجة، يختفي الإطار كليّاً، وأنت على تواصلٍ كاملٍ مع ما تراه، لا مجرّد مشاهد له، ومشهد الحضور له هيبته بالطبع، وصوت الإسمنت المسلّح تحت قدميك بخمسة إنشات والدرّاجة منطلقة عليه هو الشيء الوحيد الحقيقي. هو الإسمنت نفسه الذي تمشي عليه، إنّه أمامك ضبابيٌّ جدّاً إلى حدّ ربّما لا تستطيع معه التركيز فيه، ولكنّك تستطيع وضع قدميك عليه في أيّ وقت، وكلّ هذا الشيء، والتجربة برمّتها، لم تبرح مكانها من الوعي المباشر.

نذهب أنا و(كريس) مسافرين إلى (مونتانا) مع بعض الأصدّقاء الذين كانوا يسبقوننا بدرّاجاتهم، أو ربّما توجّهوا أبعد من ذلك. والخطط غامضة بشكل متعمّد، فالقصد منها أنّ نسافر أكثر من أنّ نتوقّف في أيّ مكان. فنحن في عطلة. نفضّل أنّ نسلك الطرق الجانبيَّة، وطرق المقاطعات

الممّهدة هي الأفضل، تليها الطرق العامّة داخل الولايات، والطرق السريعة هي الأسوأ. نريد أنّ نقضي وقتاً جميلاً، لكنّنا نركّز على «الجميل» لا على «الوقت»، وعندما نغيّر بؤرة التركيز، سيتغيّر النهج الذي ينبغي عليك سلوكه. قد يكون التعرّجُ من جانبٍ إلى آخر على طرقٍ جبليّةٍ طويلاً إن قسناه بالثواني، لكنّه بالتأكيد سيكون أمتع على متن درّاجةٍ قد تخرج عن مسارها عند انعطافك، من أنّ تكون محجوزاً في حجرةٍ تتمايل فيها من جانبٍ إلى آخر. وتعدُّ الطرق قليلة الازدحام أمتع وآمن. وأفضل الطرق هي تلك التي تخلو من محطاتِ الوقوف ولوحاتِ الإعلانات، وتلك التي تقترب فيها الأشجار والمروج والبيّارات والحدائق المنزليّة من حواف الطريق، وتلك التي ترى فيها الأطفال وهم يلوّحون لك أثناء مرورك، وتلك التي ترى الناس فيها ينظرون من شرفات منازلهم ليعلموا من القادم، وتلك التي إن توقّفت فيها للسؤال عن اتّجاه ما أو معلومة ما، قد تكون الإجابة أطول ممّا توقّعت لا أقصر، وتلك التي يسألك الناس فيها من أين أتيت، ومنذ متى وأنت تقود درّاجتك مترحّلاً.

استغرقت وزوجتي وثلة من الأصدّقاء بعض السنوات قبل أنّ ندرك هذه الحقائق عن الطرق. كنّا نرتادُ هذه الطرق بين حينٍ وآخر من قبيل التغييرِ، أو للوصولِ إلى شارعٍ رئيس. وفي كلِّ مرةٍ، كانت المناظرُ الطبيعيّةُ خلّابة، وكنا نتركُ الطريق ونحن مغمورون بمشاعر الارتياح والمتعة. فعلنا ذلك مرَّة تلو الأخرى قبل أنّ ندرك ما كان حريّاً بنا أنّ ندركهُ منذ حين، وهو أنّ هذه الطرق مختلفة تماماً عن الطرق الرئيسة، فوقع الحياة بأكمله، وطبع الناس الذين يعيشون على امتداد هذه الطرق مختلف تماماً، فهم لا يبرحون

منازلهم، ولا يولون بالاً للّباقة، ويعرفون تمام المعرفة ارتباط الأشياء بالزمان والمكان. أمّا أولئك الذين انتقلوا للعيش وذرياتهم الضائعة في المدن منذ سنوات، فقد جرّبوا كلّ شيء إلاّ النسيان. كانت هذه الحقائق اكتشافاً ثميناً.

لطالما تساءلت لماذا تأخّرنا كثيراً في إدراك هذه الحقائق. رأيناها ولكن لم نعها، بل يجدر بي القول إننا كنّا مدرّبين على ألاّ نراها. كنّا نعتقد على الأرجح أنّ الإثارة الحقيقيّة موجودة في المدن الكبيرة، وأنَّ كلّ هذه الأماكن إنّما هي أرض قصيّة مملّة. كان وضعاً محيّراً، وكانت الحقيقة تطرق بابك، وكنت تقول لها: «اذهبي بعيداً، أنا أبحث عن الحقيقة»، وكانت تذهب بعيداً. ياله من شيء محير!

لكن منذ أنّ أدركنا هذه الحقيقة لم يبعدنا أيّ شيء عن هذه الطرق في العطل الأسبوعيّة، وفي الأمسيات، وفي العطل الرسميّة. أصبحنا عشاق الطرق الجانبيَّة، ووجدنا ثمّة أشياء قد نتعلّمها أثناء مسيرنا.

تعلمنا كيفيّة إيجاد الطرق الجيّدة على الخريطة. فعلى سبيل المثال، إن كان الخط متعرجاً، فهذا أمرّ جيّد، فتلك تلال، وإن كانت الطريق هي الطريق الرئيسة الممتدّة بين بلدة ومدينة، فإنّها سيّئة من منظورنا. أفضل الطرق هي التي لا تربط بين مكانين محدّدين، والتي لها طريق بديل قد يوصلك بسرعة. وعليك إن كنت خارجاً من مدينةٍ كبيرةٍ باتّجاهِ الشمالِ الشرقيِ ألاّ تقودَ درّاجتكَ بشكل مستقيم لمدَّة طويلة، وإنّما عليك أنّ تقودها بشكل بطيء شمالاً، ثمّ شرقاً، ثمّ شمالاً مرَّة أخرى، وسرعان ما ستجد نفسك على طريق ثانوي لا يعرفه سوى السكّان المحليّين.

تكمن المهارة في ألاّ تضلَّ طريقك، فربَّما لا تواجه فيه إشارات تقودك

إلى تقاطعات الطرق التي عليك اتخاذها، وذلك لأنّها طريق فرعيّة لا يعرف مداخلها ومخارجها سوى مستخدميها. وفي معظم الأحيان، ما من إشارة تقودك، ولكن إن كانت ثمّة إشارة، فلن تكون سوى لوحة صغيرة مخفيّة بين الأعشاب. وإشارات الطرق في المقاطعات لا تتكرّر إلاّ نادراً، فإنّ فاتتك اللوحة المختبئة بين الأعشاب، فهي مشكّلتك وحدك. وقد تكتشف - إضافة إلى ما سبق - أنّ خرائط الطرق العامّة غير دقيقة في ما يتعلّق بطرق المقاطعات، وقد تأخذك طرق المقاطعات بين الحين والآخر إلى طرق ذات اتّجاهين، ومن ثمّ إلى طرق ذات اتّجاه واحد، وتنتهي بك في مرجٍ، أو تأخذك إلى الحديقة الخلفيّة لأحد المزارعين.

ولهذا نشقّ طريقنا بالاعتماد على تقدير موضعنا، والدلائل التي قد نجدها أثناء مسيرنا. وفي العادة، أحتفظ ببوصلة في جيبي كي أستخدمها في الأيّام الغائمة، التي لا ترينا الشمس فيها الاتّجاهات، ولهذا ثبّت الخريطة على حامل خاصّ على خزّان الوقود لأقوم بحساب الأميال التي قطعناها من آخر تقاطع. وأمورنا ونحن مسلحون بهذه الأدوات مع انعدام وطأة الوصول إلى مكان محدّد على خير ما يرام، وأمريكا بأكملها متاحة لنا.

في نهايات الأسابيع التي توافق عطلة عيد العمّال، أو اليوم التذكاري، نقطع أميالاً على هذه الطرق دون أنّ نرى مركبة أخرى، ومن ثمّ نمرّ بطريق عام تصبُّح فيه السيّارات خلف بعضها إلى ما لا نهاية. الوجوه داخل السيّارة عابسة، والأطفال يبكون في مقاعدهم. كم تمنيّت لو أنّ ثمّة طريقة لأخبرهم شيئاً، ولكنّهم متجهّمون، وعلى عجلة من أمرهم.

رأيت هذه المستنقعات ما يزيد على الألف مرّة، لكنّها تبدو مختلفة في

كلّ مرّة. ومن الخطأ أنّ ننعتها بالرقّة، وتستطيع -إن شئتَ- أنّ تصفها بأنّها قاسية وعديمة الإحساس. فكلّها من هذا النوع، بيد أنّ حقيقتها قد تسحق مفاهيم منتصف الطريق غير المكتملة. تستطيع في ذلك الاتّجاه أنّ ترى سرباً كبيراً من طيور الشحرور ذات الأجنحة الحمر تطير من أعشاشها بين نبات البوص، وقد أفزعها صوت دراجتنا. أضرب ركبة (كريس) مرّة أخرى... لكنّي أتذكّر أنّه قد رأى مثلها من قبل.

يهتف: «ماذا؟»

- «لا شيء».

- «دعك من هذا، ماذا تريد؟»

أصرخ قائلاً: «كنت أريد التأكد إن كنتَ ما تزال متيقظاً». ولم نتحدّث بعدها.

لا تستطيع أنّ تجري حديثاً شيقاً على متن درّاجة ناريةٍ مندفعةٍ، إلاّ إن كنت مغرماً بالصراخ. ويجدر بك أنّ تقضي وقتك في التعرف إلى الأشياء متأمّلاً فيها، في المناظر والأصوات، وفي طبيعة الجوّ وتقلبّاته، وفي الأشياء التي تعلق في الذاكرة، وفي الدرّاجة، وفي الريف الذي تمرّ به. تستطيع ذلك بتروٍ ودون استعجال من أحد، فأمامك كلّ الوقت المتاح للقيام بهذا العمل.

ما أفكّر فيه حاليّاً هو نوع من التشوتوكوا- وأعتقد أنّه هو الاسم الوحيد الذي يناسب حالنا - كخيم التشوتوكوا الاستعراضيّة التي كانت تجوب أمريكا، أمريكا هذه، أمريكا التي نعيشها الآن. والتشوتوكوا سلسلة قديمة من الأحاديث الشعبيّة التي كانت تهدف إلى تهذيب السامعين وتسليتهم،

والارتقاء بعقولهم، ومدّهم بالثقافة والتنوير، لكنّها تضمحّل مع الانتشار الواسع للمذياع، والأفلام، والتلفزيون. ويبدو لي أنّ التغيير بمجمله ليس تحسناً محبّذاً. وقد يعزى إلى هذه التغيّرات الانتشارُ الواسع والسريع للشعور بالوعي الوطني، لكنّه لا يمتاز بالعمق. لم تستطع القنوات القديمة احتواءه، لكنّه في سعيه للبحث عن قنوات جديدة، سبب خراباً ودماراً متزايدين على أطرافه. وأودُّ في هذا النمط الجديد من التشوتوكوا ألاّ أقطع القنوات الجديدة للوعي، لكن سأحاول أنّ أحفر عميقاً في السبل القديمة التي أصبحت مغمورة بأفكار مهترئة وأنمطة رتيبة متكرّرة. ويعدُّ السؤال «ما الجديد»؟ سؤالاً ممتعاً وأزلياً ومتزايداً على الدوام، لكنّه إذا ما انتهجناه لذاته، قد يقودنا إلى عرض لا ينتهي من التوافه والموضة، وركامٍ للأيّام القادمة. وأرغب عوضاً عن هذا أنّ أسأل: «ما الأفضل»؟ وهو سؤال يقطع عميقاً لا عريضاً، وقد تذيب إجاباته الطمي عن الجوهر لتذهب مع الجدول. هناك بلا شكّ فترات من التاريخ الإنساني كانت خلالها قنوات الفكر عميقة جدّاً، دون أنّ يحدث تغيّر يذكر، ولم يجدّ جديد، وكان «الأفضل» قضيّة عقديّة، لكن هذه الوضع ليس ما أتحدّث عنه. يبدو أنّ تيار الوعي العام لدينا قد طُمِست حوافه، فأضاع اتّجاهه المركزي وهدفه، وغمر الأراضي المنخفضة عازلاً الأراضي المرتفعة دون سببٍ محدّدٍ سوى التحقيق المدمّر لدوافعه الداخليّة. وما نحتاجه الآن هو التعمّق في بعض القنوات.

يتصدَّر السائقان (جون سذرلاند) وزوجته (سيلفيا) اللذان توقّفا في استراحةٍ على جانب الطريق. فهذا وقت الاسترخاء. تخلع (سيلفيا) وأنا أوقف درّاجتي إلى جانبهم، خوذتها وتفكّ شعر رأسها، بينما كان (جون)

يضع درّاجته الناريّة من طراز BMW على حاملها. لا نقول شيئاً. لقد خرجنا في رحلات كثيرة معاً، ونعلم من نظرة واحدة كيف نشعر. أمّا الآن فنحن صامتون ننظر حولنا، ومقاعد التنزّه مهجورة في هذه الساعة من الصباح، والمكان بأكمله لنا. يذهب (جون) عبر الأعشاب إلى مضخّة حديد، ويبدأ بضخ الماء ليشرب، ويمشي (كريس) عبر الأشجار خلف هضبة عشبيّة إلى جدول صغير. وأنا واقف هناك أنظر حولي.

تجلس (سيلفيا) بعد هنيهة على كرسي الحديقة الخشبي، وتمدّ ساقيها رافعة إحداها ببطء في كلّ مرَّة دون أنّ تنظر إلى الأعلى. فترات الصمت الطويل تعني الكآبة لها، وكنت أوافقها في هذا. تنظر إلى الأعلى ومن ثمّ إلى الأسفل.

تقول: «الناس القادمون في سيّاراتهم من الجهة الأخرى، كان الأوّل حزيناً، وبدا الثاني مثله تماماً، ومن ثمّ الثالث والرابع، كانوا جميعاً متشابهين».

- «كانوا ذاهبين إلى عملهم ليس إلاّ».

تعي هذا الأمر تماماً. لكن لم يكن هناك شيءٌ غير اعتيادي.

أكرّر القول: «تعرفين، **العمل**. الاثنين صباحاً. معظمهم نصف نائمين. من يذهب إلى العمل والابتسامة تعلو وجهه؟»

تقول: «إنّهم يبدون ضائعين جدّاً، كما لو كانوا موتى. كموكب جنائزي». ثمّ وضعت كلتا قدميها على الأرض ولم ترفعهما.

أدرك تماماً ما تريد قوله. لكنّه غير مقبول منطقيّاً. فنحن نعمل لنعيش، وهذا هو ما كانوا يفعلونه. أقول: «كنت أراقب المستنقعات».

ترفع رأسها بعد هينهة من الزمن وتقول: «ماذا رأيت؟»

«كان هناك سرب كامل من طيور الشحرور ذات الأجنحة الحمراء، طارت بشكل مفاجئ حينما مررنا بها».

«جميل».

«كنت سعيداً برؤيتها مرّة أخرى، فهي ما يربط الأشياء ببعضها، كالأفكار وما شابه. تعلمين ما أتحدّث عنه، أليس كذلك؟»

تفكّرت هينهة من الزمن، ومن ثمّ تبتسم، والأشجار خلفها خضراء داكنة. كانت تفهم لغة خاصّة ليست لها علاقة بما كنّا نتحدّث عنه. ابنة ما.

تقول: «نعم، كانت الطيور جميلة».

أقول: «راقبيها».

تقول: «حسناً».

يظهر (جون) ويفحص عصا تغيير السرعة على الدرّاجة. يعدّل بعض الحبال، ويفتح حقيبة الدرّاجة، ويأخذ بالبحث فيها. يضع بعض الأشياء على الأرض ويقول: «إنّ احتجتم إلى حبلٍ فلا تتردّدوا في طلبه. يا إلهي أظنّ أنّ لديّ خمسة أضعاف ما أحتاج من الحبال».

أقول له: «لم أحتج إلى حبل حتّى الآن».

يقول وهو ما يزال يبحث في حقيبته: «كبريت، واقي أشعّة الشمس، أمشاط، أربطة أحذية.... أربطة أحذية؟ لِـمَ قد نحتاج أربطة أحذيّة؟»

تقول (سيلفيا): «دعنا من الجدال الآن». وينظر كلاهما إلى الآخر

نظرة تخلو من الودِّ، ومن ثمّ ينظرانِ نحوي.

أقول لهما برصانة: «قد تنقطع أربطة الأحذية في أيّ وقت». وضحكا من دون أنّ ينظرا إلى بعضهما.

لم ينقض وقت طويل قبل أنّ يظهر (كريس)، وقد حان وقت المغادرة. وبينما كان يستعدّ للركوب على الدرّاجة، ينطلقان وتلوِّح لنا (سيلفيا) بيدها وداعا. ننطلق على الطريق السريع مرَّة أخرى، وأراهما يبتعدان أمامنا.

خطرت لي التشوتوكوا التي أحملها في هذه الرحلة عن طريق هذين الشخصين قبل عدَّة شهور، وقد تكون- وأنا غير متأكّد ممّا أقول- مرتبطة بالتنافر الحالي بينهما.

وأظنّ أنّ التنافرَ شائعٌ جدّاً في أيّ زواج، بيد أنَّه في حالتهما أكثر مأساويّة. هذا من وجهة نظري بالطبع.

لم يكن ما بينهما صدام شخصيّات، وإنّما هو شيء مختلف لا يمكن أنّ يلام أيّ منهما عليه. لا يملكان حلاً له، ولستُ متأكّداً أنّ لديّ حلاً له أيضاً، وإنّما مجرّد أفكار.

بدأت الأفكار بما يمكن وصفه بأنّه اختلاف بسيط في الرأي بيني وبين (جون) في قضيّة ليست ذات أهميّة تذكّر، وهي إلى أيّ مدى حريٌّ بمالك الدرّاجة أنّ يصونها ويديمها بنفسه. وأظنّ شخصيّاً أنَّه من الطبيعي على من يمتلك درّاجة ناريّة أنّ يستفيد من صندوق العدّة الصغير، ومن الكتيبات التعليميّة المرافقة لكلّ درّاجة لجعل درّاجته مجهزّة ومعدّلة.

لم يعجب كلامي (جون) الذي كان يحبّذ أنّ نعهد لميكانيكيٍ بارعٍ توليّ هذه الأشياء على أكمل وجه. لم تكن وجهتا نظرينا غير اعتياديتّين، ولم يكن

هذا الاختلاف البسيط ليتضخّم لو لم نقضِ معظم وقتنا في قيادة درّاجتينا معاً، ولو لم نقضِ وقتاً طويلاً في الكثير من الاستراحات الصغيرة على الطرقات نشرب البيرة، ونتحدّث عمّا يجول في خاطرنا. ونقصد بما يجول في خاطرنا ما كنّا نفكّر فيه في النصف ساعة الأخيرة أو الأربعين دقيقة المنصرمة منذ آخر مرَّة تحدّثنا فيها. ولمّا كنّا نتحدّث عن الطرق أو الطقس أو الناس أو الذكريات الجميلة أو عمّا هو موجود في الصحف، كان الحوار يجري على خير ما يرام، ولكن ما أن نتطرّق إلى أداء الآلّة بأيّ شكل كان الحوار يفتقد السلاسة، ولا يعود الحديث بناءً. يسود صمتٌ أو قطعٌ يمنع استمراريّة الحديث، كأن هناك صديقين قديمين أحدهما كاثوليكي، والآخر بروتستني، يتناولان البيرة ويتمتّعان بالحياة، ويخطر في لحظة ما موضوع تنظيم النسل، وحينها يتوقّف كلّ شيء.

تدرك حين تكتشف أمراً كهذا بالطبع كما لو أنّك اكتشفت سنّاً فيه حشوة سقطت، لن تتركها أبداً بعد اكتشافها، وسيواصل لسانك اللعب بها دوماً. ستشعر أنّك مضطر لاستكشافها، والعمل حولها، والضغط عليها، والتفكير بها، لا لمتعة قد تستجلبها، وإنّما لأنّها قد أصبحت هوساً في عقلك لا تستطيع التخلّص منه. وكلّما استقصيت وتحدّثت عن موضوع صيانة الدرّاجة، ازداد غيظاً ونفوراً، الأمر الذي يدفعني للإفاضة في الحديث عن الموضوع، ولا أتعمّد هنا أنّ أغيظه، ولكن لأنَّ الإغاظة مؤشّر على شيء أعمق، تحت السطح لا يمكن ملاحظته بسهولة.

حين تتحدّث عن تنظيم النسل، لا يبدو الموضوع مجرّد حديث عن زيادة عدد الأطفال أو التقليل منهم، وهذا هو ما يبدو ظاهرياً، لكن لمّا تسبر

غور الموضوع، تدرك أنّها قضيّة خلاف في المعتقد؛ في الإيمان في التخطيط الاجتماعي التطبيقي في مواجهة الإيمان بسلطة الله كما هي واردة في تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة. وتستطيع أنّ تثبت جدوى تنظيم الأسرة حتّى تملَّ الاستماع إلى نفسك دون أنّ تغيّر شيئاً، وذلك لأنَّ نظيرك لا يسلّم بجدوى فرضيّتك أنّ ما هو عمليٌ اجتماعياً هو بالضرورة جيّد. فالخيريَّة بالنسبة إليه ذات مصادر مختلفة يعتقد بتفوّقها على جدوى تطبيقها الاجتماعي.

وهذا هو الحال مع (جون). أستطيع أنّ أتحدّث في جدوى صيانة الدرّاجة الناريّة وقيمتها حتّى ينبحَّ صوتي دون أنّ أحرّك فيه شعرة. وبمجرّد التطرّق إلى هذا الحديث، يرمقني بعين ملؤها الكآبة ويغيّر الموضوع أو ينظر جانباً. فهو لا يحبّ الحديث عنه.

وتميل (سيلفيا) نحوه في هذه القضيّة، ويمكن القول إنّها أكثر تشدّداً في هذا الصدد. وقد تصف القضيّة بصفات مختلفة عند الحديث عنها، فلمّا تكون ذات مزاج رصين تصفها بقولها: «هي قضيّة مختلفة تماماً»، و«كالقمامة» لّما يكون مزاجها غير ذلك. فهم لا يريدون أنّ يفهموا الأمر، ولا أنّ يسمعوا شيئاً عنه. وكلّما حاولت سبر غور ما يجعلني أستمتع بالعمل الميكانيكي وما يجعلهم يكرهونه كان الأمر يزداد صعوبةً. ويبدو أنّ السبب الرئيس لهذا الخلاف البسيط في الرأي ذو جذور عميقة جدّاً.

لا يمكن أنّ نعزو رفضهم إلى عدم قدرتهم على فعله، فكلاهما عنده عقل نافذ، ويستطيع من يريد منهما أنّ يتعلَّم كيفيّة إصلاح الدرّاجة في غضون ساعة ونصف الساعة إن كرس عقله وجهده لهذا الأمر. وإذا ما فعلا ذلك فسيشعران بجدوى هذا الأمر من الناحية الماليّة، ومن ناحية التوتّر الذي

يصيبهما إن تعطلّت درّاجتهما، وما قد ينجم عنه من تأخير. وهما يدركان هذه الحقيقة تماماً، أو ربّما لا يدركانها، لا أعلم. لم أواجههما بهذه القضيّة مطلقاً. من الأفضل أنّ نواصل رحلتنا.

لكنّني ما أزال أذكر أنّني في أحد الأيّام الحارّة كدت أفقد أعصابي لمّا كنت خارج إحدى البارات في مدينة (سافج) في ولاية (منيسوتا). كنّا قد قضينا في البار ما يقارب الساعة حينما خرجنا، كانت الدارجات ساخنة جدّاً إلى حدّ لا يمكن ركوبها. شغلت درّاجتي وكنت جاهزاً للانطلاق، ولمّا داس (جون) على دوّاسة التشغيل، انتشرت رائحة البنزين في كلّ مكان، كما لو كنّا بجانب مصفاة، وأخبرته أنّ محركه قد غمره البنزين معتقداً أنّ كلامي سيقنعه.

قال: «نعم، أشتم الرائحة أيضاً»، وواصل ضخ البنزين، والقفز على الدوّاسة المرّة تلو الأخرى. ولا أعلم ماذا كان بوسعي قوله. وفي نهاية المطاف شعر بالإجهاد وتصبّب وجهه عرقاً، ولم يعدّ قادراً على ضخ المزيد، ولهذا اقترحت أنّ ننزع القوابس ونتركها لتجف، وأنَّ نترك الأسطوانات تتعرض للهواء بينما ندخل لنتناول زجاجة بيرة أخرى.

لا يا إلهي، لا يريد أنّ يعفل كلْ هذه الأشياء.

- «عن أيّ أشياء تتحدّث؟»

- «إخراج المعدّات، وجميع هذه الأشياء. ليس هناك من سبب منطقي لكي لا تعمل، إنّها جديدة تماماً، وأنا أتبع التعليمات بحذافيرها. انظر، هي في حالةِ اختناق كامل كما يقولون».

- «*اختناق كامل*».

- «هذا ما تقوله التعليمات».

- هذا ما يحدث عندما تكون الآلّة باردة».

- «حسناً، قضينا هناك نصف ساعة على الأقل».

- أزعجني كلامه، وقلت له: «إنّه يوم حار، يا (جون)، وتأخذ الآلّة وقتاً أطول لتبرد حتّى في يوم متجمد».

- حكَّ رأسه، وقال: «إذاً، لماذا لا يقولون هذا في التعليمات؟». فتح الخانق واشتغلت الدرّاجة بعد الرفسة الثانيّة، فقال سعيداً: «أعتقد أنّ هذا نهاية الأمر».

تكرّرت الحادثة معنا في اليوم التالي مباشرة في المكان نفسه تقريباً، وقررّت في هذه المرّة ألاّ أتحدّث، ولمّا طلبت زوجتي منّي مساعدته، هززت رأسي رافضاً، وأخبرتها بأنّه يكره مساعدة الآخرين له ما لم تكن هناك حاجة قصوى، ولهذا ذهبنا وجلسنا في الظلّ وانتظرنا.

لاحظت أنَّه كان لطيفاً جدّاً مع (سليفيا) لمّا كان يدوس على دوّاسة التشغيل، الأمر الذي يعني أنَّه كان متوتّراً، وكانت تنظر إليه بنظرة ملؤها الدهشة. لو سألني سؤالاً واحداً فقط، لتحرّكت من فوري لتشخيص المشكلة، لكنّه لم يفعل، لا بدّ أنّها استغرقت خمس عشرة دقيقة قبل أنّ تشتغل.

حينما تناولنا المشروب على بحيرة مينيتونكا (Minnetonka) لاحقّاً، كان الجميع يتبادل أطراف الحديث باستثنائه. وأستطيع القول إنّه داخليّاً كان مرتبطاً بوثاق. وبعد كلّ ما حدث، وفي محاولة منه لقطع سكوته وإظهار عدم يأسه قال: «أنت تعلم ... عندما يصعب تشغيلها كما حدث اليوم، فإنّها تحوّلني داخليّاً إلى وحش. أصبح مذعوراً حينها». وبدا هذا الكلام

محاولة منه لفكّ عقدته وأضاف: «كان عندهم هذه الدرّاجة الوحيدة، هذه الليمونة ولم يعرفوا ما يجب أنّ يفعلوا بها، أعليهم أنّ يعيدوها إلى المصنع! أم أنّ يبيعوها كخردة؟ أم ...؟ وفي آخر لحظة رأوني قادماً، وكان في محفظتي ألف وثمانمائة دولار. عندها أدركوا أنّ مشاكلهم انتهت».

وكرّرت بصوت رخيم دعواي بوجوب الاعتناء بالمركبة. وحاول جاهداً الاستماع، وهو يفعل ذلك في بعض الأحيان. وقوطع كلامنا لسبب ما، وانطلقنا بعدها إلى البار لتناول زجاجة أخرى من البيرة. وأغلق الموضوع نهائيّاً.

لم يكن عنيداً، ولا ضيّق الأفق، ولا كسولاً ولا غبيّاً، لم يكن هناك تفسيرٌ سهلٌ لحالته. ولهذا تركناها معلّقة لتتكشّف مع الأحداث، فبقيت لغزاً كان يجدر بنا التخلّي عن التفكير به، لأنّه ليس هناك من داعٍ لمواصلة البحث عن جواب غير موجود.

خطر في بالي أنّي قد أكون الشخص الغريب في هذا الموضوع، لكنّها فكرة مستبعدّة أيضاً فمعظم سائقي الدرّاجات المتجولين يعرفون كيفيّة ضبط درّاجاتهم. وربّما لا يجرؤ مالكو السيّارات على العبث بالمحرّك، فكل مدينة مهما صغر حجمها فيها مرآب فيه رافعات باهظة الثمن ومعدّات خاصّة وأدوات فحص ربّما لا يملكها مالك السيّارة الاعتيادي. ومحرك السيّارة أكثر تعقيداً من محرّك إلى درّاجة وأصعب انقياداً منه. وهذا أمرّ منطقي تماماً. أمّا بالنسبة إلى درّاجة (جون) بِ إم دبليو آر 60 (BMW R60)، فلا أعتقد أنّ هناك ميكانيكيّاً من هنا حتّى (سالت لاك سيتي) يستطيع أنّ يتعامل معها. فلو احترقت النقاط الكهربائيّة أو القوابس فإنّ أمره محسوم. أعلم

أنَّه ليس لديه زوج احتياطي من النقاط الكهربائيّة معه، فهو لا يعلم ما هي في الأصل. ولا أعلم إن تعطلّت معه الدرّاجة في غربي (داكوتا الجنوبيّة) أو في (مونتانا) ماذا كان سيفعل! قد يبيعها إلى الهنود على الأرجح، لكن الآن أعلم تماماً ما يفعل، فهو يحاول جاهداً تجنّب التفكير في الموضوع، فدرّاجة BMW مشهورة بقلّة أعطالها الميكانيكيّة على الطرق، وهذا ما يعتمد عليه الآن.

لعلّي اعتقدت في بداية الأمر أنّ هذا هو موقفهما من الدرّاجات الناريّة فقط، لكنّي اكتشفت أنّ موقفهما امتدّ إلى أشياء أخرى. ففي إحدى المرّات التي كنت أنتظرهما لينتهيا من تجهيز أمورهما، كنت في مطبخهما ولاحظت أنّ الصنبور يقطر ماءً، وتذكّرت أنَّه كان يقطر آخر مرَّة زرتهما فيها أيضاً. وفي الحقيقة، كان يقطر منذ مدَّة طويلة جدّاً. أبديت ملاحظاتي عن الموضوع، وقال (جون) إنّه حاول إصلاحه باستبدال القطعة البلاستيكيّة لكنّه لم يفلح. هذا كلّ ما قاله. وأراد بكلامه هذا أنّ يجعلنا ندرك أنَّه فقد كلّ حيلة ممكنة لإصلاحها. فإنّ حاولت أنّ تصلح صنوبر الماء، ولم تفلح، فقدرك أنّ تعيش مع صنوبر يقطر طوال عمرك.

جعلني الأمر أسال نفسي هل شعروا بالإزعاج يوماً من هذا التقاطر المتواصل المستمّر لأسابيع؟ لكن لم يبدُ عليهما أيّ إنزعاج أو قلق تجاه الأمر. ولهذا استنتجت أنّهما لا يزعجانِ نفسيهما بأشياء كصنابير الماء التي تقطر. فبعض الناس لا تنزعج من هذه الأمور.

لكن ما الذي حدث ليغيّر هذا الاستنتاج، لا أذكر! قد يكون حدس ما، أو فكرة ما في يوم محدّد، أو تغيير ملحوظ في مزاج (سيلفيا) عندما

و(سيلفيا) المحيّر، فأيّ شيء له علاقة بالصمامات، والأذرع ومفاتيح الشد هو جزء من هذا العالم المفرغ من الإنسانيّة، ولا يحبّذان التفكير فيه، فهما لا يرغبان ولوجه.

إن كان هذا حالهما، فليسا وحيدين. فما من شكّ أنّهما كانا يتبعان مشاعرهما الطبيعيّة في هذا ولم يقلّدا أحداً. وهناك عدد كبير من الناس يتبّعون مشاعرهم الطبيعيّة دون أنّ يحاولوا تقليد شخصٍ ما. وقد تتشابه مشاعر العديد من الناس في هذا. ولهذا إن نظرت إليهم بشكل جمعي، كما يفعل الصحافيّون عادة، فربّما تولّد لديك انطباع خاطئ بنشوء حركة جمعيّة معادية للتكنولوجيا لم تكن موجودة سابقاً، وقيام يسار سياسي معادٍ للتكنولوجيا بالكامل ينادي: «أوقفوا التكنولوجيا، انقلوها إلى مكان آخر، غير هذا المكان». وما تزال هذه الحركات مكبوحة بغلاف رقيق من المنطق الذي يقول إنّه لولا المصانع، فليس هناك وظائف ولا معايير للحياة. بيد أنّ هناك قوىً بشريّة أقوى من المنطق، ولطالما تواجدت مثل هذه القوى، التي إذا اكتسبت القوّة الكافية في كرهها للتكنولوجيا، فإنّ تلك الشبكة ستتنكسر.

ابتُكرت عبارات رنانة وصور جاهزة مثل «بيتنيك» و«هيبي» لوصف معاداة التكنولوجيا، والناس الذين يقفون بعكس النظام. وممّا لا شكّ فيه أنّ مثل هذه العبارات والصور ستستمر. لكن لا يجوز تحويل الأفراد إلى جماعات من الناس عبر اختراع مصطلح جمعي، فـ(جون) و(سيلفيا) لا يمثلان جماعة، ولا معظم الناس الذين يحذون حذوهم، فهم كما يبدو يثورون ضدَّ الشخص الجمعي، وهم يشعرون أنّ للتكنولوجيا دوراً كبيراً

في القوى التي تحاول تحويلهم إلى أناس جمعيّين، وهم لا يحبّونها. وحالتهما الآن لا تتعدّى كونها مقاومة سلبيّة متمثّلة في رحلات إلى المناطق الريفية -عندما يمكن القيام بها- وأشياء أخرى، ربما لا تكون سلبيّة على الدوام.

أختلف معهما في صيانة الدرّاجة الناريّة، ولكن ليس لعدم تعاطفي مع شعورهما السلبي تجاه التكنولوجيا، وإنّما لأنني أظنّ أنّ ابتعادهما عن التكنولوجيا وكرههما لها هو هزيمة للذات. فالقدرة الإلهيّة تتجلّى في الدوائر الإلكترونيّة لكمبيوتر رقمي أو في غيارات درّاجة نارية كما تتجلّى في قمّة جبلٍ أو في أوراق زهرة. وإن فكّرت بعكس ذلك، فإنّك تبخس الرب، وفي نهاية المطاف تبخس نفسك. هذا هو ما أريد الحديث عنه في التشوتوكوا.

***

نحن نبتعد عن المستنقعات، بيد أنّ الجوّ ما زال رطباً جدّاً، حتّى لو نظرت بشكل مباشر إلى دائرة الشمس الصفراء، فإنّك قد ترى دخاناً أو ضباباً دخانيّاً في السماء. لكنّنا الآن في الريف الأخضر. بيوت المزرعة نظيفة وبيضاء، وجديدة. ولم يكن هناك دخان أو ضباب دخاني.

2



تتعرَّج الطريق أكثر وأكثر..... فنتوقّف للاستراحة ولتناول الغداء، ونتبادل حديثاً قصيراً، لنواصل رحلتنا الطويلة من جديد. كان إرهاق المساء الأوّل مساوياً لاستثارة أوّل يوم. فكنا نتقدّم بثبات، لا مسرعين ولا مبطئين.

شعرنا بريح جنوبيّة غربيّة، ومالت درّاجاتنا، بنفسها على ما يبدو لمعادلة تأثير الرياح، وشعرنا في النهاية بشيءٍ غريبٍ تجاه الطريق، شعور بعدم الارتياح نحو شيء ما، كما لو كنّا مراقبين أو متبوعين. لكن لم تكن هناك أيّ سيّارة أمامنا أو خلفنا. لم نكن نرى في المرآة سوى (جون) و(سيلفيا).

لم نصل بعد إلى ولايتي (داكوتا)، غير أنّ الحقول الواسعة تشير إلى اقترابنا منهما. بعض الحقول زرقاء بسبب زهور الكتان التي كانت تتمايل كسطح المحيط. وسلاسل التلال أكبر من ذي قبل، والآن هي الطابع المميّز للمكان، باستثناء السماء التي بدت أعرض. بيوت المزارع في مرمى العين

صغيرة جدّاً، إذ لا نكاد نراها. والأرض تمتدُّ أمامنا.

ليس هناك مكان محدّد تنتهي فيه السهول الوسطى وتبدأ فيه السهول الكبرى. وإنّما كان التغيير تدريجيّاً إلى حدٍ يجعلك غير مدرك له، كما لو كنت تبحر من ميناء ساحلي تضربه الأمواج. وقد لاحظت أنّ الأمواج قد اكتسبت حجماً عميقاً، واستدرت لتعود أدراجك لتكتشف أنّك قد ابتعدت كثيراً ولم تعدّ مشاهداً من الأرض. أصبحت الأشجار أقلّ هنا، وأدركتَ فجأة أنّها لم تعدّ من تلك المنطقة، وإنّما جُلِبت إلى هذا المكان، وزُرِعت عند البيوت وبين الحقول على شكل سطور للتخفيف من حدّة الرياح. لكن حيث لم تزرع لم تكن توجد الخمائل أو شتلات الجيل الثاني، وإنّما مجرّد عشب - مع زهور بريّة ومعظمها أعشاب ضارّة أحياناً - عشب. ها نحن في موطن الأعشاب، وفي منطقة السهول (prairie).

لدي شعور أنّنا جميعاً لا ندرك كيف ستكون طبيعة الأيّام الأربعة التي سنقضيها في السهول في شهر (يوليو). تعتمد ذكريات السفر بالسيّارات دائماً على الامتدادات المنبسطة والفراغ الممتد على مرمى بصرك على الرتابة والضجر المفرطين، حيث تقود درّاجتك الساعة تلو الأخرى دون الوصول إلى مكان محدّد، متسائلاً كم قد يطول هذا من دون انعطاف في الطريق، ومن دون تغيّر في الأرض التي كانت تمتدّ نحو الأفق.

كان (جون) قلقاً من أنّ (سيلفيا) لن تكون قادرة على تحمُّل عناء هذه الرحلة، ولهذا خطّط لها أنّ تطير إلى (بيلنغز)، في ولاية (مونتانا)، وتحدّثت أنا و(سيلفيا) معه عن الموضوع وغيّرنا رأيه. قلت إن التعب الجسدي مهمّ جدّاً لّما يكون المزاج سيّئاً. لكنّنا نسارع لاعتبار أيّ شيء غير مريح سبباً في

تعبنا الجسدي. لكن إن كان المزاج جيّداً، فإنّ التعب الجسدي لن يكون ذا معنىً كبيرٍ. وعند التفكير بأمزجة (سيلفيا) ومشاعرها، فإني لا أراها تتذمّر.

إضافة إلى ما سبق، فإنّ الوصول إلى جبال (روكي) بالطائرة سيشكّل رؤية هذه الجبال بطريقة مختلفة كمشهد جميل، ولكن الوصول إليها برّاً بعد أيّام من السفر المتواصل عبر السهول سيشكّل رؤيتها بطريقة مختلفة، كهدف وكأرض موعودة. فلو وصلت أنا و(جون) و(كريس) ولدينا الانطباع بأنّها هدف، ووصلت (سيلفيا) ولديها انطباع بأنّها «جميلة» و«حلوة». فإنّ انعدام التناغم سيزداد بيننا أكثر من ذلك الذي قد نحصل عليه من حرارة ولايتي (داكوتا) ورتابتهما. وعلى أيّة حال، أحبّ الحديث معها، وأفكّر في نفسي أيضاً.

وكنت أظنّ - عندما أنظر في هذه الحقول، وأقول لها «انظري انظري»، وتنظر بالفعل- أنّها قد ترى وتشعر بأشياء عن هذه السهول لم أعدّ أحدث الآخرين عنها. شيء موجود هنا لأنّ كلّ شيء آخر غير موجود، ويمكن ملاحظته لأنّ الأشياء الأخرى غائبة. بدت مكتئبة جدّاً في بعض الأحيان من رتابة حياتها في المدينة ومللها. وظننت أنها في هذا العشب اللامنتهي سترى شيئاً لم تره من قبل عندما تستسلم للملل والرتابة. هو موجود هنا، ولكن لا اسم لديّ له.

أستطيع الآن أنّ أرى شيئاً في الأفق أعتقد أنّ الآخرين لا يستطيعون رؤيته. بعيداً إلى الجنوب الغربي - تستطيع أنّ تراه من قمّة هذه التلّة- أصبح للسماء نهايات مظلمة. العاصفة قادمة. وهذا ما كان على الدوام يقلقني. كنت أبعدها عن ذهني متعمّداً على الدوام، ولكنّني كنت أدرك أنّها مع هذه

الرطوبة والرياح قادمة لا محالة. من السيّء جدّاً أنّ تواجهك العاصفة في اليوم الأوّل، ولكن كما قلت مسبقاً، عندما تكون على درّاجة، فإنّك جزء من مشهد لا مجرّد مشاهد له، والعواصف جزء منه بكلّ تأكيد.

قد تستطيع الالتفاف حولها، لو كان ما تراه عرام سحاب أو خطّ عاصفة مفاجئة متقطّعاً، لكن هذه ليست كذلك. فهذا الامتداد الأسود الطويل الذي لم يسبقه سحاب رقيق ليس سوى جبهة باردة. والجبهات الباردة عنيفة، وعندما تكون من الجنوب الغربي فإنّها أشدّ عنفاً. وفي معظم الأحيان، قد تضم أعاصير بريّة. ومن الأفضل عند قدومها أنّ تختبئ إلى حين مرورها. فهي لا تدوم طويلاً، والهواء البارد الذي يتلوها يجعل القيادة أجمل.

الجبهات الدافئة هي الأكثر سوءاً، فهي تدوم لأيّام. وما أزال أذكر أنّني كنت مع (كريس) في رحلة إلى كندا قبل بضع سنوات وقطعنا مائة وثلاثين ميلاً وواجهنا جبهة دافئة تلقّينا تحذيرات كثيرة عنها دون أنّ نفهمها. كانت تجربتنا رطبة وحزينة.

كنّا نقود درّاجة ذات محرّك بقوّة ستّة أحصنة ونصف حصان محمّلة بالكثير من الأمتعة ونفتقد الكثير من المنطق. لم تكن الدرّاجة قادرة على السير أكثر من خمسة وأربعين ميلاً بالساعة في وجه رياح معتدلة، لم تكن درّاجة تجوّل. ووصلنا بحيرة كبيرة في (نورث وودز) في الليلة الأولى. وخيّمنا مع حلول عواصف مطريّة استمرّت طوال الليل. ونسيت أنّ أحفر خندقاً حول الخيمة، وعند الساعة الثانيّة بعد منتصف الليل، لاحظنا جدول ماء يجري في منتصف الخيمة وأغرق فرشتينا. وفي الصباح التالي كنّا نقطر ماءً

وكآبةً، ولم ننل قسطاً وافراً من النوم. ولكنّي أيقنت أنّنا لو واصلنا ترحالنا، لأوقفنا المطرُ بعد مدّة. لم يكن لدينا الكثير من الحظ. وبحلول الساعة العاشرة صباحاً، أصبحت السماء مظلمة جدّاً، وكانت جميع السيّارات قد أشعلت أضوأها الكاشفة، ومن ثمّ انهمر المطر.

كنت أرتدي المعطف الواقي من المطر الذي استخدمته كخيمة في الليلة السابقة. وفي هذه اللحظة، انفتح كالشراع وأبطأ من سرعتنا إلى خمسة وثلاثين ميلاً في الساعة. أصبح الماء على الطريق بارتفاع إنشين. وازدادت العواصف الرعديّة حولنا. وما أزال أذكر وجه امرأة كانت تنظر إلينا من داخل سيّارتها مندهشة ومستغربة من وجودنا على متن درّاجة نارية في مثل هذه الأحوال. أنا متأكّد أنني لم أكن لأجد لسؤالها جواباً. انخفضت سرعة الدرّاجة إلى خمسة وعشرين ميلاً، ومن ثمّ عشرين، ومن ثمّ أخذت تطفأ، وتتقطع، وتندفع فجأة وترشح زيتا أيضاً، وكانت سرعتنا لا تتجاوز خمسة أو ستّة أميال، وجدنا محطّة وقود قديمة جدّاً بجانب أرض قطعت أشجارها فتوجهنا إليها وتوقّفنا.

في ذلك الوقت لم أبذل جهداً في تعلّم الكثير عن صيانة الدرّاجة الناريّة كما هو حال (جون) الآن. أتذكّر أنّني كنت أرفع المعطف فوق رأسي لأبعد المطر عن خزّان البنزين، وتحكمّت بالدرّاجة بوساطة قدمي. بدا البنزين ينسكب في الداخل، وتفقّدت القوابس، والنقاط الكهربائيّة، وتفحّصت خلّاط الغاز، ودست دوّاسة التشغيل حتّى أُنهكت.

دخلنا محطّة الوقود التي كانت مزيجاً من مطعم وقسم ملحق لتناول البيرة، وتناولنا وجبة من شريحة لحم مطهوة إلى درجة الاحتراق. ومن ثمّ

خرجت وحاولت تشغيل الدرّاجة مرّة أخرى. بدأ (كريس) يسأل أسئلة بدأت تغضبني، لأنّه لم يدرك كم كان الوضع حرجاً. واستسلمت، واختفى غضبي على (كريس) تماماً. وشرحت له جاهداً أنّ الأمر قد انتهى. ولن نستطيع أنّ نمضي قدماً في رحلتنا على الدرّاجة بعد اليوم. اقترح (كريس) أن نفعل بعض الأشياء، كتفحّص البنزين، وهو ما فعلته بالطبع، وأنَّ نجد ميكانيكيّاً، لكن لم يكن هناك أيّ ميكانيكي، وإنّما أشجار صنوبر مقطوعة وأجمة ومطر.

جلست معه على العشب على كتف الطريق شاعرين بالهزيمة، ممعناً النظر في الأشجار وفي الخمائل. أجبت عن أسئلة (كريس) جميعها، وقد تناقصت مع الوقت. ومن ثمّ أدرك (كريس) أخيراً أنّ رحلتنا على الدرّاجة قد انتهت بالفعل وبدأ بالبكاء. كان عمره ثماني سنوات حينها على ما أعتقد. ورجعنا إلى بلدتنا عبر سيّارات متّجهة نحوها أو عبرها، واستأجرنا مقطورة وربطناها إلى سيّارتنا ورجعنا وأخذنا دراجتنا، وقطرناها إلى بلدتنا، وبدأنا الرحلة من جديد باستخدام السيّارة، بيد أنّ الأمر كان مختلفاً تماماً، ولم نستمتع كثيراً.

في إحدى الأمسيات بعد مضي أسبوعين على العطلة، حرّكت الخلّاط من مكانه لأحاول معرفة سبب المشكلة، لكنّني لم أجد خطأً ما، ولما أردت إزالة الشحم لأعيد الخلّاط إلى مكانه، أدرت مفتاح خزّان البنزين للحصول على بعض البنزين، فلم ينزل شيء. كان خزّان الوقود فارغاً، لم أصدّق عيني، ولا أصدّق الأمر حتّى هذه اللحظة.

وبّخت نفسي عشرات المرّات لهذه الفعلة الغبيّة، ولا أظنّ أنّني سأنسى هذه الفعلة. أدركت حينها أنّ ما رأيته يتدفق هو البنزين في الخزّان

الاحتياطي، الذي لم أشغّله أبداً. لم أتفحّصه بشكل جيّد لأنّني كنت أظنّ أنّ المطر هو الذي سبب عطلاً في المحرّك. لم أدرك حينها كم كانت الاستنتاجات السريعة غبيّة. أمّا الآن فأنا أقود درّاجة بقوّة ثمانية وعشرين حصاناً، وآخذ عمليّة صيانة الدرّاجة على محمّل الجد.

يتجاوزني (جون) فجأة، ويشير إليّ بكفّ مقلوبة أنّ أتوقّف. نقلل من سرعتنا، ونبحث عن مكان لنتوقّف فيه على كتف الطريق المفروشة بالحصباء. حافة الإسمنت حادّة جدّاً، والحصى غير متماسك. ولم تعجبني محاولته على الإطلاق.

يسأله (كريس) قائلاً: «لماذا توقّفنا؟»

يقول (جون): «أعتقد أنّنا قد اجتزنا نقطة انعطافنا».

أنظر إلى الخلف، لكنّني لا أرى شيئاً فأقول: «لا أرى أيّ لافتة».

يهزّ (جون) رأسه: «هي كبيرة كباب الحظيرة».

- «حقّاً».

فيهزّ (جون) و(سيلفيا) رأسيهما.

ينحني قليلاً وينظر في خريطتي ويشير إلى حيث المنعطف، ومن ثمّ إلى طريق سريعة مرتفعة خلفها، ويقول: «لقد اجتزنا هذا الطريق السريع». أدرك أنّه محق، فأشعر بالإحراج. وأسأله إن كان يجب علينا أنّ نرجع أو أنّ نمضي قدماً.

يفكّر قليلاً ويقول: «أعتقد لا يوجد هناك سبب يحتّم علينا العودة. إذاً دعونا نواصل المسير، وسنصل مبتغانا عاجلاً أم آجلاً».

أبدأ بالسير خلفهما بعد الحادثة، وأفكّر لماذا علينا أن نفعل هذا! لم ألحظ

الطريق السريع، ونسيت أنّ أخبرهم عن العاصفة. بدأت تصير الأمور مقلقة قليلاً.

تكبر الغيوم الآن، لكنّها لم تكن تتحرّك بالسرعة التي كنت أعتقدها. وهذا أمرٌ سيّء. فلمّا تأتي بسرعة تغادر بسرعة، لكن عندما تأتي بطيئة، قد نعلق فيها لمدّة طويلة.

أنزع القفّاز عن يدي بأسناني، وأمدّ يدي وأتحسّس غطاء المحرّك المصنوع من الألمنيوم. الحرارة مقبولة، دافئة إلى حدٍ لا يمكن معه إبقاء يدي عليه، لكن لم تكن ساخنة جدّاً لتحرقني. الأمور على خير ما يرام.

قد تتسبّب الحرارة المرتفعة في المحرّك الذي يبرّده الهواء بتعطيله بالدرّاجة. وعانت هذه الدرّاجة من واحدة منها.... في الحقيقة أتفحّص الدرّاجة من وقت إلى آخر كما أتفحّص المريض الذي يعاني من نوبة قلبيّة، مع أنّ الحالة قد عولجت تماماً.

وفي حالة العُطل، تتمدّد المكابس من الحرارة المفرطة، فتصبح أكبر من جدران الأسطوانات، فتلتصق بها، في بعض الأحيان. قد تنصهر عليها وتقفل المحرّك والعجل الخلفي، فتتحوّل الدرّاجة إلى أداة تزحلق. في أوّل مرّة حدث فيها العُطل، ارتمى رأسي إلى الأمام فوق العجل الأمامي وأصبح الراكب خلفي فوقي تقريباً. تحررّت الدرّاجة من العُطل على سرعة ثلاثين، وبدأت بالسير كما يجب، لكنّي توقّفت على جانب الطريق لأرى. وجل ما قاله الراكب معي: «لم فعلت هذا؟»

رفعت كتفي، وكنت محتاراً مثله تماماً، وتوقّفت في مكاني محدّقاً النظر، بينما كانت السيّارات تمرّ بنا مسرعة. كان المحرّك ساخناً جدّاً. وكان الهواء

المحيط به متلألئاً، وكنّا نشعر بالحرارة تتوهّج. ولمّا لمسته بإصبعي المبلول، صدر صوت تبخرّ السائل كما لو كان مكوى حارّاً جدّاً. قفلنا عائدين ببطء إلى حيث ابتدأنا بصوت جديد، صوت الصفع الذي كان يعني أنّ المكابس لم تعدّ ملائمة، وأنَّ هناك حاجة لإجرّاء إصلاح شامل.

أخذت الآلّة إلى دكان تصليح لأنني كنت أعتقد أنّها لم تكن ضروريّة جدّاً لإصلاحها بنفسي، وأجد نفسي مضطراً لتعلّم جميع التفاصيل المعقّدة، وربّما ترتيب الأجزاء والأدوات الخاصّة، ومعدّات خاصّة قد تستهلك وقتي، في حين أنّ هناك شخصاً آخراً قادرٌ على أداء العمل في وقت أقل- متخذاً موقف (جون).

بدا المحلّ مختلفاً تماماً عن باقي المحلّات التي رأيتها من قبل. فقد أصبح فنيّو تصليح المركبات الذين كانوا يبدون في الماضي كالمحاربين القدامى، كالأطفال. كان المذياع يعمل بأقصى طاقته، وكانوا يتصرّفون ويتحدّثون كالمهرّجين، ولم يبدُ عليهم أنّهم رأوني. لكن لمّا أقبل أحدهم نحوي أخيراً، قال وكان بالكاد يسمع صوت المكبس: «آه عتلات الدفع».

عتلات الدفع؟ كان يجب أنّ أعرف حينها ما هو قادم!

فبعد أسبوعين، سدّدتُ فاتورتهم البالغة مائة وأربعين دولاراً، وقدت الدرّاجة بحذر على سرعات مختلفة، ملأمة التعديل الجديد، ومن ثمّ بعد ألف ميل، انطلقت على سرعات أكبر. لكن لمّا أصبحت سرعتي خمسة وسبعين ميلاً في الساعة، تعطّلت مرّة ثانية وتحررّت على سرعة ثلاثين ميلاً، كما حدث في المرّة السابقة تماماً. ولمّا أعدتها ثانية أخبروني أنّني لم أقدها بتروٍ لتتأقلم على وضعها الجديد. لكن وبعد نقاش مطوّل وافقوا على النظر

فيها. وأصلحوها مرّة أخرى، لكنّهم جرّبوها بأنفسهم على سرعات عالية. وتعطلت معهم هذه المرّة أيضاً:

بعد شهرين وعمليّة التصليح الثالثة استبدلوا الأسطونات، وركّبوا منفّث مكربن رئيس حجمه أكبر، وأخّروا حزام التوقيت لجعله يعمل على أفضل شكل، وأخبروني بألّا أقودها بسرعة عالية.

وجدت القوابس مفصولة، مغطّاة بالشحم ولم تشتغل، وأعدت وصلها فاشتغلت، لكن ما زالت عتلات الدفع تصدر ضجيجاً عالياً، لأنهم لم يعدّلوها كما يجب، أخبرتهم بهذا، فجاء أحد الصبية ومعه مفتاح شدّ بنهاية مفتوحة، مُعيَّر بشكل خاطئ وبسرعة كبيرة لف غطائي عتلات الدفع المصنوعين من الألمنيوم، وأتلفهما.

قال: «آمل أنّ يكون لدينا في المخزن بعض من هذه القطع».

فهززت رأسي.

وجلب مطرقة، وإزميل، وبدأ ضربها بقوّة لفكّها، وثقب الإزميل الغطاء المصنوع من الألمنيوم. ورأيت أنّه كان يدق الإزميل بجانب رأس المحرّك مباشرة. وعند الطرقة الأخرى التالية، لم يصب الإزميل، وضرب رأس المحرّك بالمطرقة مباشرة، الأمر الذي أدّى إلى كسر جزء من زعنفتي التبريد.

فقلت له بأدب كما لو كان الأمر حلماً سيّئاً: «حسبك»، أعطني أغطية جديدة، وسأقبل بالأمر على ما هو عليه».

خرجت من هناك بأسرع ما أستطيع، بعجلات دفع مزعجة، وأغطية مكسورة، وآلة مليئة بالشحم. ومن ثمّ صرتُ أشعر بارتجاج سيّء كلّما ازدادت سرعتي عن عشرين ميلاً. وحينما توقّفت على الرصيف، اكتشفت

أنّ اثنين من البراغي التي تحمل المحرّك مفقودان، وأنَّ حزقة مفقودة من الثالث، وكان المحرّك معلقاً ببرغيٍ واحدٍ فقط، كما اكتشفت أنّ موتر سلسلة عمود الحدبات العلوي مفقود أيضاً، الأمر الذي يعني عدم جدوى تعديل عتلات الدفع على أيّة حال. يا له من كابوس!

إن فكرة (جون) بتسليم درّاجته لأحد هؤلاء الناس هي فكرة خاطئة تماماً، كان حريّاً بي ألاّ أقبلها.

اكتشفت علّة الارتجاجات بعد بضعة أسابيع، كنت خلالها أنتظر حدوثها. كان السبب هو دبوس لا يتجاوز سعره خمسة وعشرين سنتا في نظام توصيل الزيت الداخلي تمَّ كسره، فمنع الزيت من الوصول إلى رأس المحرّك في سرعات عالية.

يتكرّر السؤال عن السبب على الدوام، ويصبح سبباً رئيساً لشعوري بالحاجة للتخلّي عن هذه السلسلة من التشوتوكوا. لكن ما الذي دفعهم لنبذ التكنولوجيا على هذا النحو؟ لم يكن هؤلاء الناس هاربين من التكنولوجيا كـ(جون) و(سيلفيا)، وإنّما كانوا هم التكنولوجيّون بأنفسهم. كانوا يجلسون لأداء الوظيفة الموكولة إليهم، وكانوا يؤدّونها كالشمبانزي. وأرجو ألاّ يؤخذ كلامي على صعيد شخصي. لم يكن هناك من سبب واضح لهذا الأمر. وحاولت أنّ أعيد النظر في ذلك الدكّان، ذلك الكابوس، لعلي أتذكّر شيئاً ما قد يكون السبب.

لابدّ أنّ المذياع كان أحد الأسباب، لا تستطيع أنّ تفكّر جيّداً بما نفعل وأنت تستمع إلى المذياع في الوقت نفسه، ربّما لم يروا أنّ لعملهم علاقة بالتفكير العميق، وإنّما العبث بمفتاح الشدِّ. ولو كنت قادراً على العبث

بمفاتيح الشد أثناء الاستماع إلى المذياع لكان الأمر أكثر متعة.

لابدّ أنّ سرعتهم كانت سبباً آخر، فهم يفكّكون الأشياء ويرمونها في أيّ مكان دون أنّ يحاولوا تذكّر المكان الذي وضعوها فيه - فقد كانوا يعتقدون أنّ في العجلة مزيداً من المال - دون أنّ يدركوا أنّ تصرّفهم هذا يتطلّب مزيداً من الوقت أو أنّ النتيجة قد تكون سيّئة.

لكن السبب الأكبر كان تعابير وجوههم التي لم تكن مفهومة على الإطلاق. كانوا ذوي تربية جيّدة، ولطيفين ومريحين - ولم يكن أيّ شيء ليثير اهتمامهمّ، كانوا كالمتفرّجين. وقد تعتقد أنّهم كانوا هائمين على وجوههم حتّى جاء من أعطاهم مفتاح شدّ وطلب منهم إتمام العمل. لم تكن وظيفتهم لتشكّل لهم حِرفة، ولن تسمعهم يقولون: «أنا فنّي تصليح مركبات». وعند الساعة الخامسة أو بعد أنّ تنقضي الساعات الثمان المطلوبة منهم، فلن يكون لدينا أدنى شكّ أنّهم سينفصلون قطعاً عن عملهم، ولن تتبادر إلى أذهانهم أدنى فكرة عنه، فهم يحاولون أنّ ينسوه تماماً حتّى أثناء تأديته. وهم يحاولون على طريقتهم تحقيق الهدف الذي كان (جون) و(سيلفيا) يريدان تحقيقه، ألاّ وهو العيش مع التكنولوجيا دون أنّ يكون لديهم علاقة بها، أو يجدر بيَ القول إن يكون لهم علاقة بالتكنولوجيا، دون الانتماء إليها، وإنّما فصّلوها على مقاسهم. كانوا مرتبطين بالتكنولوجيا بطريقة تدلّ على جهلهم إيّاها.

ولم يكن هولاء الفنيّون من أضاع الدبوّس المكسور وحسب، وإنّما هم من كسره في المقام الأوّل عن طريق تركيب لوحة الغطاء الجانبيّة بطريقة خاطئة. وأذكر أنّ المالك السابق قال إن أحد فنيّي التصليح كان قد أخبره أنّ

اللوحة كانت صعبة التركيب. وقد يكون هذا هو السبب، فقد حذّر دليل المصنع من هذه القضيّة. لكن كان الفنّي على عجلة من أمره على الأرجح، أو أنَّه لم يعط الأمر بالاً.

كنت أثناء عملي أفكِّر في انعدام الدقّة الملحوظة في أدلّة الحواسيب الرقميّة التي كنت أدققّها. فكتابة الأدلّة التقنيّة وتحقيقها هو ما كنت أمارسه بقيّة السنة لأكسب رزقي. كنت أعلم أنّها مليئة بالأخطاء، والغموض، والحذف، والمعلومات المغلوطة التي تتطلّب قراءتها أنّ تفهم مراراً على المعنى المقصود. لكن ما أدهشني هو موافقة هذه الآلّة مع موقف المشاهد الذي رأيته في الدكّان. فهؤلاء كانوا كأدلّة المتفرجّين، التي كانت مغروسة في تصرّفاتهم، وكان كلّ سطر ينصّ ضمنياً على الفكرة التالية: «هذه هي الآلّة المفصولة في المكان والزمان عن أيّ شيء آخر في الكون. ليس لها علاقة بك، وليست لك علاقة بها إلاّ بكبسك المفاتيح الكهربائيّة، والحفاظ على مستوى الفولتيّة، ومراقبة الأوضاع الخاطئة....»، وهكذا دواليك. وهذا كلّ شيء. ولا يتّخذ فنيّو التصليح في موقفهم تجاه الآلّة موقفاً مختلفاً من موقف الدليل، أو من موقفي لّما أخذت آلتي هناك، كنّا جميعاً متفرّجين. وخطر ببالي أنَّ ليس هناك دليل حقيقي قادر على التعامل مع حقل صيانة الدرّاجات الناريّة الحقيقي. وهو أهمّ جانب على الإطلاق. فالاهتمام بها يعدُّ إما غير مهمّ أو من المسلّمات.

أعتقد أنَّه علينا في هذه الرحلة أنّ نلاحظ، أو أنّ نكتشف إذا ما كان هذا الفصل الغريب بين ما يقوله الإنسان وبين ما يفعله له ما يبرّر ما يحدث في القرن العشرين من خطأ. لا أريد أنّ أتعجلّ الأمور. فهذه هي السمة المميّزة

للقرن العشرين. وعندما تريد الاستعجال في أمرّ ما فهذا مؤشّر إلى أنّك لا تهتمّ به، وتريد أنّ ينتهي للانتقال إلى أشياء أخرى. وأنا أريد أنّ تحدّث الأمور ببطء، لكن بحرصٍ وتعمّق، بالنهج نفسه الذي كان موجوداً قبل أنّ أجد الدبوس المكسور. وقد ساعدني ذلك الموقف على إيجاد الدبوس ولا شيء آخر.

فجأة ألاحظ أنّ الأرض هنا قد انبسطت لتصبح سطحاً إقليديّاً. لم تكن هناك أيّ تلة أو أيّ نتوء. وهذا يعني أنّنا قد دخلنا (وادي النهر الأحمر)، وسنصل ولايتي (داكوتا) سريعاً.

3



قبيل خروجنا من وادي النهر الأحمر كانت غيوم العاصفة في كلّ مكان، وستطبق علينا تقريباً.

ناقشت أنا و(جون) الوضع في (بريكنريج) (Breckenridge)، وقررّنا مواصلة المسير حتّى نجد أنفسنا مضطرين للوقوف. وربّما لا يطول الأمر كثيراً. فقد اختفت الشمس، وكانت الرياح محمّلة بالبرد، وأحاط بنا جدار رمادي ذو ظلال مختلفة من كلّ جانب.

تبدو العاصفة ضخمة، كاسحةً جدّاً. والسهول هنا واسعة، لكن تبدو فوقها الكتلة الرماديّة الضخمة المشؤومة جاهزة، لتأتي بما يخيف. فنحن الآن تحت رحمتها، ولا نستطيع أنّ نتحكّم بمتى وأين قد تبدأ. كلّ ما نستطيع فعله مراقبتها وهي تقترب أكثر فأكثر.

في النقطة التي نزلت فيها الكتلة الرماديّة الداكنة إلى الأرض، اختفت عن الرؤيا مدينة صغيرة بمبانيها وبرجِ مائها. وستصلنا تلك الكتلة في غضون

مدّة قصيرة الآن. لم أر أيّة مدن أمامنا، ويبدو أنّنا متّجهون نحوها مباشرة.

أسرع فأمشي إلى جانب (جون)، وأشير إليه بيدي إشارة تعني «النسرع»، فيهزّ رأسه موافقاً، ويدوس على دوّاسة الوقود. أسمح له أنّ يسبقني ثمّ أعادل سرعته. والمحرّك يستجيب على نحو جميل - سبعين.... ثمانين..... خمسة وثمانين، نشعر بالريح الآن، فأسقط رأسي إلى الأسفل للتقليل من مقاومتي للريح... تسعين. إبرة مؤشّر السرعة تتأرجح إلى الأمام والخلف، وعدّاد دوران المحرّك يشير إلى تسعة آلاف ثابتة... ما يقارب خمسة وتسعين ميلاً في الساعة... فنثبت على هذه السرعة. مسرعين جدّاً إلى درجة لم نتمكّن معها من مراقبة كتف الطريق الآن. أمدّ يدي وأشغّل مفتاح الضوء الأمامي للأمان فقط. فهو مطلوب الآن على أيّة حال. فالجوّ يطبق بالظلام.

نمرّ بالأرض المنبسطة المفتوحة بسرعة كبيرة، ولم يكن هناك أيّة سيّارة، ولا تكاد توجد شجرة، لكن الطريق تبدو ملساء ونظيفة، وصوت مؤشّر الدوران العالي يشير إلى أنّ المحرّك يعمل على أكمل وجه. ويطبق الظلام شيئاً فشيئاً.

فجأة تضيء السماء، ويتبع ذلك دويّ رعد، يهزّني. يلصق (كريس) رأسه بظهري، وتسقط بعض قطرات تحذيريّة من المطر... أشبه بالإبر مع هذه السرعة. وينطلق وميض ودويّ آخران، فيتلامع كلّ شيء... وفي تألق الوميض الثاني أرى بيت مزرعة... وطاحونة... يا إلهي لقد كان موجوداً هنا... أخفض السرعة... هذه هي الطريق إليه... جدار وأشجار... وتنخفض السرعة إلى سبعين، فستين، فخمسة وخمسين، وأبقى على هذه السرعة.

يصرخ (كريس): «لماذا خفضت السرعة»؟

- «كنّا سريعين جدّاً»

- «لا، لم نكن كذلك».

أهزّ رأسي بنعم.

نتجاوز المنزل وبرج الماء، ومن ثمّ نرى خندقاً لتصريف الماء وتقاطع طرق يقودنا بعيداً إلى الأفق. نعم... هذا صحيح على ما أعتقد، هذا صحيح تماماً.

يصيح (كريس): «هم بعيدون أمامنا. أسرع».

أهزّ رأسي من جانب إلى آخر.

يصرخ قائلاً: «لماذا لا»؟

- «سينتظرون».

- «أسرع».

- «لا» هززت رأسي، لم يكن سوى شعور. لكن على الدرّاجة، عليك أنّ تثق بهم، وبقينا على سرعتنا.

يبدأ المطر بالسقوط الآن، لكنّني أستطيع أنّ أرى أضواء مدينة ما... كنت أعرف أنّها ستكون هناك.

وحين نصل، نجد (جون) و(سيلفيا) ينتظران تحت أوّل شجرة على جانب الطريق.

- «ماذا حدث معك»؟

- «خفّفت سرعتي».

- «جيّد، كنّا نعرف ذلك، أحدث خطأ ما؟»

- «لا، دعونا أوّلاً نخرج من هذا المطر».

يقول (جون) إن هناك فندقاً على الجانب الآخر من المدينة. لكنّني أخبره أنّ هناك فندقاً أفضل إذا انعطفنا يميناً على طول خطّ من أشجار الصفصاف على بعد عدّة أحياء.

نعطف عند أشجار الصفصاف ونمرّ بعدّة أحياء، ومن ثمّ يظهر الفندق. وفي المكتب يجيل (جون) ببصره، ويقول: «إنّه مكان جيّد، متى كنت هنا من قبل؟»

فأجيبه: «لا أتذكّر».

- «لكن كيف عرفت عن هذا الفندق؟»

- «حدس».

ينظر إلى (سيلفيا) ويهزّ رأسه.

تراقبني (سيلفيا) بصمت لمدّة وجيزة، وتلاحظ أنّ يدي لم تكن ثابتة وأنا أوقع على النموذج، فتقول: «تبدو شاحباً جدّاً، هل أرعبك الرعد؟»

- «لا».

- «تبدو كما لو رأيت شبحاً».

ينظر (جون) و(كريس) نحوي، فأستدير نحو الباب. ما تزال تمطر بغزارة، فنهرع نحو الغرف، والأمتعة على الدرّاجات محميّة، فننتظر حتّى مرور العاصفة قبل أنّ نحضرها.

تسطع السماء قليلاً بعد أنّ يتوقّف المطر. غير أنّي استطعت من ساحة الفندق وعبر أشجار الصفصاف رؤية موجة أخرى من الظلام قادمة، فالليل على وشك أنّ يحلّ. نمشي نحو المدينة، ونتعشّى، وعند عودتنا، كان

تعب اليوم قد نال منّا كلَّ منال. نستريح على الكراسي المعدنيّة الموجودة في ساحة الفندق، دون حراك ونتناول ببطء نصف لتر من الويسكي أحضره (جون) مع خليط من برّاد الفندق. كان المشروب ينزل ببطء وبلذّة... وتتلاعب ريح الليل الباردة بأوراق أشجار الصفصاف على طول الطريق.

يتساءل (كريس) عمّا يجب أنّ نفعله بعد ذلك. لا شيء يتعب هذا الولد. تثيره حداثة الفندق وغرابته. ويريد أنّ يغنّي بعض الأغاني كما يفعلون في المخيّم.

يقول (جون): « لسنا جيّدين جدّاً في الغناء».

يقول (كريس): «دعونا نروي بعض القصص إذاً». ثمّ يفكّر لوهلة ثمّ يقول: «هل تعرفون بعض قصص الأشباح الجيّدة. كان جميع الأطفال في كوخنا يروون قصص أشباح في الليل».

يقول له (جون): «أخبرنا ببعضها».

فيخبرنا. كانت قصصاً مضحكة، لم أسمع ببعضها منذ أنّ كنت في مثل عمره. يريد (كريس) أنّ يسمع بعض قصصي. لكن لا أتذكّر أيّاً منها.

وبعد هينهة من الزمن يقول: «هل تؤمنون بالأشباح؟»

فأجيبه قائلاً: «لا».

- «لماذا لا؟»

- «لأنّها غير علـ - ميـ -يّة».

الطريقة التي قلت فيها الكلمة الأخيرة جعلت (جون) يضحك. فأواصل كلامي: «ليس لها مادّة، وليس لديها طاقة، ولهذا، ووفقاً لقوانين العلوم، فهي غير موجودة إلاّ في أذهان الناس».

يبدأ الويسكي، والإنهاك، والريح تختلط في عقلي. أضيف: «بالطبع، لا تحتوي قوانين العلوم مادّة، وليس لديها طاقة، ولهذا فهي غير موجودة إلاّ في أذهان الناس. ومن الأفضل أنّ يكون الشخص علميّاً تماماً، وأنَّ يرفض تصديق الأشباح أو قوانين العلوم، عندها سيكون في مأمن. ربَّما لا يترك له هذا الكثير ليؤمن به، لكن هذا هو المنهج العلمي».

يقول (كريس): «لا أعلم عمَّا تتحدّث».

- «أحاول أنّ أكون مضحكاً».

يصاب (كريس) بالإحباط لمّا أتحدّث على هذا النهج، لكن أعتقد أنّ الأمر لا يزعجه.

- «قال أحد الصبية في مخيّم جمعيّة الشبّان المسيحيّين إنّه يؤمن بوجود الأشباح».

- «لقد كان يخدعك على الأرجح».

- «لم يفعل، قال إنّه عندما لا يتمّ دفن الناس بشكل صحيح، فإنّ أشباحهم ترجع لتطارد الناس الأحياء، وهو يؤمن بهذا بشكل كامل».

أكرّر قولي: «لقد كان يخدعك».

- تقول (سيلفيا): «ما اسمه؟»

- «توم وايت بير».

نتبادل أنا و(جون) النظرات، وندرك فجأة الحقيقة.

يقول: «طبعاً، من الهنود الحمر».

فأضحك وأقول: «أعتقد أنّ عليّ أنّ أتراجع عن بعض ما قلته، كنت أفكّر في أشباح أوروبيّة».

- «ما الفرق؟»

- يقهقه (جون) ضاحكاً: ويقول: «لقد أوقعك في شركه».

أفكّر قليلاً ثمّ أقول: «في الحقيقة لدى الهنود الحمر طريقة مختلفة في رؤية الأشياء، لكنّي لا أقول إنّها خاطئة تماماً. فالعلم لم يكن جزءاً من الموروث الهندي يوماً».

- «قال (توم وايت بير) إن والديه قد أخبراه ألاّ يصدّق كلّ هذا الهراء، لكن جدّته همست له بأنَّ كلّ هذا صحيح، ولهذا هو يصدّقه».

ينظر نحوي نظرة تعني الرجاء. هو يريد بالفعل أنّ يعرف الأشياء أحياناً. لكن التعامل باستخفاف مع أولادك ليست طريقة جيّدة لأنَّ تكون أباً جيّداً، فأقول مناقضاً نفسي: «بالطبع، أنا أؤمن بالأشباح أيضاً».

في تلك اللحظة ينظر (جون) و(سيلفيا) نحوي باستغراب، وأعرف أنّني لن أتخلّص من هذه الواقعة بسهولة، وأجهّز نفسي لتفسير طويل.

أقول: «من الطبيعي جدّاً أنّ نعتبر الأوروبيين الذين يؤمنون بالأشباح أو الهنود الحمر الذين يؤمنون بالأشباح جهلة، فقد بدّدت وجهة النظر العلميّة كلّ رأي آخر إلى درجة بدت بها هذه الآراء بدائيّة، ولهذا إذا تحدّث شخص ما اليوم عن الأشباح أو الأرواح، فلا بدّ أنّ كثيرين يعتبرونه جاهلاً أو مجنوناً. والأمر يكمن في أنّه من المستحيل تصوّر عالم توجد فيه الأشباح».

يهزّ (جون) رأسه موافقاً، وأواصل الكلام.

«أعتقد أنّ ذكاء الإنسان المعاصر لا يتفوق على ذكاء السابقين. ولا تختلف معدّلات الذكاء كثيراً عن بعضها. فالهنود الحمر ورجال القرون الوسطى كانوا أذكياء مثلنا تماماً، وفي سياق ذلك التفكير، كانت الأشباح والأرواح

حقيقيّة كما هي الذرّات، والجزيئات والفوتونات والكوانتات لنا. وعليه، فأنا أؤمن بالأشباح، وللإنسان المعاصر أشباحه وأرواحه أيضاً، كما تعلم».

- «ماذا؟»

- «نعم، قوانين الفيزياء والمنطق.... ونظام الأعداد.... ونظام الاستبدال الجبري. هذه كلّها أشباح، ونحن نؤمن بها بعمق، فنعتقد أنّها حقيقة».

يقول (جون): «هي تبدو حقيقيّة بالنسبة إليّ».

يقول (كريس): «لا أفهم ما تتحدّثون عنه».

أواصل كلامي: «على سبيل المثال، من الطبيعي جدّاً أنّ تعتقد أنّ الجاذبيّة، وقانون الجاذبيّة قد أوجدا قبل إسحاق نيوتن، ومن الجنون أنّ تعتقد أنّه حتّى القرن السابع عشر، لم تكن هناك جاذبيّة».

- «بالطبع».

- لكن، متى بدأ هذا القانون؟ وهل كان موجوداً دائماً؟» عبس (جون) مستغرباً ممّا كنت أحاول الوصول إليه.

- «ما أحاول الوصول إليه هو الفكرة أنّه قبل بدء الأرض، وقبل تشكّل الشمس والنجوم، وقبل خلق أيّ شيء كبير، كان قانون الجاذبيّة موجوداً».

- «بالتأكيد».

- «وجد هذا القانون قبل أنّ تكون هناك كتلة له، وقبل أنّ تكون فيه طاقة، وقبل أنّ يفكّر فيه أحد، لأنّه لم يكن هناك أحد، وقبل أنّ يكون هناك مكان، لأنّه لم يكن هناك مكان في أيّ موضع».

يبدو (جون) غير متأكّد.

- «ووجود قانون الجاذبيّة هذا، يجعلني أجهل علامات عدم وجود الشيء. ويبدو لي أنّ قانون الجاذبيّة قد اجتاز كلّ اختبارات عدم الوجود، ولن تستطيع إيجاد أيّة خاصيّة للعدم لم يجتزها قانون الجاذبيّة أيّة ميزة علميّة للوجود امتلاكه، مع هذا، فمن الطبيعي أنّ تؤمن بوجود هذا القانون».

يقول (جون): «أظنُّ أنّ عليّ التفكير في الأمر».

- «في الحقيقة، أعتقد أنّك عندما تقلِّب الموضوع في ذهنك لمدّة طويلة تجد نتيجة عقليّة ذكيّة واحدة، وهي أنّ قانون الجاذبيّة والجاذبيّة نفسها لم يكونا موجودين قبل إسحاق نيوتن. ولن تجدي نتيجة عقلانيّة أخرى».

أكمل قبل أنّ يقاطعني: «هذا يعني أنّ قانون الجاذبيّة غير موجود في أيّ مكان إلاّ في عقول الناس! هو كالشبح! وتصيبنا جميعاً حالة من الغرور والخداع عند الحديث عن أشباح الآخرين، لكنّنا جهلة وهمجيّون وخرافيّون عند الحديث عن أشباحنا».

- «لكن لِـمَ يؤمن الناس كلّهم بقانون الجاذبيّة؟»
- «تنويم مغناطيسي جمعي، في شكل تقليدي يعرف بالتربية».
- «أتعني أنّ المعلّم ينوِّم طلاّبه ليؤمنوا بقانون الجاذبيّة».
- «بالتأكيد».
- «هذا غريب».
- «هل سمعت بأهميّة التواصل البصري في الصفوف؟ كلّ تربوي يؤكّد هذه الفكرة دون أنّ يهتمَّ أيّ منهم بتفسيرها».

يهزّ (جون) رأسه، ويسكب لي كأساً آخر، ويضع يده على فمه. وفي حالة

من السخرية يقول لـ(سيلفيا): «أنت تعلمين، على ما أعتقد، أنَّه في معظم الأوقات يبدو شخصاً طبيعيّاً».

فأردّ عليه: «هذا هو أوّل شيء طبيعي قلته منذ أسابيع، وكنت بقيّة الوقت أتظاهر بجنون القرن العشرين مثلكم تماماً، لكي لا أوجّه كثير انتباه إلى نفسي».

أواصل قائلاً: «ساعيد على مسامعكم مرَّة أخرى. نحن نؤمن بكلمات السير إسحاق نيوتن اللامرئيّة، التي كانت موجودة في اللامكان قبل ملايين السنين، قبل أنّ يولد، وبشكل خارق اكتشفت هذه الكلمات. لقد كانت هناك على الدوام، حتّى عندما لم تكن تنطبّق على شيء. خُلِق العالم تدريجيّاً وأصبحت هذه القوانين تنطبق عليه. وفي الحقيقة، فهذه الكلمات نفسها هي ما شكّلت العالم، وهذا يا (جون) هو السخف بذاته».

- «المشكلة أنّ التناقض الذي يقع فيه العلماء يتعلّق بالعقل. فالعقل ليس له شكل أو طاقة، لكنّهم لا يستطيعون التخلّص من هيمنته على الأشياء التي يؤدونها، والمنطق موجود في العقل. ولا توجد الأرقام إلاّ في العقل، ولا أتضايق عندما يقول العلماء إن الأشباح موجودة في العقل، فهذا فقط ما أسلّم به، والعلم موجود في عقلك فقط، وهذا ما لا يجعله سيّئاً، أو يجعل الأشباح سيّئة على حدٍّ سواء».

هما ينظران إليَّ، ولهذا أواصل: «قوانين الطبيعة هي قوانين بشريّة، كالأشباح تماماً، وقوانين المنطق والرياضيّات هي قوانين بشريّة أيضاً، كالأشباح، والأمر برمّته هو ابتكار بشري، بما فيه الفكرة التي تقول إنّه ليس ابتكاراً بشريّاً. والعالم ليس له وجود خارج التصوّر الإنساني، فهو شبح. وفي

الماضي كان معروفاً كالشبح. العالم الذي نعرفه ونعيش فيه، ويديره أشباحِ، فنحن نرى ما نرى لأنَّ هذه الاشباح ترينا العالم كما نراه، أشباح موسى والمسيح وبوذا وأفلاطون وديكارت وروسو وجيفرسون ولينكولن، وهكذا دواليك. وإسحاق نيوتن كان شبحاً متميِّزاً، وأحد أفضل الأشباح. ومنطقنا ليس سوى أصوات آلاف الآلاف من هذه الأشباح في الماضي، والأشباح والمزيد من الأشباح، وأشباح تحاول أنّ تجد مكانها بين البشر».

يبدو (جون) مستغرقاً بالتفكير لينطق بكلمة، ولكن (سيلفيا) منفعلة، فتسأل «من أين حصلت على كلّ هذه الأفكار؟»

وأنا على وشك الإجابة، أقرّر ألاّ أجيب، فقد كنت أشعر أنّني قد بالغت في الأمر، وحان وقت نسيانه.

يقول (جون) بعد مدّة من الزمن: «من الجيّد أنّ نرى الجبال مرَّة أخرى».

أوافقه وأقول: «نعم من الجيّد رؤيتها مرَّة أخرى، دعونا نشرب آخر كأس».

نتناول كؤوسنا، ونذهب إلى غرفنا.

أرى (كريس) ينظّف أسنانه، وننهي جدالاً صغيراً بعد أنّ يعدني بأن يستحم في الصباح. ولأنّي الأكبر سنّاً آخذ السرير إلى جانب الشبّاك. يقول بعد أنّ أطفأنا الضوء: «الآن أخبرني قصّة عن الأشباح».

- «أخبرتك، لّما كنّا في الخارج».

- «أعني قصّة أشباح حقيقيّة».

- «إنّ ما قلته هو أكثر قصّة أشباح حقيقيّة سمعتها في حياتك».

- «أنت تعلم ما أعني، النوع الثاني».

أحاول أنّ أتذكّر بعض القصص التقليديّة، «كنت أعرف العديد منها لما كنت طفلاً، لكنّني نسيتها جميعها الآن. حان وقت النوم، علينا جميعاً أنّ نستيقظ باكراً غداً».

يعمّ الصمت المكان، باستثناء صوت الريح التي تهزّ ستائر نوافذ الفندق. فكرة الريح التي تهب علينا عبر الحقول المفتوحة للسهول فكرة مطمئنة، نمت وأنا أفكّر فيها.

تشتدّ الريح ثمّ تضعف، ثمّ تعلو وتتنهد، ثمّ تخبو مرَّة أخرى.... من أميال بعيدة جدّاً.

يسأل (كريس): «هل عرفت شبحاً يوماً؟»

كنت نصف نائم: فأقول له: «كنت أعرف شخصاً أمضى حياته يصطاد الأشباح دون أنّ يصيد أيّاً منها. نم يا (كريس)».

أدرك خطئي بعد حين.

- «هل وجد أيّاً منها؟»

- «نعم وجد أحدها، (كريس)».

كنت أتمنّى أنّ يستمع (كريس) إلى الريح، وألاّ يسأل المزيد من الأسئلة.

- «ماذا فعل بعد ذلك؟»

- «جلده جيّداً».

- «وماذا فعل بعد ذلك؟»

- «ومن ثمّ أصبح هو نفسه شبحاً». قلت بكلمتي هذه ظانّاً أنّ (كريس) سينام بعدها، لكنّه لم ينم، ولم أنم أنا أيضاً».

- «ماذا كان اسمه»؟

- «لا تعرفه».
- «لكن ما اسمه؟»
- «لا يهم».
- «ولكن ما اسمه على أيّ حال؟»
- «اسمه يا (كريس)، (فيدروس). اسم لا تعرفه».
- «هل رأيته على درّاجة في العاصفة؟»
- «ما الذي يجعلك تقول هذا؟»
- «قالت (سيلفيا) تعتقد أنّك رأيت شبحاً».
- «هذا مجرّد تعبير».
- «أبي؟»
- «أرجو أنّ يكون هذا آخر سؤال يا (كريس)، وإلاّ غضبتُ».
- «كنت أحاول أنّ أقول إنّك لا تتحدّث كالآخرين».

أقول: «نعم يا (كريس)، أنا أعرف ذلك. وهذه هي المشكلة. نم الآن».

- «تصبح على خير، بابا».
- «تصبح على خير».

وبعد نصف ساعة، كان غارقاً في النوم، والريح ما تزال قويّة كما كانت، وكنت ما أزال مستيقظاً. وخارج النافذة في الظلام، حيث كانت الريح الباردة تقطع الطريق إلى الأشجار، كانت أوراق الأشجار تعكس أشعّة ضوء القمر - ولا شكّ أنّ (فيدروس) قد رأى كلّ هذا. لكن ما يفعله هنا هو ما لا أستطيع الإجابة عنه. وما الذي جاء به هنا هو ما لا أعرفه على الإطلاق. لكنّه كان هناك، وقادنا إلى هذه الطريق الغريبة، وكان معنا على

امتدادها، ولا مفرَّ منه.

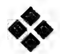
أتمنّى أنّ أستطيع القول إنّني لا أعرف لماذا كان هنا، لكن أظنّ أنّني أعرف لماذا. فالأفكار، والأشياء التي قلتها عن العلم والأشباح، وحتّى تلك الفكرة التي قلتها مساءً عن الاهتمام والتكنولوجيا لم تكن أفكاري، فأنا لم أكتسب أفكاراً جديدة منذ سنوات، وهي أفكار مأخوذة عنه. كان يراقب، وهو هنا لهذا السبب.

مع هذا الاعتراف تمنيّت عليه أنّ يدعني أنال قسطاً من النوم.

المسكيّن (كريس) كان يسأل: «هل تعرف قصص أشباح؟» كنت أستطيع إخباره بواحدة، لكن فكرة كهذه قد تكون مرعبة.

أريد النوم حقّاً.

4



ينبغي أنْ تضمّ كلّ تشوتوكوا قائمةً بالأشياء الثمينة الواجب تذكّرها والتي يمكن حفظها في مكان آمن، لأوقات الحاجة والإلهام في المستقبل. والتفاصيل. الآن، حين يغطّ الآخرون في نوم عميق مضيّعين شمس هذا الصباح الجميل... حسناً... تمضيةً للوقت.

لديَّ هنا قائمة بالأشياء الثمينة التي عليّ حملها معي في رحلتي القادمة عبر ولايتي (داكوتا).

كنت قد استيقظت مع الفجر، بينما كان (كريس) يغطُّ في نومٍ عميق في السرير الآخر. بدأت بالتقلّب في فراشي لعلي أحصل على مزيد من النوم، لكن سمعت صوت ديك يصيح، ومن ثمّ أدركت أنّنا في إجازة وليس هناك داعٍ للنوم. أستطيع أنّ أسمع (جون) من خلال جدار الفندق الرقيق ينشر الخشب... إن لم يكن هو من يفعل ذلك، فقد تكون (سيلفيا)... لا هذا صوت مزعج حقّاً. سحقّاً للمناشير الآليّة. إن صوتها كصوت....

استولى عليَّ التعب من نسيان الأشياء في رحلات كهذه. كتبت هذه القائمة وحفظتها في ملفّ في البيت، لأرجع إليها حين أكون جاهزاً.

معظم الأشياء معروفة، ولا تحتاج إلى شرح يوضح أهميّتها. وبعضها خاصّ بالدرّاجات الناريّة وبحاجة إلى شرح، وبعضها خاصّ جدّاً، ويحتاج إلى كثير من الشرح. كانت القائمة مقسّمة إلى أربعة أقسام: الملابس، والحاجيات الشخصيّة، والطبخ ومعدّات التخييم، ومعدّات الدرّاجة الناريّة.

الجزء الأوّل، الملابس، بسيط جدّاً، وهو يتكوّن من:

1. غيارين من الملابس الداخليّة.
2. ملابس داخليّة طويلة.
3. غيار من قميص وبنطلون لكلّ منّا. وأستخدم الزي العسكري، فقد كان رخيصاً، ومتيناً، ولا يظهر عليه الوسخ. وأدرجت في قائمتي «بدلة رسميّة» في البداية، لكن (جون) كتب بدلة عرس أو احتفال «Tux» إلى جانبها. وكنت أفكّر في شيء ألبسه خارج محطات التعبئة.
4. سترة وجاكيتة لكلّ منا.
5. قفّازات، وأفضلها غير المبطنة، لأنّها تمنع سفعة الشمس، وتبقي يديك باردتين. وحين تسافر لساعة أو ساعتين ربّما لا تكون هذه الأشياء مهمّة، لكن لمّا تسافر طول اليوم لأيّام عديدة تكون هذه الأشياء مهمّة.
6. جزمات درّاجات.
7. واقي المطر.

8. خوذة وواقي شمس.

9. فقاعة واقية، وهذه تشعرني بالخوف من الأماكن الضيّقة، ولهذا أستخدمها في حالات المطر الشديد، التي يصبح كالإبر التي تقرص وجهك إن لم أستخدم الفقاعة في السرعات العالية.

10. نظّارات الوقاية، لا أحبّ استخدام زجاج أمامي للدرّاجة لأنّها تبقيك محبوساً. وهذه نظّارات بريطانيّة الصنع من الزجاج السميك تعمل بشكل جيّد. فالريح تدخل خلف النظّارات الشمسيّة الاعتياديّة، أمّا نظّارات الوقاية البلاستيكيّة فإنّها سهلة الخدش وتحرف الرؤيا.

أمّا القائمة الثانيّة فتضم الأشياء الشخصيّة، وتتكوّن من الأمشاط، ومحفظة، وسكيّن جيب ودفتر ملاحظات وقلم وسجائر وعلب كبريت ومصباح يدوي وصابونة وحافظة بلاستيكيّة للصابونة وفراشي أسنان ومعجون أسنان ومقص وأقراص أسبرين للصداع ومنفّر حشرات ومزيل رائحة العرق (فبعد يوم حارٍ على درّاجة لست بحاجة لصديقك ليخبرك بسوء رائحتك) ودهون سفعات الشمس (ولن تلاحظ سفعة الشمس حتّى تتوقّف، وعندها سيكون الأمر متأخّراً جدّاً. ضع الدهون مبكّراً). ولوازم الإسعافات الأوليّة. وورق حمّام ومنديل (يوضع في صندوق بلاستيكي ليحفظ الأشياء أخرى من أنّ تصبح رطبة) ومنشفة.

والكتب، ولا أعرف أيّ سائق درّاجة آخر قد يأخذ معه كتباً، وفي العادة تأخذ الكثير من المكان، لكن لديّ ثلاثة منها على أيّ حال، مع بعض الورق المتفرّق للكتابة عليه، والكتب هي:

1. دليل استخدام الدرّاجة التي أقودها.
2. دليل عام لحلّ المشاكل ويتضمَّن كلّ المعلومات التقنيّة التي لا أستطيع حفظها في عقلي، والدليل هو «دليل تشيلتون لحلّ مشاكل الدرّاجات الناريّة» الذي كتبه «أوكي ريتش» ويباع في (سيرز) و(روبك).
3. نسخة من كتاب (ثورو) والدن الذي لم يسمع (كريس) به من قبل، يمكن قراءته مائة مرَّة دون ملل. أحاول دوماً أنّ أختار كتاباً يفوق معرفته، وأقرأه على أساس سؤالٍ وجوابٍ بدون مقاطعات. اقرأ جملة أو جملتين وأنتظر وابل أسئلته المعتاد، التي أجيبها لأعود وأقرأ جملة أخرى او اثنتين. كانت الكتب الكلاسيكيّة جيّدة لهذه الغاية. ويجب أنّ تكتب على هذا النحو. كنّا في بعض الأحيان نقضي المساء كاملاً في القراءة والحديث لنكتشف أنّنا قطعنا صفحتين أو ثلاثاً. وهذا نوع من القراءة كان متبّعاً قبل قرن.... لمّا كانت التشوتوكوا منتشرة. وما لم تجرّبها، فلن تكتشف مدى روعتها.

أرى (كريس) نائماً هناك براحة تامة. فمنغّصات أيّامه الاعتياديّة مفقودة تماماً. أظنّ عليّ أنّ أعطيه مزيداً من الوقت.

تشمل معدّات التخييم:

1. حقيبتي نوم.
2. معطفين ضدَّ الماء وبساطاً لمدّه على الأرض. ويمكن تحويل هذه الأشياء إلى خيمة، ويمكن استخدامها لحماية الأمتعة من المطر أثناء السفر.
3. حبل.

4. خرائط مسحيّة لطبيعة الولايات المتّحدة، وتشمل كلّ المناطق التي نتنزّه فيها أحياناً.
5. مدية.
6. بوصلة.
7. مطرة ماء، لم أجدها في أيّ مكان لمّا غادرنا. لابدّ أنّ الأولاد قد أضاعوها في مكان ما.
8. علبتي أدوات مائدة من فائض حاجة الجيش تضمُّ كلّ واحدة منها سكيّناً وملعقة وشوكة.
9. موقد ستيرنو قابلاً للطي مع عبوة غاز ستيرنو متوسّطة الحجم. وهذه تجربة شرائيّة، لم أستخدمها مطلقاً، ويعدّ استخدام الحطب مشكلة عندما تمطر، أو لمّا نكون فوق خطّ زراعة الشجر.
10. بعض علب الألمونيوم سهلة الفتح، لحفظ الشحمة، والملح، والزبدة، والطحين، والسكّر. اشترينا هذه الأشياء من متجر متخصّص ببيع أدوات تسلّق الجبال.
11. حقيبتي ظهر من ذوات الإطار المصنوع من الألمنيوم.

أمّا أدوات الدرّاجة، علبة متوفّرة بسهولة، تأتي مع الدرّاجة، تحفظ تحت المقعد، وتحتوي مفتاح شدٍّ كبير قابل للتغيير، ومطرقة خاصّة يستخدمها فنيّو التصليح عادة، وإزميل ونقّار ومفك عجلات وأدوات رفع الإطارات ومضخّة عجلات الدرّاجة، وعلبة من رشّاش ثاني كبرتيد الموليبدينوم للسلاسل. (لهذا الرشّاش قوّة اختراق مذهلة داخل كلّ بكرة، تعدّ أهمّ

شيء، وسمات ثاني كبريتيد الموليبودينيوم الخارقة معروفة للجميع. لكن لمّا تجفّ يجب أنّ تدعم بزيت محرّك من نوع (SAE عيار30). وأداة لف براغي كهربائي، وإزميل ذي رأس رفيع، وأداة قياس الفراغات، ومصباح فحص.

وتضمّ القطع الاحتياطية

مقابس، ودوّاسة وقود، وأسلاك القابض والكوابح، وقاطعاً كهربائيّاً، ومصباح الأضواء الأماميّة والخلفيّة، وحلقة سلسلة جرٍّ مع غالق، ودبابيس إغلاق، وسلكاً واصلاً، وسلسلة احتياطية (وهذه سلسلة قديمة كانت على وشك أنّ تعطب لَمَّا غيّرتها، وقد تكفي لتوصّلنا إلى محل تصليح للدرّاجات إن تعطلّت الموجودة).

هذا كلّ شيء. ولا وجود لأربطة أحذية.

من الطبيعي في هذه اللحظة أنّ تتساءل عن نوع مقطورة «اليوهول» التي تحتوي هذه الأشياء. لكن لا تبدو الأشياء ضخمة كما هي حقّاً.

أخشى أنّ الآخرين سينامون طوال اليوم إن لم أوقظهم. فالسماء في الخارج ملائمة وصافية، ومن المخجل أنّ نضيّعها على هذا النحو.

لذا أتجه إلى (كريس) في نهاية المطاف، وأهزّه، فيفتح عينيه، ثمّ يستند جالساً دون أنّ يستوعب ما حدث.

أقول له: «إنّه وقت الحمّام».

أذهب إلى الخارج. الهواء منعش. في الحقيقة، يا إلهي الجوّ بارد في الخارج. أدق باب عائلة (سذرلاند).

يجيب (جون) متثائباً من وراء الباب: «نعم، نعم».

يبدو الجوُّ كالخريف، والدرّاجات مبلّلة بالندى، لا مطر اليوم، لكن الجوّ بارد. لابدّ أنّ درجة الحرارة بحدود الأربعين.

أتفقّد أثناء انتظاري مستوى زيت المحرّك والإطارات، والبراغي، وشدّ السلسلة، كانت رخوة بعض الشيء، فأخرجت صندوق العدّة وشددتها. أصبحت متلهفاً للمغادرة.

أرى (كريس) يلبس ملابس دافئة. ونرتّب أمتعتنا. والجوّ بارد حقّاً. وخلال دقائق تزيل الريح كلّ دفء الملابس، فأرتجف رجفات كبيرة. هذا منعش.

لابدّ أنّها ستدفأ بعد أنّ ترتفع الشمس في السماء. وسنصل في غضون نصف ساعة إلى (إيلندال) (Ellendale) لتناول الفطور. علينا أنّ نقطع أميالاً كثيرة على هذه الطرق المستقيمة.

لو لم يكن الجوّ بارداً لكانت قيادتنا جميلة جدّاً. كانت شمس الفجر المنخفضة تشعّ على ما يبدو كالجليد الذي كان يغطّي هذه الحقول، لكنّني أظنّ أنّه الندى لامع وضبابي، كانت ظلالات الفجر تجعل الحقول تبدو أقلّ انبساطاً ممّا كانت عليه في الأمس. هذا ما كنّا نعتقده. لم يكن أحد مستيقظاً في ذلك الوقت. تشير ساعتي إلى السادسة والنصف. يبدو القفّاز القديم فوقها كما لو مغطىّ بالجليد، لكنّني أعتقد أنّ هذا من آثار المطر المنهمر يوم أمس. قفّازات قديمة جميلة مهترئة. أصبحت متصلّبة جدّاً من البرد إلى درجة لم أستطع معها فرد أصابع يدي.

تحدّثت يوم أمس عن الاعتناء، أنا أعتني بهذه القفّازات المتعفّنة. وفي العادة أضحك من هذه القفّازات وهي تتطاير بجانبي في النسيم. فقد كانت

موجودة إلى جانبي لسنوات عديدة، وأصبحت قديمة ومهترئة، ومتعفّنة إلى درجة جعلتني أشعر أنّ هناك أمراً مضحكاً عنها. صارت القفّازات مليئة بالزيت والعرّق والوسخ والحشرات الميّتة، وعندما أضعها بشكل مستو على الطاولة، حتّى عندما لا تكون باردة، فإنّها لا تستقرّ باستواء. صار لها ذكّريات خاصّة بها، سعرها ثلاثة دولارات، وأصلحتها أكثر من مرَّة بحيث أصبح من المستحيل إصلاحها من جديد، لكنّني أخيطها على أيّة حال، باذلاً الكثير من الوقت والمشقّة لأنّني لا أتصوّر أيّ قفّازات جديدة مكانها. قد يبدو الأمر غير عملي، لكن التطبيق العملي ليس المعيار الوحيد في حالة القفّازات أو في حالة أيّ شيء آخر.

تكتسب الآلة نفسها بعض هذه المشاعر. فقد أصبحت بعد أنّ قطعت عليها 27.000 ميل من أكثر الدرّاجات قطعاً للمسافات، متآكلة قديمة، مع أنّ هناك كثيراً من الدرّاجات القديمة التي ما تزال تسير على الطريق. لكن مع المسافات التي تقطعها، وقد يوافقني في هذا معظم الدرّاجين! قد تتولّد لديك مشاعر خاصّة تجاه آلة ما لا تنطبق على آلات أخرى. كان لدى صديق لي درّاجة من النوع نفسه، والموديل، وصنعت في السنة نفسها، وأحضرها إليَّ لأصلحها، ولمّا قدتها لأجربها، كان من الصعب عليَّ أنَ أعتقد أنّها جاءت من المصنع نفسه قبل بعض سنوات. تستطيع أنّ ترى الدرّاجة وقد تآلفت مع نوع من الشعور والقيادة، والصوت الخاصّ بها، بما يختلف تماماً عن شعور درّاجتي بقيادتها وصوتها. ليست أسوأ لكنّها مختلفة.

أعتقد أنّنا قد نسمّي هذا بالشخصيّة. فلكلّ آلة شخصيّتها الفريدة، التي يمكن تعريفها بالمجموع الحدسي لكلّ شيء تعرفه عنها أو تشعر به. وهذه

الشخصيّة تتغيّر على الدوام، للأسوأ على الأرجح، لكن وفي بعض الأحيان للأفضل. وهذه الشخصيّة هي الشيء الحقيقي لصيانة الدرّاجة الناريّة. تبدأ الدرّاجات الجديدة مشوارها كالغرباء اللطفاء الذين اعتماداً على طريقة التعامل معهم يتردّون بسرعة إلى أشخاصّ نكدين أو حتّى معاقين، أو قد يتحولون إلى أصدّقاء دائمين ذوي طبيعة جيّدة، وذوي نوايا حسنة. وهذه الدرّاجة، مع المعاملة المشينة التي تلقّتها على أيد الميكانيكيّين الأدعياء، استعادت بريقها، وأصبحت مع مضي الوقت، تتطلّب عمليّات إصلاح أقلَّ وأقلّ.

ها نحن نصل (إيلندال).

برج ماء، بساتين من الأشجار تتخلّلها بعض الأبنية، في ضوء الشمس المشرقة. كنت ارتعش طوال الرحلة. كانت الساعة السابعة والربع.

وبعد بضع دقائق، نتوقّف بجانب بنايات طابوق قديمة. أنظر إلى (جون) و(سيلفيا) اللذين اصطفا خلفي للتوّ وأقول: «كانت رحلة باردة جدّاً».

يحدقانِ فيَّ بعيون مفتوحة على وسعها.

أقول: «منعشة، أليس كذلك؟» ولا جواب.

أنتظر حتّى يترجّل الجميع عن درّاجتهم، ومن ثمّ أرى (جون) يحاول فك أربطة أمتعتهم، فتواجهه مشكلة بالعقدة. فيستسلم. ونتجّه جميعاً نحو المطعم.

أحاول مرَّة أخرى، وأنا أمشي إلى الخلف أمامهم تجاه المطعم، شاعراً بالتوتّر من هذه الجولة من القيادة. أقول لـ(سيلفيا) ضاحكاً، «تحدّثي معي يا (سيلفيا)». لكن لا ابتسامة.

أعتقد أنّهما باردانِ.

ها هما يطلبانِ الفطور دون أنّ يرفعا بصريهما.

أقول حين ينتهي الفطور: «ما التالي؟»

يقول (جون) بتثاقل وعن قصد: «لن نغادر هذا المكان قبل أنّ يصبح الجوّ دافئاً». يبدو صوته حازماً. فأجزم من خلاله أنّ كلامه نهائي. ولهذا يجلس (جون)، و(سيلفيا) و(كريس)، في بهو الفندق الملاصق للمطعم، للحصول على بعض الدفء، بينما أخرج قليلاً لأتمشى.

أعتقد أنّهما كانا غاضبين عليّ لإيقاظهما مبكّراً جدّاً للقيادة في مثل هذا الجوّ البارد. وعندما تتورط في موقف كهذا، تطفو الفروق الصغيرة في المزاج على السطح حتماً. وأتذكّر الآن أنني لم أقد معهما الدرّاجة قبل الساعة الواحدة أو الثانيّة ظهراً. مع أنّ الفجر والصباح الباكر هما أنسب الأوقات بالنسبة إليَّ لقيادة الدرّاجة.

المدينة نظيفة ونقيّة، ولا تشبه المدينة التي انطلقنا منها هذا الصباح. هناك أناس في الشوراع يسرعون في فتح محالّهم، يخاطبوننا قائلين «صباح الخير»، ويتحدّثون عن برودة الجوّ. درجة الحرارة على جهازي قياس الحرارة المثبتين في مكان مظلل في الشارع هما (42) و(46)، في حين أنّ درجة الحرارة على الجهاز المثبت تحت أشعّة الشمس هي (65).

يمتدّ الشارع الرئيس في المدينة بعد بضعة أبنية إلى دربين ترابيّين امتدّا نحو الحقول مارّين بكوخ مليءٍ بأدوات الزراعة وأدوات التصليح. في الحقل، يقف رجلٌ ينظر إليَّ بريبة، مستغرباً ممّا أفعله على الأرجح، فأرجع إلى الشارع الرئيس، وأجد مقعداً بارداً، وأنظر نحو الدرّاجة. ليس هناك من

شيء أفعله!

نعم كان الجوّ بارداً، لكن ليس بارداً جدّاً. ولهذا أتساءل كيف ستحتمل (جون) و(سيلفيا) شتاء (مينيسوتا)؟ في هذا الموقف تناقض واضح أجد لزاما عليّ معرفته. فإذا كانا لا يحتملان أيّ إزعاج جسدي ولا يتحمّلان التكنولوجيا، فلن يستطيعا تقديم حلول مرضيّة، فهما يعتمدان على التكنولوجيا، ويلعنانها في الوقت نفسه. وأنا متأكّد أنّهما يدركان هذه الحقيقة مليّاً، وهذا يسهم في عدم محبتّهم للأمر برمّته. وهما لا يقدّمان فرضيَّة منطقيّة، وإنّما يصفانها. أستطيع أنّ أرى الآن ثلاثة فلّاحين يدخلون المدينة، ويلتفّون حوال الزواية في شاحنتهم الجديدة تماماً. سأتراهن معهم أنّ الأمر الصحيح هو عكس ما يفعل (جون) و(سيلفيا). سيتباهون بشاحنتهم الجديدة وجرارهم والغسالة الجديدة الخاصّة بهم، وسيشترون المعدّات اللازمة لإصلاحها إن حدث عطب ما، وسيعرفون نوعيّة استخدام هذه المعدّات، وهم أقلّ الناس احتياجاً لمثل هذه المعدّات. فإنّ انقطعت كلّ الوسائل التكنولوجيّة يوماً ما، سيتمكّن هؤلاء الناس من مواصلة حياتهم. قد يصبح الأمر صعباً، لكن سيتمكّنون من البقاء. وسنكون أنا و(كريس) و(جون) و(سيلفيا) في عداد الموتى في غضون أسبوع، فنكران التكنولوجيا نوع من الجحود. هكذا يجب أنّ نصف الأمر.

لكن حينذاك نكون قد نحينا منحىً خاطئاً. إذا وصفت أحداً بأنّه جاحد، فإنّك تكون قد أعطيته صفته أو ما يستحقّ، دون أنّ تحلّ المشكلة.

تتغيّر درجة الحرارة على مؤشّر الحرارة المثبت بجانب باب الفندق لتصبح (53) درجة خلال نصف ساعة. أجدهم داخل غرفة تقديم الطعام

الرئيسة في الفندق، يبدو عليهم التوتّر، لكن أعرف من تعابيرهم وجوههم أنّهم في مزاجٍ أفضل. يقول (جون) متفائلاً: «سأوضّب أغراضي، ومن ثمّ سنغادر».

يخرج نحو الدرّاجات، وحين يعود يقول: «كم أكره إعادة توضيب أغراضي، لكن لا أريد أنّ أتورّط في قيادة كآخر مرة». يقول إن الجوّ بارد جدّاً في حمّام الرجال، ولأنّه لم يكن هناك أحد غيرنا في المطعم، فيمرّ خلف طاولة حيث كنّا جالسين، وأنا جالس إلى الطاولة، أتحدّث إلى (سيلفيا)، وفجأة يظهر (جون) في ملابس داخليّة طويلة ذات لون أزرق شاحب، يتكلّف الابتسام من الأذن إلى الأذن ليقاوم مدى سخافته. أحدّق في نظّاراته الملقاة على الطاولة للحظة، ثمّ أقول لـ(سيلفيا):

«أظنّك لاحظت أنّنا قبل لحظات كنّا جالسين هنا نتحدّث مع (كلارك كنت)، هذه نظّاراته كما ترين، والآن فجأة، أصبح..... (لوي) على ما أعتقد».

يصيح (جون) كالديك: «رجل الدجاج!»

يتزحلق فوق الصالة الملمعة كالمتزلّج، ويتشقلب ويعود إلى التزحلق مرَّة أخرى، يرفع إحدى يديه فوق رأسه ويربض، كما لو كان سينطلق إلى السماء، ويقول: «أنا جاهز، أنا منطلق». ويهزّ رأسه بحزن قائلاً: «سحقّاً، أكره أنّ أخترق هذا السقف الجميل، لكن تقول أشعّتي إن هناك شخصاً في خطر». يأخذ (كريس) بالضحك. وتقول (سيلفيا)». سنكون جميعاً في مشكلة إن لم ترتدِ بعض الملابس».

يضحك (جون) قائلاً: «شيء فاضح، أليس كذلك؟ كاشف إيلندال».

يمشي قليلاً باختيال، ومن ثمّ يرتدي ملابسه، ثمّ يقول: «لا ، لا، لن يفعلوا ذلك فرجل الدجاج والشرطة متفاهمون. وهم يعلمون من هو إلى جانب القانون والنظام والعدالة واللباقة واللعب النظيف».

ما زال الجوّ بارداً حين نقصد الطريق السريع. ها نحن نمرّ ببعض المدن، وتدريجيّاً ودون أنّ نشعر بدفء الشمس، وتتحسّن مشاعري معها. يتبدّد الشعور المتعب تماماً، وتصير الريح والشمس أفضل الآن، ليجعلا الشعور حقيقيّاً. يحدث كلّ هذا نتيجة دفء الشمس، والطريق ومزارع السهول والخضراء والرياح القويّة مجتمعة. وسرعان ما لا يبقى سوى الدفء الجميل والريح والسرعة والشمس على طول الطريق الفارغة. فتتبدّد آخر موجات برد الصباح عبر الهواء الدافئ والريح والشمس والطريق السلسة.

هناك بعض زهرات الأقحوان البيضاء الذهبيّة بين الأعشاب أمام سياج قديم من الأسلاك الشائكة، مع مرج فيه بعض بقرات، وبعيداً هناك أرض مرتفعة قليلاً فيها شيءٌ ذهبي، من الصعب معرفته، ولا حاجة لنا لنعرف ما هو.

يزداد صوت المحرّك خشونة كلّما ارتفع الطريق قليلاً. وعندما نعتلي القمّة نرى امتداداً واسعاً من الأرض أمامنا، وعندما تنخفض الأرض، يزداد صوت المحرّك نعومة. السهول والهدوء والانعزال.

توقّفنا لاحقّاً، كانت عيون (سيلفيا) تدمع بسبب الريح، ومدَّت يديها إلى الأعلى قائلة: «إنّها جميلة جدّاً، هي خالية تماماً».

أعلِّم (كريس) كيف يمدّ سترته على الأرض ويستخدم قميصاً إضافيّاً كمخدّة. لم يكن نعساناً، لكنّي أخبره بأنَّ يستلقي فهو بحاجة لاستراحة.

أمدُّ سترتي لتمتصّ المزيد من الدفء. ويخرج (جون) كاميرتهُ.

يقول بعد هنيهة: «هذا أصعب شيء في العالم يمكن تصويره، تحتاج عدسات قادرة على تصوير (360) درجة. ترى المنظر، ومن ثمّ تنظر عبر الزجاج الباهت فيختفي، حالما تحدّد له إطاراً يختفِ».

أقول: «لا تستطيع رؤيته في السيّارة على ما أعتقد».

تقول (سيلفيا) مخاطبة (كريس): «توقّفنا في إحدى الرحلات، لّما كان عمرك عشر سنوات إلى جانب الطريق، واستخدمت نصف بكرة من الفيلم في التقاط صور، ولّما ظهرت الصور، بكيت بشدّة، لم يكن فيها أيّ شيء».

يقول (كريس): «متى سنواصل مسيرنا؟»

أسأله: «لمَ أنت في عجلة؟»

- «أريد أنّ نواصل المسير فقط».

- «لن نجد أمامنا ما هو أفضل ممّا وجدناه الآن».

ينظر إلى الأسفل بصمت عابساً، ثمّ يقول: «هل سنخيّم الليلة هنا؟» تنظر عائلة (سذرلاند) نحوي باستغراب.

يكرّر قائلاً: «هل سنخيّم الليلة هنا؟»

فأجيب: «سنرى لاحقاً».

- «لماذا لاحقّاً؟»

- «لأنّني لا أعلم الآن».

- «لماذا لا تعلم الآن؟»

- «في الحقيقة، لا أعلم الآن».

يهزُّ (جون) كتفية موافقاً.

أقول له: «هذا ليس أفضل مكانٍ للتخييم، فليس هناك غطاء، ولا ماء».
وأضيف فجأة: «حسناً، الليلة سنخيّم في الخارج». تحدّثنا عن هذا الموضوع سابقاً.

هكذا نمشي على طول الطريق الخالية. لا أحبُّ أنّ أمتلك هذه السهول، أو أنّ أصوّرها، أو أنّ أغيّرها، أو أنّ أتوقّف، أو أنّ أواصل. فنحن لا نحبُّ المشي في الطريق الخالية.

5



يختفي انبساط السهول، وها هو يبدأ وادٍ عميقٍ. تصبح الأسيجة أكثر ندرة، واللون الأخضر أشدّ شحوباً.... وجميعها علامات تدلّ على اقترابنا من السهول المرتفعة (High Plains). نتوقّف للتزوّد بنزين في هاغ (Hague). ونسأل إن كان هناك طريق يمكنّنا من خلاله تجاوز نهر ميزوري بين (بسمارك) و(موبريدج). لم يكن عامل محطّة الوقود يعرف أيّ طريق. وقد صار الجوّ حارّاً الآن، فيذهب (جون) و(سيلفيا) لمكان ما لخلع ملابسهم الداخليّة الطويلة. أغيّر زيت الدرّاجة، وأشحّم السلسلة. بينما يراقب (كريس) كلّ شيء بفارغ الصبر. وهذا مؤشّر غير جيّد.

يقول: «عيناي تؤلمانني».

- «ممَّ؟»

- «من الريح».

- «سنبحث عن نظّارات واقية».

ندخل جميعاً دكاناً لشرب القهوة وتناول بعض الفطائر. يختلف كلّ شيء باستثناء شيء واحد، ولهذا ننظر حولنا بدلاً من أنّ نتحدّث، متلقّين أجزاء الجمل بين أناس يعرف بعضهم بعضاً، وينظرون إلينا لأنّنا جدد. ولاحقّاً أجد أثناء مشينا في الشارع في أحد المخازن ميزان حرارة لوضعه في جراب الدرّاجة ونظّارات واقية لـ(كريس).

لا يعرف موظّف محلّ الأدوات أيّ طريق مختصرة عبر نهر ميزوري. ندرس أنا و(جون) الخريطة، مؤمّلين أنّ نجد معبراً غير رسمي يستخدم عبارةً أو جسر مشاة أو أيّ شيء مشابه على امتداد تسعين ميلاً. لكن لم نجد أيّاً من هذه، لأنّه ما من أحد يحاول الوصول إلى الضفّة الأخرى. فهي محميّة هندية بالكامل. لذا نقرّر أنّ نتّجه جنوباً إلى موبريج، وأنَّ نقطع النهر هناك.

والطريق جنوباً مزعجة. فهي متقطّعة وضيّقة، ووعرة، والريح المقابلة سيّئة، وتهبّ باتّجاه الشمس، وتذهب شاحنات ضخمة في الاتّجاه المعاكس. وتزيد التلال الأُفعوانيّة من سرعة الدرّاجات عند النزول، وتبطئها عند الصعود، وتمنعنا أنّ نرى بعيداً أمامنا، الأمر الذي يجعل التجاوز أمراً باعثاً على التوتّر. أرعبتني أوّل تلّة بحقّ لأنّني لم أكن مستعدّاً لها، لكنّي الآن أتمسّك جيّداً وأستعدّ لها. ما من خطر. وإنّما موجة صادمة قد تضربك هي أكثر حرارة وجفافاً.

يختفي (جون) في (هيريد) (Herreid) لتناول الشراب، بينما نبحث أنا و(كريس) و(سيلفيا) عن ظلٍّ في المتنزه، ونحاول أنّ نستريح. لم يكن الأمر مريحاً، حدث تغيّر ما، لكن لا أعلم ما هو. شوارع هذه المدينة واسعة، أوسع ممّا يجب، والجوّ محمّل بالغبار، والمساحات الفارغة بين المباني مغطّاة

بالأعشاب الضارّة. تُشبِهُ أكواخ العدد المغطّاة بصفائح معدنيّة وبرج الماء تلك الموجودة في المدن السابقة، لكنّها أكثر انتشاراً. يبدو كلّ شيء أكثر تقويضاً، وذا منظر آلي، وموزّعاً على نحو عشوائي. فأرى الفروق تدريجاً. لم يعدّ هناك من يهتمّ بترتيب المكان، لم تعدّ الأرض ذات قيمة، ونحن في مدينة غربيّة.

نتناول غداءنا من الهامبرغر وشراب الجعة في أحد مطاعم (A & W) في (موبريج)، ونشقُّ طريقنا عبر شارعها الرئيس المزدحم جدّاً، ومن ثمّ نجد ضالّتنا أسفل التلّة، نهر ميزوري. يتحرّك الماء المندفع غريباً، فضفتاه تلال عشبيّة لا تكاد تصلها أيّة قطرة ماء. ألتفت وأنظر في وجه (كريس)، لكن يبدو أنّه غير مهتمّ بما يرى أمامه.

ننزل التلّة، ونصعد الجسر، ونعبره، ونشاهد النهر ينساب من خلال العوارض الخشبيّة، وسرعان ما نكون على الجهة الأخرى.

نتسلّق تلّة شاهقة الارتفاع إلى ريف مختلفٍ تماماً.

تختفي الأسيجة تماماً. فليس هناك أجمات، ولا أشجار، بل امتداد التلال ضخم جدّاً بحيث تبدو درّاجة (جون) فوق الانحدارات الشديدة كالنملة. وتبرز فوق التلال المنحدرة نتوءات صخريّة، في أعالي المنحدر.

يمتاز المكان بترتيبه الطبيعي. فلو كان المكان مهجوراً، لكان له منظر مستهلك بائس مع كتلٍ من الخرسانة قديمة التأسيس، وبقايا صفائح وأسلاك معدنيّة ملّونة، وأعشاب نمت في تشققات الامتدادات الخرسانيّة. لكن لم نجد أيّاً من هذه الأشياء هنا. ولم يتمّ الحفاظ على المكان، ولم يتمّ العبث به وإهماله أيضاً. وبدا المكان كما يجب أنّ يكون عليه دوماً. أرض محميَّة.

ما من ميكانيكي مختصّ بالدرّاجة الناريّة على الجانب الآخر من الصخور. فأتساءل إن كنّا جاهزين لهذه المغامرة. لو حدث معنا خطب ما، فسنقع في مشكلة كبيرة.

أتفحّص درجة حرارة المحرّك بيدي. هو بارد بشكلٍ يبعث على الطمأنينة. أركّب القابض وأتركه يهبط لوهلة لأسمعه يخبو. هناك شيء مضحك فأعيد الأمر مرَّة أخرى. يأخذني الأمر مدّة من الوقت قبل أنّ أدرك أنَّه لم يكن المحرّك على الإطلاق. كان هناك صدى انعكس من تجمّعات الأشجار أمامنا بعد أنّ يغلق الخانق. شيء مضحك. أكرّر الأمر مرّتين أو ثلاثة. يتعجّب (كريس) ممّا يحدث، فأطلب منه أنّ يستمع إلى الصدى، لكنّه لا يعلّق على الأمر.

للمحرّك القديم صوت غريب، كما لو كان في داخله الكثير من العملات المعدنيّة المتطايرة. صوت شنيع، لكن لم يكن سوى صوت قرقعة صمام اعتيادي، ولّما تعتاد هذا الصوت وتألف توقّعه، تستطيع حينها سماع أيّ فرق حال حدوثه، وإن لم تسمع ما هو مختلف، فهذا أمرّ جيّد.

أحاول أنّ أشدّ انتباه (جون) إلى هذا الصوت، لكن دون جدوى، كلّ ما كان يسمعه هو الإزعاج، وكلّ ما كان يراه هو الآلّة، وأنا وبيدي أدوات مشحّمة، لا شيء غير ذلك ولم ينجح الأمر.

لم يلحظ ما يحدث، ولم يكن مهتمّاً ليعرف ما يحدث. لم يكن مهتمّاً بما تعني الأشياء قدر اهتمامه *بماهيتها*. وهذا أمرّ مهمّ، فهو يرى الأشياء بهذه الطريقة. احتجت إلى وقت طويلٍ قبل أنّ أدرك الفرق بين الأمرين. ومن المهمّ أنّ أجعل الفرق واضحاً للتشوتوكوا القادمة.

أربكني رفضه التفكير في أيّ موضوع تقني، بحيث واصلت البحث عن طرق يمكن من خلالها أنّ ألّمح له عن الأمر برمّته، لكن لم أعرف من أين أبدأ. فكّرت أنّ عليّ الانتظار حتّى يحدث معه أمرّ خاطئ بدرّاجته، وحينها سأساعده في إصلاحها. حينئذٍ سيدرك أهمّيّة معرفة بعض المعلومات التقنيّة، لكنّني أخطأت بهذا الأمر، لأنّني لم أدرك الطريقة التي كان ينظر بها إلى الأشياء.

أخذ مقود درّاجته يتأرجح، ليس على نحو خطر كما كان يقول، وإنّما على نحو قليلٍ عند دفعها بقوّة. حذّرته ألاّ يستخدم مفتاح الربط القابل للتعديل على صواميل الشد. قد يؤدّي هذا إلى تلف الكروم وظهور بعض الصدأ. وافق على استخدام المقابض ومفاتيح الشد المعيّرة الخاصّة بي.

أخرجت مفاتيح الشد الخاصّة بي لّما أحضر درّاجته، لكنّني لاحظت أنّ الشد، مهما حاولنا، لن يوقف الانزلاق، لأنَّ الحلقات كانت مغلقة تماماً.

- «عليك أنّ تلحم هذه».

- «لكن ماذا تعني بـ «تلحم» هذه؟»

- «هي رقاقة معدنيّة رفيعة، يمكن زجها عن مقود الدرّاجة تحت الحلقة المعدنيّة لتبقيها مفتوحة لتتمكّن من توجيه الدرّاجة إلى الجهة التي تريدها، ويمكن استخدام رقائق كهذه لإحداث تعديلات على جميع أنواع الآلات».

- بدا مهتمّاً فقال: «جيّد، أين يمكنّنا شراؤها؟»

قلت مسروراً وأنا أحمل علبة من البيرة بيدي: «لديَّ بعضها هنا».

لم يدرك الأمر للحظة، ومن ثمّ قال: «ماذا، العلبة؟!»

فقلت: «نعم، ففيها أفضل الرقائق في العالم».

فكّرت أنّ هذا ذكاءٌ مني أنّ أوفّر عليه الذهاب إلى مكان بعيد للحصول على رقائق، ووفّرت عليه الوقت والمال. لكن، لدهشتي لم يدرك الذكاء الكامن في هذا التصرّف. وفي الحقيقة، انتابه بعض غرور في الأمر برمّته. وسرعان ما بدأ بالمرواغة وتقديم جميع أنواع الأعذار، وقبل أنّ أدرك موقفه الحقيقي من الأمر برمّته، قررّنا ألاّ نصلّح مقود الدرّاجة في نهاية المطاف.

ما زال مقود الدرّاجة غير ثابت لغاية الآن. أعتقد الآن أنَّه تضايق جدّاً حينها. فقد كانت لديّ الجرأة على اقتراح إصلاح درّاجته البالغ سعرها ألف وثمانمائة دولار من بي آم دبليو، وتعدّ فخر نصف قرن من البراعة الميكانيكيّة الألمانيّة باستخدام علبة بيرة قديمة.

واحسرتاه يا بلادي.

منذ ذلك الحين صرنا نتحدّث قليلاً جدّاً عن صيانة الدرّاجات الناريّة، أو بالأحرى، لم نتحدّث مطلقاً عنها. وإذا ما تابعت ذكر الموضوع، ستغضب فجأة دون أنّ تعرف لماذا.

يجدرُ بي القول هنا إن ألمنيوم علب البيرة رقيق ولزج ومناسب جدّاً لهذه الغاية. فالألمونيوم لا يتأكسد في الطقس الرطب - أو يجب عليَّ القول - إن عليها طبقة رقيقة من الأكسيد تمنع المزيد من الأكسدة، هي مثاليّة.

وبمعنى آخر، سيدرك أيّ ميكانيكي ألماني حقيقي مع ما يمتلكه من خبرة ميكانيكيّة حقيقيّة مدّتها نصف قرن أنّ هذا هو الحلُّ المثالي لهذه المشكلة التقنيّة.

فكّرت لوهلة أنّ أذهب خلسة إلى منضدة العمل، لأقطع رقاقة من علبة

البيرة، وأنَّ أزيل الطباعة عنها، وأنَّ أعود لأخبره بأنّنا محظوظون بإيجاد آخر رقاقة مستوردة خصّيصاً من ألمانيا. وهذا سيحلّ المشكلة. رقاقة خاصّة من ممتلكات البارون ألفريد كروب، التي اضطّر لبيعها مجبراً عندها سيولع بها.

انتابني هذا الولع بالممتلكات الخاصّة مدّة من الزمن. لكنّه تلاشى، ورأيت فيه نوعاً من الظلم. وحلّ مكانه ذلك الشعور القديم الذي تحدّثت عنه سابقاً. الشعور بأنَّ هناك شيئاً أكبر ممّا نرى على السطح. كثيراً ما نتتبع هذه التناقضات مدّة طويلة، لتكشف في بعض الأحيان عن نبؤة كبيرة. كان لديّ شعور أنّ هذا الشيء كان أكبر ممّا أردت قبوله دون تفكير، وبدلاً من ذلك انسقت وراء عادتي في استخلاص الأسباب والآثار التي قادت إلى هذا الطريق المسدود بين نظرة (جون) للرقاقة ونظرتي. وكثيراً ما تكرّرت هذه القضيّة في العمل الميكانيكي، نقطة عالقة، وكلّ ما تفعله هو الجلوس، والتحديق، والتفكير، والبحث العشوائي عن معلومات جديدة، وأن تذهب بعيداً، وألاَّ تعود مجدّداً، وستتكشّف لك العوامل المرئية أوّلاً بأول.

لكن ما ظهر أوّلاً بشكل غامضٍ ثمّ في حدود واضحة هو التفسير الذي يقول إنّني كنت أنظر إلى الرقاقة بطريقة عقلانيّة، متّزنة، ذكيّة، وكلّ ما يهمّنا فيها هو الخصائص العلميّة للمعدن. لكن (جون) قارب الموضوع بشكل لحظي حدسي، ولم يأخذ الفكرة على محمّل الجد. لكنّني كنت أطرق الموضوع من جانب الشكل الضمني، كنت أرى **ما تعني** الرقاقة، لكنّه كان يركز على **ماهيّة** الرقاقة، وهذه هي الطريقة التي أوصلتنا إلى هذا الاختلاف. لمّا تركز على ماهيّة الرقاقة، فإنّ الوضع يكون كئيباً. ومن منّا يرغب أنّ يرى آلته الدقيقة والجميلة وقد تمّ إصلاحها باستخدام قطعة من القمامة؟

أظنّ أنّني نسيت أنّ أقول إن (جون) موسيقي، عازف طبول، يعمل مع جوقات في جميع أنحاء المدينة، ويحصل على دخلٍ جيّدٍ من هذا العمل. وأعتقد أنَّه ينظر إلى جميع الأشياء كما ينظر إلى نقر الطبول- ويجدر بي القول - إنّه لا يفكّر بها مطلقاً. فهو يؤدّي العمل فقط، ويكون معه. والطريقة التي نظر بها إلى إصلاح درّاجته باستخدام علبة بيرة هي ذات الطريقة التي قد يستجيب بها إن قام شخص بكسر اللحن أثناء عزفه. فللأمر وقع كبير عليه. فهو لا يقبل أيّ جزء منه.

هذا الاختلاف في بداية الأمر كان هامشيّاً، لكنّه كبر وكبر وكبر حتّى أصبحت أدرك لماذا فاتني إدراكه. قد تفوتك بعض الأشياء لأنّها صغيرة جدّاً، فتتجاهلها. لكن ربّما لا نرى بعض الأشياء لأنّها كبيرة جدّاً. كنّا ننظر إلى الشيء نفسه، ونفكّر في الشيء نفسه، ونتحدّث عن الشيء نفسه، غير أنّه كان ينظر إلى الأشياء، ويراها، ويتحدّث عنها، ويفكّر فيها من منظور مختلف تماماً.

هو حقّاً يهتمّ بالتكنولوجيا، لكنّه من هذا المنظور كثيراً ما يفشل، ويصل إلى نقطة مسدودة، وكثيراً ما يصاب بالإحباط. وهو يحاول أنّ يستخدمها دون تفكير عقلاني، ويحاول مرَّة ثانية وثالثة ورابعة، لكنّه يستسلم، ومن ثمّ ينعتها بأشنع الصفات. ولا يعتقد - أو لا يستطيع - أنّ يعتقد أنّ هناك طريقة في العالم للتعامل مع الأشياء غير الطريقة السهلة المعتادة.

هذا هو البعد الذي يضع حاله فيه. البعد السهل المعتاد. كنت في حديثي عن جميع الأشياء الميكانيكيّة صادقاً إلى أبعد حدٍ، فتحدّثت عن القطع، والعلاقات والتحليل والتركيب ومحاولة معرفة الأشياء، وكلّ هذه الأشياء

ليست متوافرة في حالة (جون)، هي موجودة في مكان آخر. قد تعتقد أنّها متوافرة هنا، لكنّها بعيدة كلّ البعد عن هذا المكان. وهذا هو جوهر الأمر. هذا الاختلاف في النهج الذي يرتكز عليه هو ذاته الذي ترتكز عليه الكثير من التغيّرات الثقافيّة في الستينيّات على ما أعتقد، والذي ما يزال في طور إعادة تشكيل نوعيّة رؤيتنا للأشياء. ونتج عن هذا الاختلاف «فجوة في الأجيال»، ونتجت عنه معانٍ جديدة للكلمات كـ«قبيح» و«رائع» للكلمتين «beat» و«hip» على التوالي. وبدا واضحاً أنّ هذا البعد ليس بدعة ستزول العام القادم، أو العام الذي يليه، وإنّما سيبقى لأنّه طريقة جادّة ومهمّة جدّاً في رؤية الأشياء التي لا تنسجم مع المنطق والنظام والمسؤوليّة، وهي في الحقيقة ليست كذلك. ونحن الآن وصلنا إلى أصل الأشياء.

تيبست قدماي، بحيث أصبحتا تؤلمانني. أخذت أمددهما الواحدة تلو الأخرى، وأدير قدمي إلى اليسار ثمّ إلى اليمين بقدر ما أستطيع. ساعدني الأمر على التخلّص من التيبس، لكنّه أتعب العضلات الأخرى من جرّاء مد القدمين إلى الأعلى.

ما لدينا هنا هو صراع في **رؤى الواقع**. فالعالم - كما نراه في هذا المكان وهذا الزمان- هو **الواقع**، بصرف النظر عمّا يقول العلماء عنه. هذه هي الطريقة التي يرى (جون) فيها العالم، لكن العالم كما تمَّ معرفته عبر الاكتشافات العلميّة هو الواقع أيضاً - بصرف النظر عمّا يبدو، وعلى الناس الموجودين في حلف (جون) عليهم بأكثر من تجاهل العالم إن أرادوا التمسّك بالطريقة التي يرون فيها العالم. وسيكتشف (جون) هذا الأمر عندما تحترق دوائره الكهربائيّة.

هذا هو السبب الحقيقي الذي جعله يفقد أعصابه لمّا لم يستطع تشغيل درّاجته ذلك اليوم. لقد كان بمثابة **انتهاك لواقعه**، لقد شكّل خرقاً كبيراً في الطريقة الكماليّة التي يرى فيها الأشياء، ولن يستطيع أنّ يرتقي إلى مستوى التغيير، لأنّه يعدُّ تهديداً لنمط حياته بأكمله، ويمكن القول إنّه عانى نوع الغضب نفسه الذي كان العلماء يحملونه تجاه الفنّ المجرّد. فهو لا ينسجم مع نمط حياتهم.

لدينا هنا في الحقيقة واقعانِ، أحدهما يتعلَّق بالمظهر الفنّي المباشر، ويتعلَّق الآخر بالتفسير العلمي الضمني. ولا يتطابق كلا الواقعين، ولا يلتقيان، وليس لأحدهما علاقة بالآخر. وهذا موقف شائك، وقد تعتقد أنّ ثمّة مشكلة صغيرة هنا.

***

على امتداد بصرنا في الطريق الطويل المقفر نرى بقاليّة معزولة. ونجد خلف الدكّان مكاناً يمكنّنا أنّ نستريح فيه، فنجلس على بعض صناديق التخزين، ونتناول البيرة.

بدأ الإنهاك وألم الظهر يتسرّبان إليّ. فأدفع صندوق التخزين إلى الخلف وأتمدد عليه.

تظهر تعابير (كريس) أنَّه قد يؤول إلى شيء سيّء، لقد كان يوماً طويلاً وقاسياً. أخبرت (سيلفيا) لَّما كنّا في (مينيسوتا) أنّنا قد نواجه تدنيّاً في المعنويّات كالذي نراه الآن في يومنا الثاني أو الثالث، وها قد وجدناه. (مينيسوتا) – متى كان ذلك؟

تدخل البقاليّة امرأة سكرانة بالكامل لشراء بيرة لرجل جالس في سيّارتها

أصعب اللحظات.

أحاول أنّ أنزل أمتعتي بأسرع ما أستـ ت من الغباء بسبب الإنهاك إلى درجة أنني وضعت كلّ شيء بجانب طريق المخيم، دون أنّ أدرك مدى سوء المكان الذي اخترته. ومن ثمّ أدركت أنّ الجوّ كان عاصفاً جدّاً، فهذه رياح «السهول العليا». كان المكان شبيهاً بالصحراء، كلّ شيء مسفوع وجاف باستثناء بحيرة، كانت مجرّد حوض كبير. تهبُّ الريح من الأفق عبر البحيرة، وتضربنا بنفحات قويّة. حقّاً باردة. وأرى على بعد عشرين ياردة من الطريق بعض أشجار الصنوبر القصيرة، فأطلب من (كريس) نقل الأمتعة إليها.

لا ينقل الأمتعة، وإنّما يتوجّه إلى البحيرة، فأحمل الأمتعة بنفسي.

أرى خلال الاستراحة (سيلفيا) تبذل جهداً كبيراً في تجهيز الأشياء للطبخ، لكنّها كانت متعبة مثلي تماماً. تغيب الشمس.

جمع (جون) الأخشاب، لكنّها كانت كبيرة، والريح شديدة جدّاً بحيث أصبح من الصعب معها إشعال النار. علينا تكسير الخشب. فأتوجّه إلى أشجار الصنوبر المنخفضة، وأبحث في الظلام عن المدية، لكن الظلام دامس، ولا أستطيع العثور عليها. أحتاج إلى الضوء اليدوي. أبحث عنه، لكن الظلام شديد، ولا أجدها أيضاً.

أذهب إلى الدرّاجة، وأشغّلها، وأقودها إلى الخلف، لأوجه الضوء الأمامي على الأمتعة كي أجد الضوء اليدوي. أبحث في الأمتعة الغرض تلو الآخر لأجد الضوء اليدوي، لكنّي أحتاج وقتاً طويلاً لأدرك أنّني لا أحتاج الضوء اليدوي وإنّما المدية، التي كانت في مرأى الجميع. وبحلول

الوقت الذي أعدت فيه ترتيب الأمتعة، كان (جون) قد تمكّن من إشعال النار. فأستخدم المدية في تقطيع بعض الأجزاء الكبيرة من الخشب. يعود (كريس) حاملاً المصباح اليدوي.

يقول متذمّراً: «متى سنأكل؟»

أخبره أنّنا نحاول إعداد الطعام بأسرع ما نستطيع ثمّ أقول له: «ضع المصباح اليدوي هنا».

يختفي مرّة أخرى، حاملاً المصباح في يده.

تمنع الريح النار من الوصول عالياً لتطبخ شرائح اللحم. نحاول بناء حاجزٍ من الحجارة لصد الريح، لكن الظلام شديد فلا نجد ما نبحث عنه. فنحضر درّاجتينا، ونشغل أضواءهما. يا له من ضوء غريب. تنطلق أجزاء الرماد من النار، لتلمع فجأة بلون أبيض قبل أنّ تختفي مع الريح.

بانغ. نسمع دويّ انفجار خلفنا، ثمّ أسمع (كريس) يقهقه ضاحكاً. فتتضايق (سيلفيا)

يقول (كريس): «وجدت بعض المفرقعات الناريّة».

ألجم غضبي في الوقت المناسب، وأقول لـ(كريس)». حان وقت الطعام».

يقول: «أريد بعض عيدان الكبريت».

- «اجلس وكل».

- «أعطني بعض عيدان الكبريت أوّلاً».

- «اجلس وكل».

يجلس، وأحاول أنّ أتناول شريحتي باستخدام سكيّن التخييم، لكنّها

كانت قاسيّة جدّاً، ولهذا أخرج سكيّن صيد وأستخدمها بدلاً منها. ضوء الدرّاجة في عيني مباشرة، والسكيّن تلمع كلّما حركتها، فلم أستطع أنّ أرى أين تذهب.

يقول (كريس) إنّه لا يستطيع تقطيع شريحته أيضاً، فأعطيه السكيّن. وفي محاولته الوصول إليها، ينزل ما كان يحمل من طعام على الشادر.

لا ينبس أحدنا بكلمة.

لم أكن غاضباً أنّه دلق الطعام، لكنّي كنت غاضباً لأنَّ الشادر سيبقى مدهناً بقيّة الرحلة.

يسأل: «هل هناك المزيد؟»

أقول له: «كلْ هذه، لقد سقطت على الشادر فقط».

يقول: «إنّها وسخة جدّاً».

- «هي القطعة الوحيدة المتبقيّة».

تضربنا موجة من الكآبة. أريد النوم حقّاً، لكنّه غاضب، وأتوقّع أنّ نشهد واحداً من مشاهده الصغيرة. لم أنتظر طويلاً ليبدأ.

يقول: « لا أحبّ طعمها».

- «نعم، كانت قاسية».

- لا أحبّ أيّاً من هذا، لا أحبّ التخييم على الإطلاق».

تقول (سيلفيا): «لقد كانت فكّرتك، أنت من أراد أنّ نخيّم».

كان يجدر بها ألاّ تقول هذا، لكنّها لم تعلم هذا، كان يصطادنا بكلامه، فإنّ أكلت هذا الطعم، أطعمك غيره، ثمّ غيره حتّى تضربه، وهذا ما يريد.

يقول: «لا أهتّم».

تقول: «إذاً، عليك أنّ تهتم».

- «في الحقيقة، لا أهتم».

تقترب لحظة الانفجار جدّاً، تنظر (سيلفيا) و(جون) نحوي، لكنّي أبقى صامتاً، وآسف لهذا، ولا أستطيع فعل أي شيء الآن، فالجدال كفيل بجعل الأمور أسوأ.

يقول (كريس): «لست جائعاً».

لا يجيب أحد.

يقول: «معدتي تؤلمني».

نتجنّب الانفجار حين ينهض (كريس) ويتوجّه نحو الظلام.

ننهي طعامنا، وتساعد (سيلفيا) في تنظيف الأشياء. ثمّ نجلس قرب النار لمدّة من الزمن. نطفئ أضواء الدرّاجة لتوفير البطاريّة، ولأن ضوءها بشع. تهدأ الريح قليلاً، وهناك ضوء قادم من النار، تعودّت عيناي عليه بعد مدّة من الزمن. لم يعدّ (كريس).

تسألني (سيلفيا): «هل تعتقد أنَّه **يعاقبنا** بفعلته هذه؟»

أقول: «نعم، أعتقد ذلك، مع أنَّه غير محقٍ في هذا».

أفكّر قليلاً ثمّ أقول: «هذا مصطلح خاصّ بعلم نفس الطفل، وهو سياق أكرهه. دعونا نقول إنّه حقّاً وغد».

يضحك (جون) قليلاً.

أقول: «لقد كان غداء لذيذاً، مع ما حدث، أنا آسف جدّاً لتصرّفه على هذا النحو».

«لن يضرّه هذا الأمر».

- «هل تعتقد أنَّه ضاع هناك في الظلام».
- «لا، كان سيصرخ لو أنَّه ضاع».

بدأت، بعد خروجه وعدم وجود ما يشغلنا، أشعر في المكان حولنا. ما من نأمة في أيّ مكان. فقط سهول مهجورة.

تقول (سيلفيا): «هل تعتقد أنّ معدته تؤلمه حقّاً؟»

أقول بشكل قاطع: «نعم»، وكنت آسفاً للاستفاضة في الموضوع. لكنّهما جديران بتفسير أفضل من الذي سمعناه. يدركان على الأرجح أنّ الأمر أعمق ممّا رأيا أمامهما. فأقول في نهاية المطاف: «أنا متأكّد أنَّه جائع. فقد جرّب الأمر ما يزيد على ست مرات. وكان سيّئاً جدّاً إلى حدّ أنّنا اعتقدنا أنّ ما يعاني منه هو التهاب الزائدة الدوديّة. أتذكّر أنّنا كنّا في رحلة إلى الشمال، وأتذكّر أنّني كنت قد أنهيت للتوّ مقترحاً هندسيّاً بعقد قيمته خمسة ملايين دولار استنفذ كلّ جهدي. هذا عالم آخر. لم يكن لديّ الوقت ولا الصبر، وكان عليَّ إنجاز ستمائة صفحة من المعلومات خلال أسبوع. وكنت على وشك قتل ثلاث أشخاص. اعتقدنا أنّ من الأفضل لنا أنّ نذهب إلى الغابة لمدّة من الزمن».

- «لا أستطيع أنّ أتذكّر في أيّ جزء من الغابة كنّا، كان رأسي مثقلاً بالمعلومات الهندسيّة. وكان (كريس) يصرخ. لم نستطع أنّ نلمسه، وصمّمت على أنّ أحمله بسرعة إلى المستشفى، وهذا ما فعلت ولم يجدوا لديه شيئاً».
- «لا شيء؟»
- «لا، ولكن تكرّر الأمر في مناسبات أخرى».

تسأل (سيلفيا): «ألم يكن لديهم أدنى فكرة عمّا كان يعاني؟»

- «شخّصوه هذا الربيع ببداية عوارض مرض عقلي».

يقول (جون): «ماذا؟»

يشتدّ الظلام، فلم أعدّ أرى (جون)، أو(سيلفيا) أو حتّى حدود التلال. أصغي إلى الأصوات البعيدة، ولا أسمع أيّاً منها. لا أعرف بماذا أجيب، ولهذا لم أقلّ شيئاً.

حين أمعن النظر، أستطيع رؤية النجوم فوقنا، لكن النار أمامنا تجعل رؤيتها صعبة. يزداد الظلام شدّة وغموضاً. تسقط سيجارتي بيدي فأطفئها.

يجيء صوت (سيلفيا) وقد تبدّدت كلّ ملامح الغضب: «لم أعرف هذا. كنّا نتساءل لما أحضرت (كريس) بدلاً من زوجتك. أنا سعيد أنّك أخبرتنا». يغرز (جون) بعض نهايات الأعواد الخشبيّة في النار.

تقول (سيلفيا): «لكن ما السبب؟»

يصدر (جون) صوتاً أجشاً كما لو كان يحاول أنّ يمنعها من الحديث في الموضوع. لكنّني أجيب: «لا أعرف، فالأسباب والنتائج لا تبدو متطابقة. والأسباب والنتائج نتاج الفكر. وكنت أعتقد أنّ المرض العقلي يحدث قبل الفكر». لم تكن العبارة مفهومة لديهم. أنا متأكّد من ذلك. ولم تكن منطقيّة لي أيضاً. وكنت متعباً جدّاً لأفكر بها، ولهذا استسلمت.

يسأل (جون): «لكن ماذا يعتقد الأطبّاء النفسيّون؟»

- «لا شيء، أوقفت الأمر كلّه».

- «أوقفته؟»

- «نعم».

- «وهل كان الأمر جيّداً؟»
- «لا أعلم، ليس هناك من سبب منطقي لأدعم قولي بأنَّ الأمر غير جيّد. إنّما معوقات عقليّة خاصّة بي. فكّرت في الأمر وبأسبابه الجيّدة. ووضعت الخطط للموعد، وبحثت عن رقم الهاتف، ومن ثمّ أصابتني الصدمة العقليّة. وكانت كالباب الذي أوصد بإحكام.
- «لا يبدو الأمر صائباً».
- «يعتقد الجميع أنّ الأمر غير صائب. أعتقد أنّني لا أستطيع تحمّل المزيد».

تقول (سيلفيا): «لكن لماذا؟»

- «لا أعلم، ما السبب ... إنّما هي ... لا أعلم... هم ليسوا أقارب» (kin). كلمة غريبة على ما أعتقد، ولم استخدمها من قبل، ليسوا أقارب... بدت الكلمة كحديث شخص متخلّف....ليسوا من النوع نفسه (kind)..... الجذر نفسه... اللطف (kindness)، أيضاً... لا يولونه لطفاً حقيقيّاً، فهم ليسوا أقارب... هذا هو الشعور بحق.

كلمة قديمة، قديمة جدّاً. ويمكن القول إنّها سقطت. يا له من تغيير مرّت به عبر القرون. يستطيع الآن أيّ شخص أنّ يكون لطيفاً، وكلّ شخص يفترض أنّ يكون كذلك. لكن الفرق يكمن في اللطف كان في الماضي يولد مع الشخص، ولا تستطيع تغييره، أمّا الآن فهو موقف مصطنع معظم الوقت كالمعلّمين في أوّل يوم لهم في التدريس. لكن ماذا يعرف عن العطف من ليسوا أقارب؟

ترنّ الكلمة في عقلي. والكلمة (mein Kind) في الألمانيّة تعني طفلي

والكلمة و(Mein Kinder) تعني أطفالي. ومن **يقود حصانه في ليله الموحش العاصف غير الأب وابنه.**

تتولّد لديّ مشاعر غريبة عن هذا التشابه.

تسألني (سيلفيا): «بماذا تفكّر؟»

- «أفكّر بقصيدة قديمة لـ(غوته) عمرها مائتا عام. اضطررت لتعلُّمها قبل وقت طويل. ولا أعلم لماذا تذكّرتها الآن باستثناء...». يعاودني الشعور الغريب مرَّة أخرى.

تسأل (سيلفيا): «عن ماذا تدور القصيدة؟»

أحاول التذكّر وأقول: «كان هناك رجل يركب حصانه على الشاطئ ليلاً مطلقاً عنانه، والد وابنه الذي يحمله بين ذراعيه بإحكام. يسأل ابنه لماذا يبدو شاحباً، فيجيب الابن: «ألا ترى الشبح، يا أبتِي؟» يحاول الأب تطمين ابنه بأنَّ ما يراه هو الضباب، وأنَّ ما يسمعه ناتج عن صوت الريح مع أوراق الشجر، لكن الابن يواصل القول بأنّه الشبح، ويقود الاب حصانه بسرعة أكبر عند الليل».

- «كيف تنتهي القصيدة؟»

- «بالفشل... مات الطفل، وربح الشبح».

تشتدّ الريح وتبعد بعض الجمر عن الفحم، فأرى (سيلفيا) تنظر إليّ فزعة.

أقول: «لكن تلك أرض مختلفة، والزمان مختلف، الحياة هنا هي نهاية الأشباح، وليس للأشباح معنى. أنا أؤمن بذلك، أنا أؤمن بهذا كلّه. ومع أنّني لست متأكّداً ممّا تعنيه الكثير من الأشياء هذه الأيّام، ربّما لهذا السبب

أتكلّم كثيراً».

يخبو الفحم رويداً رويدا. ندخّن سجائرنا. وما يزال (كريس) في الظلام، ولن أبحث عنه. يصمت (جون) بحذر، وتصمت (سيلفيا) أيضاً، وفجأة انفصلنا عن بعضنا. كلٌّ في عالمه، ولم يعدّ هناك تواصل بيننا. أطفأنا النار، وذهبنا إلى أكياس النوم بين الصنوبر.

أكتشف أنّ هذا الملجأ الصغير بين أشجار الصنوبر القصيرة كان أيضاً ملجأ لملايين البعوض القادم من البحيرة. لم تعقها رائحة طارد البعوض. أدب عميقاً في كيس نومي، وأبقي فتحة صغيرة للتنفس. كنت تقريباً نائماً حين عاد (كريس).

يقول وهو يدوس على أوراق الصنوبر: «هناك كومة كبيرة من الرمال في ذلك المكان».

أجيبه: «نعم، اخلد للنوم».

- «عليك أنّ تراها، هل ستأتي لنراها غداً».

- لن يكون لدينا الوقت لهذا».

- «هل أستطيع أنّ ألعب هناك غداً؟»

- «نعم».

أصدر أصواتاً مزعجةً متقطّعةً أثناء خلعه ملابسه ودخوله كيس النوم. دخل الكيس وتقلّب قليلاً.

ومن ثمّ صمت، وبعدها تقلّب قليلاً، ومن ثمّ قال: «أبي».

- «ماذا؟»

- «كيف كانت الحياة لمّا كنت صغيراً؟»

سمعت لاحقاً صوت استنشاق بلغم مرتفع جدّاً، الأمر الذي أدركت من خلاله أنّه كان يبكي، ومع أنّني كنت منهكاً، إلاّ أنّني لم أستطع النوم. وكلمات قليلة من المواساة قد تساعد. كان يحاول أنّ يكون ودوداً. لكن لم تصدر عني كلمات المواساة لسبب ما. فهي مناسبة مع الغرباء والمستشفيات، وليس مع الأقارب. وهو لا يرغب في الحصول على بعض الكلمات العاطفيّة المساعدة. لا أعلم ماذا يريد وما الأمر الذي كان يسعى إليه.

ظهر في الأفق خلف أشجار الصنوبر قمر محدودب، وقست عبر قوسه البطيء المريض ساعات طوالاً من الأرق. كنت متعباً جدّاً. يختلط القمر، والأحلام الغريبة وأصوات البعوض، وشظايا الذكريات في مشاهد طبيعيّة مفقودة غير حقيقيّة، كان فيها القمر مشعاً، وكان فيها ركام من الضباب، وكنت فيها أقود حصاناً، وكان (كريس) معي. يقفز الحصان فوق جدول صغير يجري عبر الرمال، نحو المحيط في مكان ما خلفه. ومن ثمّ كان المشهد يختفي ليعاود الظهور مرَّة أخرى.

تظهر في الضباب ملامح شخصيّة ما، كانت تختفي لمّا كنت أنظر فيها مباشرة، وتعاود الظهور في زاوية رؤياي لمّا أشيح بنظري عنها. كنت على وشك قول شيءٍ، أنّ أناديها، أن أعرفها، لكن لم أقل شيئاً. مدركاً أنّني إن عرفتها عبر أيّ إشارة أو فعلٍ سأعطيها حقيقة عليها أنّ تتمسك بها. لكن هي شخصيّة عرفتها مه أنّني لم أجزم أنّها هي. أعتقد أنّها شخصيّة (فيدورس).

روح شرّيرة، غير عاقلة، من عالم لا موت فيه ولا حياة.

تتلاشى الشخصيّة، وأتملّك زمام خوفي... بإحكام ... ودون استعجال... تاركاً له الاختفاء رويداً... دون أنّ أصدّق ولا أصدّق...

وكان شعري يزحف ببطء خلف جمجمتي... كان ينادي (كريس). هل هذا حقّاً. نعم حقّاً؟





تشير ساعتي إلى التاسعة صباحاً، وقد تجاوزت الحرارة الحدّ المناسب لمواصلة النوم. والشمس خارج كيس النوم، مرتفعة عالياً في السماء. والهواء حولنا صافٍ وجاف.

أنهض وعيوني منتفخة ومفاصلي ملتهبة من النوم على الأرض. فمي جاف ومتفطّر، ولسعات البعوض تغطّي وجهي ويديَّ. أُحسّ بألم من جرّاء سفعة شمس أصابتني صباح أمس.

وراء أشجار الصنوبر، هناك عشب محروق وأكوام من التراب والرمال لامعة جدّاً، فلا نتمكّن من النظر إليها. وتمدّك الحرارة والصمت والتلال القاحلة، والسماء الفارغة بإحساس بعظمة المكان وشدّته.

ليس هناك رطوبة في السماء، وسيكون اليوم لاسعاً.

أمشي بين أشجار الصنوبر إلى امتداد من الرمال القاحلة بين بعض الأعشاب، وأنظر متأمّلاً لمدّة طويلة.

قررّت أنّ تكون تشوتوكوا اليوم لاستكشاف عالم (فيدروس). وأضمرت النية مسبقاً أنّ أحاول إعادة صياغة بعض أفكاره التي لها علاقة بالتكنولوجيا والقيم الإنسانيّة، وألاّ أشير إليه شخصيّاً. غير أنّ نمط التفكير والذاكرة الذي حدث ليلة أمس قادني إلى أنّ هذا النهج ليس الطريق المناسبة لطرق الموضوع، وإن حذفه الآن سيكون أشبه بالهروب من شيء لا يجدر الهروب منه.

رجع إلى ذاكرتي هذا الصباح ما قاله (كريس) عن جدّة صديقه الهندي الأحمر، لعلي أوضح بعض الأشياء. قالت إن الأشباح تظهر لمّا لا يدفن شخص ما بطريقة صحيحة. هذا صحيح. لم يدفن بشكل صحيح مطلقاً، وهذا هو سبب المشكلة.

أستدير فأرى أنّ (جون) قد نهض، ونظر إليّ نظرة مستطلّعة. لم يقف تماماً، بل راح يمشي مستديراً بلا هدف، ليصحو. وسرعان ما استفاقت (سيلفيا)، وعينها اليسرى منتفخة. أسألها ماذا حدث؟ فتقول إنّها من لسع البعوض. أبدأ بجمع أغراضنا لإعادة توضيبها. ويفعل (جون) الفعل نفسه.

حين ننتهي، نحاول إشعال النار، بينما تجهّز (سيلفيا) لوازم الفطور من لحم الخنزير المقدّد والبيض والخبز.

حين يجهز الفطور أذهب إلى (كريس) وأوقظه. لم يكن يريد أنّ يستيقظ. أخبره مرّة أخرى، فيقول: لا، فأمسك بكيس النوم من الأسفل، وأنفضه كما أفعل بغطاء الطاولة، فيخرج منه على أوراق الصنوبر الحادّة. يستغرق بعض الوقت ليستوعب ما حدث. وخلال ذلك ألفُّ كيس النوم.

يجيء إلى الفطور شاعراً بالإهانة، ويقضم قضمة واحدة، ويقول إنّه ليس جائعاً، وإنّ معدته تؤلمه. فأشير إلى البحيرة في الأسفل، التي استغربنا وجودها في منتصف هذه الأرض شبه الصحراويّة. لكنّه لا يبدي أيّ اهتمام. يعيد شكواه، وأغضّ الطرف عمّا يقوله، ويفعل (جون) و(سيلفيا) بالمثل.

أشعر بالسعادة لأنّني أخبرتهم بما كان يعاني. وإلاّ كنت قد تسبّبت ببعض الخلافات.

ننهي فطورنا بصمت، وكنت هادئاً هدوءاً غريباً. قد يكون للقرار الذي اتخذّته عن (فيدروس) علاقة بحالتي. لكنّنا على ارتفاع ما يقرب مائة قدم فوق سطح الماء، وننظر عبره إلى نوع من الاتساع المتعلق بالمناطق الغربيّة من أمريكا. التلال قاحلة. ما من شخص في أيّ مكان، ولا حتّى نأمة واحدة. في مكان كهذا يوجد شيء ما من شأنه أنّ يرفع معنويّاتك ويجعلك تعتقد أنّ الأشياء ستتحسّن.

حين كنت أحزم أمتعتي فوق رفّ الأمتعة، أرى باندهاش أنّ الإطار الخلفي مهترئ قليلاً من الثقل، ولا بدّ أنّ السرعة، والحمل الثقيل والحرارة قد سبّبت هذا الاهتراء. السلسلة متدليّة، فأخرج الأدوات لتعديلها.

يسألني (جون): «ما الأمر؟»

- «لقد انمسحت أسنان المسمار الملولب أثناء تعديلي السلسلة».

أزيل المسمار الملولوب، وأتفحّص أسنان المسمار. أقول: «إنّه خطأي وحدي لمحاولتي تعديله دون إرخاء صمولة محور العجل. كان المسمار جيّداً».

أجعله يراه وأقول: «يبدو أنّ الأسنان الداخليّة في الهيكل هي الممسوحة».

ينظر (جون) إلى العجلات طويلاً ويقول: «هل تعتقد أنّك تستطيع أنّ تصلحها في المدينة؟»

- «نعم، بكلّ تأكيد، تستطيع أنّ تقودها إلى ما لا نهاية، لكنّها تجعل السلسلة صعبة التعديل».

يراقب بعناية كيف أزيل صمولة المحور الخلفي حتّى تصبح طليقة، وأطرقها من الجهتين حتّى تشتدّ السلسلة ولا يعود بها تراخ، ثمّ أشدّ صمولة المحور بكلّ قوّتي لمنع المحور من الانزلاق إلى الأمام لاحقاً. وأستبدل مسمار التثبيت. وعلى عكس صمولات المحور في السيّارة، لا تؤثّر هذه في شدّ حواضن الامتصاص.

يسألني (جون): «كيف تعلّمت فعل هذا؟»

- «عليك أنّ تتصوّر الأمر بنفسك».

يقول: «لم أكن لأعرف من أين أبدأ؟»

أفكّر للحظة، هذه هي المشكلة، من أين تبدأ؟ وللوصول إليه، عليك أنّ تعود إلى الوراء ثمّ إلى الوراء، وكلّما عدت إلى الخلف أدركت أنّ عليك العودة إلى الخلف، حتّى تدرك أنّ ما كان يبدو مشكلة صغيرة في الاتصال قد غدا قضيّة فلسفيّة كبيرة. هذا هو محور التشوتوكوا.

أعيد توضيب صندوق العدّة، وأغلق لوحات الغطاء الجانبيّة، وأفكّر بيني وبين نفسي إنّه يستحقّ العودة إليه.

على الطريق يبرّد الهواء الجاف قطرات العرق التي تصبّبت نتيجة العمل بالسلسلة، وينتابني شعور جيّد لمدّة من الوقت. لكن ما إن تجفّ قطرات العرق حتّى يصبح الجوّ حارّاً. لابدّ أنّها في الثمانين اليوم.

لم تكن هناك حركة مروريّة كثيفة على الطريق، وكنّا نمضي قدماً. إنّه يوم سفر.

* * *

الآن أريد أنّ أفي بعهدٍ قطعته على نفسي. ويجب أنّ أقول إن هناك شخصاً واحداً لم يعدّ موجوداً، وكان لديه ما يقوله، فقاله ولكن لم يصدّقه أو لم يفهمه أحد. وتمّ نسيانه بالكامل. ربّما كنت أفضّل لأسباب سآتي على ذكرها لو بقي طيّ النسيان، لكن ليس لدينا من خيار غير إعادة فتح القضيّة.

لا أعرف قصّته بالكامل، ولن يعرفها أحد بالكامل، باستثناء (فيدروس) نفسه، وهو لا يستطيع الكلام بعد الآن. لكن نستطيع من كتاباته، وممّا قاله الآخرون عنه، ومن شظايا ذاكرتي، أنّ نستجمع ما يعدّ تقارباً لما كان يتحدّث عنه. ونظراً إلى أنَّ الأفكار الرئيسة لهذا التشوتوكوا مأخوذة منه نفسه، لن يكون هناك انحراف حقيقي، وإنّما توسّع كفيل بجعل التشوتوكوا مفهومة أكثر ممّا لو كانت قد طرحت بطريقة مجردة تماماً. والغاية من هذه التوّسعة ليس الجدال لصالحه، ولا مدحه، وإنّما لدفنه إلى الأبد.

وعوداً إلى الوقت الذي كنّا نسافر فيه في (مينيسوتا) عبر المستنقعات، تحدّثت عن أشكال التكنولوجيا، «القوّة المميتة» التي كان (جون) و(سيلفيا) يحاولان الفرار منها. وأريد الآن أنّ أتحرّك بالاتّجاه المعاكس بعيداً عن عائلة (سذرلاند) نحو القوّة، وفي الصميم. وإن فعلنا ذلك، سندخل عالم (فيدروس)، العالم الوحيد الذي كان يعرفه، وبه كلُّ أشكال الفهم قائمة على الشكل الضمني.

عالم الشكل الضمني موضوع غير اعتيادي للنقاش، لأنّه نفسه مثار

نقاش وجدل. فأنت تناقش الأشياء من حيث مظهرها المباشر أو من خلال شكلها الضمني. وحين تحاول الحديث عن هذه الطرق، فإنّك تتورّط بما يمكن تسميته مشكلة المنصّة. فليس لديك منصّة تستطيع من خلالها مناقشة هذه الطرق سوى الطرق نفسها.

كنت في ما مضى أتحدّث عن عالم الشكل الضمني الخاصّ به، أو إحدى جوانبه التي تسمّى بالتكنولوجيا من وجهة نظر خارجيّة. لكنّي أعتقد الآن أنّه من الأجدر التحدّث عن عالم الشكل الضمني باستخدام العالم ذاته من المنظور الخاصّ به. وأريد أنّ أتحدّث عن الشكل الضمني لعالم الشكل الضمني نفسه.

ولهذا، علينا إيجاد الفروق الجوهريّة بين المنهجين. وقبل أنّ أستطيع استخدامها، لا بدّ لي من أنّ أرجع لأقول **ما هي** وماذا تعني؟ هذه قصّة طويلة بذاتها، وهي جزء من مشكلة الرجوع ذاتها. لكن الآن أريد أنّ أستخدم ثنائيّةً ما سأفسرّها لاحقاً. أريد أنّ أقسم الفهم البشري إلى نوعين: الفهم الكلاسيكي، والفهم الرومانسي. وليس لهذا الانقسام معنىً كبير إن قسناه بمقاييس الحقيقة المطلقة، لكنّه انقسام منطقي عندما نعمل في إطار الطريقة الكلاسيكيّة المستخدمة في اكتشاف عالمٍ من الشكل الضمني أو خلقه. والمصطلحان **كلاسيكي ورومانسي** كما استخدمهما (فيدروس) يعنيان التالي:

يرى الفهم الكلاسيكي العالم أساساً كشكل ضمني، في حين أنّ الفهم الرومانسي يرى العالم في إطار المظهر المباشر. فلو عرضت على شخصٍ رومانسيٍ محركاً، أو رسما ميكانيكيّاً، أو مخطّطاً إلكترونيّاً، فإنّه من غير المرجّح

أنّ يبدي اهتماماً كبيراً به. فليس لهذه الأشياء جاذبيّة لديه، لأنَّ الحقيقة التي يراها هي التي تبرز على السطح. أرقام، وسطور، وقوائم أسماء معقّدة ومملّة، ولا شيء مثير للاهتمام. لكن إن عرضت المخطّط نفسه أو الوصف نفسه على شخص كلاسيكي، فإنّه سيتفحّصه ويصبح مغرماً به، لأنّه يرى ما بين السطور والأشكال والرموز التي تعدّ ثريّة بالأشكال الضمنيّة.

الطريقة الرومانسيّة بمجملها طريقة روحانيّة، وتصوريّة، وإبداعيّة، وحدسيّة. فالمشاعر لا الحقائق هي المسيطرة. و«الفنُّ» عند مماثلته «بالعلم» رومانسي، ولا ينطبق عليه المنطق ولا القوانين. وإنّما الإحساس، والحدس، والضمير الجمالي. ويرتبط المنهج الرومانسي في شمال أوروبّا بالأنوثة، لكن لا يعدّ هذا الارتباط وثيقاً.

أمّا المنهج الكلاسيكي فيرتكز على العقل، وعلى القوانين التي تعدّ أشكالاً ضمنيّة للفكر والسلوك. ويعدّ هذا المنهج في الثقافات الأوروبيّة مذهباً ذكوريّاً، ولهذا تعدّ حقول العلم والقانون والطب غير جذّابة للنساء بشكل عام. ومع أنّ قيادة الدرّاجة شيء رومانسيّ، تعدّ صيانة الدرّاجة كلاسيكيّةً بالكامل. فالوسخ والشحم وإتقان الأشكال الضمنيّة المطلوبة يجعل عمليّة صيانة الدرّاجة عمليّةً رومانسيّةً سلبيّة، وهو أمرٌ تنفر منه النساء.

ومع أنّ البشاعة السطحيّة موجودة في الطريقة الكلاسيكيّة للتحليل، إلاّ أنّها ليست جزءاً جوهريّاً فيها. وهناك جمالٌ كلاسيكي كثيراً ما يفوته الرومانسيّون بسبب رقّته. فالأسلوب الكلاسيكي مباشرٌ، وغير مزخرف، وغير عاطفي، واقتصادي، ومتوازن بعناية. والهدف منه ألاّ يلهم أتباعه عاطفيّاً، وإنّما إيجاد نظام في الفوضى، وجعل غير المعروف معروفاً. وهو

أسلوب طبيعي ومع احتفاظه بالجمال لا يخلو من الجمال. وكلّ شيء فيه مسيطر عليه، وتقاس قيمته عبر المهارة التي يتمّ من خلالها المحافظة على هذه السيطرة.

يبدو المنهج الكلاسيكي مثلما وصفناه للشخص الرومانسي مملاً، ورتيباً وبشعاً كالصيانة الميكانيكيّة نفسها. فكلّ شيء يتمّ عبر الأجزاء والقطع، والمكوّنات، والعلاقات ولا ينجز شيء حتّى يجرّب على الكمبيوتر عشرات المرّات. ويجب قياس كلّ شيء وإثباته. منهجٌ ظالمٌ وثقيلٌ ورماديٌ بلا نهاية، هو قوّة الموت.

وللمنهج الرومانسي بعض المظاهر الخاصّة به ضمن المنهج الكلاسيكي. فهو مذهبٌ عابثٌ، ولا عقلاني، وشهواني، وغير جديرٍ بالثقة، ويهتمّ أساساً بالبحث عن المتعة، وهو ضحل، وليس له كيان، وفي معظم الأحيان، طفيلي لا يستطيع ولن يستطيع حمل وزنه، وهو حمل ثقيل على المجتمع. وينبغي أنّ يكون لهذه الأسطر المتأجّجة وقع الآن.

هذا هو أصل المشكلة، إذ يميل بعض الناس للتفكير والشعور متّخذين منهجاً واحداً فقط، وهم إن فعلوا ذلك يميلون لإساءة فهم المنهج الآخر والتقليل من شأنه. لكن لا ترغب أيّ جهة في التخلّي عن الحقيقة كما تراها. وبحسب ما أعلم، ليس هناك من شخص يعيش حالة مصالحة تجمع هذه الحقائق والطرق، وليس هناك من نقطة يمكن عندها توحيد رؤى الحقيقة.

نتيجة لهذا، بدأنا في هذه الأوقات نرى انقساماً كبيراً يتطوّر بين الثقافة الكلاسيكيّة والثقافة الرومانسيّة المعاكسة؛ عالمان تزداد غرابة كلٍّ منهما عن الآخر، وتزداد كراهية أحدهما للآخر. والكلّ يتساءل عمّا إذا كانت الأمور

ستبقى على هذا الشكل على الدوام، بيتاً منقسماً على نفسه. ولا يريده أحد بحقٍّ مع ما قد يعتقده خصومه في الطرف الآخر.

في ظل هذا السياق تكمن أهميّة ما يعتقده (فيدروس) ويقوله. لكن لم يكن أحد في ذلك الوقت يستمع له. فقد كانوا يعتقدون أنّه غريب الأطوار في البداية، ومن ثمّ شخصاً غير مرغوب به، ثمّ مجنوناً قليلاً، ثمّ غير عاقلٍ تماماً. ولم يكن هناك قليلٌ من الشك أنّه غير عاقل. لكن أشارت معظم كتاباته في تلك المدّة، إلى أنّ ما كان يدفعه للجنون إنّما هو رأي الناس العدواني به. وكثيراً ما يولد السلوك غير المعهود نوعاً من الاغتراب لدى الآخرين من شأنه أنّ يولد مزيداً من السلوك غير المعهود، وبالتالي من الاغتراب في حلقات من التأجّج الذاتي حتّى تصل إلى مرحلة الذروة. وتمثّلت في حالة (فيدروس) في اعتقال الشرطة له تنفيذاً لأمر المحكمة، ومن ثمّ عزله عن المجتمع.

أرى أنّنا كنّا في المسرب اليسار للشارع (يو إس 12)، وأنَّ (جون) قد توقّف لتعبئة خزّان وقوده، فتوقّفت إلى جانبه.

يشير مؤشّر الحرارة المثبت بجانب باب المحطّة إلى (92) درجة فهرنهايتيّة، فأقول: «سيكون يوماً صعباً آخر»، وعندما ننتهي من تعبئة خزّانات الوقود، نقطع الشارع إلى مطعمٍ لشرب القهوة. وبالطبع يشعر (كريس) بالجوع.

أقول له إنّني كنتٌ أنتظر هذا الحادث، وأخبره أنّ عليه أنّ يأكل معنا جميعاً أو لا يأكل. لم أكن غاضباً، وإنّما أحاول أنّ أوضح له الأمور. بدا ساخطاً، لكنّه يدرك كيف ستسير الأمور.

ألمح نظرة خاطفة من (سيلفيا)، من الواضح أنّها ظنّت أنّ هذه الحالة ستكون مشكلة طويلة.

وحين ننهي قهوتنا، نخرج. ولأن الحرارة لاسعة، نركب درّاجتنا وننطلق بأسرع ما نستطيع. ومرّة أخرى، كانت هناك لحظة برودة سرعان ما زالت، وجعلت الشمس العشب المحترق، والرمال لامعة جدّاً الأمر الذي جعلني أحدّق النظر لأتفادى حدّة الوهج. الطريق (يو إس 12)، طريق قديم وسيء. الخرسانة المكسّرة مرقوعة بالزفت، ومليئة بالمطبّات. وتشير لافتات الطرق إلى تحويلات أمامنا. وتنتشر على جانبي الطريق بعض المستودعات، والأكواخ والأكشاك المهترئة التي تراكمت عبر السنين. والحركة المروريّة الآن كثيفة. وأنا أشعر بالسرور لأنّي فكّرت بالعالم العقلاني، التحليلي، الكلاسيكي لدى (فيدروس).

استُخدمت العقلانيّة التي نودي بها منذ القدم لإبعاد الشخص نفسه عن الملل والكآبة اللتين تكتنفانِ المحيط المباشر للشخص. لكن ما يجعلها صعبة الملاحظة هو أنّنا لمّا كنّا نهرب بعيداً عنها بالكامل، كان الهروب ناجحاً جدّاً، الأمر الذي دفع الرومانسيّين للهرب منها بالكامل. ما يعقّد رؤية عالمه بوضوح ليس غرابته، وإنّما إلفته. فإلفته تستطيع أنّ تعمي الشخص أيضاً.

تولِّد طريقته في رؤية الأشياء نوعاً من الوصف، يمكن أنّ نسمّيه وصفاً «تحليليّاً». وهذا اسم آخر للمذهب الكلاسيكي، الذي يمكن من خلاله مناقشة الأشياء بالحديث عن شكلها الضمني. كان شخصاً كلاسيكيّاً حقّاً. ولأعطيكم وصفاً كاملاً بما أعني سأطبّق منهجه التحليلي على المنهج نفسه، وأحلّله. وسأفعل هذا أوّلاً بإعطائكم مثالاً مطوّلاً عليه، ومن ثمّ

تحليله. وتعدّ الدرّاجة الناريّة مثالاً رائعاً، لأنَّ الدرّاجة قد اخترعت بعقول كلاسيكيّة بحتة. ولهذا استمع.

يمكن تقسيم الدرّاجة لأغراض التحليل العقلاني الكلاسيكي عبر عناصرها المكوّنة لها وعبر وظائفها. فإنّ قسّمناها عبر عناصرها المكوّنة لها، فهي تتكوّن من مركب القوّة، ومركب الحركة. ومركب القوّة يتكوّن من المحرّك، ونظام توصيل القوّة، وسنتحدّث عن المحرّك أوّلاً.

يتكوّن المحرّك من حجرة تحتوي ناقل الحركة، ونظام الوقود والهواء، ونظام الاشتعال، ونظام التغذية الراجعة، ونظام التشحيم.

ويتكوّن ناقل الحركة من أسطونات، ومكابس، وقضبان التوصيل، والعمود المرفقي، ودولاب الاتزان.

ومكوّنات نظام الوقود والهواء، التي هي جزء من المحرّك، هي خزّان الوقود والمرشحة ومنقّي الهواء، والخلّاط والصمامّات وأنابيب العادم.

ويتكوّن نظام الاشتعال من المولّد والمقوم والبطاريّة وملف عالي الفولتيّة، وشمعات الاشتعال، ويتكوّن نظام التغذية الراجعة من حزام التوقيت، وعمود الحدبات، وعتلات الدفع، والموزّع.

أمّا نظام التشحيم فيتكوّن من مضخّة الزيت، وقنوات تمرّ عبر الحجيرة لتوزيع الزيت.

ويتكوّن نظام توصيل القوّة المرافق للمحرّك من القابض، وجهاز نقل الحركة والسلسلة.

ويتكوّن المركب المساعد المرافق لمركب القوّة من الهيكل، بما فيها حمالتا القدمين والمقعد والمصدّات ومركب التوجيه، وماصّات الصدمات

الأماميّة، والخلفيّة والعجلات وأذرعة التحكّم، والأسلاك والأضواء والزامور، ومؤشّرات السرعة والمسافة المقطوعة.

هذه هي الدرّاجة مقسمة وفقاً لمركّباتها. لكن إن أردنا أنّ نعرف وظيفة كلّ مركب، علينا أنّ نحلل الدرّاجة وفقاً لوظيفة كلّ شيء.

يمكن تقسيم الدرّاجة إلى وظائف تشغيليّة طبيعيّة، ووظائف خاصّة يتحكّم بها سائق الدرّاجة. ويمكن تقسيم الوظائف التشغيليّة الطبيعيّة إلى وظائف خلال شوط السحب، ووظائف خلال شوط الانضغاط، ووظائف خلال شوط القدرة، ووظائف خلال شوط العادم. وهكذا دواليك.

أستطيع مواصلة الحديث عن أيّ وظيفة قد تحدث في ترتيبها المناسب خلال أيّ من الأشواط الأربعة، ومن ثمّ الانتقال للحديث عن الوظائف التي يتحكّم بها المشغّل. وسيكون لهذا النوع وصفٌ مختصر وقصير جدّاً وأوّليٌّ للشكل الضمني للدرّاجة الناريّة. ويمكن الحديث عن أيّ من هذه المركبات إلى ما لا نهاية. وقد قرأت مجلداً هندسيّاً كاملاً عن نقاط الاتصال التي تعدّ جزءاً صغيراً، لكنّه ذو أهميّة كبيرة في الموزّع. وهناك أنواع أخرى من المحرّكات غير محرّك (أوتو) ذي الأسطوانة الواحدة الذي وصفته هنا. فهناك محرّكات ذات شوطين، ومحرّكات متعدّدة الأسطوانة، ومحرّكات الديزل، ومحرّكات (وانكل). لكن هذا المثال كافٍ.

يغطّي هذا الوصف «ماهية» الدرّاجة الناريّة من حيث المركبات، ونوعيّة عمل المحرّك من حيث الوظائف، ونحتاج بشدّة إلى تحليل توضيحي يغطّي «المكان»، وتحليل يغطّي «السبب»، على شكل مبادئ هندسية قادت إلى هذا التناسق بين الأجزاء. لكن ليست الغاية هنا تحليل الدرّاجة الناريّة، وإنّما

لتحديد نقطة بداية، كمثالٍ على طريقة لفهم الأشياء التي ستصبح نفسها موضوعاً للتحليل.

ليس هناك بالتأكيد شيء غريب عن هذا الوصف عند سماعه للوهلة الأولى. إذ يبدو هذا الوصف كما لو كان مأخوذاً من كتاب تدريسي مبتدئ عن هذا الموضوع، أو كالدرس الأوّل في مساق مهني. وقد تصبح شيئاً غير اعتيادي عندما تصبح موضوع خطاب لا طريقة خطاب. عندها علينا أنّ نوّجه الانتباه إلى بعض النقاط.

أوّل شيء علينا ملاحظته في هذا الوصف واضح جدّاً، وهو الأمر الذي يستدعي أنّ تحدّ من جموحه، وإلاّ حجب أيّة ملاحظة أخرى. أو بمعنى آخر هو أشدّ رَنَقاً من ماء الخندق. نعم، نعم، نعم، هي كذلك: الخلّاط ونسبة دوران التروس والضغط، نعم. المكبس والمقابس والسحب، نعم. وهكذا دواليك. هذا هو الوجه الرومانسي للطريقة الكلاسيكيّة، مملّة ورتيبة وبشعة. وقلّة قليلة من الرومانسيّين قد يتجاوزون هذه النقطة.

لكن إن استطعت تجاوز تلك الملحوظة الواضحة، يمكن ملاحظة أشياء أخرى، لم تظهر في المرّة الأولى.

أولاها أنّ الدرّاجة الناريّة، كما وصفناها، عصيّة على الفهم ما لم تكن تعلم كيف تعمل. وهنا يمكن القول إن الانطباعات السطحيّة المباشرة الضرورية للفهم الجيّد قد اختفت تماماً. ولم يتبقَ سوى الشكل الضمني.

وثانيها أنّ الملاحظ قد اختفى. فالوصف لا ينصّ على إزالة رأس الأسطوانة لترى المكبس. فـ«أنت» كمخاطب لست موجوداً على الإطلاق في الصورة. وحتّى المشغّل ليس سوى رجل آلي لا شخصيّة له، ولا يعدو

دوره عن أنّ يكون تقنياً بالكامل. فليس هناك أشخاص حقيقيّون في هذا الوصف، وإنّما مواضيع موجودة في غنى عن أيّ ملاحظ.

وثالثها أنّ الكلمات «جيّد» و«سيء» وجميع مرادفاتها غائبة تماماً. فلم تصدر أحكام من أيّ نوع، وإنّما حقائق.

ورابعها أنّ هناك سكيّناً تحوم في المكان، وهي سكيّن قاتلة جدّاً. مشرط فكري حادٌّ جدّاً، وسريعٌ بحيث لا تتمكّن من رؤيته أثناء حركته. وقد يتولّد لديك انطباع بأنَّ هذه الأجزاء موجودة بذاتها وليس لها أسماء تعبر عن وجودها. لكن يمكن إعطاؤها أسماء مختلفة، وترتيبها بشكل مختلف اعتماداً على نوعيّة حركة السكيّن.

فآليّة التغذية الراجعة، على سبيل المثال، تتكوّن من عمود الحدبات، وعتلات الدفع، ويوجد الموزّع بسبب تقطيع غير عادي للسكيّن التحليليّة. وإن قررّت الذهاب إلى قسم قطع الدرّاجات الناريّة، وطلبت منهم أنّ يعطوك مركّب التغذية الراجعة، فإنّهم لن يعرفوا عمّا كنت تتكلّم. فهم لا يقسمونه على هذا الشكل. ولا يتّفق أيّ مصنعين للدرّاجات الناريّة على تقسيمه بهذا الشكل. وقد يكون كلّ ميكانيكي على علم بمشكّلتك المتعلّقة بالقطعة التي لا تستطيع شراءها، لأنّك لا تستطيع إيجادها، لأنَّ المصنع يعدّها جزءاً من شيء آخر.

من المهمّ أنّ ترى السكيّن كما هي مصمّمة له، وألاَّ تنخدع بأنَّ تعتقد أنّ الدرّاجات الناريّة، أو أيّ شيء آخر هو على هذا النحو، لأنَّ السكيّن قصّه على هذا الشكل. من المهمّ أنّ نركّز على السكيّن نفسه. وسأريكم لاحقّاً نوعيّة استخدام السكيّن بإبداع وفعاليّة في محاولة لردم الهوة بين الانفصام

الكلاسيكي والرومانسي.

كان (فيدروس) ماهراً باستخدام السكّين بحسٍّ قوي. فبضربة واحدة من التفكير التحليلي تمكّن من تقسيم العالم إلى أجزاء اختارها حسب رغبته. ومن ثمّ قسّم الأجزاء، وجزئيات الأجزاء، إلى أشكال أصغر فأصغر، حتّى قلّصها إلى الحجم الذي كان يريد. وإنّ الاستخدام الخاصّ للمصطلحات «**كلاسيكي**» و«**رومانسي**» هي أمثلة على تمكنّه من السكّين.

لكن لو كان هذا كلَّ شيء في ما يتعلَّق به، لكنت راغباً جدّاً في إسكاته. لكن ما هو أهمّ من إسكاته استخدامه لهذه المهارة بطريقة غريبة، ومبدعة. ولم يلحظ أحد من قبل هذا، ولا حتّى (فيدروس) نفسه. وقد يكون الأمر وهماً خاصّاً بي، غير أنّ السكّين التي استخدمها كانت أقرب إلى مشرط جرّاح سيّء منها إلى سكّين قاتل. وربّما لا يكون هناك فرق بين الاثنين، لكنّه رأى وباءً يتفشّى في المجتمع، فأخذ يقطعه عميقاً، عميقاً ليصل إلى جذر المشكلة. كان يسعى وراء شيء، وهذا مهمّ. كان يسعى خلف شيء، واستخدم السكّين لأنّها كانت الأداة الوحيدة التي يملكها. لكنّه استأصل الكثير، وواصل حتّى وقع هو ضحّية فعلته.

7



تعمُّ الحرارة كلَّ مكان، فلا أستطيع تجاهلها بعد الآن. والهواء كالفرن المتأجّج حتّى لم تعدّ عيناي تحت النظّارات الواقية أبرد من باقي وجهي. ويداي باردتان، لكن غطتّ القفّازات بقع سوداء كبيرة من التعرق تحيط بها مساحات بيضاء من الملح الجاف.

أمامنا على الطريق غراب ينبش فطيسة قديمة، وحين اقتربنا طار عالياً ببطء، فبدت الفطيسة كالسحلية على الطريق، جافّة وملتصقة بالقطران.

تظهر في الأفق صور بنايات، تلمع قليلاً. فأنظر في الخريطة وأعرف أنّها (بومان) (Bowman). كنت أفكّر في الماء المثلّج والتكييف.

لا نكاد نرى أحداً في الشوارع وعلى أرصفة (بومان)، مع وجود سيّاراتٍ كثيرةٍ مصطّفةٍ تدلّ على وجودهم. فهم جميعاً في الداخل. أدخلنا درّاجاتنا في المصف ووجهناها إلى الخارج، لنغادر بسهولة لمّا ننتهي. راقبنا ونحن نضع درّاجاتنا على مساندها، وننزع خوذنا ونظارّتنا الواقية رجلٌ عجوزٌ وحيدٌ

يرتدي قبعةً ذات حوافٍ عريضة.

يسأل: «هل الجوّ حارّ جدّاً بالنسبة إليكم؟» بتعبير أجوف.

يهزُّ (جون) رأسه قائلاً: «يا إلهي!»

يصبح التعبير الذي ظلّلته القبعة ابتسامة تقريباً.

يسأله (جون): «ما درجة الحرارة؟»

فيجيب: «مائة واثنان لمّا رأيتها آخر مرّة، وعلى الأرجح أصبحت مائة وأربعة».

سألنا كم المسافة التي قطعناها، وأجبناه فهزّ رأسه بإعجاب، وقال: «مسافة كبيرة». ثمّ عاود السؤال عن الآلات.

تنادي علينا البيرة والمكيف، لكنّنا لم نغادر، بل نبقى واقفين تحت الشمس الحارّة نتحدّث مع هذا الشخص. كان مربي مواشي متقاعداً. قال إن المنطقة هنا مليئة بالمزارع، وإنّه كان يملك درّاجة من طراز (هندرسون) قبل سنوات. سرّني أنّه كان يريد الحديث عن درّاجته في هذه الرمضاء. تحدّثنا عنها لمدّة من الزمن، بينما كان (جون) و(سيلفيا) و(كريس) ينتظرون بفارغ الصبر، ولمّا ودعناه، قال إنّه كان مسروراً بمقابلتنا، وكان تعبيره أجوف. لكنّنا شعرنا أنّه يعني ما يقول، ثمّ مشى معتزّاً بعيداً تحت لهيب الشمس.

أحاول في المطعم أنّ أعلّق على الموقف، لكن لم يكن أحد مهتماً. ويبدو (جون) و(سيلفيا) خارجين من الموضوع، فيجلسان يمتصّانِ الهواء البارد الصادر عن المكيّف، دون حراك. تجيء النادلة لتسجّل ما نريد من طلبات، فيجعلهما هذا يخرجان من هذه الحالة، لكنّهما لم يكونا مستعديّن لتناول شيء. ولهذا تغادر بعيداً.

تقول (سيلفيا): «أعتقد أنني لا أريد مغادرة هذا المكان؟»

تعود إلى ذهني صورة الرجل المسنّ ذي القبّعة ذات الحافّة العريضة.

فأقول: «هل تساءلت يوماً كيف كانت الحياة هنا قبل اختراع المكيّف؟»

تقول: «أنا».

أقول: «علينا مع هذه الطرق الحارّة جدّاً، والعجلات الخلفيّة السيّئة ألاّ نتجاوز سرعة الستّين».

لم يعلّقوا على كلامي.

يبدو (كريس)، مماثلة بهم، وقد عاد إلى طبيعته، متنبهاً ويراقب كلّ شيء. ولّما جاء الطعام، انقضّ عليه، وقبل أنّ ننهي نصف طعامنا، طلب المزيد، وحصل على ما يريد، وانتظرناه لينتهي.

وبعد عدَّة أميال، أصبحت الحرارة شديدة جدّاً، ولم تنفع النظّارات الشمسيّة ولا النظّارات الواقية في التغلّب على الوهج. فنحن نحتاج إلى قناع اللّحام المعدني.

تحوّلت السهول العالية إلى تلال جرداء ذات أودية. ولم نشاهد حولنا سوى القطران الأبيض اللامع. فلم يكن هناك عشب، في أيّ مكان، وإنّما بعض النباتات الضارّة والصخور والرمل. يبعث سواد الطريق السريع الراحة فينا، فصرتُ أمعن النظر فيه، وألاحظ مرور الصورة بشكل مشوش وسريع تحت أقدامنا. وبجانبها أنبوب العادم الأيسر يكتسب لوناً أكثر زرقة من ذي قبل. فأبصق على أطراف قفازي، وألمسه، فأرى وهجَ التبخّر بسبب الحرارة المرتفعة. لم يكن الأمر جيّداً.

من المهمّ التحكّم بالعقل الآن والتعايش مع هذا وألاّ نقاومه عقليّاً.

***

أجد لزاماً عليَّ أنّ أتحدّث عن سكيّن (فيدروس). إذ ستساعدنا على فهم بعض الأشياء التي تحدّثنا عنها.

استخدام هذه السكيّن، وتقسيم العالم إلى أجزاء، وبناء هذا الكيان هو شيء يفعله الناس جميعاً. ونحن نعي طوال الوقت أنّ هناك الملايين من الأشياء حولنا؛ هذه الأشكال المتغيّرة، وهذه التلال الحارقة، وصوت المحرّك، والشعور بالخانق، وكلّ صخرة وعشبة ضارّة وسياج وأيّ جزء من الحطام بجانب الطريق. نحن نعي هذه الأشياء، دون أنّ ندركها حقّاً ما لم يكن هناك شيء غير اعتيادي، أو ما لم تعكس شيئاً نريد أنّ نراه. لا نستطيع أنّ ندرك هذه الأشياء، وأنَّ نتذكّر كلّ التفاصيل، لأنَّ عقلنا سيكون مليئاً بتفاصيل غير مفيدة لا يستطيع تذكّرها. علينا أنّ نختار ممّا نرى، وما نختاره نسمّيه وعياً (consciousness) وهو يختلف كليّاً عن الإدراك (awareness)، لأنَّ عمليّة الاختيار قد شوّهت الأشياء. قد نأخذ حفنة من الرمال من عالم الوعي غير المتناهي المحيط بنا، ونسمّيها العالم. وعند إحكام قبضتنا على حفنة الرمل، التي صرنا ندرك عالمها، فإنّها تخضع على الفور لعمليّة فرز. هذه هي السكيّن. تقسّم الرمل إلى أجزاء. هذا وذلك، وهنا وهناك، وأبيض وأسود، والآن في ذلك الوقت. فعمليّة الفرز هي تقسيم العالم المدرك إلى أجزاء.

قد تبدو حفنة الرمل متناسقة في البداية. لكن كلّما أطلنا النظر فيها، وجدناها متنوّعة. فكلُّ ذرّة رمل مختلفة. وليس هناك ذرتان متشابهتان. قد يكون بعضه متشابهاً في أحد الجوانب، وبعضه متشابهاً بطريقة أخرى.

ونستطيع تشكيل الرمل إلى أكوام منفصلة على أساس تشابهها واختلافها. قد يكون اللون هو الأساس في بعض الأكوام، والحجم في أكوام أخرى، أو أشكال الذرّات في أكوام أخرى، وأنواع من أنواع أشكال الذرّات في أكوام أخرى، أو درجات القتامة في أكوام أخرى، وهلمّ جرّا. وقد تظنّ أنّ عمليّة التقسيم إلى أقسام أصغر وعمليّة التصنيف ستصل نقطة نهاية عند نقطة ما. لكنّها لا تنتهي، بل تستمرّ وتستمرّ.

يهتمّ الفهم الكلاسيكي بأكوام الرمل والأسّس التي تمَّ على أساسها تصنيف هذه الأكوام. أمّا الفهم الرومانسي فيتّجه نحو حفنة الرمل قبل بداية عمليّة التصنيف. وكلا الفهمين صحيح، عندما ننظر إلى العالم، مع أنّهما غير متفّقين.

ما يصبح ضرورة ملحّة هو طريقة في رؤية عالمٍ لا يتعامل مع المنهجين بعمق، ويوحدّهما في منهجٍ واحدٍ. ولا ترفض هذه الطريقة تصنيف الرمال أو التأمّل في الرمال غير المصنّفة لذاتها. ومثل هذا المنهج يسعى إلى توجيه الانتباه إلى صور الطبيعة اللامنتهية التي تمَّ أخذ الرمل منها. وهذا ما كان (فيدروس) الجرّاح غير المتمرّس، يحاول فعله.

لفهم ما كان يحاول فعله، من الضروري أنّ نرى أنّ ذلك **الجزء** من الطبيعة، الذي **لا ينفصل** عنها، **ويجب فهمه**، هو شخصيّة تقبع في منتصفه. فتصنيف الرمل إلى أكوام، ورؤية الطبيعة دون أنّ ترى هذه الشخصيّة كأنّما لا ترى الطبيعة بأكملها. فرفض بوذا ذلك الجزء من الذي يُعنى بتحليل الدرّاجات الناريّة هو رفضه بأكمله.

هناك سؤال كلاسيكي يتكرّر عن ذلك الجزء من الدرّاجة الناريّة. في أيّة

حفنة رمال أو في أيّ كوم يكمن بوذا؟ توجيه مثل هذه الأسئلة هو سير في اتّجاه خاطئ. فبوذا موجود في كلّ مكان. وطرح هذا السؤال أمرّ وارد جدّاً كذلك، لأنّه في الاتّجاه الصحيح، لأنَّ بوذا موجود في كلّ مكان. وفي ما يختصّ ببوذا الذي يوجد بشكل مستقلّ عن أيّ فكر تحليلي، فقد تمَّ الحديث عنه كثيراً. قد يقول آخرون الكثير الكثير عنه، ويشكك بأيّ محاولة للإضافة إلى ما قاله. أمّا في ما يخص بوذا الموجود داخل الفكر التحليلي ويعطي الفكر التحليلي وجهته، فلم يتمّ الخوض به مسبقاً. وهناك أسباب تاريخيّة لهذا، فالتاريخ يواصل الحدوث. ويبدو أنَّه ليس هناك من ضرر، وإنّما قد يكون هناك جانب إيجابي لنضيفه لتراثنا التاريخي إن قررّنا الحديث في هذا الجانب من الخطاب.

حين يجري تطبيق الفكر التحليلي، أو السكيّن، على أيّ تجربة، فهناك شيء يتمّ قتله في هذه العمليّة. وهذا أمرّ مفهوم بشكل جيّد، على الأقلّ في الآداب. أتذكّر تجربة (مارك توين) التي أراد بها - بعد أنّ اكتسب المعرفة التحليليّة المطلوبة- أنّ يستكشف نهر المسيسيبي، فوجد أنّ النهر قد فقد جماله. فهناك شيء دائماً يُقتَل في العمليّة. لكن ما يجدر ملاحظته في الآداب أنّ هناك شيئاً يتمّ إبداعه أيضاً. وبدلاً من التوقّف على ما تمَّ خسرانه، من المهمّ أنّ نرى ما تمَّ إبداعه، وأنَّ نرى العمليّة نوعاً من التواصل بين الموت والحياة، بما يتخطّى الخير والشر، وأنَّ نراها كما هي.

نمرّ بمدينة (مارمارث) (Marmarth)، لكن (جون) لا يتوقّف لأخذ استراحة، ولهذا نواصل المسير. الجوّ يغلي، فنجوبُ ببعض الأرض الوعرة، ونعبر الحدود إلى (مونتانا). هذا ما تخبرُ به لافتة على جانب الطريق.

تلوّح (سيلفيا) بيدها إلى الأعلى ثمّ إلى الأسفل. وأطلق زاموري رداً على إشارتها. لكن عندما أنظر إلى اللافتة، لا أشعر بالسعادة على الإطلاق، فقد سبّبت لي توتراً داخليّاً مفاجئاً لم يكن موجوداً لديهم. فهم لا يعلمون أنّنا الآن في البلد الذي كان يعيش فيه.

وكلّ الحديث الذي قلناه سابقاً عن الفهم الكلاسيكي والفهم الرومانسي يبدو طريقة غريبة وغير مباشرة للحديث عنه. لكن للحديث عن (فيدروس)، فإنّ المنهج غير المباشر هو المنهج الوحيد الذي علينا سلوكه، لإنّ وصف مظهره الجسدي أو إحداثيّات حياته منهجٌ خاطئٌ يُبنى على سطحيّات مظلّلة. والحديث عنه مباشرة ليس سوى كارثة.

كان مجنوناً، وعندما تنظر بشكل مباشر إلى إنسان غير عاقل، فما تراه ليس سوى انعكاس لمعرفتك أنّه غير عاقل، ولن تراه كما هو أبداً. لكن لتراه، عليك أنّ ترى ما رأى، وعندما تحاول أنّ ترى رؤية رجل غير عاقل، فإنّ المنهج غير المباشر هو الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها تحقيق ذلك. وإلاّ أعماك موقفك تجاهه. هناك طريق واحد فقط يقود إليه، وعلينا سلوكه.

كان حديثي عن عمليّات التحليل، والتعريفات والتراتبيات، ليس لمجرّد الحديث عنها، وإنّما لوضع الحجر الأساس لفهم الاتّجاه الذي سلكه (فيدروس).

أخبرت (كريس) في ليلة سابقة أنّ (فيدروس) قد قضى كلّ حياته يتعقّب شبحاً. وهذا صحيح، فالشبح الذي كان يتعقّبه كان الشبح الذي ترتكز عليه جميع أشكال التكنولوجيا، وجميع أشكال العلم الحديث وجميع أشكال الفكر الغربي. كان شبح العقلانيّة ذاته. أخبرت (كريس) أنّه قد وجد

الشبح، وعندما وجده غيّر رأيه فيه فانتقده. وأعتقد من ناحية مجازيّة أنّ هذا صحيح. فالأشياء التي أحاول أنّ أشدّ الانتباه إليها هي بعض الأشياء التي كشف الحجاب عنها. وأعتقد أنّ الوقت الذي قد يجد فيه بعض الناس هذه الأشياء ذات قيمة قد حان. ولم ير أحدٌ ذلك الوقت الشبح الذي تحدّث عنه (فيدروس). لكن أعتقد الآن أنّ عدد الناس الذين يرون الشبح الذي كان (فيدروس) يطارده، أو أولئك الذين لديهم لمحات عنه في لحظات البؤس في ازدياد دائم. فهو شبح يسمّي نفسه بالعقلانيّة، لكن مظهره الخارجي يشير إلى التفكك واللامعنى، وهذا ما يجعل الكثير من الأعمال اليوميّة الاعتياديّة تبدو جنونيّة إلى حدٍ ما، بسبب انعدام صلتها بأيّ شيء آخر. هذا هو شبح الافتراضات اليوميّة الاعتياديّة التي تصرّح أنّ الهدف الأسمى في الحياة، هو البقاء على قيد الحياة، إنّما هو مستحيل، لكنّه يبقى الهدف الأسمى في الحياة، ولهذا تناضل العقول الكبيرة لإيجاد علاج للأمراض، حتّى يعيش الناس سنوات أطول، لكن فقط المجانين يسألون لماذا. قد يعيش الشخص منّا مدّة أطول ليعيش أطول. وليس هناك سبب آخر. هذا ما يقوله الشبح.

يشير ميزان الحرارة في (باكر) حيث نتوقّف إلى مائة وثمانية درجات في الظلّ. وحين أخلع قفازي، أكتشف أنّ خزّان الوقود كان ساخناً جدّاً إلى درجة لم أستطع معها لمسه. يصدر المحرّك أصوات قرع تنذر بسوءٍ من جرّاء الحرارة. فالأمر سيّءٌ تماماً. وتضرّرُ الإطار الخلفي كبيرٌ أيضاً، فأشعر أنّ يدي لا تقلّ سخونةً عن خزّان الوقود.

أقول: «علينا أنّ نسير ببطء قليلاً».

- «ماذا؟»

أقول: «أعتقد علينا ألاّ نسير فوق الخمسين».

ينظر (جون) إلى (سيلفيا)، وتنظر إليه. لابدّ أنّهما قد تحدّثا عن الإبطاء من قبل. وبدا كما لو أنّهما قد وافقا على ما قلته.

يقول (جون): «علينا أنّ نذهب هناك بسرعة». ويذهبان إلى المطعم.

السلسلة حارّة وجافّة، فأبحث في الجراب الأيمن عن علبة زيت تشحيم، وأجدها، وأشغّل المحرّك. وأشحّم السلسلة المتحرّكة، وأبقي السلسلة ساخنة جدّاً حتّى أنّ المادّة المذابة قد تبخّرت على الفور، ثمّ أرشّ بعض الزيت عليها، وأبقيها تجري لدقيقة، وأطفئ المحرّك. ينتظر (كريس) بصبر ثمّ يتبعني إلى المطعم.

تقول (سيلفيا) حين نقترب من الكشك الذي كانا فيه: «ظننت أنّك قلت إن النكسة الكبيرة ستكون في اليوم الثاني؟»

أجيب: «الثاني أو الثالث».

- «أو الرابع أو الخامس؟»

- «ربما».

تنظر إلى (جون) وينظر إليها بالتعبير نفسه الذي بدا عليهما من قبل. كان تعبيرهما يعني: «ثلاثة جمع كبير». ربّما أرادا الذهاب أمامنا بسرعة وانتظاري في مدينة ما. كنت أريد أنّ أقترح هذا بنفسي لكن إن أسرعوا كثيراً، فلن ينتظروني في مدينة، وإنّما على جانب الطريق.

تقول (سيلفيا): «لا أعلم كيف يتحمّل الناس هنا هذا الحر».

أقول بنوع من السخط: «كما تعلمين إنّه ريف قاس. كانوا يعلمون أنّه

قاس قبل مجيئهم هنا، وكانوا جاهزين له».

وأضيف: «إنّ تذمرّ شخص ما كفيل بجعل الأمر أقسى للآخرين، لديهم جلد. وهم يعلمون كيف يعيشون هنا»

لا يقول (جون) و(سيلفيا) الكثير. ينهي (جون) زجاجة الكوك سريعاً، ومن ثمّ يتوجّه إلى أحد البارات لـتناول جرعة صغيرة. أخرج وأتفقّد أمتعة الدرّاجة مرَّة أخرى، وأجد أنّ الحقيبة الجديدة كانت مضغوطة قليلاً، ولهذا أفك الحبال وأعيد ربطها مرَّة أخرى.

يشير (كريس) إلى ميزان الحرارة تحت أشعّة الشمس المباشرة، فنرى أنَّه يشير إلى مائة وعشرين درجة.

وقبل أنّ نخرج من المدينة، أتعرّق مرَّة أخرى، فلا تكاد تدوم مدّة التبريد نصف دقيقة.

تصفعنا الحرارة، حتّى مع نظّارات شمسيّة معتمة. عليَّ أنّ أغلق عيني إلى النصف، فليس هناك سوى الرمل الملتهب والسماء الشاحبة اللامعة التي يصير معها النظر في أيّ مكان صعباً. تصير بيضاء لامعة من الحرّ في كلّ مكان. جحيم حقيقي.

يمضي (جون) أمامنا ويزداد سرعة. فأتخلّى عن مجاراته وأخفّف سرعتي إلى خمسة وخمسين. إذ ما لم تكن تبحث عن المشاكل في هذا الحر، فعليك ألاّ تقود عجلاتك بسرعة خمسة وثمانين. لأنَّ أيّ انفجار لإطار على هذا الطريق سيعد نكسة كبيرة. أحسب أنّهما أخذا كلامي عن تخفيف السرعة كنوع من التوبيخ، لكن لم أكن أعني هذا. فأنا مثلهما لا أشعر بالراحة في هذه الحرارة. فلا ينبغي التفكير بذلك على الدوام. فحين كنت أفكّر وأتحدّث عن

(فيدروس)، لا بدّ أنّهما كانا يفكّران بسوء الوضع. وهذا التفكيرُ يتعبهما.

هناك بعض الأشياء التي يجب قولها عن (فيدروس) كفرد.

كان عارفاً بالمنطق، وهو النظام الكلاسيكي للنظام، الذي يصف قواعد الفكر المنهجي وإجرّاءته التي يمكن من خلالها تركيب المعرفة التحليليّة وربطها ببعضها. وكان سريعاً في هذه، فمعّدل ذكائه وفقاً لمقياس (ستاتفورد بينيت)، الذي يعدّ سجلّاً للمهارة في القدرة التحليليّة، كان (170)، وهو رقم يتكرّر مرَّة واحدة في كلّ خمسة آلاف شخص.

كان منهجيّاً، لكن أنّ نقول إنّه فكّر وتصرّف كالآلّة سيكون سوء فهم لفكره. فهو ليس كالمكابس والعجلات، والتروس التي تتحرّك في الوقت نفسه بصورة هائلة ومتناسقة. وإنّما ما يجول في البال هو صورة شعاع الليزر، كقلم رصاص وحيد من ضوء ذي طاقة هائلة بتركيز كبير يمكن تسليطه على القمر ويمكن رؤية انعكاسه على الأرض. لم يحاول (فيدروس) استخدام ذكائه للتنوير العام، وإنّما كان يسعى وراء هدف بعيد ووحيد، فصوّب نحوه وأصابه. وهذا كلّ شيء. ويبدو أنَّه أورثني التنوير العام الناجم عن الهدف الذي أصابه الآن.

كان (فيدروس)، تناسباً مع ذكائه، منعزلاً جدّاً. فليس هناك من سجلّات تشير إلى أصدّقاء له مقربّين. كان يسافر وحيداً دائماً. وكان حتّى بوجود الآخرين، وحيداً تماماً. شعر الناس بهذا، وشعروا أنّهم مرفوضون منه، ولهذا لم يحبّوه، لكن عدم محبتّهم له لم تكن مهمّة له.

ويبدو أنّ زوجته وأولاده كانوا أكثر من عانى في هذا. قالت زوجته إن

من حاول تجاوز حدود محميّته وجد نفسه في مواجهة فراغ. وأعتقد شخصيّاً أنّهم كانوا يتضوّرون عاطفيّاً إلى ما لم يعطهم يوماً.

لم يعرفه أحد معرفة حقّة. وهذا ما كان يريد، وهذا ما حدث. وقد تكون عزلته ناتجة عن ذكائه. وقد تكون هي السبب، لكن العامِلَين كانا موجدَين على الدوام. ما نراه ليس سوى ذكاء اعتزالي يصعب تفسيره.

لكن أنّ نقول هذا، فيه ظلم كبير له، لأنَّ هذا القول وصورة شعاع الليزر يدلّان على أنَّه كان بارداً تماماً، وغير عاطفي. وليس هذا صحيحاً. كان في سعيه لما سميّته شبح العقلانيّة صائداً متطرّفاً ومتمرّساً.

تتغيّر الصورة، فتنبض مفعمة بالحياة، حين تتدلّى الشمس خلف الجبال قبل الغروب بنصف ساعة، وحين يحوّل الغروب المبكّر الأشجار والصخور إلى ظلال مسودّة من اللون الأزرق، والرمادي، والبنّي. لقد مكث (فيدروس) هناك ثلاثة أيّام دون طعام. نفد طعامه، لكنّه كان يفكّر بعمق، ويرى الأشياء، فرفض أنّ يغادر. لم يكن بعيداً عن المكان الذي عرف فيه الطريق، لكنّه لم يتعجّل.

رأى عند الغسق، على الدرب شيئاً يتحرّك، وكان ككلب يقترب منه، أو كلب حراسة أغنام ضخماً، أو حيوان ككلب الأسكيمو. وكان (فيدروس) يتساءل ما الذي قاد الكلب إلى هذا المكان الغامض في مثل هذا المساء. كان يكره الكلاب، لكن هذا الحيوان تحرّك بطريقة جعلته يغيّر هذه المشاعر. وبدا الكلب كما لو كان يراقبه، ويحكم عليه. فحدّق (فيدروس) النظر في عينيّ الحيوان لمدّة طويلة، وللحظة شعر بنوع من المعرفة، ثمّ اختفى الكلب.

أدرك لاحقاً أنَّه لم يكن كلباً، وإنّما ذئب. وعلقت هذه الحادثة في ذاكرته

لمدّة طويلة، واعتقد أنها علقت في ذاكرته لأنّه رأى صورة نفسه في الذئب.

تُظهِر الصورة الفوتوغرافيّة الصورة الجسديّة في وقت ثابت، بينما تظهر المرآة الصورة الجسديّة والوقت يتغيّر. لكنّني أعتقد أنّ ما رآه في الجبال كان نوعاً آخر من الصور، لم يكن جسديّاً، ولم يكن موجوداً في الوقت على الإطلاق، لكنّها كانت صورة مع ذلك. وهذا ما يفسّر معرفته إيّاها. وجاءتني الصورة الآن مفعمة بالحياة، لأنّي رأيتها أمس مرَّة أخرى على شكل (فيدروس) نفسه.

كان كالذئب الذي رآه في الجبال، يمتلك نوعاً من الشجاعة الحيوانيّة. فسلك طريقه دون أنّ يبالي بالعواقب التي كثيراً ما تذهل الناس، وتذهلني الآن عندما أسمع عنها. لم ينحرف يمنة ولا يسرة. اكتشفت هذا بنفسي. بيد أنّ هذه الشجاعة لم تصدر عن فكرة مثاليّة قائمة على التضحية، وإنّما عن إصرار على سعيه. ولم يكن هذا التصرّف ينطوي على شيء من النبل.

أعتقد أنّ سعيه وراء شبح العقلانيّة بدأ لأنّه أراد أنّ ينتقم منها، لأنه شعر أنَّه قد تشكّل بها. أراد أنّ يحرّر نفسه من صورته الذاتيّة. أراد أنّ يدمّرها، لأنَّ الشبح كان هو نفسه، ورغب في أنّ يحرّر نفسه من عبوديّة هويتّه الذاتيّة. وتحقّقت له هذه الحريّة بطريقة غريبة.

قد يبدو هذا الوصف ساذجاً، غير أنّ ما سيأتي أكثر سذاجة. أقصد علاقتي به، وقد تمَّ تغييبها وتعتيمها حتّى الآن، لكن يجب الإفصاح عنها.

اكتشفت فيها (فيدروس) لأوّل مرَّة عن طريق استدلال من سلسلة من الأحداث قبل بضع سنوات. ذات جمعة ذهبت إلى العمل، وأنجزت الكثير من الأعمال قبل نهاية الأسبوع، وكنت سعيداً بهذا، وانتهى ذلك اليوم

بحفلة تحدّثت خلالها طويلاً مع الجميع بصخب، وشربت كثيراً، فذهبت إلى غرفة خلفيّة لأستريح، فنمت.

حين استيقظت، اكتشفت أنّني قد نمت طوال الليل، فقد كان الوقت نهاراً، فقلت في نفسي: «يا إلهي! لا أعرف أسماء المضيفين!». وتساءلت عن الإحراج الذي قد يسبّبه هذا الأمر. لم تبدُ الغرفة كالغرفة التي نمت فيها أمس، لكنّها كانت مظلمة لّما دخلت. ولابدّ أنّني لم أرَ الأشياء جيّداً بسبب السكر.

نهضت من فراشي، فاكتشفت أنّ ملابسي قد تغيّرت. فهذه ليست الملابس التي كنت أرتديها في الأمس، وخرجت من الباب. ولدهشتي لم يقد الباب إلى غرف المنزل، وإنّما إلى ممرٍ طويل.

ولّما مشيت في ذلك الممر، تولّد لديّ انطباع أنّ كلّ شخصٍ كان ينظر إليّ. وأوقفني أحد الغرباء ثلاث مرّات ليسألني كيف كانت نومتي. وظننت أنّه كان يسألني عن وضع السكر الذي كنت عليه، فأجبته أنّني لم أشعر بدوار السكر، الأمر الذي جعل أحدهم يضحك، ومن ثمّ توقّف.

ورأيت في غرفة في نهاية الممر طاولةً يجري عليها حدث ما، فجلست قريباً منها آملاً أنّ أبقى غير ملحوظ حتّى أعرف ما يحدث، لكن جاءتني امرأة ترتدي الأبيض وسألتني إن كنت أعرف اسمها. قرأت بطاقة الاسم المثبتة على بلوزتها، ولم تلاحظ هذا، وبدت مندهشة أنّني عرفت اسمها، وذهبت بعجلة، ثمّ عادت وكان معها رجل، وكان ينظر إليّ مباشرة، فجلس إلى جانبي وسألني إن كنت أعرف اسمه، وأخبرته باسمه. وكانا مندهشين لأنّني عرفت باسميهما.

قال: «من المبكّر جدّاً أنّ يحدث هذا؟»

قلت: «يبدو كالمستشفى».

وافقا على قولي.

وسألت وكنت أفكّر في حفلة الخمر أمس: «كيف وصلت إلى هنا؟» فلم يجب الرجل، ونظرت المرأة إلى الأسفل، فبقي الأمر معلّقاً.

استغرقني الأمر أسبوعاً كاملاً لأستنتج من الدلائل حولي أنّ كلّ شيء قبل استيقاظي من النوم كان حلماً، وأنَّ كلّ شيء بعدها كان حقيقة. ولم يكن هناك أساس لتمييز النوعين سوى ما جدّ من أحداث كانت تدحض وقوع تجربة السكر. وظهرت أشياء صغيرة، كالباب الموصد، الذي لم أستطع أنّ أتذكّر أنّني كنت أرى خارجه. وأخبرتني قصاصة ورقيّة من محكمة الإرث والوصايا أنّ شخصاً ما يُعَدُّ غير عاقل. هل كانوا **يعنونني**؟

أخبروني لاحقاً أنه: «لديك الآن شخصيّة جديدة». لكن لم تكن هذه العبارة تفسيراً على الإطلاق. وإنّما حيرتني أكثر، لأنّه لم يكن لديّ أيّ «وعي» بشخصيتي القديمة. ولو قالوا: «أنت الآن شخصيّةٌ جديدةٌ»، لأصبحت الأمور أكثر وضوحاً، ولكانت الأمور أكثر دقّة. فقد أخطأوا لّما اعتقدوا أنّ الشخصيّة نوع من الممتلكات، كالبدلة التي يرتديها الرجل. لكن إن وضعنا الشخصيّة جانباً، فما الذي يميّزنا من غيرنا؟ فالعظم واللحم والأرقام القانونيّة ترتديها الشخصيّة وليس العكس.

لكن ما هي الشخصيّة القديمة التي كانوا يعرفونها، وافترضوا أنّني استمرار لها؟

كانت هذه أوّل فكرة عندي عن وجود (فيدروس) قبل عدّة سنوات. ثمّ

تعلّمت الكثير عنه في الأيّام والأسابيع والسنوات التي تلت الحادثة.

مات، وتمّ تنفيذ حكم الإعدام فيه، بإيصال تيّار كهربائي قوي متقطّع الفولتيّة إلى رأسه، وتلقى جسمه ما يقارب ثمانيمائة مل أمبيري على متواترٍ تراوح بين نصف ثانية وثانية ونصف. وتكرّرت ثمانية وعشرين مرّة متتالية في عمليّة تعرف تقنياً بـ «الإبادة (ECS)» (أو التخدير بالصعق الكهربائي)، وصفيّت شخصيّةٌ كاملةٌ دون أثرٍ في عمليّة تقنيّة تخلو من العيوب، حدّدت طبيعة علاقتنا. فلم أقابله، ولن أقابله.

مع هذا، فإنّ هناك خيوطاً غريبة من ذكراه تتوافق بشكل مفاجئ مع هذه الطريق، وسراب الصحراء، والرمال البيضاء الحارّة التي تحيط بنا. وهذه مصادقة غريبة. حينها عرفت أنّه قد رأى كلّ هذا. لقد كان هنا، وإلاّ لما كنت عرفت ذلك. اضطّر أنّ يكون هنا. وكنت كالوسيط النفسي لمّا تراءت لي هذه الرؤى الممتزجة، ولمّا تذكّرت بعض الشظايا الغريبة من الفكر التي لم أسمع عنها من قبل. كنت كالوسيط الروحي الذي يتلّقى رسائل من عالم آخر. هذا هو الوضع. رأيت أشياء بعيني، ورأيت أشياء بعينيه أيضاً. العينان اللتان امتلكهما في الماضي.

هذه العيون! ذلك هو المرعب في الأمر. فهذه الأيدي المرتدية قفّازات، التي أنظر إليها وهي تتحكّم بالدرّاجة الناريّة على الطريق، كانت يديه. وإن استطعت أنّ تفهم الشعور الناتج عن هذا، فإنّك قادر على فهم الخوف الحقيقي، والخوف الناجم عن معرفتك أنّه ليس هناك من مهرب.

ندخل وادياً صخريّاً ذا حواف منخفضة. وسرعان ما تظهر على جانب الطريق استراحة كنت أنتظرها بشغف. بعض المقاعد، وبناية صغيرة،

وبعض الأشجار الخضراء الصغيرة مع خراطيم مياه ممتدّة نحو قواعدها. كان (جون)، فليساعدني ربي على تحمّل الوضع، على الطرف الآخر من الاستراحة مستعدّاً للانطلاق.

أتجاهل هذا الوضع، وأوقف درّاجتي بجانب البناية، فيقفز (كريس) من مكانه، ونرفع الدرّاجة على حاملها. وترتفع الحرارة الصادرة عن المحرّك كما لو كان يشتعل، مصدراً موجات شوّهت كلّ شيء حوله. فأرى بطرف عيني الدرّاجة الأخرى وهي ترجع. حين عادا، كانا ينظران إلينا نظرة مليئة بالغضب.

تقول (سيلفيا): «نحن... غاضبان».

أهزّ كتفي وأمشي إلى نافورة الماء.

يقول (جون): «أين الجلد الذي حدّثتنا عنه طويلاً؟»

أنظر إليه ثانية، فأدرك أنّه كان غاضباً حقّاً. فأقول: «أخشى أنّكم قد أخذتم كلامي بجديّة أكثر من اللازم». ومن ثمّ أشيح بوجهي نحو النافورة، فأشرب الماء، الذي كان قلوياً بالكامل. كان كالماء المصوبن، لكنّني أشربه على أيّة حال.

يدخل (جون) إلى المبنى ليبلّل قميصه بالماء. أتفحّص مستوى الزيت. غطاء فيلتر الزيت ساخن جدّاً بحيث يحرق أصابعي من وراء القفّاز. لم يفقد المحرّك الكثير من الزيت، وسطح الإطار الخلفي قد انمسح قليلاً، لكنّه بقي جيّداً. والسلسلة مشدودة بشكل جيّد، لكنّها جافّة قليلاً، ولهذا أضيف بعض الزيت إليها لتبقى سالمة. والمسامير الملولبة مشدودة بشكل جيّد.

يجيء (جون) من بعيد يقطر ماءً، ويقول: «انطلق أنت أوّلاً، وسنسير خلفكم».

أقول: «لن أسير سريعاً».

يقول: «لا بأس، سنسير على خطاك».

ولهذا أنطلق، وأسير ببطء. لا تستقيم الطريق عبر الوادي كما توقّعت، ولا تتغيّر عمّا كنت أمرّ به، لكنّها تبدأ بالتعرّج بعد ذلك. يا للمفاجأة!

تأخذ الطريق بالتعرّج قليلاً، وتأخذنا الآن بعيداً عن وجهتنا، لكنّها عادت إلى ذات الاتّجاه، وسرعان ما بدأت الارتفاع قليلاً، ثمّ ارتفعت أكثر. نحن نتحرّك في اتّجاهات حادّة نحو فراغات ضيّقة جدّاً، ترتفع قليلاً، ثمّ ترتفع، ثمّ قليلاً أكثر في كلّ مرّة.

تظهر بعض الشجيرات، ثمّ بعض الأشجار الصغيرة، وتواصل الطريق الارتفاع نحو أراضٍ عشبيّة، ثمّ مروج مسيّجة.

تظهر فوقنا غيمة صغيرة، أمطار ربّما! ربّما. فالمروج بحاجة إلى المطر، وهذه المروج فيها زهور. غريب كيف تغيّرت الأمور فجأة. لم يكن هناك ما يشير إلى هذا على الخريطة. يختفي إدراك الذاكرة أيضاً. لابدّ أنّ (فيدروس) لم يأتِ في هذا الطريق، لكن ليس هناك من طريقٍ أخرى. أمرٌ غريبٌ حقّاً، فالطريق تواصل الصعود بنا.

تميل الشمس نحو الغيمة، التي تنحدر إلى الأسفل لتلامس الأفق فوقنا، وقد ظهرت فيه بعض الأشجار. وتهبّ إلى الأسفل ريحٌ باردةٌ تحمّل رائحة الصنوبر الصادرة من الأشجار. فتتحرّك الأزهار في المروج مع الريح. وتميل الدرّاجة قليلاً، وفجأة نشعر بلطف الجوّ.

أنظر إلى (كريس) الذي كان يبتسم، فأبتسم له أيضاً.

ثمّ يجيء المطر قاسياً على الأرض، مع هبّة من رائحة الأرض من الغبار الذي انتظر طويلاً. تحفر نقاط المطر التراب الذي كان على جانب الطريق.

الأمر برمّته جديد بالنسبة إليّ، ولهذا نحن بحاجة له، مطر جديد. تصير ملابسي رطبة، وتتبلّل النظّارات الواقية بنقاط المطر. ويبدأ الشعور بالبرودة لذيذاً. تمرّ الغيمة تحت الشمس، فيعود الضوء إلى غابة الصنوبر والمروج الصغيرة. تتلألأ حين كانت أشعّة الشمس تنعكس على قطرات المطر الصغيرة.

ها نحن نصل إلى أعلى الجبل بجفاف، لكنّنا نشعر بالبرودة، ونتوقّف ونحن نطلّ على وادٍ ضخم ونهر أسفله.

يقول (جون): «أعتقد أنّنا وصلنا».

تتمشّى (سيلفيا) و(جون) عبر المروج بين الزهور تحت أشجار الصنوبر التي كنت أرى خلالها الجانب الآخر من الوادي، بعيداً إلى الأسفل.

أنا الآن أحد الرواد الأوائل، أنظر إلى الأرض الموعودة.

ولأن هؤلاء القوم (يعنى يهود أمريكا) يسيطرون على الصحافة وأجهزة التعبير عن الرأى العام؛ فإن أمريكا لا تحصل على صورة دقيقة لما يحدث فى روسيا، فى واقع الأمر فإن كرين، كما أوضح كاتب سيرته لم يكن لديه اهتمام حقيقى قط بالسياسة فى روسيا التى كانت بالنسبة إليه انحرافًا مرهقًا عن شغفه الشديد بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، والقطع الفنية التى أبدعتها والتى كان عاكفًا على جمعها.

عرض ويلسن على كرين منصب السفير لدى روسيا، وهو ما اعتذر عنه كرين؛ إذ كان اهتمامه قد تحول إلى محنة الأرمن فى آسيا الصغرى؛ حيث أصبح مشاركًا مع كليفلاند دودج والد بايارد والمبشرين المجمعيين فى تمويل وتنظيم جهود الإغاثة ؛ ثم انضم كرين إلى مجلس أمناء كلية روبرت فى القسطنطينية (إسطنبول) وهى معهد أنشأه المبشرون قبيل سنوات من إنشاء الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية). وقد انغمس كرين فى شئون الشرق الأوسط فى الوقت نفسه الذى كانت المنطقة تشهد فيه المعاناة الإنسانية الكبرى؛ فيما كانت مؤامرات البريطانيين والفرنسيين قد بدأت فى تخريب أهداف الرئيس ويلسن فى تقرير المصير لأهل سوريا الكبرى وغيرهم. وكان من الطبيعى أن يتبنى كرين نفس كراهية المبشرين للبريطانيين والفرنسيين، ومن ثم كان طبيعيًا أن تنمو لديه عاطفة من المحبة للعرب وثقافتهم من النوع الذى كان قد وقر لديه بالنسبة إلى الروس والصينيين من قبل (*).

(*) ربما كانت هذه المحبة للعرب وثقافتهم سببًا فيما لقيه كرين وسيرته من تحامل من المؤلف والمؤرخين الأمريكيين «المترجم».

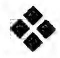
الجزءُ الثاني

والحضارة الإسلامية، مما أخذه فى نهاية المطاف إلى أسفار فى الهند وجاوه، ثم واصل جمع القطع الفنية ليودعها فى بيته.

هذا التعاطف من جانبه لم يكن سرًا؛ فقد اجتذب يومًا فى دمشق حشدًا من مئات العرب المرحبين الذين دعوه إلى مسجدهم وهم يهتفون «عاشت سوريا مستقلة»، ولقد ظلت شخصية كرين تُرى باستمرار فى الشرق الأوسط بقبعته السوداء ولحيته البيضاء وإطلالته التى تجمع بين العطف والكبرياء. أصبح واحدًا من أوائل الأمريكيين الذين قدر لهم أن يخترقوا أبواب صنعاء التى كانت تنتمى للعصور الوسطى فى اليمن؛ حيث أصبح صديقًا للإمام ووافق على تمويل أول عملية للتنقيب عن النفط هناك. وعمل كرين أيضًا مع جاك فيلبى لمساعدة الملك عبد العزيز آل سعود، وهو صديق آخر لكرين، لبدء عمليات التنقيب عن النفط فى المملكة العربية السعودية.

يكتب مؤلف سيرته فيقول:«أبرز تحيز كان يسيطر على فكر كرين خلال سنواته الأخيرة تجسد فى بغضه غير المحدود لليهود؛ إذ حاول كرين إقناع الرئيس فرانكلين روزفلت – وكان قد انتخب حديثًا – برفض مشورات فيلكس فرانكفورتر يتحاشى تعيين يهود آخرين فى مناصب حكومية وكان كرين يتصور بأن ثمة محاولة على مستوى العالم يقوم بها اليهود لتشويه حياة الأديان كلها. وشعر بأن إحباط هذه المخططات لن يكون من القوة بمكان إلا من خلال ائتلاف بين المسلمين والروم والكاثوليك. وفى عام ١٩٣٣ اقترح كرين– بالفعل– على الحاج أمين الحسينى مفتى القدس أن يبدأ المفتى محادثات مع الفاتيكان لتخطيط حملة مناهضة لليهود.

8



الساعة الآن بحدود العاشرة صباحاً، وها أنذا أجلس إلى جانب الآلة على حافة الرصيف خلف الفندق الذي وجدناه في (مايلز سيتي) في (مونتانا). كانت (سيلفيا) مع (كريس) في مغسلة ملابس اسمها (لاندرومات) لغسل ملابسنا جميعاً. وكان (جون) يبحث عن مجسّم منقار بطة ليضعه على خوذته. اعتقد أنّه رأى واحدةً منها في محل درّاجات لّما وصلنا المدينة أمس. وأنا أريد أنّ أتفقّد المحرّك قليلاً.

مشاعرنا أفضل الآن. دخلنا الفندق في المساء وتهيّأنا لنوم عميق. حسناً فعلنا أنّ توقّفنا. أصابنا الإعياء حتّى الغباء فلم ندرك معه كم كنّا متعبين. فلمّا حجز (جون) الغرف لم يتذكّر اسمي، وسألتنا موظّفة الحجز إن كنّا نملك تلك «الدرّاجات الجميلة الغريبة» في الخارج، فضحكنا بشدّة حتّى أنّها سألت عمّا فعلته من خطأ. كان ضحكاً ينمُّ عن غباء ناجم عن الإرهاق المضاعف. كنّا سعداء لأنّنا نتركها موقوفة، لكي نذهب مشياً من باب التغيير.

والحمّامات. في حوض حمّام قديم جميل من الحديد المطعّم بمادّة المينا، والراقد فوق مخالب أسد في منتصف غرفة من الرخام. كان الماء عذباً جدّاً حتّى شعرت أنّني لن أزيل الصابون عن جسدي. وتمشّينا لاحقاً في شوارع المدينة الرئيسة، فشعرنا كأنّنا عائلة.

لقد أصلحت هذه الآلّة مراراً وتكراراً حتّى أصبح الأمر طقساً. ولم أعدّ أفكّر فيه بعد الآن. فالأمر لا يتعدّى البحث عن أيّ شيء غير اعتيادي. صار المحرّك يصدر صوتاً مزعجاً كصوت عتلة مرتخية. وربّما ساء أكثر، ولهذا سأحاول ضبطها الآن، لكي أرى إن كان الصوت سيختفي. يتطلّب إصلاح عتلات الدفع أنّ يكون المحرّك بارداً. وهذا يعني أنّ المكان الذي ستصف درّاجتك فيه هو المكان الذي عليك إصلاحها فيه صباح اليوم التالي. وهذا هو سبب تواجدي خلف الفندق في (مايلز ستي) في ولاية (مونتانا). الهواء منعش الآن في الظلّ، وسيبقى كذلك لساعة أو يزيد حتّى تلتفّ الشمس عن جذوع الأشجار، وهذا وقت مناسب للعمل على الدرّاجة. ومن المهمّ ألاّ تضبط درّاجتك تحت الشمس المباشرة، أو في وقت متأخرٍ من النهار، عندها يكون الدماغ مضطرباً، لأنّك حتّى لو ضبطتها مائة مرّة من قبل، عليك أنّ تكون يقظاً، وستبحث عن الأشياء على الدوام.

ربّما لا يعرف الناس جميعاً أيّة عمليّة عقلانيّة تماماً تنطوي عليها صيانة الدرّاجة. فهم يعتقدون أنّها نوع من «المهارة المكتسبة»، أو أنّها نوع من «الإلفة مع الآلات» أثناء عملها. هم محقّون في هذا، بيد أنّ المهارة تكاد تكون عمليّة منطقيّة تماماً. معظم المشاكل ناجمة عمّا وصفه مذيعون قدماء بقولهم: «تماس كهربائي بين سمّاعتين» أو إخفاقات في استخدام العقل جيّداً. والدرّاجة

النارِيّة تعمل بالكامل وفق قوانين العقل. ودراسة فنّ صيانة الدرّاجة النارِيّة إنّما هو دراسة مصغّرة لفنّ العقلانيّة بأكمله. لقد قلت سابقاً إن شبح العقلانيّة هو ما كان (فيدروس) يسعى له، وهو ما دفعه نحو الجنون. لكن علينا أنّ نسبر غور العقلانيّة بحذر، وأنَّ نأخذ أمثلة بسيطة عنها لكي لا نتوه في التعميمات التي ربّما لا يفهمها أحد. وقد يصبح الحديث عن العقلانيّة مربكاً ما لم يشمل الأشياء التي تتعامل معها العقلانيّة.

كنّا قد تحدّثنا عن الفصل الكلاسيكي الرومانسي، حيث يمكنّنا أنّ نرى الدرّاجة في أحد الجوانب كما تظهر في لحظتها، وهذه بالطبع طريقة مهمّة لرؤيتها. في حين أنّنا قد نرى الدرّاجة في الجانب الآخر كما يراها الميكانيكي في ما يتعلّق بالشكل الضمني، وهذه أيضاً طريقة مهمّة لرؤية الأشياء. وهذه الأدوات - ودعونا نأخذ مفتاح الشدّ مثالاً عليها - لها جوانب رومانسيّة، لكن هدفها كلاسيكي بالكامل. فهي مصمّمة لتغيير الشكل الضمني للآلة.

كانت قطعة البورسلان في هذا القابس قاتمة جدّاً، ويعدُّ هذا الوضع بشعاً جدّاً على المستويين الكلاسيكي والرومانسي، لأنَّ الإسطوانة تحصل على الكثير من الوقود والقليل من الهواء. فلا تجد جزئيّات الكربون في البنزين الأكسجين الكافي لتلتحم ببعضها، وإنّما هي هنا لشحن القابس. حين وصلنا إلى المدينة أمس، كان منظّم السرعة غير منظّم قليلاً، ويقود هذا العارض إلى النتيجة نفسها.

ولكي أعرف أيّ أسطوانة كانت تتلّقى وقوداً أكثر من اللازم، كان عليَّ أنّ أفحص الاثنين، فأخرجت من جيبي سكيّناً، وأمسكت بعصا ملقاة في مزراب الماء المسيل، وكشطت حتّى النهاية لأنظف المقابس متسائلاً عن

سبب سوء توزيع الوقود والهواء. لكن ليس لسوء التوزيع علاقة بالقضبان أو الصبابات. ونادراً ما ينجو الخلّاط من عمليّة التعديل. كان الصنبور الرئيس أكبر من المعتاد، الأمر الذي سبّب سوء توزيع الوقود والهواء على السرعات العالية. لكن كانت المقابس أنظف بكثير في الماضي حتّى مع وجود هذه الصنابير الكبيرة. وهو أمرٌ محيّر. يصيبنا جميعنا على الدوام. لكن إن حاولت حلّها جميعاً، فإنّك لن تصلح درّاجتك. وليس هناك من إجابة مباشرة. ولهذا تركت القضيّة معلّقة.

كانت عتلة الدفع الأولى جيّدة جدّاً. ولم تكن تحتاج إلى الإصلاح، ولهذا انتقلت إلى الأخرى. وما زال عندي كثير من الوقت قبل أنّ تصل الشمس إلى تلك الأشجار. كنت دائماً أشعر كما لو أنّني في كنيسة عندما أفعل هذا، كانت أداة القياس كأيقونة دينيّة، وكنت أؤدّي شعيرة مقدّسة بها. فهي عنصر في مجموعةٍ تسمّى «أدوات قياس الدقّة»، وحسب المنظور الكلاسيكي تحمّل معنىً عميقاً.

في الدرّاجة الناريّة لا يتمّ حفظ الدقّة لأسباب رومانسيّة أو كماليّة. بل ببساطة لا يمكن التحكّم بقوّة الحرارة الهائلة والضغط الانفجاري داخل المحرّك إلاّ عبر الدقّة التي تزوّدنا بها هذه الأدوات. ولّما يحدث أيّ انفجار، يتمّ دفع القضيب الواصل نحو العمود المرفقي بطاقةٍ سطحيّةٍ مقدارها عدّة أطنان لكلّ إنشٍ مربّع. وإن كان قياس القضيب مع العمود المرفقي دقيقاً، فإنّ قوّة الانفجار ستنتقل بسلاسة، وسيكون المعدن قادراً على تحمّلها، لكن إن كان القياس مختلفاً، ولو بأجزاء دقيقة من الإنش، فإنّ القوّة ستنتقل فجأة كضربة المطرقة، وسيتحوّل القضيب والحامل وسطح العمود المرفقي إلى

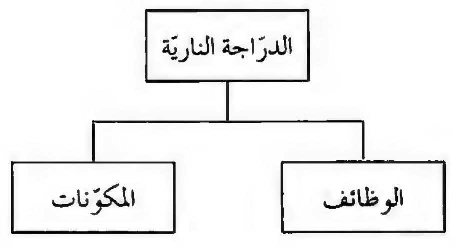
شكل منبسط، مطلقين أصواتاً مزعجة، قد تبدو في بداية الأمر كالعتلات المرتخية. ولهذا أقوم بفحصها الآن. وإن كان القضيب مرتخياً، وحاولت أنّ أقود درّاجتي إلى الجبال دون صيانةٍ شاملةٍ لها، فأنّها ستصدر صوتاً أعلى فأعلى، حتّى يحرّر القضيب نفسه، ضارباً العمود المرفقي دائم الدوران، وسيدمّر المحرّك بلا أدنى شكّ. وقد تتجمّع القضبان المتكسّرة، أحياناً في علبة المرافق، وستسكب كلّ الزيت على الطريق. وحينها كلّ ما تستطيع فعله هو السير على الأقدام.

لكن تستطيع تجنّب كلّ هذا عن طريق تناسبٍ دقيقٍ جدّاً، مقداره بضعة آلآف من الإنش. وهذا هو محور جمالها الكلاسيكي - ليس ما تراه وإنّما ما تعني- وما تستطيع عمله من تحكم بالشكل الضمني.

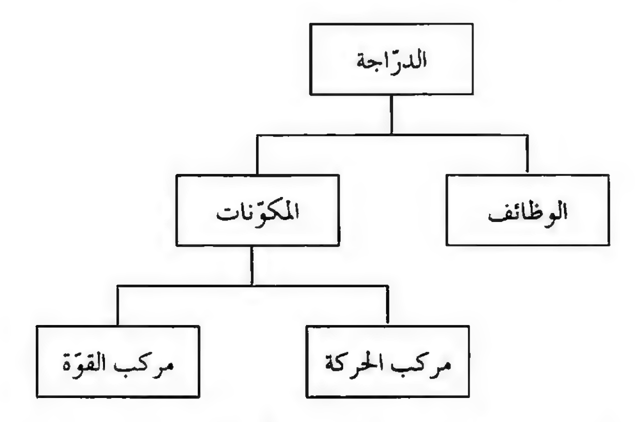
والعتلة الثانيّة جيّدة. لذلك أنتقل إلى الجانب الآخر من الدرّاجة من جهة الشارع، وأشغّل الأسطوانة الأخرى.

صمّمت وسائل الدقّة لتحقيق فكرة، ألاّ وهي دقّة الأبعاد في الدرّاجة التي يعدّ كمالها أمراً مستحيلاً. ولن يكون، جزءاً ذا شكل مثالي. لكن هذا ممكن عندما تقترب من هذه الأشياء بقدر ما تحدث أشياءً مدهشةً. وستندفع عبر حقول الريف بقوّةٍ يمكن تسميتها سحراً، لو لم تكن عقلانيّةً في جميع جوانبها. والمهم هنا هو فهم هذه الفكرة الذهنيّة العقلانيّة. فعندما ينظر (جون) إلى درّاجته، يرى حديداً تمَّ تشكيله في أشكال مختلفة، فيكوّن مشاعر سلبيّةً تجاه هذه الأشكال ويتخلّص من الفكرة برمّتها. لكنّني أنظر إلى أشكال الحديد، فأرى أفكاراً، هو يعتقد أنّني أعمل على اجزاء، وفي الحقيقة أنّني أعمل وفق مفاهيمِ.

كنت أمس أتحدّث عن هذه المبادئ لمّا قلت إن الدرّاجة الناريّة تقسم إلى مكوّنات ووظائف. وقد رسمت لمّا قلت هذا مجموعة من المربّعات وفق الترتيب التالي:



ولمّا قلت إن المكوّنات تنقسم إلى مركب القوّة ومركب الحركة، ظهر لدينا المزيد من المربّعات الصغيرة.



وفي كلّ مرةٍ كنت أرسم تقسيماً جديداً، ظهر لدينا المزيد من المربّعات التي ترتكز على هذه التقسيمات حتّى أصبح لديّ هرم كبير من المربّعات. ويمكنك أنّ ترى أنّني قد أقمت بناءً أثناء نزولي إلى أجزاءٍ أدق.

يسمّى ترتيب المفاهيم وفق بناءٍ مُحدّدٍ شكليّاً «تراتباً». وكان منذ أقدم الأزمان البناء الرئيس لكلّ المعارف الغربيّة. فالممالك والإمبراطوريات

والكنائس والجيوش والأعمال العصريّة تمَّ تقسيمها وفقاً لهذا البناء. وكذلك جدول المحتويات في الكتب والمركبات الميكانيكيّة وبرمجيّات الكمبيوتر وجميع أشكال المعارف العلميّة والتقنيّة، حتّى إن بعض التقسيمات في بعض الحقول كالأحياء التي تتبع تقسيم المملكة - الأسرة- الطبقة - الترتيب - العائلة - الجنس- النوع قد أصبحت مثالاً يحتذى به.

يضمّ مربّع «الدرّاجة الناريّة» المربّعين «المكوّنات» و«الوظائف». ويتكوّن مربّع «المكوّنات» من مربّعين هما «مركب القوّة» و«مركب الحركة»، وهكذا دواليك. وهناك أنواعٌ أخرى من الأبنية قد تنتج عن عواملَ أخرى كالأسباب التي تنتج أبنيةً متسلسلةً طويلةً على الشكل «(أ) يسبّب (ب) الذي يسبّب (ج) الذي يسبّب (د)» إلى آخره. ويستخدم الوصف الوظيفي للدرّاجة هذا البناء. والعوامل «يوجد» و«يعادل» و«يعني» تنتج أبنية أخرى. وتترابط هذه الأبنية بأنماطٍ ومساراتٍ معقّدةٍ وواسعةٍ جدّاً بحيث لا يستطيع أيّ شخصٍ أنّ يفهم أكثر من جزءٍ صغير منها طوال حياته. والاسم الكلّي لهذه الأبنية المتداخلة، والجنس الذي يعدُّ تراتب الاحتواء وبناء السبب، من أنواعه، هو **النظام**. والدرّاجة الناريّة نظام، نظام **حقيقي**.

وحين نصف بعض المنشآت الحكوميّة والمؤسسيّة بأنّها «نظام» فهو وصفٌ صحيحٌ تماماً، لأنَّ هذه المؤسّسات قد أقيمت وفق العلاقات المفهومة البنائيّة ذاتها التي بنيت وفقاً لها الدرّاجة الناريّة. وتستدام هذه المنشآت عبر العلاقات البنائيّة، حتّى بعد فقدانها كلّ معناها ومقصدها. والناس يذهبون إلى المصانع ويؤدّون عملاً لا معنىً له بالكامل من الساعة

الثامنة إلى الساعة الخامسة دون تذمّرٍ، لأنَّ البناء يتطلّب أنّ تتمّ الأمور على هذا الشكل. وليس هناك من يمكن وصفه وغداً أو «شخصاً دنيئاً» أراد لهم أنّ يعيشوا حياةً ليس لها معنى، وإنّما هو البناء، والنظام يتطلّب هذا البناء. ولا يرغب أيّ شخصٍ أنّ يأخذ على عاتقه تغيير هذا البناء لأنّه غير ذي معنى.

لكن أنّ تهدم مصنعاً، أو أنّ تثور على حكومةٍ، أو أنّ تتجنّب إصلاح الدرّاجة، لأنّها نظام هو هجومٌ على النتائج لا الأسباب. ولن يحدث أيّ تغييرٍ ما دام الهجوم على النتائج فقط. والنظام الحقيقي، النظام الصحيح هو بناءنا الحالي للفكر المنتظم نفسه، للعقلانيّة نفسها. فإذا دمّرنا مصنعاً، وبقيت العقلانيّة التي تنتّجه قائمةً، فإنّها ستبني مصنعاً كالذي دمرناه من قبل. وإن اقتلعت ثورةٌ ما حكومةً منتظمة، وبقيت أنماط الفكر المنتظمة التي أنتجت تلك الحكومة قائمة، فإنّ تلك الأنماط ستكرّر نفسها في وراثه الحكومة الزائلة. وهناك كلام كثير عن النظام وقليل من الفهم.

والدرّاجة الناريّة ليست سوى نظامٍ من المفاهيم خرجت على شكل صلب، وليس هناك جزءٌ منها، ولا شكلٌ من أشكال أجزائها لم يصمْمه الإنسان... كانت عتلة الدفع الثالثة سليمة. وبقي لديّ واحدة أخرى لفحصها، ومن الأفضل أنّ يكون الخلل فيها... لاحظت أنّ الناس الذين لم يعملوا عملاً له علاقة بالمواد الصلبة لديهم مشكلة في فهم أنّ الدرّاجة الناريّة هي ظاهرة عقليّة، وهم يربطون المعدن بالأشكال التي يرونها أمامهم- كالأنابيب والقضبان والعوارض والأدوات والأجزاء- وجميعها ثابتةٌ ولا تتغيّر، ويفكّرون فيها تفكيراً ماديّاً بحتاً. لكن الشخص الذي يعمل

على الآلة أو بسبك المعادن أو بالحدادة أو لحام المعادن يعلم أنّ «الصلب» ليس له شكل على الإطلاق. ويمكن تشكيل الصلب وفق أيّ شكلٍ تريد إن كنت تملك ما يكفي من المهارة الكفاية، وأيّ شكلٍ غير الشكل الذي تريده إن لم تكن ماهراً. والأشكال كهذه العتلة هي **ما تريدها أنت**، وهي ما يمكن منحه للصلب، الذي لا شكل له. والأشكال جميعها نتاج عقل الإنسان. هذه حقيقة ينبغي أنّ نراها. وعلينا الأ ننسى الصلب؟ يا إلهي، حتّى الصلب ناتجٌ عن عقل شخصٍ ما. فليس هناك صلب في الطبيعة. يستطيع أيّ فردٍ من العصر البرونزي إخبارك بهذه الحقيقة. لكن ما تحمله الطبيعة هو المكوّنات الكامنة للصلب. وليس هناك أكثر من ذلك. لكن ما نعني بـ«مكوّنات كامنة»؟ وهذه أيضاً نتاج عقل الإنسان كالأشباح.

هذا ما كان (فيدروس) يتحدّث عنه لمّا قال إن كلّ شيءٍ موجودٌ في عقل الإنسان. قد يبدو الأمر غريباً إن قلت هذا الأمر دون الإشارة إلى شيءٍ محدّدٍ كالمحرّك. ولمّا تربطها بشيءٍ محدّدٍ ومحسوسٍ، فإنّ الأصوات غير العاقلة ستختفي، وتستطيع أنّ ترى أنّه قال شيئاً ذا أهميّة.

العتلة الرابعة مرتخية جدّاً، وهذا ما كنت آمل حدوثه. عدّلتها وتفقّدت حزام التوقيت، فوجدّته جيّداً، ووجدت أنّ الأسنان لم تثلم بعد، ولهذا تركتها، وشددت غطاء الصمام، واستبدلت القوابس وشغّلت الدرّاجة.

يختفي صوت العتلة، لكن هذا لا يعني الكثير ما دام الزيت بارداً. لذلك أدعها تعمل في وضع الوقوف، وأرتّب باقي العدّة، ثمّ أصعد عليها، وأتوجّه إلى محل درّاجات أخبرنا عنه درّاج أمس، آملاً أنّ أجد حلقة تغيير السلسلة وحاملة قدم مطاطيّة. لابدّ من أنّ لـ(كريس) قدمين عصبيّتين. فحاملات

الأقدام تهترئ على الدوام.

أقطع مسافة حيين، ولا يصدر أيّ صوت عن عتلات الدفع، ويبدو صوت الدرّاجة جميلاً. أعتقد أنّ الصوت اختفى تماماً، ولن أقفز إلى استنتاجات حتّى نقطع مسافة ثلاثين ميلاً على الأقل. الشمس مشرقة، والهواء لطيف، ورأسي صافٍ. لدينا يومٌ كاملٌ أمامنا. فنحن نقترب من الجبال. من الجيّد أنّ نرى مثل هذا اليوم. وهذا الهواء العليل هو ما يجعله جيّداً. دائماً نشعر بهذا لمّا نبدأ بالارتقاء شيئاً فشيئاً.

الارتفاع! ربّما هذا هو السبب لجعل المحرّك يعاني من سوء توزيع الهواء والوقود. على الأرجح هذا هو السبب. نحن على ارتفاع ألفين وخمسمائة قدم الآن، ومن الأفضل أنّ أستخدم الصنابير المعياريّة، فتبديلها يتطلّب بضع دقائق، وأن نزيد كميّة الهواء الداخل إلى الخلّاط. فسوف نصعد أكثر من هذا الارتفاع بكثير.

أجد دكّان «بل للدرّاجات» تحت ظل بعض الأشجار، لكن لا أجد (بل). يخبرني أحد المشاة أنّه ذهب للصيد في مكان ما تاركاً محله مفتوحاً بالكامل. نحن الآن في الغرب الحقيقي، فلن يترك أحدٌ محلّه على هذه الحالة في شيكاغو أو نيويورك.

ألاحظ عندما أدخل المحل أنّ (بل) ميكانيكي من مدرسة «العقل التصويري». فكلّ شيء ملقى في كلّ مكان، فمفاتيح الشدّ والمفكّات والقطع القديمة والدرّاجات القديمة والقطع الجديدة والدرّاجات الجديدة ومنشورات البيع والأنابيب الداخليّة كانت كلّها منتشرة بكثرة وكثافة لا تستطيع معها أنّ ترى مقاعد الجلوس تحتها. لا أستطيع العمل في وضع

كهذا، لأنّي لست ذا عقلٍ تصويري. قد يتمكّن (بل) من العمل في هذا المكان، وإيجاد أيّ قطعة يريدها دون أدنى تفكير في مكانها. رأيت كثيراً من فنيّي التصليح على هذه الشاكلة. قد يسؤوك رؤيتهم أثناء عملهم، لكنّهم ينجزون عملهم على أكمل وجهٍ وأحياناً أسرع. لكن إن حرّكت أيّة قطعة ثلاث إنشات فقط من مكانها، فسيقضي أيّاماً يبحث عنها.

يرجع (بل) وقد تكدّر وجهه لسبب ما. لابدّ أنّ لديه صنابير لدرّاجتي، وهو يعرف مكانها بالتحديد. لكن كان عليَّ الانتظار لمدّة، لينتهي من صفقة متعلّقة بقطع درّاجة هارلي. أتمشّى معه إلى الخارج، وأرى أنّه يبيع درّاجة هارلي كاملة من قطع قديمة، باستثناء الهيكل، الذي كان الزبون يملكه. كان يبيع جميع القطع مقابل مائة وخمس وعشرين دولاراً، لم يكن سعراً سيّئاً في نهاية الأمر.

أقول له عند عودتنا إلى المحل: «سيعرف الكثير عن الدرّاجات قبل أنّ تسير أموره على خير ما يرام بهذه القطع».

يضحك (بل) ويقول: «هذه أفضل طريقة للتعلم أيضاً».

لديه صنابير وحمّالات قدم، لكن ليس لديه حلقة معدّلة للسلسلة. فأركّب الحمالات والصنابير، وأحرّر الآلّة من حالة الخمول. وأعود راجعاً إلى الفندق.

كانت (سيلفيا) و(جون) و(كريس) ينزلون الدرج حاملين أمتعتهم لمّا وصلت. وجوههم تقول إنّهم كانوا في المزاج نفسه الذي كنت فيه. نتّجه نحو الشارع الرئيس، ونجد مطعماً، ونطلب شرائح لحم للغداء.

يقول (جون): «إنّها مدينةٌ عظيمةٌ، حقّاً عظيمة. دهشت لوجود مدنٍ

كهذه حتّى الآن، كنت أستكشف المكان هذا الصباح. لديهم حانات (ستوكمان)، وجزمات عالية الساق، وأحزمة ذات إبزيم على شكل دولار فضّي، وملابس ليفايس (Levis) وستيتسونز (Stetsons) وجميع هذه الاشياء. وكلّ هذه الأشياء أصليّة، وليست أغراض غرفة التجارة. وفي الحانة عند بداية الحي كان الناس يتحدّثون إليّ كما لو كنت أعيش معهم طوال حياتي».

نطلب كأساً من البيرة، ونعرف من علامة حدوة الحصان المثبتة على الجدار أنّنا قد دخلنا منطقة بيرة أوليمبيا. ولهذا نطلب بيرة من هذا النوع.

يواصل (جون) كلامه ويقول: «لابدّ أنّهم ظنّوا أنّني من مزرعةٍ أو أمراً كهذا، كان الرجل العجوز يتحدّث كيف رفض إعطاء أيّ شيء للصبيّة المعلونين، واستمتعت بقوله. ستذهب المزرعة إلى البنات لأنَّ الأولاد ينفقون كلّ فلسٍ يحصلون عليه في محلّات سوزي للبالغين». ينفجر (جون) حينها ضاحكاً، ويواصل كلامه: «كان نادماً على تربيتهم، واعتقدت أنّ هذه الأمور اختفت قبل ثلاثين عاماً، لكنّها ما تزال موجودةً هنا».

تجيء النادلة تحمّل شرائح اللحم، فنلتهمها بسرعة. ويفتح عملي على الدرّاجة شهيّتي. يقول (جون): «هناك شيء أعتقد أنَّه يهمك، تحدّثوا في الحانة عن (بوزمان) حيث ستذهب، وقالوا إن حاكم (مونتانا) لديه قائمة من خمسين أستاذاً جامعياً عنصرياً في الكليّة في (بوزمان) سيطردهم، لكنّه مات في تحطّم طائرة».

أجيبه: «كان هذا منذ زمنٍ طويلٍ». كانت شرائح اللحم جيّدةً جدّاً.

- «لم أعلم أنّ لديهم الكثير من المتطرّفين في هذه الولاية».

- «لديهم جميع أنواع الناس في هذه الولاية. لكن هذا العمل كان من سياسة جناح اليمين».

يضيف (جون) المزيد من الملح، ويقول: «لقد جاء أحد كتّاب الأعمدة في صحيفة في (واشنطن) على ذكر هذه الحادثة في عموده أمس، ولهذا كانوا يتحدّثون عنها أمس، وأكدّ عميد الكليّة الأمر بنفسه».

- «هل طبعوا القائمة؟»

- «لا أعلم. هل تعرف أيّاً منهم؟»

- « لديهم خمسون اسماً، لابدّ أنّ اسمي أحدهم».

ينظر كلاهما إليّ بدهشة، لم أكن أعرف الكثير عن القائمة، في الحقيقة. كان هو بالطبع، وشرحت بشيء من الكذب أنّ المتطرّف في مقاطعة (غالاتين) في (مونتانا) مختلف قليلاً عن المتطرّف في أيّ مكان آخر.

أخبرهم أنَّه «تم منع زوجة الرئيس الأمريكي من دخول هذه الكليّة، لأنّها كانت مثيرة للجدل».

- «من؟»

- «إلينور روزفلت».

يضحك (جون) ويقول: «يا إلهي، لابدّ من أنّ هذا عمل متهور».

كانوا يريدون الاستماع إلى المزيد. لكن كان من الصعب أنّ تقول شيئاً. ثمّ أتذكّر شيئاً فأقول: «في تلك المواقف، يمتلك المتطرّف الحقيقي دسيسة مثاليّة. فهو يستطيع عمل ما يريد ويفلت من المساءلة، لأنَّ معارضية جعلوا من أنفسهم أغبياء، وسيجعلونه يبدو جيّداً مهما قال».

وفي طريق خروجنا، نمرّ بمنتزه المدينة، الذي كنت قد رأيته بالأمس،

وأثار لديّ توارد الذكريات. بمجرّد النظر إلى بعض الأشجار، أدرك أنّه نام على كرسي المنتزه في أحد الليالي في طريقة إلى (بوزمان). ومر بالمنتزه ليلاً أثناء سيره إلى الكليّة في (بوزمان).

9



نتّبع الآن وادي «يلوستون» عبر (مونتانا). يتغيّر الوادي من شجيرات الميرميّة الغربيّة إلى حقول الذرة الشائعة في منطقة الوسط الغربي، ثمّ تعود الأمور إلى ما كانت عليه، بحسب اعتمادها على الريِّ من النهر أو لا. أحياناً نمرّ بمناطق تأخذنا بعيداً عن المناطق المرويّة، لكنّنا عادة ما نبقى قريبين من النهر. نجتاز لافتة تتحدّث عن شيء مثل (لويس وكلارك). لابدّ أنّ أحدهم سلك هذه الطريق في رحلة عرضيّة من معبر الشمال الغربي.

الصوت جميل، ويناسب التشوتوكوا. نمرّ في ما يمكن اعتباره معبراً شماليّاً غربيّاً. نمرّ عبر المزيد من الحقول والصحراء، حتّى يوشك اليوم على نهايته.

أودُّ أنّ ألاحق الآن الشبح نفسه الذي لاحقه (فيدروس)، أعني العقلانيّة، ذلك الشبح الكلاسيكي، الممل والمعقّد للشكل الضمني.

كنت قد تحدّثت هذا الصباح عن تراتبيات الفكر، أيّ النظام. وأريد

الآن التحدّث عن مناهج عثور المرء على طريقه عبر هذه التراتبيات، أعني المنطق. وهناك نوعان للمنطق: استقرائي (Inductive) واستنباطي (deductive). تُبنى الاستدلالات الاستقرائيّة على ملاحظات تتعلّق بالآلة وتنتهي بالنتائج. على سبيل المثال: إذا مشت الدرّاجة على مطبّ، واختلّ عمل المحرّك، ثمّ مشيت فوق مطبٍ آخر، واختلّ المحرّك ثمّ مشيت فوق امتدادٍ طويل وسلس من الطريق، ولم يختل عمل المحرّك، ثمّ مشيت فوق مطبٍّ رابع، واختلّ عمل المحرّك، يستطيع الشخص حينها أنّ يستنتج أنّ الاختلال في عمل المحرّك ناجم عن المطبات. هذا هو الاستقراء: الوصول إلى حقائق عامّة من تجارب محدّدة.

والاستدلال الاستنباطي هو عكس الاستقراء تماماً. فهو يبدأ بالمعرفة العامّة، ويتوقّع حدوث ملاحظة محدّدة. فعلى سبيل المثال: لو عرف فنّي التصليح بعد قراءة تراتب الحقائق عن الآلّة أنّ الزمور يستمد طاقته من كهرباء البطاريّة، يستطيع حينها القول إنّه إن جفّت البطاريّة فالزمور لن يعمل، وهذا هو الاستنباط.

يتمّ حلّ المشاكل المعقّدة جدّاً على الإنسان البسيط عبر سلسلةٍ طويلةٍ من الاستدلالات الاستقرائيّة والاستنباطيّة، التي تأخذك جيئةً وذهاباً بين الآلّة الملحوظة والتراتب العقلي للآلة الموجود في أدلّة الآلّة. ويسمّى البرنامج الصحيح لهذا النسيج بالمنهج العلمي.

في الواقع، لم أجد مشكلة تتعلّق بإصلاح الدرّاجة على درجة من التعقيد الشديد بحيث تتطلّب الطريقة العلميّة بكامل تفاصيلها. فمشاكل إصلاح الدرّاجة ليست صعبةً جدّاً. ولمّا أفكّر بصورةٍ للمنهج العلمي، تقفز إلى

ذهني صورة شاحنة ضخمة جداً، أو جرّافة ضخمة تعدُّ بطيئة ومملّة وثقيلة وكادحة لكنّها لا تقاوم. وقد تتطلّب العمليّة ضعفي، أو خمسة أضعاف، أو عشرة أضعاف الوقت الذي قد تأخذه طرق فنّي التصليح غير المعياريّة، لكنّك في نهاية المطاف ستحقّق مرادك. ليس في عمليّة صيانة الدرّاجة الناريّة، عمليّة محدّدة لمعرفة الخطأ يمكنك اتّباعها. فحين تواجهك مشكلةٌ مستعصيةٌ، وتجرّب كلّ شيءٍ، وتعصر ذهنك بحثاً عن حلٍ، فإن لم تجد حلّاً، تعلم حينها أنّ الأمور قد تعقّدت جدّاً بالنسبة إليك، فتقول: «حسناً، هذه نهاية رجل شجاع». آنذاك فقط تلجأ إلى الطريقة العلميّة المعياريّة.

لإصلاح هذا، عليك الاحتفاظ بدفتر ملاحظاتٍ، وتسجيل كلّ ما يحدث فيه شكليّاً، لتكون على علم بمكانتك في جميع الأوقات، وبوضعك في تلك اللحظة، أين ستكون وأين ستذهب. وهذا الأمر ضروري في العمل العلمي، وتكنولوجيا الإلكترونيّات، لأنّك إن لم تفعل ذلك تصبح المشاكل أكثر تعقيداً، وستضيع عبرها، وسترتبك وستنسى ما عرفت وما لم تعرف، وستستسلم. أمّا في صيانة الدرّاجات الناريّة فليست الأمور على هذا المستوى من التعقيد، لكنّك حين تتعقّد الأمور، من الجيّد أنّ تضبطها عبر تدوين كلُ شيءٍ شكليّاً وبالتحديد. وفي بعض الأحيان، قد تساعدك عمليّة تدوين المشاكل بتقويم تفكيرك عن ماهية المشكلة.

ويمكن تقسيم العبارات المسجّلة في الدفتر إلى ست فئات:

1) تحديد المشكلة.

2) فرضيّات سبب المشكلة.

3) تجارب مصمّمة لاختبار الفرضيّات.

4) النتائج المتوقّعة للتجارب.

5) النتائج الملحوظة للتجارب.

6) دلالات النتائج.

لا تختلف هذه النقاط في ترتيبها عن الترتيب المعياري لدفاتر ملاحظات كثير من الكليّات والمدارس العليا، غير أنّ الهدف لا يقتصر على إبقاء الشخص مشغولاً، وإنّما الهدف هو التوجيه الدقيق للأفكار التي ستفشل إن لم تكن دقيقة.

والغرض الحقيقي من المنهج العلمي هو أنّ تتحقّق من أنّ معرفتك بالشيء حقيقيّة وغير مضلّلة، لا أنّ تشعر أنّك تعرف شيئاً في حين أنّك لا تعرفه. ولن تجد ميكانيكيّاً ولا عالماً ولا فنيّاً إلاّ وعانى من هذا الأمر كثيراً. وهذا هو السبب الرئيس الذي يجعل كثيراً من المعلومات العلميّة والميكانيكيّة تبدو مملّةً، وتحتوي كثيراً من التخوُّف. لكن إن أبديت إهمالاً، أو حاولت إضفاء صبغةٍ رومانسيّةٍ عليها، معطياً إيّاها لمعاناً هنا أو هناك، فستتحوّل إلى غبّيٍ بالكامل. وقد تبدو كذلك حتّى لو لم تحاول. ويجب على الشخص أنّ يكونَ حذراً جدّاً ومنطقيّاً إلى أبعد الحدود عندما يتعامل مع الطبيعة. فزلةٌ صغيرةٌ جدّاً كفيلةٌ بهدم صرحٍ علميٍ كاملٍ. واستنباطٌ خاطئٌ واحدٌ عن الآلّة كفيلٌ بجعلك تتخبّط إلى الأبد.

تكمن المهارة الرئيسة في القسم الأوّل من المنهج العلمي المعياري، وهي تحديد المشكلة، في وصف المشكلة بشكلٍ قاطعٍ ربّما لا يدعو للتفاءل. ومن الأفضل أنّ تكتب عبارةً كـ«حل المشكلة: لماذا لا تعمل الدرّاجة؟» التي قد تبدو غبيةً، لكنّها صحيحة وأفضل من عبارة «حل المشكلة: ما الخطأ في

النظام الكهربائي؟» عندما لا تعلم بشكلٍ قاطعٍ أنّ الخطأ يكمن في النظام الكهربائي. وينبغي عليك أنّ تكتب «حل المشكلة: ما الخلل في الدرّاجة الناريّة؟»، ومن ثمّ تكتب كمدخلٍ أوّلٍ في القسم الثاني التالي: «الفرضيّة الأولى: المشكلة في النظام الكهربائي». وتستطيع اقتراح قدر ما ترى مناسباً من فرضيّات، ومن ثمّ عليك أنّ تصمم تجاربَ لاختبار هذه الفرضيّات لترى الصحيحة ومن الخاطئة.

يقيك هذا المنهج الحذر من سلوك انعطافٍ خاطئ، قد يكلفّك أسابيع من العمل الإضافي أو قد يعيقك بالكامل. ولهذا قد تبدو الأسئلة العلميّة غبيّةً للوهلة الأولى، إنّما نطرحها لمنع حدوث أخطاءٍ غبيّةٍ لاحقاً.

يعتبر الرومانسيُّون الجزء الثالث، المسمّى التجريب، علميّاً بأكمله لأنّه الجزء الوحيد المرتبط بأنابيب الاختبار، والمعدّات غريبة الشكل، وأناس يركضون في كلّ جانبٍ لتحقيق اكتشافٍ ما. والرومانسيّون لا يرون التجربة جزءاً من عمليّة معرفيّة أوسع. لهذا يخلطون بين التجربة والعرض التوضيحي، اللذين يبدوان الشيء نفسه. فإن قدّم رجلٌ عرضاً علميّاً خارقاً بأدواتٍ ذات قيمةٍ كبيرةٍ، فإنّه لا يقدّم شيئاً جديداً إن كان يعرف مسبقاً نتائج عرضه. في حين أنّ الميكانيكي الذي يطلق البوق ليرى إن كانت البطاريّة تعمل، يجري تجربةً علميّةً حقيقيّةً بطريقةٍ غير مباشرة. فهو يختبر فرضيّةً عبر تطبيق السؤال على أرض الواقع. والعالِم الذي يظهر على التلفزيون ويتذمر قائلاً: «فشلت التجربة، وفشلنا في تحقيق ما كنّا نأمل في تحقيقه» إنّما يعاني بشكلٍ أساسٍ من كاتب نصوصٍ سيّء. فالتجربة لا تفشل بمجرّد عدم تحقيقها النتائج المتوقّعة، إنّما تفشل لّما تفشل في اختبار الفرضيّة الموضوعة،

أو عندما لا تثبت النتائج الناتجة عنها أيّ شيء بطريقة أو بأخرى».

تكمن المهارة في هذه المرحلة في استخدام التجارب التي يمكن عبرها اختبار الفرضيّات الموضوعة فقط، لا أكثر من ذلك ولا أقل. وإن افترض أيّ ميكانيكيٍ أنّ النظام الكهربائي بأكمله يعمل جيّداً بمجرّد اكتشافه أنّ البوق يعمل، فهذا افتراضٌ خاطئٌ، ويكون الميكانيكي قد أوقع نفسه في مشكلة كبيرة. فقد توصلّ إلى نتيجة غير منطقيّة. والزمور الجيّد إنّما يخبرنا أنّ البطاريّة والزمور يعملان جيّداً. وإن أراد تصميم تجربةٍ مناسبةٍ، عليه أنّ يفكّر بتجرّدٍ من حيث المسبّبات والنتائج. ويمكن معرفة هذا الأمر عبر التراتب. فالزمّور لا يجعل الدرّاجة تعمل، ولا البطاريّة، إلاّ بطريقةٍ غير مباشرةٍ. والنقطة التي يجعل النظام الكهربائي فيها المحرّك يعمل هي فحمات الاشتعال، وإن لم تفحص هذه، عند مخرج النظام الكهربائي، فإنّك لن تعرف إن كان الخلل كهربائيّاً أو غير كهربائي.

يقوم الميكانيكي لإجرّاء فحصٍ جيّدٍ بإزالة القابس، ووضعه إلى جانب المحرّك، لعزل التيّار الكهربائي عن قاعدة القابس، والدوس على دعّاسة التشغيل، ومراقبة فراغ فحمات الاشتعال بحثاً عن شعلّة زرقاء. وإن لم تظهر شعلّة زرقاء، فإنّ هناك استنتاجين؛ الأوّل: أنّ هناك انقطاعاً كهربائيّاً، أمّا الثاني: أنّ تجربته غير متقنة. وسيعيد التحربة أكثر من مرةٍ إن كان متمرّساً. وسيفحص الوصلات، وسيجرّب كلّ طريقةٍ يفكّر فيها لتشغيل ذلك القابس. وإن لم يستطع تشغيلها، فإنّ استنتاجه الأوّل هو الصحيح. وعندها تنتهي التجربة، وسيكون قد أثبت صحّة نظريّته.

تكمن المهارة في المرحلة الأخيرة المسمّاة النتائج في عدم التصريح بأكثر

ممّا أثبتته التجارب. فلم تثبت التجربة أنّه لمّا أصلح النظام الكهربائي، أنّ الدرّاجة ستعمل. قد تكون هناك أشياء أخرى خاطئة، لكن صار من المعلوم أنّ الدرّاجة الناريّة لن تعمل حتّى يعمل النظام الكهربائي. حينئذٍ عليه أنّ يصيغ السؤال المعياري الآخر: «حل المشكلة: ما الخطأ في النظام الكهربائي؟»

وعليه آنذاك أنّ يضع نظريّات لهذا السؤال، ويختبرها. ويشقّ الميكانيكي طريقه عبر درجات تراتبيّة بالدرّاجة الناريّة من خلال وضع السؤال الصحيح، واختيار الاختبارات الصحيحة، والوصول إلى الاستنتاجات الصحيحة، حتّى يصل إلى السبب أو الأسباب المحدّدة لفشل المحرّك، ومن ثمّ يستطيع تغييرها لكي لا تسبب عطلاً في المحرّك مرّةً أخرى.

لا يرى الملاحظ غير المتمرّس سوى العمل الجسدي، وغالباً ما يعتقد أنّ العمل الجسدي هو ما يفعله الميكانيكي. في الحقيقة، ليس العمل الجسدي سوى أصغر وأسهل جزءٍ يفعله الميكانيكي. بل إن الملاحظة الحثيثة، والتفكير الدقيق هما أعظم ما في عمل الميكانيكي. وهذا هو السبب الذي يجعل الميكانيكيّين قليلي الكلام وانطوائيّين عند أدائهم الاختبارات. وهم لا يحبّون أنّ تتحدّث معهم لأنّهم يركّزون على صور عقليّة، وتراتبيات، ولا ينظرون في الحقيقة إليك أو إلى الدرّاجة الناريّة على الإطلاق. وهم يستخدمون التجربة كجزء من برنامج لتوسيع تراتبيّة معرفتهم بالدرّاجات التي بها عيب، ويماثلونها بتراتبيّة صحيحة في أذهانهم. فهم ينظرون إلى الشكل الضمني.

***

تجتازنا سيّارة تجر عربة صغيرة، لكنّها وجدت صعوبة في العودة إلى مسربها. أشعلتُ الأضواء الأماميّة لأتأكّد أنَّه رآني. يرانا لكنّه لا يستطيع العودة إلى مساره. فكتف الطريق ضيّق ووعر. ستقتلنا إن صدمتنا. أخذت بالدوس على الكوابح، والتزمير، والتغميز. يا إلهي، لقد ارتعب واتّجه صوبنا، وقفت ثابتاً على حافة الطريق. ها هو يقترب. وفي اللحظات الأخيرة، يتراجع إلى الخلف، ولولا بضعة إنشات لصدمنا.

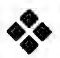
ها نحن نهتزّ. لو كنّا في سيّارة لكنا الآن أمامه. أو لكنّا ننتفض في أحد الخنادق.

نتوقّف في مدينة صغيرة في منتصف (آيوا). كانت سيقان الذرة تنمو مرتفعةً في جميع الأنحاء، ورائحة السماد ثقيلة في الجوّ. ننتقل من الدرّاجات المصطفة إلى مكانٍ قديمٍ وضخمٍ ذي أسقفٍ مرتفعة. طلبت مع البيرة جميع أنواع الوجبات الخفيفة التي يقدمونها. وتناولنا غداءً متأخّراً من الفستق، والبوشار، والموالحِ، ورقائق البطاطا، والأنشوجة الجافّة، والسمك الجاف المدخّن الذي يحتوي كثيراً من العظام الصغيرة، وسجقاً مدخّناً من نوع (سليم جيم)، والخبز المحلّى من نوع (لونغ جون). وتناولنا سجقّ البيبروني، ورقائق (الفريتوز)، والفستق من (بيرنتس)، ودهون سجق الخنزير، وقشور الخنزير مقليّة، وبعض الموالح المكوّنة من السمسم مع طعم آخر لم أعرفه.

تقول (سيلفيا): «ما أزال أشعر بالضعف».

ظننت أنّ صناديق الكرتون الملقاة في الشارع كانت دراجتنا تتقلّب عليها في الطريق السريع.

10



أصبحت السماء في الوادي محصورةً بسبب المنحدرات على جانبي النهر، لكنّها كانت تضيق وتضيق. وكان الوادي يضيق كلّما اقتربنا من منبع النهر.

نحن أيضاً على وشك الشروع في الأشياء التي أناقشها، ويمكن عندها الحديث عن قطيعة (فيدروس) مع التيّار الدارج في الفكر العقلاني في إطار بحثه عن شبح العقلانيّة نفسها.

وهناك نصّ قرأه وأعاده على نفسه كثيراً، فبقي سليماً من التغيير. يبدأ النصّ كالتالي:

في معبد العلم هناك عدَّة قصور... يختلف ساكنوها باختلاف الدوافع التي قادتهم إلى النزول فيها.

فبعضهم يتوجّه نحو العلم من منطلق المتعة التي قد يحصل عليها لكونه قوّة معرفيّة رفيعة، ولهذا يصبح العلم لعبتهم الخاصّة التي يرجعون إليها بحثاً

عن تجربةٍ حيويّةٍ، وإشباعاً لطموحهم؛ وهناك في المعبد من يقدّم ثمار دماغه لأغراض نفعيّة بحتة. وسيبدو المعبد خالياً لو تمَّ التخلّص من هاتين الفئتين، لكن سيبقى هناك بعض القاطنين من أوقاتٍ قديمةٍ وحديثةٍ. ولو كان المعبد يتكوّن من هذين الصنفين لما بقي المعبد قائماً إلاّ كما يمتلك المرء غابة ليس فيها سوى الزواحف. ومن بقوا في المعبد هم الزملاء غريبو الأطوار، المنقطعون المنعزلون، الذين لا يقلّون تنافراً عن جمهرة المطرودين.

لكن ما الذي جاء بهم إلى معبد العلم! لن تجد جواباً شافياً. قد يكون الهرب من حياتهم اليوميّة، بما فيها من قساوةٍ مؤلمةٍ وكآبةٍ محبطةٍ من قيود شهواتهم المتقلّبة! والطبيعة الخيّرة تتوق للهرب من الإزعاج المتراكم حولها إلى صمت الجبال العالية، حيث تنساب العين في امتداد لا ينتهي من الهواء النقي، وتتبع الأشكال الهادئة المبنيّة للخلود.

هذه الفقرة من خطابٍ ألقاه عالمٌ ألمانيٌ شابٌ اسمه (ألبرت أينشتاين) عام 1918.

أكمل (فيدروس) سنته الأولى من العلم الجامعي لمّا كان في الخامسة عشرة من عمره. كان حقل دراسته الكيمياء الحيويّة، وقرّر أنّ يختصّ في التداخل بين العوالم العضويّة وغير العضويّة، التي تعرف الآن بالبيولوجيا الجزئيّة. لكنّه لم ينظر إلى تخصّصه كوظيفةٍ يمكن من خلالها تحقيق تقدمٍ شخصي. كان شاباً، وكانت دراسته نوعاً من هدفٍ مثالي نبيلٍ

إنّ الحالة التي تمكّن الشخص من أدائها بعملٍ كهذا تشبه حالة العابد أو

العاشق، فالجهد اليومي لا ينبع عن نيّةٍ مقصودةٍ أو عن برنامجٍ، وإنّما خالصة من القلب.

لو أراد (فيدروس) دراسة العلم لغايات طموحةٍ أو نفعيّةٍ، لما تمكّن من طرح أسئلةٍ عن طبيعة الفرضيّات العلميّة ككيانٍ قائمٍ بذاته، لكنّه طرح هذه الأسئلة، وكان غير مقتنعٍ بالإجابات.

وتعدُّ صياغة الفرضيّات أكثر أصناف الطرق العلميّة غموضاً. فلا أحد يعلم مصدرها، فقد يجلس شخصٌ ما في مكانٍ لتأدية عمله المعتاد، ومن ثمّ، وفجأة يفهم شيئاً لم يفهمه من قبل. ولن تعدّ الفرضيّةُ ذات قيمةٍ حتّى تتمّ تجربتها. والاختبارات ليست مصادرَ للفرضيّات، وإنّما مصدرها مكانٌ آخر.

قال (إينشتاين):

يحاول الإنسان أنّ يرسم لنفسه صورةً مبسّطةً ومفهومةً للعالم. ومن ثمّ يحاول إلى حدٍّ ما أنّ يستبدل عالمه الخاصّ بعالم التجربة الذي يحاول أنّ يتغلب عليه. ويجعل هذا العالم وبناءه محور حياته العاطفيّة، ليجد السلام، والسكيّنة اللتين لن يجدهما في دوّامةٍ تجاربه الشخصيّة ... وتتجسّد المهمّة الأسمى في استخلاص القوانين الكليّة البسيطة التي يمكن عبرها بناء العالم بالاستناد إلى الاستنباط الخالص. فليست هناك مصادر منطقيّةٌ لهذه القوانين، غير الحدس، القائم على فهمٍ متعاطف للتجربة، ويستطيع الوصول إليها.

الحدس؟ التعاطف؟ كلمات غريبة لأصل المعرفة العلميّة.

قد يقول عالم أصغر من (إينشتاين): «لكن المعرفة العلميّة تأتي من الطبيعة التي تمدّنا بالفرضيّات». غير أنّ (أينشتاين) أدرك أنّ الطبيعة لا تقدم هذا، فالطبيعة لا تقدّم سوى المعلومات التجريبيّة.

وقد يقول عقلٌ أصغر: «إذاً، الانسان هو من يضع الفرضيّات». لكن (إينشتاين) رفض هذا القول أيضاً، وقال: «لن يستطيع من فكّر في هذا الموضوع أنّ ينكر أنّ عالم الظواهر هو ما يحدّد النظام النظري، مع أنّه ليس هناك جسرٌ نظري بين الظواهر وبين مبادئها النظريّة».

وحدث انفصال (فيدروس) لمّا أصبح، نتيجة للتجارب المخبريّة، مهتمّاً بالفرضيّات ككياناتٍ قائمةٍ بذاتها. فقد لاحظ مراراً وتكراراً وعبر عمله المخبري أنّ ما يعتبره بعضهم أصعب جزءٍ في العمل العلمي، ونقصد به صياغة الفرضيّات، قد أصبح أسهل جزءٍ. فعمليّة تدوين كلّ شيء بدقّةٍ وبشكلٍ معياري هي ما تقود إلى اقتراح الفرضيّات. وبينما كان يختبر الفرضيّة الأولى عبر الطريقة التجريبيّة، قفز إلى ذهنه سيلٌ وافرٌ من الفرضيّات الأخرى. وبينما كان يختبرها، قفز إلى ذهنه غيرها، وتلاها غيرها حتّى أصبح واضحاً أنّ أعداد الفرضيّات الموضوعة لن ينقص حتّى بعد اختبارها، إنّما هي آخذة بالازدياد.

في البداية وجد الأمر مسليّاً، وصاغ قانوناً مضحكاً كقانون (باركنسون) ومفاده: «إنّ عدد الفرضيّات العقليّة التي يمكن أنّ تفسّر ظاهرةً محدّدةً لا نهاية له». وسرّه ألاّ تنفد عنده الفرضيّات. وكان يعلم حتّى في الحالات التي كانت تجاربه تقوده إلى نهايةٍ ميتةٍ، أنّه لو جلس لمدّةٍ طويلةٍ وفكّر في

الموضوع أطول فأنّ فرضيّةً أخرى قد تلوح في الأفق. وهذا ما كان يحدث. ولم تمض سوى أشهرٍ على صياغة القانون حتّى بدأت تساوره شكوك عن فائدة القانون أو جانبه المرح. ويصبح القانون مع صحّته، غلطة ثانية في التفكير العلمي، وإنكارياً بالكامل، وتفنيداً منطقيّاً كارثيّاً لصلاحيّة المنهج العلمي بأكمله.

إذا كانت الغاية من الطريقة العلميّة هي الاختيار من مجموعة من الفرضيّات، وإذا كانت أعداد الفرضيّات في تزايدٍ سريعٍ لا تستطيع الطريقة التجريبيّة التعامل معه، فمن الواضح إذاً أنَّه من المستحيل اختبار جميع الفرضيّات، الأمر الذي يجعل نتائج أيّة تجربة غير نهائيةٍ، ولن يقترب المنهج العلمي بأكمله من تحقيق هدفه في الوصول إلى معرفةٍ مبرهنةٍ.

وفي هذا الصدد، قال (إينشتاين): «أظهر التطوّر أنَّه في لحظةٍ ما ومن بين جميع الأبنية قد يبرز بناءٌ ما ليثبت أنَّه يتفوّق على البقيّة». لكن لم يكن الجواب شافياً بالنسبة إلى (فيدروس)، فالعبارة «في لحظة ما» قد صدمته، هل كان (إينشتاين) يعني أنّ الحقيقة وظيفة للوقت؟ إن افتراض هذا الأمر يعدّ هدماً لأكثر أساسات العلم أهميّةً.

هذا هو تاريخ العلم: قصّةٌ واضحةٌ من التفسيرات الجديدة والمتغيّرة المتواصلة بحقائقٍ قديمة. وتعدّ مراحل الثبات في العلم عشوائيةً بالكامل، وربّما لا تستطيع معها رؤية أيّ نظامٍ. وقد تدوم بعض الحقائق العلميّة لقرونٍ، في حين أنّ حقائق أخرى لا تدوم أكثر من عامٍ. ولا تغدو الحقيقة العلميّة عقيدةً صالحةً للخلود، إنّما ككيان كميٍّ مؤقّتٍ يمكن دراسته كأيّ موضوع آخر.

درس (فيدروس) الحقائق العلميّة، وانزعج كثيراً من السبب الظاهر لوضعها المؤقّت. وبدا الأمر كما لو أنّ العمر الزمني للحقائق العلميّة هي وظيفة عكسيّة لكثافة الجهود العلميّة. ولهذا، كانت المراحلُ الزمنيّة للحقائق العلميّة في القرن العشرين أقصر بكثير من تلك التي كانت في القرن التاسع عشر، وذلك لأنَّ النشاط العلمي في القرن العشرين أكبر بكثير. ولو أنّ النشاط العلمي في القرن القادم ازداد بمقدار عشرة أضعافٍ، فإنّ العمر الزمني للحقائق العلميّة سيقصر بمقدار عُشر عمر الحقائق العلميّة في القرن العشرين. وما يجعل عمر الحقائق العلميّة قصيراً هو كثافة الفرضيّات الموضوعة لتحل محل الحقيقة العلميّة. فكلّما زادت الفرضيّات، قصر عمر الحقيقة العلميّة.

وما يسبّب زيادة عدد الفرضيّات في العقود الأخيرة ليس إلاّ الطريقة العلميّة نفسها. فكلّما بحثت أكثر، وجدت أكثر، وبدلاً من اختبار فرضيّةٍ من مجموع الفرضيّات الموضوعة، فإنّك تضيف فرضيّتك إلى المجموع. وهذا يعني أنّك كلّما حاولت التحرّك نحو الحقيقة الثابتة، عبر تطبيق الطريقة العلميّة، فإنّك لن تتحرّك نحوها، وإنّما ستبقى بعيداً عنها. وتطبيقك للمنهج العلمي هو ما يجعلها تتغيّر.

ما لاحظه (فيدروس) على المستوى الشخصي كان ظاهرة ما، وهي ظاهرةٌ مميّزةٌ لتاريخ العلم تمَّ تجاهلها لسنوات. فالنتائج المتوقّعة للبحث العلمي والنتائج الحقيقيّة للبحث العلمي على طرفي نقيض. ويبدو أنَّه لا أحد يعير هذه الحقيقة أدنى انتباه. والغاية من الطريقة العلميّة هي اختيار حقيقة واحدة من عدَّة حقائق مفترضة. وهذا هو كنه العلم بالتحديد. لكن

العلم على مرّ التاريخ فعلَ عكس ذلك تماماً. والعلم نفسه هو الذي يقود الإنسان بعيداً عن الحقائق المطلقة إلى حقائقٍ نسبيّةٍ غير مطلقةٍ ومتعدّدةٍ عبر مضاعفة الحقائق، والمعلومات، والنظريّات والفرضيّات بشكل لا ينتهي. فالمسبّب الرئيس للفوضى الاجتماعيّة، وعدم ثبات الفكر والقيم، وهما أمران سعت المعرفة العقليّة لاجتثاثهما، إنّما هو العلم نفسه. وما رآه (فيدروس) في عزلته في عمله المخبري قبل سنوات نراه الآن في كلّ مكان في عالم التكنولوجيا. فوضى ضدّ العلم سبّبها العلم نفسه.

أصبح ممكناً الآن النظر إلى الخلف واكتشاف أهميّة الحديث عن دور هذا الشخص بالتحديد في كلّ شيء تمَّ قوله مسبقاً عن التقسيم بين الحقائق الكلاسيكيّة والرومانسيّة، وعدم توافق الاثنين بشكل مطلق. كان (فيدروس)، على عكس جميع الرومانسيّين الذين أزعجتهم التغيّرات الفوضويّة التي فرضها العلم والتكنولوجيا على النفس البشريّة، قادراً بما يملك من عقلٍ كلاسيكيٍ متمدّنٍ وعلميٍ من أنّ يفعل هو أكثر من أنّ يضرب أخماساً بأسداسٍ من الامتعاض، أوّ أنّ يهرب بعيداً، أو أنّ يستنكر الأمر برمّته دون أنّ يقدّم حلّاً.

وكما قلت سابقاً، قدّم (فيدروس) في نهاية المطاف عدداً من الحلول، لكن كانت المشكلة عميقة جدّاً، وجسيمة جدّاً، ومعقّدةً بحيث لم يستطع أحدٌ أنّ يفهم جسامة ما كان يحاول حلّه. ولهذا أخفقوا في فهمه أو أسأوا فهم ما قال.

كان يُعتقدُ أن سبب الأزمات الاجتماعيّة الحاليّة هو خلل جيني في طبيعة التفكير المنطقي نفسه. وستستمّر الأزمات حتّى يتمّ التخلّص من هذه

الطفرة الجينيّة. فأنماط العقلانيّة الحاليّة لا تدفع بالمجتمع نحو الأمام إلى عالمٍ أفضل، وإنّما تقصيه بعيداً عن هذا العالم الأفضل، ولقد كانت هذه الأنماط ناجحة في هذا الأمر منذ عصر النهضة، وما دام هناك حاجة للإنسان في طعامٍ أو لباسٍ أو مسكنٍ، فستبقى هذه الأنماط فعّالة. لكن الآن ومع عدم طغيان هذه الحاجات على جوانب حياة الأنسان الأخرى لكثير من الناس، لم يعدّ التفكير المنطقي برمّته الذي توارثناه منذ عصورٍ غابرةٍ كافياً لنا. وبدأنا نراه على حقيقته - فارغاً وعاطفيّاً وعديم المعنى جماليّاً، وخالياً روحانيّاً. وهذا هو وضعه حاليّاً، وسيبقى كذلك لمدّة قادمة من الزمن.

أتصوّر أنّ أزمة اجتماعية غاضبة مستمّرة ستحدّث قريباً، ولن يفهم أحد طبيعتها ناهيك عن إيجاد حلٍ لها. وأرى أناساً كـ(جون) و(سيلفيا) يعيشون حياة طابعها الضياع والاغتراب عن البناء العقلاني للحياة المتحضّرة برمّته، ويبحثون عن حلولٍ خارج البناء، ولم يجدوا حلاً مناسباً منذ مدّةٍ طويلةٍ. ولدي تصوّر لـ(فيدروس) وتجرّداته المنفصلة والمنعزلة أثناء عمله في المختبر - في الحقيقة كان منشغلاً بالأزمة نفسها، لكن من نقطة مختلفة، فقد كان يسيرُ بالاتّجاه المعاكس- وما أحاول عمله هنا هو لمّ شمل القضيّة، التي كانت كبيرة جدّاً، لهذا قد أبدو جوّالاً مشتتاً.

لا يبدو أنّ أحداً تحدّث إليه (فيدروس) كان يهتمّ بهذه الظاهرة التي حيّرته كثيراً. ويبدو أنّهم كانوا يقولون: «نعلم أنّ الطريقة العلميّة ذات جدوى، فلماذا تسألون عنها؟»

ولم يفهم (فيدروس) هذا الموقف، ولم يعرف ما يجب أنّ يفعل إزاءه. ولأنّه لم يكن طالب علمٍ لأغراضٍ شخصيّةٍ أو منفعيّةٍ، أوقفته هذه المشكلة

بالكامل. كانت أشبه بمشهد الجبل المهول الذي وصفه (إينشتاين)، ثمّ فجأة ينفلق صدع بين الجبلين، فجوة من العدم الخالص. وببطء وعذاب، لكي يفسّر هذه الفجوة، كان عليه أنّ يقبل بالجبلين، اللذين ظهرا كأنّما بنيا إلى الأبد، ولعلّهما كانا لشيء آخر، وربّما كانت من نسج خياله الخاص. وهذا ما أوقفه.

ولهذا تمَّ فصل (فيدروس)، الذي أكمل لمّا كان في الخامسة عشرة من عمره سنته الأولى في الجامعة بسبب درجاته الراسبة في سن السابعة عشرة. وكانت الأسباب التي تمَّ إدراجها هي عدم النضج وإهمال الدراسة.

لم يكن هناك من يستطيع منع حدوث هذا أو تصحيحه. ولن تتمكّن الجامعة من إبقائه طالباً دون خرق المعايير بالكامل. وبدأ (فيدروس) في موقف المذهول بالانحراف نحو مدارٍ بعيدٍ للعقل. لكنّه في نهاية المطاف عاد درباً طويلاً نسلكه الآن إلى أبواب الجامعة. وسأتحدّث غداً عن هذا المسار.

نتوقّف في (لوريل) لقضاء ليلنا هناك. فنرى الجبال أخيراً. أصبح نسيم المساء لطيفاً، فهو يأتي من الثلوج على قمم الجبال، ومع أنّ الشمس قد اختفت وراء الجبال منذ ما يزيد عن الساعة، إلاّ أنّ السماء ما زالت مضيئة.

نمشي أنا و(سيلفيا) و(جون) و(كريس) في الشارع الرئيس خلال وقت الغسق، ونشعر بهيبة الجبال مع أنّنا كنّا نتحدّث عن مواضيع أخرى. أشعر بالسعادة لتواجدي هنا، وبالحزن قليلاً لتواجدي هنا أيضاً. فالسفر أحياناً أفضل من الوصول.

11



أستيقظ متسائلاً إن كنت أعرف أنّنا بالقرب من الجبال بسبب الذاكرة أو بسبب شيءٍ في الهواء. ها نحن في غرفةٍ خشبيّةٍ قديمةٍ جميلة في الفندق. تضيء الشمس على الخشب داكن اللون عبر النافذة، لكنّي أشعر بقربنا من الجبال حتّى مع إسدال الستارة. والغرفة مضمخة بهواء الجبال. وهو هواء لطيف ورطب وعطر نوعاً ما. مع كلّ نفس عميق أستنشقه يجعلني جاهزاً لما يليه، والذي يليه يجعلني جاهزاً لما بعده، حتّى أقفز من فراشي، وأزيح الستارة فاسحاً المجال لضوء الشمس لكي يدخل - لامعاً لطيفاً حادّاً صافياً.

يتنامى لديّ حافز لأنَّ أدفع (كريس) إلى الأعلى والأسفل، وأنَّ أهزّه حتّى يستيقظ ليرى ما أراه. لكن ومن منطلق العطف، أو الاحترام ربّما، سمحت له بأنَّ يبقى نائماً. ولهذا حملت موس حلاقتي وصابونتي وتوجهت إلى حمّام عامٍ في نهاية الممر من الخشب الداكن. كانت ألواح الخشب تصدر أصواتاً أثناء المشي عليها، وفي الحمّام كان الماء الساخن يجري في الأنابيب.

كان ساخناً جدّاً بداية الأمر، لكنّه أصبح جيّداً بعد أنّ خلطته بماءٍ باردٍ.

عبر النافذة خلف المرآة أرى شرفة في الخلف. وبعد الانتهاء من الحلاقة أتوجّه إليها وأقف أمامها. وهي على مستوى ارتفاع رؤوس الأشجار التي كانت تحيط بالفندق، وتبدو كأنّها تستجيب لهذا الهواء العليل مثلي تماماً. والأغصان والأوراق تتأرجح مع كلّ نسيمٍ خفيفٍ وكأنه متوقّع، وكأنّما كانت بانتظاره كلّ هذا الوقت.

سرعان ما يستيقظ (كريس) وتخرج (سيلفيا) من غرفتها وتقول إنّها و(جون) قد تناولا الإفطار، وإن (جون) قد ذهب للمشي في مكانٍ ما، ولكنّها سترافقني أنا و(كريس) لتناول الفطور.

يغمرنا عشق كلّ شيء هذا الصباح، فنتحدّث عن أشياء جيّدة طوال طريقنا في الشارع المشمس المؤدّي إلى المطعم. البيض، والكعك الساخن والقهوة لذيذة جدّاً. تتحدّث (سيلفيا) و(كريس) بشغفٍ عن مدرسته وأصدّقائه، وأشيائه الشخصيّة. بينما كنت أستمع إليهما، وأنظر عبر نافذة المطعم الكبيرة نحو واجهة الدكّان في الطرف الآخر من الشارع. الأمر مختلف تماماً هنا عمّا شاهدناه في تلك الليلة المقفرة في (داكوتا الجنوبيّة). ووراء هذه البنايات هناك جبالٌ وحقولٌ جليديّةٌ.

تقول (سيلفيا) إن (جون) قد تحدّث مع شخصٍ في المدينة عن طريقٍ أخرى إلى (بوزمان) جنوباً عبر (يلوستون بارك).

أقول: «جنوباً؟ ربّما تعنين (ريد لوج)؟»

- «أعتقد ذلك».

تقفز إلى ذهني مناظر الحقول الجليديّة في (يونيو) فأقول: «تلك الطريق

مرتفعةٌ جدّاً، فهي تأخذنا إلى ارتفاعاتٍ تعلو منسوب نموّ الأشجار».

تسأل (سيلفيا): «هل هي سيّئة؟»

«ستكون باردةً جدّاً». تقفز إلى عقلي صورة الدرّاجة الناريّة ونحن عليها في منتصف الحقول الجليديّة، فأقول: «لكنّها ستكون مذهلة». نقابل (جون) ونتفّق على سلوك تلك الطريق. وخلال مدّة وجيزة، كنّا نقف خلف طريقٍ تمرّ أسفل السكّة الحديديّة أمام طريقٍ أسفلتي متعرّجٍ عبر الحقول نحو قمّة الجبال. سلك (فيدروس) هذه الطريق على الدوام، وكانت ومضات ذكراه تراودني في كلّ مكان. ولاح في الأفق جبال (أبساروكا) الداكنة والمرتفعة.

نتتبّع جدولاً صغيراً نحو منبعه. وفيه ماء كان مجمّداً قبل أقلّ من ساعة. والطريق والجدول يمرّان عبر حقول خضراء وأخرى حجرية، كلّ واحدٍ منها أعلى من سابقه. كان كلّ شيء حادّاً جدّاً في ضوء الشمس. ضوء ساطع، وظلال داكنة، وسماء زرقاء داكنة. تضيء الشمس حارّةً حين نكون تحتها مباشرة، ويتحوّل الجوّ ليصبح بارداً حين نمرّ تحت الأشجار على طول الطريق.

نلعب لعبة الزقيطة مع سيّارة بورش زرقاء صغيرة على طول الطريق، فقد كنّا نتجاوزها بالزمّور، وتتجاوزنا بالزمور، وكرّرنا هذا عدّة مرّات عبر حقول الحور الداكنة والحقول الخضراء اللامعة من العشب والشجيرات الجبليّة. تذكّرت كلّ هذا.

كان يستخدم هذه الطريق للوصول إلى الريف في الأعلى. من ثمّ كان يتوارى بعد أنّ يزوّد نفسه بالمؤونة، لثلاثة أو أربعة أو خمسة أيّام. ومن ثمّ كان يعاود الظهور للمزيد من الطعام، ليعود ليتوارى في الجبال، التي كان

يحتاجها حاجةً فسيولوجيّةً بحتةً. كانت سلسلة تجرّداته قد أصبحت طويلةً جدّاً. وكان عليه، وقد تملّكته هذه التجرّدات، أنّ يؤمّن لنفسه فسحة من الهدوء والصمت والمكان ليصحّح مسارها. وبدا كما لو أنّ ساعات من البناء على وشك أنّ تتحطم عبر أقلّ لحظة إلهاء عن طريق أيّة فكرة أخرى أو واجب آخر. لم يكن تفكيره حينها وقبل جنونه مشابهاً لتفكير أيّ شخصٍ آخر. لقد كان في مستوىً كلُّ شيءٍ فيه قابلٌ للتغيير والتبديل، وفي مستوى اختفت فيه القيم والحقائق المؤسّسية، ولم يبق سوى روح الشخص لتبقيه حيّاً. ولقد حرّره فشله المبكّر من أيّ شعور بالالتزام بالأفكار المؤسسيّة النمطيّة الدارّجة حينها. أصبحت أفكاره بالفعل مستقّلةً إلى درجةٍ لم يعهدها كثير من الناس. وشعر أنّ المؤسّسات كالمدارس والكنائس والحكومات والمنظّمات السياسيّة بمختلف أنواعها توجّه الفكر نحو غاياتٍ بعيدةٍ عن الحقيقة. وذلك لاستدامة وظيفتها، وللتحكّم بالأفراد في خدمة هذه الوظائف. واعتبر فشله المبكّر انكساراً محظوظاً، وهرباً مفاجئاً من مصيدة نصبها لنفسه مسبقاً. وبقي حذراً إزاء الحقائق المؤسّسية بقيّة حياته. وهو لم يؤمن بهذه الأفكار ويفكّر بهذه الطريقة منذ بداية حياته، وإنّما تغيّر هكذا لاحقّاً. ويبدو أنّني خرجت عن تسلسل أفكاري هنا، فكلّ هذا قد حدث لاحقّاً.

كانت الحقائق التي حاول (فيدروس) متابعتها في بداية الأمر حقائقَ جانبيّة. أعني تلك التي لم تعدّ في واجهة العلم، وتلك التي أشار النظام إليها، لكنّها هي الحقائق الجانبيّة التي تراها من زاوية عينك. وعندما تكتشف في المختبر أنّ طريقتك حمقاء، أو عندما تقودك بعكس ما تريد أو

تصبح غير واضحةٍ، أو تحبط من نتائجَ غير متوقّعة، ولا تستطيع أن تفسّر ما يحدث، حينئذٍ تبدأ تنظر إلى الأمور جانبيّاً. وقد استخدم (فيدروس) الكلمة «جانبي» لاحقّاً لوصف نموّ المعرفة التي لا تمضي إلى الأمام كالسهم، وإنّما تتوسّع إلى الجانبين، كالسهم الذي يتضخّم بعد انطلاقه، أو كالرامي، الذي اكتشف مع إصابته الهدف وفوزه بالجائزة، أنّ رأسه على مخدّة، وأنَّ الشمس تدخل من الشبّاك. والمعرفة الجانبيّة هي المعرفة الصادرة عن اتّجاه غير متوقّع بالكامل، من اتّجاه غير مفهوم في الأصل حتّى تفرض المعرفة نفسها على الشخص. والمعرفة الجانبيّة تشير إلى زيف المسلّمات (Axiom) والفرضيّات التي يؤكّد عليها النظام القائم للتوصّل إلى الحقيقة.

كان ينجرف نحو جميع المظاهر، وكان في الحقيقة ينجرف فقط. والانجراف هو ما نفعله لمّا ننظر إلى الحقيقة الجانبيّة. ولم يستطع أنّ يتبع أيّة طريقةٍ إجرائيّةٍ معروفةٍ ليميط اللثام عن أسبابها. فهذه الطرق والإجرّاءات كانت بذاتها محبطة، ولهذا انجرف. وكان هذا كلّ ما يستطيع فعله.

قاده الانجراف إلى الجيش، الذي أرسله إلى (كوريا). وبقيت من تلك الذكرى شظيّة، صورة لحائط يمكن رؤيتها من مقدّمة المركب، تلمع بتوهّج كما لو كانت بوابّة إلى السماء في وسط ميناءٍ غطاه الضباب. لابدّ أنّ لهذه الذكرى مكانةً كبيرةً عنده، وفكّر كثيراً بها، وذلك لأنّها كانت شديدة جدّاً، مع عدم ملاءمتها لما يحدث، حتّى أنّني رجعت إلى تلك الذكرى بنفسي أكثر من مرّة، ويبدو أنّها جسدت شيئاً مهمّاً بالنسبة إليه. نقطة تحول.

كانت رسائله من (كوريا) مختلفةً تماماً عن كتاباته الأولى، الأمر الذي يشير إلى نقطة التحوّل التي تحدّثت عنها. فقد كانت مليئةً بالعاطفة.

كان يكتب الصفحة تلو الأخرى عن تفاصيلَ دقيقةٍ لأشياء كان يراها، كالأسواق والدكاكين ذات الأبواب الزجاجية المنزلقة والسقوف المائلة والطرق والأكواخ المصنوعة من القش، كلّ شيء. كان بعضها مليئاً بالحماس، وبعضها كئيباً، وبعضها غاضباً، وبعضها مرحاً. كان كشخصٍ أو مخلوقٍ وجد مخرجاً من قفصٍ لم يعرف أنّه محبوسٌ فيه، فأخذ يتجّول في المنطقة بتوحشٍ ملتهماً ببصره كلّ شيء.

وكون لاحقاً علاقات مع عمّال كوريين كانوا يتحدّثون بعض الإنجليزيّة، لكنّهم كانوا يرغبون في تعلّم المزيد ليصبحوا مؤهلين كمترجمين. قضى معهم بعض الوقت بعد انتهاء العمل، وهم بالمقابل كانوا يأخذونه في نزهات في نهاية الأسبوع عبر التلال ليرى بيوتهم وأصدقاءهم، وينقلون له طرق عيش ثقافةٍ أخرى وتفكيرها.

يجلس بجانب ممرّ على خاصرة تلّة تعصف فيها الرياح وينظر إلى (البحر الأصفر). كان الأرز في المنطقة أسفل الممرّ مكتمل النموّ وبنيّاً، وينظر أصدّقاؤه إلى البحر معه، ويرون جزراً صغيرةً بعيدةً عن الشاطئ. يتناولون غداءهم ويتحدّثون مع بعضهم ومعه. ويجري الحديث في معظم الأحيان عن الصور الرمزيّة (ideographs) ودورها في العالم. يتحدّث عن مدى روعتها، حتّى أنّ كلّ شيء في العالم يمكن وصفه باستخدام ستّة وعشرين صورة هي التي يستخدمها هؤلاء. كان أصدّقاؤه يهزّون رؤوسهم ويبتسمون، ويأكلون طعامهم الذي أخذوه من العلب، ويقولون: «لا» بسعادة.

يحتار بين هزّة الرأس التي تقول نعم، وجوابهم الصريح «لا». فيعيد العبارة مرّة أخرى، ويرى منهم ذات السلوك. كانت هذه نهاية الشطّية،

لكنّها كالجدار يفكّر فيها على الدوام.

وآخر شظيّة قويّة من ذكرى ذلك المكان كانت لمقصورةٍ في سفينة جنود. كان في طريقه إلى الوطن، وكانت المقصورة فارغةً وغير مستخدمةٍ. كان وحيداً في سرير مكوّن من طبقاتٍ مصنوعٍ من قماشٍ كتاني مربوطٍ إلى هيكلٍ فولاذيٍ كما لو كان ترامبولين. وكان في كلّ صفٍ خمسة أسرة من هذه، مصفوفة تلو بعضها لملء مقصورةِ الجنود الفارغة.

هذه هي المقصورة الأماميّة في السفينة، والأسرّة الكتانيّة في الهياكل المجاورة ترتفع وتنزل. فيشعر حينها كمن يتحرّك في مصعد. يتأمل في هذه الأشياء، وفي الصوت العميق على الصفائح الفولاذيّة حوله. ويدرك أنَّه لو لا هذه العلامات، لما كان هناك من مؤشّرٍ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ أنّ هذه المقصورة ترتفع بشكل كبير في الهواء، ثمّ تهوي إلى الأسفل بشكلٍ متكرّرٍ. وتساءل إن كان هذا هو السبب الذي يجعل من الصعب عليه التركيز في الكتاب أمامه، لكنّه أدرك أنّ السبب الحقيقي هو صعوبة الكتاب الذي كان يدور عن الفلسفة الشرقيّة. وتيقّن أنَّه أصعب كتابٍ قرأه في حياته. كان سعيداً بأنّه كان وحيداً وضجراً في مقصورة الجنود الفارغة، وإلاّ لما أنهى الكتاب.

يقول الكتاب إن هناك مكوّناً نظريّاً لوجود الإنسان. ويعدُّ هذا المكوّن غربيّاً (وهو مشابه لتاريخ (فيدروس) في المختبر) وهناك مكونٌ جماليٌ لوجود الإنسان، هو بشكّل أساس شرقي (وهذا مشابه لماضي (فيدروس) في كوريا)، ويبدو أنّ هذين المكونّين لن يلتقيا. والمصطلحان «النظري» و«الجمالي» يشبهان ما سمّاه (فيدروس) لاحقاً الطرق الكلاسيكيّة

والرومانسيّة للحقيقة. وصاغ على الأرجح هذين المصطلحين في ذهنه أكثر من مرّة. والفارق هو أنّ الحقيقة الكلاسيكيّة هي نظريّة **في الأساس**، لكن لها جوانبها الجماليّة، وأنَّ الحقيقة الرومانسيّة هي جماليّة **في الأساس**، لكن لها جانبٌ نظريٌ. وهذا الانقسام النظري والجمالي هو انقسام بين مكوّنات عالم واحد. والانقسام الكلاسيكي والجمالي هو انقسام بين عالمين مختلفين. ويقترح الكتاب الموسوم بـ«لقاء الغرب بالشرق» للمؤلّف (إف، إس، سي. نورثروب) أنّ يزيد الوعي «بالتواصل الجمالي غير المتباين» الذي قد ينتج عنه جوانب نظريّة.

لم يفهم (فيدروس) هذه الجملة، لكنّه وبعد وصوله إلى (سياتل)، وتسريحه من الجيش، لازم غرفته أسبوعين، تناول خلالهما كثيراً من التفاح من نوع واشنطن، وواصل التفكير، وتناول التفاح، والتفكير، ونتج عن كلّ هذه الشظايا وحالة التشرذم التي كان يمرّ بها أنّ قرّر الرجوع إلى الجامعة لدراسة الفلسفة. وبهذا انتهى انجرافه الثانوي، وأصبح يسعى وراء هدفٍ ما الآن.

تهبُّ فجأة ريحٌ باردةٌ مثقلةٌ برائحة الصنوبر ومن ثمّ أخرى، فأُخرى، حتّى اقتربنا من (ريد لوج) كنت أرتجف ارتجافاً.

في (رد لودج)، تتوحّد الطريق بأسفل الجبل. وتهيمن الكتلة الضخمة الداكنة المشؤومة على أسقف البنايات على جانبي الطريق الرئيس. نوقف درّاجاتنا وننبش أمتعتنا بحثاً عمّا يزوّدنا بالدفء. نمرّ ببعض محلّات التزلّج نحو المطعم الذي رأينا على جدرانه صوراً ضخمة للطريق الذي

سنسلكه إلى الأعلى، فوق واحدٍ من أعلى الطرق الممّهدة في العالم. أشعر بتوتّر حيال هذا الأمر الذي أعتبره غير عقلاني، وأحاول التخلّص منه عبر التحدّث مع آخرين عن الطريق. من المستحيل أنّ نسقط، وليس هناك من خطر على الدرّاجة، إنّما ذكرى أماكن تستطيع فيها أنّ ترمي حجراً قد يقطع آلاف الأقدام قبل أنّ يستقر، وتربط على نحو ما الحجر بالدرّاجة الناريّة وسائقها.

حين أنهينا القهوة، ارتدينا ملابسنا الثقيلة، وأعدنا توضيب أمتعتنا، وانطلقنا نحو أحد الطرق المتعرّجة عبر واجهة الجبل. الإسفلت على الطريق أعرض وأكثر أماناً ممّا يحدث في الذاكرة. فحين تقود درّاجة يتوافر لديك متسّع من كلّ نوع. يسلك (جون) و(سيلفيا) أحد المنعطفات الحادة، ومن ثمّ يظهران أمامنا وعلى وجهيهما ابتسامة. ونسلك نحن المنعطف فنرى ظهريهما. وبعد منعطف حاد آخر، نراهما فنضحك. فالمنعطف قاسٍ جدّاً حين تفكّر به، وسهل جدّاً حين تتخلّص منه.

تحدّثت عن انجراف (فيدروس) الجانبي، الذي قاده لولوج فرع الفلسفة. لقد رأى في الفلسفة أعلى مراتب المعرفة. وهذا ما يكرّره الفلاسفة حتّى أصبحت هذه العبارة مبتذلة. لكن بالنسبة إليه يعدُّ الأمر مصدر إلهام. واكتشف أنّ العلم الذي عدّه في الماضي المعرفة بأكملها إنّما هو فرع من الفلسفة التي تعدّ أكبر وأوسع. ولم تكن الأسئلة التي سألها عن عدد الفرضيّات اللانهائي ذات علاقةٍ بالعلم، لأنّها لم تكن أسئلةً علميّةً. فالعلم لا يستطيع دراسة المنهج العلمي دون الوقوع في المعضلة السببيّة

التي قد تدمّر صحّة إجاباته. وكانت الأسئلة التي سألها على مستوى أعلى من المستوى الذي سلكه العلم. ولهذا وجد (فيدروس) في الفلسفة تكملة طبيعيّة للسؤال الذي جذبه إلى العلم في الأصل. ماذا يعني هذا كله؟ وما الهدف من وراء هذا؟

نتوقّف عند أحد المنعطفات في الطريق لنلتقط بعض الصور التي تثبت وصولنا إلى هذه المنطقة. ومن ثمّ نسلك ممرّاً صغيراً قادنا إلى حافّة الجرف. ربّما لا تستطيع رؤية الدرّاجة أسفل هذه النقطة. نرتدي المزيد من الملابس إتّقاء البرد، ونواصل طريقنا إلى الأعلى.

تختفي الأشجار ذات الأوراق العريضة وتبقى بعض أشجار الصنوبر الصغيرة، التي كان لبعضها أشكال ملفوفة وواهنة. وسرعان ما تختفي أشجار الصنوبر الواهنة، ونجد أنفسنا في مروج شاهقة. ما من شجرة من أيِّ نوع، وإنّما عشب في كلّ مكان تتخلّله بعض الامتدادات الزهريّة، والزرقاء والبيضاء المكثّفة. تغطّي الزهور البريّة المكان. فهي والأعشاب وحيوانات الموس والأشنات هي ما يستطيع العيش هنا فقط. لقد وصلنا إلى المنطقة التي تعلو خطّ نموّ الاشجار.

أتطلّع خلفي لأشاهد آخر منظر للممرّ الضيّق. كأنّما يهبط إلى قعر المحيط. قد يقضي الناس حياتهم بأكملها في مناطق منخفضة دون أنّ يعلموا بوجود أماكن أخرى أكثر ارتفاعاً. تنعطف الطريق إلى الداخل بعيداً عن المضيق، نحو حقولٍ ثلجيّة.

يدوّي المحرّك بعنف نتيجة نقص الأوكسجين، وينذرُ بالتوقّف عن

العمل، لكنّه لا يتوقّف. وسرعان ما أصبحنا محوطين بركام ثلج قديم، كحال الثلج في بداية الربيع بعد ذوبانه قليلاً. وتجري جداول صغيرة من الماء في كلّ مكان إلى طينٍ نمت عليه طحالب، ومن ثمّ إلى الأسفل نحو عشب عمره أسبوع، ثمّ نحو زهور بريّة صغيرة، زهريّة وزرقاء وصفراء وبيضاء، كانت تندفع من ظلال سوداء لتلمع في ضوء الشمس. المنظر نفسه يتكرّر في كلّ مكان. تأتلق بقع ملّونة من الضوء من خلفيّة داكنة وسوداء. السماء مظلمة وباردة. إلاّ في البقع التي تصلها الشمس. ترتفع حرارة ذراعي وقدمي وسترتي من جهة الشمس، أمّا في الجانب المظلم، في الظلال العميقة، فجنبي بارد جدّاً.

تتثاقل حقول الثلج وتشكّل حوافي شديدة الانحدار في المناطق التي تعمل فيها كاسحات الثلوج. تمتدُّ الحواف بارتفاع أربعة أقدام، ثمّ ستّة أقدام، ثمّ اثني عشرة قدماً. نمشي بين جدران ثنائيّة، كخندق شق في الثلج، ثمّ أفضى الخندق إلى سماء مظلمة مرَّة أخرى، ونكتشف عندما نخرج أنّنا كنّا في القمّة.

وراء الجبال بلدٌ آخرٌ. فالبحيرات الجبليّة وأشجار الصنوبر وحقول الثلج تحتنا مباشرة. وفوقها ووراءها وعلى امتداد ما نرى، تتدثّر الامتدادات الجبليّة بالثلج. فهي الأراضي المرتفعة.

نتوقّف عند منعطف كان سيّاح قد توقّفوا فيه لالتقاط بعض الصور واستكشاف المشهد. يخرج (جون) كاميرته من الجراب خلف الدرّاجة، وأخرج من درّاجتي علبة العدّة، وأفتحها على المقعد، وأتناول المفك، وأشغّل المحرّك وأعدّل الخلّاط حتّى يتغيّر صوت الارتخاء من دوران سيّءٍ

جدّاً إلى سيّءٍ فقط. وأندهش طوال طريقنا إلى الأعلى كيف ارتدّ المحرّك، وبقبق وركل، وأعطى كلّ مؤشّر على أنَّه سيتوقّف، لكنّه لم يتوقّف. ولم أصلح هذه الأشياء من قبيل حب الاستطلاع لأعرف تأثير إحدى عشر ألف قدم في الدرّاجة، فأتركها كما هي. إذ تعاني الدرّاجة من تزويدٍ زائد من الوقود، وكان صوتها سيّئاً، لكنّنا سننزل الآن نحو منتزه (يلوستون)، وإن لم يصلها وقود زائد الآن، ستعاني من نقص في تزويد الوقود لاحقّاً، وهو أمرٌ خطر لأنّه سيسخّن المحرّك.

بقي الارتجاج ثقيلاً نوعاً ما في طريق نزولنا من القمّة، والمحرّك يهدر في الغيار الثاني، لكن اختفى الضجيج لاحقّاً لّما نزلنا إلى ارتفاعات منخفضة. وعادت الغابات إلى الظهور وتنقلنا بين الصخور والبحيرات والأشجار سالكين انعطافات وتعرّجات جميلة في الطريق.

أريد أنّ أتحدّث الآن عن نوعٍ ثاني من البلاد المرتفعة في عالم الفكر، قد تبدو لي على الأقلّ مشابهة أو قد تخلق شعوراً مشابهاً بهذا، سأسمّيها بلاد الفكر المرتفعة.

لو آمنّا أنّ المعارف البشريّة، أو كلّ شيء نعرفه يتكوّن من تركيبٍ تراتبيٍّ ضخمٍ، فستحتّل بلاد الفكر المرتفعة أعلى أقاصي هذا التركيب باعتبارات عامّة ومجردّةٍ تماماً.

فقلّة من الناس تسافر قاصدة هذه البلاد. إذ ليس هناك من فائدة عمليّة يمكن الحصول عليها من التجوّل فيها. لكن كما أنّ للبلاد العليا مكانة في العالم الحسي، فللبلاد العليا في الفكر جمال بسيط قد يجعل بعض من يتجشّم

صعاب هذه المهمّة يعتقد أنّها تستحقّ خوضها.

في البلاد العليا للفكر على المرء أنّ يتزوّد بقدر لا بأس به من الشك، وعدد من الأسئلة التي يمكن طرحها، والإجابات المقترحة عن هذه الأسئلة. لأنَّ الاكتساح يستمرُّ ويستمرُّ على نحو جليٍّ ربّما لا يدركه العقل، فيتردّد المرء منّا في الاقتراب خوفاً من الضياع فيه.

لكن ما الحقيقة؟ وكيف تعرفها عندما تمتلكها؟ كيف نعرف الأمور حقّاً؟ هل هناك «أنا» أو «روح» تعرف ما يحدث، أم أنّ هذه الروح خلايا تنظّم الحواس؟ هل الحقيقة متغيّرة أم ثابتة ودائمة؟ وعندما نقول إن شيئاً يعني شيئاً آخر فماذا نعني؟

لقد تمهّد كثير من الدروب عبر هذه السلاسل المرتفعة ونسي منذ بداية الزمن. ومع أنّ الإجابات التي حصلنا عليها من هذه الدروب قد اتّسمت بالثبات والكليّة، إلاّ أنّ الحضارات قد اختلفت في الدروب التي اختارتها. ولدينا عدّة إجاباتٍ عن السؤال نفسه، ويمكن اعتبارها صحيحة في سياقها الخاصّ بها. وتقوم كلّ ثقافةٍ بغلق كثيرٍ من الدروب القديمة وفتح دروبٍ جديدةٍ.

قد يقول بعضهم إنّه ليس هناك من تقدّمٍ حقيقيٍ، فالثقافة التي تقتل أعداداً ضخمةً في الحرب، أو التي تلوّث الأرض والمحيطات بكميّاتٍ هائلةٍ من الأنقاض، أو التي تدمّر كرامة الأفراد عبر إخضاعهم لوجود مُمكنن ليس لهم فيه خيار، لا يمكن في أيّ حالة من الأحوال أنّ نسمّيها متقدّمةً على الوجود البسيط في المجتمعات الزراعيّة، أو الثقافة التي تعتمد على الصيد في عصور قبل التاريخ. ومع أنّ هذه الحجّة مقبولة ورومانسيّة، إلاّ أنّها غير

مقبولة تماماً. فالقبائل البدائيّة منحت الأفراد حريّة شخصيّة أقلّ من الحريّة التي يمنحها المجتمع المعاصر. فالحروب القديمة كانت تشبُّ لأسبابٍ أكثر انحطاطاً من الأسباب التي قامت لأجلها الحروب في العصر الحديث. والتكنولوجيا التي تنتج فضلات قادرة على إيجاد طرق للتخلّص من هذه الفضلات بشكل يحافظ على البيئة. أحياناً تحذف صور الكتب المدرسيّة عن الإنسان البدائي بعض الدمار الموجود في الحياة البدائيّة - كالألم والمرض والمجاعة والعمل المضني المطلوب للبقاء حيّاً. ويمكن تسمية الانتقال من ضنك الوجود المجرّد إلى الحياة المعاصرة بالتقدُّم النوعي، والسبب الرئيس لهذا التقدّم هو التفكير المنطقي نفسه.

يستطيع الفرد منّا أن يكتشف كيف أنّ الإجرائين المعياري وغير المعياري للفرضيّة، والتجربة والخلاصة، قد تكرّرا على امتداد القرون باستخدام مواد جديدةٍ أفضت إلى بناء تراتبيات الفكر التي اجتثت معظم أعداء الإنسان البدائي. وتنبع إدانة الرومانسيّين للعقلانيّة إلى حدّ ما من قدرة العقلانيّة على تخليص الإنسان من الظروف البدائيّة. وكانت هذه الإدانة قويّةً جدّاً، وعاملاً مسيطراً على الإنسان المتحضّر. فقد أغلقت عليه كلّ جانبٍ آخر. والآن تسيطر على الإنسان نفسه، وهذا هو مصدر التذمّر.

تجول (فيدروس) في البلاد العالية، دون هدف محدّد وسلك كلّ ممرّ، وكلّ درب سلكه إنسان من قبله، ولاحظ في بعض الأحيان عبر قدرته على إدراكه المؤخّر أنّه قد أحرز بعض التقدّم، لكنّه لم يرَ شيئاً أمامه قد يخبره أيّ طريقٍ قد يسلك.

ومرّت عبر القضايا الشائكة المتعلّقة بالحقيقة والمعرفة شخصيّاتٌ عظيمةٌ

في الثقافة، كان بعضهم مثل (سقراط) و(أرسطو) و(نيوتن) و(إينشتاين) معروفين لدى كلِّ شخصٍ تقريباً. لكن كان معظمهم مجهولين. فقد كانوا أسماءً لم يُسمَع بها من قبل. صار (فيدروس) مولعاً بأفكارهم ومنهجهم الفكري، وسلك مسالكهم بحرصٍ حتّى بدت مملّةً فتخلّى عنها. كان عمله مجرّد مرورٍ بالمعايير العلميّة في ذلك الوقت. لكن لم يكن هذا لأنّه لم يكن يعمل أو يفكّر. كان يفكّر بجديّةٍ تامةٍ، وفي هذه المراتب المرتفعة من التفكير، كلّما فكّرت أكثر، سرت ببطء أكثر. كان (فيدروس) يقرأ بطريقة علميّة لا أدبيّة، متفحصاً كلّ جملةٍ مرَّ بها، مشيراً إلى الشكوك والأسئلة لتتم إجابتها لاحقاً. وأنا محظوظ تماماً أنّني قد حصلت على هذه المجلّدات الضخمة من الملاحظات.

المدهش في هذه المجلّدات أنّها احتوت كلّ شيء قاله لاحقاً. ومن المحبط أنّ ترى عدم إدراكه الكامل لأهميّة ما كان يقوله آنذاك. كان الوضع كمشاهدة شخصٍ يركّب جميع قطع أحجية الصور المقطعّة التي تعرف حلها قطعة قطعة، وتودّ إخباره أنّ هذه القطعة مناسبة هنا، وأنَّ تلك مناسبة هناك، ولكن لا تستطيع. ولهذا يتجّول بضلالةٍ عبر دربٍ طويلٍ تلو الآخر جامعاً قطعة تلو الأخرى متسائلاً عمّا يستطيع أنّ يفعل بها. وتصكّ أسنانك عندما يسلك درباً خاطئاً، وتصبح مرتاحاً عندما يرجع مرّة أخرى، مع شعوره هو نفسه بالإحباط، وتودّ أنّ تخبره «لا تقلق واصل المحاولة».

لكنّه كان عالِماً مقيتاً، لا بدّ أنَّه نجح في جميع مقرّراته بسبب لطف مدرّسيه. كان يتحامل على كلّ فيلسوفٍ يدرّسه. ويفرض آراءه على المادّة التي كان يدرسها، ولم يكن عادلاً على الإطلاق. كان متحيّزاً دوماً. كان

يريد لكلّ فيلسوف أنّ يسلك طريقاً محدّداً، وينتابه الغضب عندما لا يسلك هذه الطريق.

تحتفظ به إحدى الذكريات جالساً في غرفة في الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً مع كتاب (إيمانويل كانت) «نقد العقل المجرّد». كان يدرس الكتاب كما يدرس لاعب الشطرنج الحركات الافتتاحيّة لأساتذة اللعبة، محاولاً أنّ يختبر خطّ التطوّر مع أحكامه ومهارته، باحثاً عن تناقضات وفجوات.

كان (فيدروس) شخصاً غريباً عند مماثلته بالأمريكيّين من منطقة الغرب الأوسط في القرن العشرين، الذين كانوا يحيطون به، لكنّه كان أقلّ غرابةً لّما كان يدرس (كانت). فهو يكنُّ لهذا الفيلسوف من القرن الثامن عشر تقديراً بالغاً نابعاً من قدرة الفيلسوف الألماني على توظيف تحصينٍ منطقيٍ كبيرٍ لموقفه، لا من موافقة (فيدروس) على أفكاره. كان (كانت) منهجيّاً ومثابراً، ومنّظماً وشديد الاهتمام بالتفاصيل عند تقييمه الجبل الجليدي الضخم من الفكر المتعلّق بما هو داخل العقل وما هو خارجه. وتعدّ هذه النقطة واحدة من أعلى القمم في عالم الفلسفة. وأريد الآن أنّ أكبّر صورة (كانت)، وأن أتكلّم قليلاً عنه وعن طريقة تفكيره، وكيف كان (فيدروس) ينظر إليه، لأرسم صورة واضحة لأعلى المراتب في الفكر، ولأمهد الطريق لفهم أفكار (فيدروس).

تمكّن (فيدروس) من حلّ مشكلة الفهم الكلاسيكي والرومانسي في بداية الأمر في هذه المرتبة العالية من الفكر، وإن لم نفهم علاقة هذه المرتبة ببقيّة الوجود، سنسيء أو سنبخس فهم أهميّة الطبقات الدنيا لما قاله.

لمتابعة (كانت)، ينبغي للمرء أنّ يفهم شيئاً عن الفيلسوف الأسكتلندي

(ديفيد هيوم). كان (هيوم) قد قال: إنّه إن إذا تبعنا أشدّ قواعد الاستقراء والاستنباط من تجربة ما لتحديد الطبيعة الحقّة للعالم، لابدّ لنا من أنّ نخرج بنتائج محدّدة. واستند منهجه في التفكير إلى إجابات عن هذا السؤال: افترض أنّ طفلاً قد ولد دون حواس، بلا بصر، أو سمع، ولا يحس أو يشم أو يتذوّق. لذا ليس لديه طريقة يمكن بها استقبال أيّ إحساس من العالم الخارجي. لنفترض أنّ هذا الطفل يتغذّى عن طريق الوريد، ويتمّ الاعتناء به حتّى سن الثامنة عشرة في هذه الحالة من الوجود. السؤال الذي يجب أنّ نطرحه هو: هل يملك هذا الشخص البالغ الثامنة عشرة من عمره أيّ فكر في عقله؟ إن كان هناك أفكارٌ، فما مصدرها؟ وكيف حصل عليها؟

يرى (هيوم) إجابةً عن هذا السؤال أنّ هذا الشخص لن يمتلك أفكاراً بغضّ النظر عن نوعها. وبهذا الاعتقاد قدّم (هيوم) نفسه كتجريبي. والتجريبي هو الشخص الذي يؤمن أنّ المعرفة مشتقّة من الحواس فقط. والطريقة العلميّة للتجريب هي المذهب التجريبي المخطّط له. والمنطق السليم هذه الأيّام ليس سوى التجريبيّة بحدٍّ ذاتها، لأنَّ الأغلبيّة المطلقة تميل لموافقة (هيوم). مع أنّ الأغلبيّة في ثقافات أخرى وأوقات أخرى ربّما تختلف.

تتعلَّق أولى مشاكل التجريبيّة، إن كان هناك من يصدّقها، بطبيعة المادّة. فإن كانت معرفتنا بكاملها مستمدّة من معطيات حسّية، فما هي المادّة التي يفترض أنّ تصدر هذه المعطيات الحسيّة نفسها عنها؟ إذا حاولت التفكير بهذه المادّة بعيداً عمّا هو محسوس، فلن تجد نفسك تفكّر بشيءٍ على وجه التحديد.

وما دامت المعرفة كلُّها مستمدَّة من انطباعات حسيّة، وما دام لا يوجد انطباع حسيّ للمادّة نفسها، فإنّ من المنطقي القول ليست هناك معرفة بالمادّة نفسها. إنّما هي شيء نتخيّله، وهي موجودة في عقولنا. فالفكرة التي تقول إن هناك شيئاً خارجيّاً يصدر الصفات التي نستقبلها إنّما هي إحدى الأفكار الفطريّة التي تشبه الفكرة الفطريّة التي يمتلكها الاطفال، وتقول إن الأرض منبسطةٌ والخطوط المتوازية لا تلتقي أبداً.

ثانياً: إذا انطلقنا من الافتراض أنّ معرفتنا مستمدّة من الحواس، فعلينا أنّ نسأل: ما هي المعطيات الحسيّة التي نستمدّ منها معرفتنا بالسببيّة؟ وبمعنى آخر، ما هي القاعدة العلميّة التجريبيّة للسببيّة نفسها؟

أجاب (هيوم) أنَّه ليس هناك من قاعدة علميّة، ولا دليل على السببيّة في حواسنا. فالسببيّة كالمادة هي شيء نتخيلّه عندما نلحظ أنّ أمراً تبعه أمرٌ آخر بشكل متكرّر. وليس للسببيّة وجود حقيقي في العالم الذي نلاحظه. ولو سلمّنا بالافتراض أنّ المعرفة مستمدّة من حواسنا، فعلينا منطقيّاً، كما يقول (هيوم) أنَ نفترض أنّ «الطبيعة» و«قوانين الطبيعة» هي من بنات أفكارنا وخيالنا.

ويمكن استبعاد فكرة أنّ العالم برمّته موجود في عقولنا واعتبارها غريبة لو أنّ (هيوم) قد طرحها للتفكير، لكنّه اعتبرها قضيّة محسومة.

كان من الضروري استبعاد النتائج التي توصّل إليها (هيوم)، لكنّه لسوء الحظّ توصلّ إليها بطريقة بدا من المستحيل معها أنّ نتخلّص منها دون التخلّص من الفكر التجريبي نفسه، ودون العودة إلى أحد أسلاف العقل التجريبي من القرون الوسطى. أمّا (كانت) فلم يفعل ذلك. بل إن

هيوم كان عنده «من أيقظني من سباتي العقائدي الجامد» كما يقول. ودفعه لكتابة ما يعدّ الآن إحدى أعظم الرسائل الفلسفيّة في التاريخ، أيّ «نقد الفكر المجرّد»، الذي غالباً ما تكون مادّة تدريسيّة أساساً في الجامعة.

يحاول (كانت) أنّ يخلّص التجريبيّة العلميّة، من عواقب منطقها الذي يلتهم ذاته. وهو يبدأ بسلوك الدرب الذي اتخذه (هيوم) لنفسه، وقال: «ليس هناك من شكّ أنّ معرفتنا تبدأ بالتجربة». لكنّه سرعان ما ترك هذا المسلك، وأنكر أنّ تكون جميع جوانب المعرفة مستمدّة من الحواس في اللحظة التي يتمّ فيها استقبال معطيات الحواس. وواصل فقال: «ومع أنّ المعرفة تبدأ بالتجربة، فأنّها لا تعني أنّها غير مستمدّة من مصادر أخرى».

يبدو (كانت) في بداية الأمر كما لو أنّه ينتقد بشكل لاذع وغير مبرّر، لكنّه لم يكن كذلك. ونتيجة لهذا الاختلاف، التفّ (كانت) عن هاوية «واحديّة الأنويّة» التي كان مسلك (هيوم) يقود إليها، وسلك مسلكاً جديداً بالكامل.

قال (كانت) إن هناك جوانب من الحقيقة لا تمدّنا بها الحواس بشكل مباشر. وهذا ما يسميه بـ«القبلي».

يتوفّر أحد الأمثلة المتكرّرة على المعرفة القبليّة في «الزمان». فنحن لا نرى الزمان ولا نسمعه ولا نشمه ولا نتذوّقه ولا نلمسه. وهو غير موجود في المعطيات الحسيّة كما نستقبلها. فالزمان هو ما يسميّه (كانت) بـ«الحدس»، الذي يجب أنّ يمدّنا به العقل أثناء استقباله المعطيات الحسيّة.

ويصحّ الشيء نفسه على المكان. وما لم نطبّق مفاهيم المكان والزمان على الانطباعات التي نستقبلها، فلن يكون العالم مفهوماً لنا، وإنّما يصبح مزيجاً مشكلاً من الألوان والأنماط والأصوات والروائح والآلام والأذواق

التي تفتقد إلى المعنى. ونحن نحسّ بالأشياء بطريقةٍ معينّةٍ بسبب تطبيقنا لحدسٍ مسبقٍ كالزمان والمكان، لكنّنا لا نختلق هذه الأشياء، كما يفترض بعض الفلاسفة المثاليين. وتطبق أشكال المكان والزمان على المعطيات كما يتمّ استقبالها من مصدرها. فيعود أصل المفاهيم القبليّة إلى الطبيعة البشريّة، فلا يسبّبها الموضوع المحسوس، ولا يتمّ اختلاقها. بل ما يحدث هو نوع من عمليّة غربلة لنوع المعطيات الحسيّة التي نتلقاها. حين نغمض أعيننا، على سبيل المثال، فإنّ معطياتنا الحسيّة تخبرنا بأنَّ العالم قد اختفى. لكن تتمّ غربلة هذا المعطى، فلا يصل إلى وعينا، لأنّنا نملك في عقولنا مفهوماً قبليّاً مفاده أنّ للعالم استمراريّة. فما نعتقده حقيقة إنّما هو تركيب متواصل للعناصر من تراتب ثابت للمفاهيم القبليّة، ومن التغيّر المتواصل لمعطيات الحواس.

والآن فلنتوقّف لتطبيق بعض المفاهيم التي اقترحها (كانت) على هذه الآلّة الغريبة، هذا التركيب الذي يحملنا عبر الزمان والمكان. ولنستكشف علاقتنا بها الآن كما يكشفها (كانت).

قال (هيوم) إن كلّ شيء يمكن معرفته عن الدرّاجة مستمدّ من حواسي. ويجب أنّ يكون كذلك. إذ ليس هناك من طريقة أخرى. إذا قلت إنّها مصنوعة من المعدن ومواد أخرى، فهو يسأل: ما المعدن؟ ولو أجبته أنّ المعدن قاسٍ ولامع، وباردٍ عند لمسه، ويتغيّر شكله دون أنّ ينكسر تحت ضربات من مادّة أقسى، لقال (هيوم) إن جميع ما ذكرت هو مشاهد، وأصوات، ولمسات. وليس هناك مادّة. وأضاف قل لي ما هو المعدن بعيداً عن هذه الأحاسيس؟ عندها سأرتبك.

لكن لو لم تكن هناك مادّة، ما الذي يمكن قوله عن المعطيات الحسيّة

التي نستقبلها؟ إذا حرّكت رأسي إلى اليسار، ونظرت إلى مسكات المقبض، والعَجَل الأمامي، وحامل الخريطة، وخزّان الوقود، لتولدّ لديّ نمطٌ واحد من المعطيات الحسيّة. وإذا حرّكت رأسي إلى اليمين لحصلت على نمطٍ مختلفٍ قليلاً من المعطيات الحسيّة. وتختلف كلتا النظرتين اختلافاً كليّاً. فزوايا أسطح المعدن وتعرّجاته مختلفة تماماً، والشمس تصلها بشكل مختلف. فإذا لم يوجد أساس منطقي للمادّة، لما وُجِد أساس منطقي للاستنتاج أنّ ما أنتج هاتين النظرتين هو الدرّاجة ذاتها.

ها قد وصلنا الآن إلى طريق فكري مسدود. فعقلنا الذي يُفترض أنّ يجعل الأشياء أكثر وضوحاً، جعلها عصيّة على الفهم. وحين يهزم العقل غايته، فلا بدّ أنّ شيئاً تغيّر في بنية العقل نفسه.

يأتي (كانت) لإنقاذنا. فيقول إن حقيقة عدم وجود طريقة يمكن من خلالها الإحساس بالدرّاجة الناريّة بشكلٍ مباشر بعيداً عن الألوان والأصوات التي تصدرها الدرّاجة الناريّة ليس دليلاً على عدم وجودها. فلدينا في عقولنا درّاجة ناريّة لها استمراريّة في الزمان والمكان، وقادرة على تغيير شكلها، كلّما حرّك الشخص رأسه إلى جهة ما، ولهذا لا تتناقض مع المعطيات الحسيّة التي نتلقّاها.

ودرّاجة (هيوم)، أيّ تلك الدرّاجة التي ليس لها إحساس بها، ستحدّث لو أنّ مولودنا الافتراضي، الذي لا يملك أيّة حواس على الإطلاق، قد تعرّض لثانية واحدة فقط للمعطيات الحسيّة للدرّاجة، ومن ثمّ جُرِّد من حواسه مرّة أخرى. أعتقد الآن أنّ ما تشكّل في عقله هو درّاجة (هيوم)، التي لا تمدّه بأيّ دليل مهما كان على مفاهيمَ كالسببيّة.

لكنّنا كما يقول (كانت) لسنا ذلك الشخص. فنحن لدينا في عقولنا درّاجة قبليّة، لا يوجد سبب يدفعنا للشكّ بوجودها، ونستطيع إثبات حقيقتها في أيّ وقت.

لقد تمَّ بناء هذه الدرّاجة القبليّة في عقولنا على مرّ السنين عبر كميّات هائلة من المعطيات الحسيّة، وهي تتغيّر بشكل متواصل كلّما ورد معطى حسي جديد إلى العقل. وبعض التغيّرات في الدرّاجة القبليّة المحدّدة التي أقودها سريعاً جدّاً وانتقالي، مثل علاقة الدرّاجة بالطريق. فأنا أراقب هذا الأمر وأصلحه طوال الوقت، كلّما سلكنا انعطافاً أو إلتفافاً. وحين تصبح المعلومات غير ذات قيمة، أميل إلى تناسيها، لأنَّ هناك المزيد من المعطيات التي يجب مراقبتها. وبعض التغييرات في هذا القبلي قد تكون بطيئة: كنفاذ البنزين من الخزان، واختفاء المطاط من العجلات، وارتخاء البراغي والصواميل وتغيّر الفراغ بين الكوابح والجرن. وتتغيّر جوانب أخرى من الدرّاجة بشكل بطيء جدّاً بحيث يمكن اعتبارها أبديّة، كالدهان، وحاملات العجل، وأسلاك التحكّم، مع ذلك فهذه الأشياء تتغيّر على الدوام. وأخيراً، إذا فكَّرنا على مدى مدّة زمنيّة طويلة، فإنّ الهيكل قد يتغيّر قليلاً نتيجة صدمات الطريق، وتقلّبات الطقس، وقوى الجهد الداخلي المعهود في المعادن.

يا لها من آلة! هذه الدارّجة الناريّة القبليّة. إذا توقّفت لتفكّر فيها بما يكفي رأيت أنّها هي الشيء الأساس. تؤكّدها المعطيات الحسيّة، لكنّها ليست هي الدرّاجة. فالدرّاجة التي أؤمن بها بطريقة قبليّة بشكل خارج عن إرادتي، كالمال الذي أعتقد أنّني أملكه في البنك، وإذا ذهبت إلى المصرف، وطلبت

منهم أنّ يروني مالي، لنظروا إليّ باستغراب، فهم لا يملكون ذات الأوراق النقديّة التي أودعتها في جرارٍ ويمكن أنّ يسحبوه في أيّة لحظة. و«مالي» ليس سوى بطاقات مغناطيسيّة موجودة في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب في أكسيد الحديد المثبت على لفافة من الشريط اللاصق في حافظة التخزين في الحاسوب. لكنّني راضٍ بهذا، لأنّه لديّ قناعة بأنّني لو أردت شراء الأشياء التي يزوّدنا بها المال، لزوّدني البنك بالمال عبر نظام الشيكات المعمول به لديه. وعلى النحو نفسه، مع أنّ معطياتي الحسيّة لم تزوّدني بأيّ شيء يمكن تسميته «مادة»، فأنا مقتنع تماماً أنّ للمعطيات الحسيّة إمكان تحقيق الأشياء التي يفترض أنّ تمتلكها المادة. وستواصل المعطيات الحسيّة مطابقة الدرّاجة الناريّة القبليّة الموجودة في عقلي. ومن قبيل التسهيل، أقول إن لديّ مالاً في البنك، وإن المواد تشكّل الدرّاجة التي أقودها. ويدور كتاب (كانت) «نقد العقل المجرّد» عن نوعيّة اكتساب هذه المعرفة القبليّة، ونوعيّة استخدامها.

سمى (كانت) فرضيته التي تدور عن استقلال الأفكار القبليّة عن المعطيات الحسيّة، وغربلتنا ما نرى بـ«الثورة الكوبرنيكية»، إشارةً إلى عبارة (كوبرنيكوس) أنّ الأرض تدور عن الشمس. لكن لم يتغيّر شيء نتيجة ثورته، وتغيّر كلّ شيء في الوقت نفسه. أو كما يقول (كانت)، لم يتغيّر العالم الموضوعي الذي ينتج معطياتنا الحسيّة، لكن تغيّرت المفاهيم القبليّة بشكل كامل. وكان التأثير ساحقاً. والتسليم بأفكار (كوبرنيكوس) الثوريّة هو ما يميّز الإنسان المعاصر من أسلافه في القرون الوسطى.

فما فعله (كوبرنيكوس) كان تناول المفهوم القبلي القائم للعالم، الذي يقول إن العالم منبسط، وثابت في مكانه، وتقديم مفهومٍ قبلي بديلٍ للعالم،

يفترض أنَّه كروي ويتحرّك عن الشمس. وبيَّن (كوبرنيكوس) كيف أنّ كلا المفهومين القبليّين يناسبان المعطيات الحسيّة القائمة.

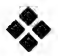
شعر (كانت) أنَّه قد فعل الشيء نفسه في ما يتعلَّق بما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا. فإذا افترضنا أنّ المفاهيم القبليّة في رؤوسنا مستقلّة عمّا نرها، وتغربلة ما نراه، فإنّ هذا يعني أنّنا نؤمن بمفهوم (أرسطو) القديم للرجل العلمي، كمشاهدٍ سلبيٍ، «كلوح فارغ»، فنحن فعلاً نقلّب هذا المفهوم ظهراً لبطن. وقد رأى (كانت) والملايين من أتباعه أنّ نتيجة هذا القلب أنّنا قد أصبحنا نفهم الأمور بشكل أوضح.

لقد تحدّثت عن هذا المثال بإسهاب لأبين بعض المراتب العليا من منظور قريب، وتمهيداً لما قاله (فيدروس) لاحقاً. أجرى هو أيضاً عمليّة قلب كوبرنيكيّة، ونتج عن هذا القلب فصلٌ لقضيّة العالمين المنفصلين للفهم الكلاسيكي والرومانسي. وبدا لي أنَّه نتيجة لذلك أصبح ممكناً أنّ نكوّن فهماً أفضل عمّا هو عليه العالم الآن.

أذهلت فلسفة (كانت) في ما وراء الطبيعة (فيدروس) في بداية الأمر، لكنّها انحرفت لاحقاً دون أنّ يعرف السبب المباشر. فكّر فيها وقرّر أنّها ربّما تكون التجربة الشرقيّة. كان يرغب في الهروب من سجن المعرفة. لكن الحال الذي هو فيه الآن ليس سوى سجن آخر. قرأ جماليات (كانت) بخيبة أملٍ في بداية الأمر ثمّ بغضب. فالأفكار التي قيلت عن «الجمال» كانت قبيحة بنفسها. وكان القبح شديداً جدّاً وطاغياً، إذ أصبح من الصعب عليه أنّ يجد إشارة يمكن من خلالها بدء هجومه عليه أو الالتفاف حوله. وبدا القبح منسوجاً بإتقان في نسيج (كانت) الفكري إلى درجة لا يمكن الفرار

منها. لم يكن القبح قبحاً من القرن الثامن عشر أو قبحاً تقنيّاً. بل ظهر في جميع الفلاسفة الذين قرأهم. وكان للجامعة التي درس فيها ذات الرائحة من القبح. كان منتشراً في كلّ مكان، في غرفة الصفّ، في الكتب، وكان فيه هو نفسه. ولم يكن يعرف كيف ولماذا؟ كان المنطق نفسه بشعاً ولا سبيل للخلاص منه.

12



يبدو (جون) و(سيلفيا) في (كوك سيتي) أكثر سعادة ممّا كانا عليه منذ سنوات، التهمنا ساندويشات اللحم البقري بقضمات سريعة. وأشعر بالسعادة لسماعي حيويّتهما ونشاطهما، لكنّي لا أعلّق كثيراً، مكتفياً بتناول طعامي.

خارج النافذة على الجانب الآخر من الطريق، هناك أشجار صنوبر ضخمة، والسيّارات تمرّ تحتها في طريقها نحو المنتزه. فنحن تحت خطّ نمو الأشجار. صار الجوّ دافئاً هنا، لكنّه مغطى بغيوم متقطّعة منخفضة محمّلة بالأمطار.

أعتقد أنّي لو كنت روائيّاً أكثر من خطيب تشوتوكوا، لطوّرتُ شخصيّات (جون) و(سيلفيا) و(كريس) بمشاهد مليئة بالإثارة بشكل قد تظهر «المعاني الضمنيّة» لزن (Zen)، أو الفنّ، أو حتّى صيانة الدرّاجة الناريّة. ولكانَ الناتج رواية جميلة، لكن لم أتشجّع لهذا بسبب ما. فهم أصدّقاء، لا

شخصيّات، وكما قالت (سيلفيا) نفسها: «لا أحبّ أنّ أكون شيئاً». ولهذا لم أتطرّق إلى ذكر كثير من الأشياء التي نعرفها عن بعضنا. لا شيء سيّء، وإنّما لا علاقة له بالتشوتوكوا. هذه هي الحال مع الأصدّقاء على الدوام.

أعتقد في الوقت نفسه أنّك تستطيع أنّ تفهم من التشوتوكوا ما أنا متحفّظ عليه كثيراً، وبعيد عنهما. وقد يسألان بين لحظة وأخرى أسئلة تضطرني لأقول عبارة تعبّر عمّا أفكّر فيه على الدوام. لكن لو أفصحت عن كلّ ما في ذهني وتحدّثت مثلاً عن افتراض القبليّة في الدرّاجة الناريّة طوال الوقت لفزعا، وتساءلا عمّا يحدث من خطأ. وأنا حقاً مهتّم بهذه الاستمراريّة وبالطريقة التي نتحدّث فيها ونفكّر بها، ولهذا أميل لعزل نفسي عن موقف الغداء الاعتيادي، الأمر الذي يبدو انزواءً. وهذه مشكلة.

هذه مشكلة هذا العصر. فالمعرفة الإنسانيّة هذه الأيّام ضخمة جدّاً حتّى أصبحنا جميعاً مختصّين، وأصبحت المسافة بين التخصّصات كبيرة جدّاً، حتّى أنّ أيّ شخص يريد أنّ يتردّد عليها بحرّية عليه أنّ يتخلّى عن اقترابه من الناس حوله. ووقت الغداء في هذا المكان فيه خصوصيّة أيضاً.

يبدو (كريس) متفهّماً لسبب ابتعادي أكثر منهما، ربّما لأنّه معتادٌ على هذا الأمر، وربّما لأنَّ علاقته بي تحتّم عليه أنّ يكون مهتمّاً. وألاحظ في بعض الأحيان نظرة قلقٍ أو على الأقلّ توتّرٍ، وأتساءل لماذا؟ لأكتشف أنّني غضبان. ولو لم أشاهد تعبيره لما عرفت أنّني غضبان. وفي أحيان أخرى أشاهده يجري ويقفز في كلّ مكان. وأتساءل لماذا؟ لأكتشف أنَّه يفعل ذلك لأنّي في مزاج جيّد. والآن أراه متوتراً قليلاً، ويجيب عن سؤالٍ وجّهه (جون) إليّ عن الناس الذين سنقيم عندهم غداً. عائلة (ديويز).

لستُ متأكّداً ماذا كان السؤال، ولكنّني أضفت: «هو رسام، ويدرّس الفنون الجميلة في الكليّة هنا، هو انطباعي تجريدي».

يسألان كيف عرفته، فأجيب أنّني لا أذكر، وهذا جواب فيه مراوغة. فلا أتذكّر أيّ شيء عنه سوى القليل من الشظايا، فهو وزوجته كانا صديقين لأصدّقاء (فيدروس) وعرفهم بتلك الطريقة.

تساءلا ما الذي جمعني أنا الكاتب الهندسي برسّام تجريدي، واضطررت للقول مرّة أخرى أنّني لا أعرف. ومررت عبر شريط الذكريات بحثاً عن إجابة، ولكن لم أجد أيّاً منها.

كانت شخصيّتهما مختلفة تماماً. وبينما تحمّل صور وجه (فيدروس) في مدّة الاغتراب هذه، والعدوانيّة، حتّى أنّ أحد أعضاء هيئة التدريس في قسمه قد وصفها ضاحكاً بـ«النظرة الهدّامة»، تظهر صور (ديويز) المدّة نفسها وجهاً مذعناً، وهادئاً معظم الأحيان، باستثناء تعابير وجهه ذات الطابع الاستجوابي.

يخطر في بالي فيلم عن جاسوس في الحرب العالميّة الأولى درس سلوك ضابط ألماني تمّ أسره، (فبدا مثله تماماً) عبر مرآة من جهة واحدة. درسه على مدى أشهر حتّى تمكّن من تقليد كلّ حركة وكلمة ينطقها. ثمّ تظاهر أنّه هو الضابط الهارب حتّى يخترق قيادة الجيش الألماني. وأذكر التوتّر والإثارة التي مرّ بهما لمّا واجه اختباره الأوّل مع أصدّقاء الضابط الأصلي، ليعرف إن كانوا على شكّ من أمره أم لا! وأمرُّ أنا الآن بالشعور نفسه مع عائلة (ديويز) التي تفترض أنّني الشخص الذي عرفه ذات مرّة.

في الخارج هطلت بعض الأمطار الخفيفة التي بلّلت الدرّاجات الناريّة.

فأخرجت الفقاعة البلاستيكيّة من جراب الدرّاجة وثبّتها إلى الخوذة. سندخل منتزه (يلوستون) قريباً.

الطريق إلى الأمام ضبابيّة، كما لو أنّ غيمة قد انجرفت نحو الوادي، الذي لم يكن وادياً على الإطلاق، وإنّما ممّراً بين الجبال.

لا أعرف مدى معرفة (ديويز) بـ(فيدروس)، وما الذكريات التي يتوقّع أنّ أشترك معهم فيها. لقد مررت بهذه الأشياء من قبل وتمكّنت من تجاوز الحديث عن بعض اللحظات المربكة. وكانت الجائزة في كلّ مرَّة اتساعاً لمعرفتي بـ(فيدروس)، الأمر الذي ساعد على انتحال شخصيّته، وتقديم هذا الكم الهائل من المعلومات على مرِّ السنوات.

أتذكّر أنّ (فيدروس) كان يقدّر (ديويز) كثيراً، لأنّه لم يفهمه، وإخفاق (فيدروس) في فهم شيء ما يشكّل لديه دافعاً كبيراً نحو ذلك الشيء، فضلاً عن مواقف (ديويز) المغرية. كانت الأشياء كلّها تعمل بطريقة خاطئة. فقد يقول (فيدروس) شيئاً يعتقده مضحكاً، وينظر إليه (ديويز) نظرة متحيّرة أو قد يأخذه على محمّل الجدّ. وفي أحيانٍ أخرى، قد يقول (فيدروس) شيئاً جادّاً جدّاً وذا أهميّة كبيرة، وينفجر (ديويز) ضاحكاً، كما لو أنَّه سمع أكثر نكتة مضحكة في حياته.

على سبيل المثال، ما أزال أذكر موقفاً عن طاولة غرفة الطعام التي انفصلت قشرتها الخشبيّة الجانبيّة عنها، أعاد (فيدروس) إلصاقها وتثبيتها ولفّها بشريط لاصق حتّى ينشف الغراء.

رأى (ديويز) الشريط، وتساءل عنه. فأجابه (فيدروس): «هذه آخر منحوتاتي. ألاّ تعتقد أنّها نوع من البناء؟» وبدلاً من أنّ يضحك، نظر

(ديويز) إليه بدهشة، وتفحّص الشكل لمدّة طويلة وقال: «أين تعلّمت كلّ هذا؟» اعتقد (فيدروس) للحظة أنَّه كان يواصل النكتة، لكنّه كان جاداً.

وفي موقف آخر، كان (فيدروس) منزعجاً من رسوب بعض الطلبة، وتحدّث مع (ديويز) أثناء عودتهما إلى البيت، واستغرب (ديويز) من أخذه الأمر مأخذاً شخصيّاً.

قال (فيدروس): «لقد استغربت أنا أيضاً من هذا»، وأضاف بصوت يعبّر عن الجديّة: «أعتقد أنّ كلّ مدرّسٍ يولي الطلّاب الذين يشبهونه كثيراً تقديراً أعلى ممّا يستحقّون. فإنّ كان خطّك جميلاً جدّاً، فإنّك تميل إلى الطلّاب ذوي الخطوط الجميلة، وإذا كنت تكتب بحروفٍ كبيرة، لأحببت الطلّاب الذين يكتبون بها».

قال (ديويز): «بالطبع، ولكن ما الخطأ في هذا؟»

قال (فيدروس): «حسناً، هناك الخطأ لأنَّ الطلّاب وأحبهم، والذين أجد نفسي فيهم، يرسبون».

انفجر (ديويز) ضاحكاً، بينما (فيدروس) قد نظر متكدّراً إلى الأمر كظاهرة علميّة قد تحمّل دلائل تقود إلى فهمٍ جديدٍ.

في بداية الأمر، ظنّ (فيدروس) أنّ (ديويز) كان يضحك من إهانته غير المباشرة لنفسه، لكن لم يكن هذا القصدُ لأنَّ (ديويز) لم يكن شخصاً رديئاً. لكنّه فسّر ضحكته لاحق كنوع من ضحك الإعجاب. فأفضل الطلّاب يرسبون دائماً. وكلّ معلّم جيّدٍ يعرف هذه الحقيقة. كان نوعاً من الضحك الذي يقضي على التوتّر النّاتج عن مواقفٍ مستحيلةٍ. كان باستطاعة (فيدروس) الاستفادة منه في حينه، لأنّه كان يتعامل مع الأشياء بجديّة كبيرة.

أعطت ردود (ديويز) المحيّرة (فيدروس) فكرة مفادها أنّ لدى (ديويز) سبيلاً لولوج حقل ضخم من الفهم الخفي، فبدا (ديويز) كما لو أنّه كان على الدوام. يخفي شيئاً عنه، ولم يستطيع (فيدروس) أنّ يكتشف كنهه.

ثمّ جاءت ذكرى أخرى كانت في اليوم الذي اكتشف فيه (فيدروس) أنّ (ديويز) كان ينظر إليه بالطريقة نفسها. كانت إحدى كبسات الضوء في استوديو (ديويز) متعطلّة، وسأل (فيدروس) إن كان يعلم ما الخطأ فيها. وارتسمت على وجهه ضحكة تحمل في ثناياها الإحراج والحيرة. كانت كضحكة من يرعي الفنّ في حديثه مع الرسّام. وفي العادة يكون راعي الفنّ محرجاً من أنّ يصرّح بقلّة معرفته عن الفنّ، لكنّه يضحك على أمل أنّ يتعلَّم المزيد. وعلى عكس عائلة (سذرلاند) التي تكره التكنولوجيا، لم يشعر (ديويز) مع ابتعاده عنها أنّها تشكّل مصدر رعبٍ. في الحقيقة كان (ديويز) مولعاً بالتكنولوجيا. ويمكن عدّه راعياً للتقنيّة. لم يفهم الكثير من تفاصيلها، لكنّه عرف ما كان يجب، واستمتع على الدوام بتعلّم المزيد.

كان لديه تصوّر أنّ المشكلة تكمن في السلك قرب المصباح، لأنَّ الضوء انطفأ مباشرة بعد الضغط على الكبسة. فلو كانت المشكلة بالكبسة، لكان هناك فراغ زمني قبل أنّ تظهر المشكلة في المصباح. لم يجادل (فيدروس) في هذا الأمر، بل ذهب من فوره إلى دكان أدوات البناء في الجهة المقابلة من الشارع، واشترى كبسة، وركّبها في غضون دقائق، وعملت على أكمل وجه، تاركاً (ديويز) محتاراً ومحبطاً، فسأل: «كيف عرفت أنّ المشكلة في الكبسة؟»

- «لأنّها أضاءت بشكل متقطّع لّما ضغطت على الزر».

- «حسناً، لكن ألم يكن التقطيع سبّبه السلك»؟

- «لا».

أغضب موقف (فيدروس) الواثق بنفسه (ديويز)، وبدأ يجادل فقال: «كيف تعرف كلّ هذا؟»

- «هذا واضح».
- «إنّ كان واضحاً، لماذا لم ألاحظه»؟
- «عليك أنّ تمتلك حدّاً من الإلمام ببعض الأمور».
- «إذا لم تكن واضحة، أليس كذلك»؟

كان (ديويز) يجادل بطريقة من الصعب على الآخرين الردّ عليه. وكانت هذه وجهة النظر التي أعطت (فيدروس) الانطباع أنّ (ديويز) يخفي شيئاً عنه، ولم يتسن له معرفة هذا الأمر عبر طريقته المنهجيّة والتحليّلة إلاّ قبل رحيله عن (بوزمان) بمدّة قصيرة.

نتوقّف عند مدخل المنتزه، وندفع نقوداً لرجل يرتدي قبّعة (الدب السموكي)، فيأذن لنا بالإقامة ليوم واحد. أرى أمامنا سائحاً عجوزاً يلتقط فيديو لنا ثمّ يبتسم. كان يرتدي سروالاً قصيراً برزت منه ساقان بيضاوان ترتديان جورباً وحذاءً. وكذلك زوجته التي كانت تراقب ما يحدث. لوّحت لهما بيدي أثناء مغادرتنا فردا علينا التحية. تلك هي لحظة سيحتفظ بها الفلم لسنوات طويلة.

كان (فيدروس) يمقت هذا المنتزه دون أنّ يعرف لماذا، ربّما لأنّه لم يكتشفه بنفسه. على الأرجح ليس هذا هو السبب، بل هناك سبب آخر. أغضبه موقف الجولة المنهجة الذي كان حرّاس الغابة يتخّذونه، وأغضبه أكثر

مواقف السيّاح المشابهة لمواقف سيّاح حديقة حيوانات برونكس. ولاحظنا اختلاف هذه البلاد عن سكّان المناطق المرتفعة. بدا المنتزه كمتحف ضخم يضمّ معروضات مُجمّلة لتعطي انطباعاً حقيقيّاً، لكنّها معزولة عن الزوّار بسلاسل لكي لا يؤذي الأطفال أنفسهم. كان الناس يدخلون المنتزه، ويغدون مؤدبين ومريحين ومجاملين بعضهم، لأنَّ جوّ المنتزه يفرض عليهم هذا الأمر. وطوال الوقت الذي قضاه في تلك المنطقة لم يزر المنتزه إلاّ مرَّة أو مرّتين.

لكن هذه المرّة خرجت الأمور عن نصابها. فهناك مدّة عشر سنوات من الزمن مفقودة. فهو لم يقفز من (إيمانويل كانت) إلى (بوزمان)، في (مونتانا). وخلال السنوات العشر، عاش في الهند لمدّة طويلة لدراسة الفلسفة الشرقيّة في جامعة (بينارس هندو).

أستطيع أنّ أجزم بقدر ما أعلم أنَّه لم يتعلَّم أسرار السحر، ولم يحدث لديه شيءٌ ذو قيمة باستثناء تعرّضه لحالات الكشف. فقد استمع إلى فلاسفة، وزار أناساً متديّنين، واستوعب، وفكّر ثمّ استوعب وفكّر بالمزيد، وكان هذا كلّ شيء. كلّ ما تظهره رسائله هو فوضى عارمة من التناقضات والتنافرات، والتشعّبات، والاستثناءات عن أيّ قاعدة شكلّها عن الأشياء التي لاحظتها. دخل الهند عالِماً تجريبيّاً، وغادرها على ما هو عليه. ولم يكن أكثر حكمة ممّا كان عليه حين جاءها. لكنّه تعرّض لكثير من تجارب التنوير، واكتسب صورة كامنة ظهرت إلى جانب غيرها من الصور الكامنة لاحقّاً.

ينبغي تلخيص بعض هذه الكوامن لأنّها أصبحت مهمّة لاحقّاً. فقد أدرك أنّ الفروق المذهبيّة بين الهندوسيّة والبوذيّة والطاويّة ليست كبيرة جدّاً

بالمماثلة مع الفروق الموجودة بين المسيحيّة، والإسلام، واليهوديّة. ولم تقم حروب مقدّسة بينها لأنَّ العبارات المحكيّة عن الحقيقة لا يفترض أنّ تكون هي الحقيقة نفسها.

تعطي جميع الديانات الشرقيّة المعتقد السنسكريتي «أنت هو كذا» قيمة عظيمة. وينصّ المعتقد على أنّ كلّ ما تعتقد أنَّه أنت، وأنَّ كلّ ما تتلقّاه، هما جزء لا يتجزّأ. ولكي تدرك عدم إمكان هذا الانقسام والتجزّء، لا بدّ أنّ تحظى بتجربة التنوير.

يفترض المنطق فصل الشخص عن الموضوع، الأمر الذي لا يجعل المنطق الحكمة النهائيّة. وتتمّ إزالة وهم فصل الشخص عن الموضوع عبر إقصاء النشاط الجسدي والنشاط العقلي والنشاط العاطفي. وهناك عدَّة مبادئ لهذا الأمر. وأهمّ هذه المبادئ مبدأ (ديانا) السنسكريتي (dhyana)، الذي يلفظ خطأً في الصينية (تشان)، ويُلفظ خطأً في اليابانيّة «زن». ولم يمارس (فيدروس) التأمّل لأنّه لا يعني له شيئاً. فطوال إقامته في الهند، كان المعنى عنده يكمن في الاتساق المنطقي، ولم يجد أيّ طريقة نزيهة يمكن له من خلالها التخلّي عن هذا الاعتقاد. وهذا أمرٌ يمكن الاطمئنان إليه في ما أرى.

كان مدرّس الفلسفة يتحدّث دون اكتراث وبإطناب للمرّة الخمسين عن الطبيعة المخادعة للعالم على ما يبدو. رفع (فيدروس) يده وسأل بهدوء إن كان يعتقد الجميع أنّ القنابل النوويّة التي ألقيت على (هيروشيما) و(ناغازاكي) ضرب من الوهم. ضحك المدرّس وقال إنّها كذلك. وانتهى الحوار عند هذا الحد.

قد يكون هذا الجواب ضمن أعراف الفلسفة الهنديّة صحيحاً. لكنّه

بالنسبة إلى (فيدروس) وإلى أيّ شخص يقرأ الصحف بانتظام ومهتّم بالدمار الشامل للبشريّة جواب غير كاملٍ على الإطلاق. ترك الدرس، وغادر (الهند) وتخلى عن الموضوع.

عاد إلى (الغرب الأوسط)، وحصل على درجة عمليّة في الصحافة، وتزوّج وعاش في (نيفادا) و(المكسيك)، ومارس أعمالاً غريبةً؛ صحافيّاً، وكاتباً علميّاً، وكاتب إعلاناتٍ صناعيّةٍ، وأصبح أباً لطفلين، واشترى مزرعةً وحصاناً وسيّارتين، وبدأ يكتسب صفة منتصف العمر، وتخلّى تماماً عن سعيه وراء شبح المعرفة، ومن المهمّ أنّ تفهم هذا، لقد تخلّى عنه تماماً.

ولأنّه تخلّى عن سعيه، أصبحت الحياة السطحيّة ملائمة له، وعمل بجد، وكان سهل التعامل. ومضت حياته بهدوء إلاّ في اللحظات المتفرّقة من الفراغ الداخلي المسجلّة في القصص القصيرة التي كان يكتبها.

لكن لا أحد يعلم ما الذي قاده إلى هذه الجبال، ولا حتّى زوجته. لكنّي أظنّ أنَّه شعور داخلي من الفشل، وأمل كان يحدوه أنّ يعيده هذا إلى الدرب مرَّة أخرى. أصبح ناضجاً جدّاً، كما لو أنّ تخليه عن أهدافه الداخليّة قد جعله أكبر سنّاً.

نخرج من المنتزه في (غاردينر)، حيث لا تسقط الأمطار كثيراً، لأنَّ صفحة الجبل لا تكشف إلاّ عن العشب والميرميّة في التماع البرق. قررّنا أنّ نقضي ليلتنا هنا.

تقع المدينة على طرفي جسرِ نهرٍ يجري فوق جلاميد صخريّة ناعمة ونظيفة، وفي الطرف الآخر من الجسر كان الفندق مُضيئاً حيث سنقيم. لكن استطعت من خلال الأضواء الاصطناعيّة القادمة من النوافذ أنّ أرى

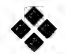
أنّ كلّ كوخٍ محاطٍ بزهورٍ مزروعة، ولهذا تجنّبت الدوس عليها.

أُلاحظ شيئاً عن الأكواخ، وأُخبر به (كريس). فجميع النوافذ تتكوّن من طبقتين، مثبتتين بأوزان للتحكّم بمدى فتحها. كانت الأبواب توصد بإحكام، وكانت جميع النماذج دقيقة التصميم، ولم يكن فيها تطفّل على الفنّ، لكنّها كانت متقنة الصنع وشيء ما يخبرني أنّها من فعل رجل واحد.

حين نعود إلى الفندق من المطعم نرى زوجين عجوزين يجلسان في حديقة صغيرة خارج المكتب ليستمتعا بنسيم المساء. وأكدّ الرجل أنَّه صنع كلّ هذه الأكواخ بنفسه، وسرّه أنّ لاحظ شخص ما هذا الأمر، فدعتنا زوجته التي رأت ما حدث للجلوس معهما.

تحدّثنا دون حاجة إلى الاستعجال. فهذا أقدم مدخلٍ للمنتزه، واستُخدم قبل اختراع السيّارات، وهي تتحدّث عن التغيّيرات التي حصلت على مرّ السنين، مضيفةً بعداً لما نراه أمامنا الآن، فتضفي جمالاً آخر على ما نراه من المدينة، والزوجين، والسنوات التي قضياها هنا. تضع (سيلفيا) إحدى يديها على ذراع (جون). وأشعر بصوت النهر الذي كان يجري عبر الجلاميد في الأسفل، والرائحة التي هبت مع رياح الليل. قالت المرأة التي كانت تعرف العطور كلّها إنّها رائحة صريمة الجدي. يسود الصمت لمدّة من الزمن، فيستولي عليَّ النعاس بسرور، ويوشك (كريس) أنّ يكون نائماً حين دخلنا.

13



يتناول (جون) و(سيلفيا) فطورهما المكوّن من الكعك والقهوة وهما ما زالا في أجواء الليلة الماضية، أمّا أنا فأجد صعوبة في تناول الطعام.

سنصل اليوم إلى الكليّة، وهي المكان الذي التأمت فيه الأشياء، وأشعر بالتوتّر حتّى قبل وصولي.

أتذكّر أنّني قرأت عن حفريات عالم آثار في (الشرق الأدنى)، وعرفت مشاعره حين فتح القبور المنسيّة لأوّل مرَّة منذ آلاف السنين. الآن أشعر كما لو أنّني عالم آثار.

والميرميّة في قاع الوادي عند (ليفينغستون) تشبه الميرميّة التي نراها على طول الطريق من هنا إلى المكسيك. وضوء الشمس هذا الصباح يشبه ضوء الشمس في الأمس، إلاّ أنَّه أدفأ وأرق لأنّنا كنّا على ارتفاع أدنى.

لم يكن هناك أيّ شيءٍ غير طبيعي. بل فقط شعور عالم الآثار بأنَّ الهدوء يسبق العاصفة. فهو مكانٌ مسكونٌ.

لا أريد حقّاً الذهاب هناك، كم أوّد أنّ أرجع.

ليس سوى التوتّر على ما أظن.

وحالتي هنا تشبه حالته في إحدى الذكريات التي قاده التوتّر فيها إلى أنّ يتقيّأ كلّ ما تناوله قبل أنّ يدخل صفّه الأوّل. فقد مقت الوقوف أمام الطلّاب والحديث إليهم. وعدَّ الأمر انتهاكاً كبيراً لحياته القائمة على الوحدة والعزلة، وما كان يمرّ به هو رهبة المسرح الشديدة، مع أنَّه لم تبدُ عليه المعاناة من رهبة مسرح، وإنما توتّر مبالغ فيه حيال كلّ شيءٍ فعله. أخبر الطلّاب زوجته أنَّه كما لو كان هناك كهرباء في الجو، كانت كلّ العيون ترقبه في اللحظة التي يدخل فيها غرفة الصف، وتتبعه إلى مقدّمته. وكان الجميع يغرق في صمتٍ رهيبٍ يدوم لدقائق قبل أنّ يبدأ الدرس. وخلال الساعة كانت العيون لا تفارقه.

ازداد الحديث عنه، فقد عُدَّ شخصيّةً خلافيّةً. وتجنّب معظم الطلّاب صفوفه كما يتجنّبون الطاعون الأسود. فلقد سمعوا عنه قصصاً كثيرةً.

كانت الكليّة أقرب إلى ما يمكن أنّ نسمّيه «كليّة تدريسيّة». وفي الكليّة، أنت تدرس وتدرس وتدرس وحسب، وليس هناك وقت للبحث، أو للتأمل أو للمشاركة في شؤون خارجيّة. عليك أنّ تدرِّس وتدرِّس وتدرِّس حتّى يصبح عقلك بليداً، ويتلاشى إبداعك، وتصبح إنساناً آليّاً يكرّر الأشياء ذاتها لأفواج لا تنتهي من الطلّاب البريئين، الذين لا يستطيعون فهم سبب بلادتك وافتقادك للاحترام ونشرك عدم الاحترام في المجتمع. والسبب الذي قد يقودك لأنَّ تدرس طوال الوقت دون فعل أمر غيره هو أنّ هذه طريقة ذكيّة لإدارة كليّة بتكاليف رخيصة، في وقت تعطي فيه انطباعاً

خاطئاً عنوانه التعليم الحقيقي.

لكن ومع هذا، أطلق على الكليّة اسم غير مفهوم، وبدا سخيفاً إن نظرنا إلى طبيعتها الفعليّة. لكن كان للاسم معنىً كبير لديه، فلازمه وشعر قبل مغادرته أنَّه قد مرّره إلى بعض العقول بشكل قوي ليلازمها. فقد سمّى الكليّة «كنيسة المنطق». ولو فهم الناس ما كان يعني بهذا الاسم، لزال عنهم الشعور بالحيرة الذي كان يتملّكهم حياله.

شهدت ولاية (مونتانا) في هذا الوقت اجتياحاً سياسيّاً يمينيّاً متطرّفاً لم تشهده من قبل، كالذي حدث في (دلاس) في ولاية تكساس قبل اغتيال (الرئيس كنيدي). ومنع مدرّس جامعي معروف على مستوى أمريكا من جامعة (مونتانا) في (ميسولا) من التحدّث في الحرم الجامعي على أساس أنّ خطاباته «أثارت المشاكل»، وأُخبر المدرّسون أنّ جميع البيانات العامّة يجب أنّ تحرّر من لدن مكتب العلاقات العامّة قبل إلقائها.

هُدمت المعايير الأكاديميّة، وكانت الهيئة التشريعيّة قد منعت الجامعة في وقت سابق من عدم قبول أيّ طالبٍ يزيد عمره على الحادية والعشرين، سواءً أكان حاصلاً على شهادة الدبلوم أم لا. والآن استنّت الهيئة التشريعيّة قانوناً تغرّم فيه الكليّة ثمانية آلاف دولار عن كلّ طالب يرسب، لكي ينجح جميع الطلّاب على ما يبدو.

كان المحافظ الجديد المنتخب يحاول طرد رئيس الكليّة لأسبابٍ شخصيّةٍ وسياسيّةٍ، ولم يكن رئيس الكليّة عدوّاً شخصيّاً وحسب، وإنّما كان ديمقراطيّاً، والمحافظ لم يكن جمهوريّاً اعتياديّاً. كان مدير حملته المنسّق العام لجمعيّة (جون بيرغ) على مستوى الولاية. وكان هذا المحافظ هو نفسه الذي

قدّم لائحة أسماء الخمسين مخرّباً التي سمعنا عنها قبل أيّام.

وكجزء من هذا الثأر قُطع الدعم المالي عن الكليّة. وأقرّ رئيس الجامعة باقتطاع مبالغٍ ضخمةٍ من المال وخاصّة من قسم اللغة الإنجليزيّة الذي كان (فيدروس) عضواً فيه، وهو القسم الذي كان معظم أعضاء هيئة التدريس فيه يثيرون صخباً على قضايا تتعلّق بالحريّة الأكاديميّة.

استسلم (فيدروس)، وأخذ بكتابة رسائل إلى الرابطة الإقليميّة للاعتماد في منطقة (نورث وست)، ليرى أنّ كانوا سيمنعون حدوث مثل هذه الخروق لمتطلّبات الاعتماد، وطالب أيضاً بإجرّاء تحقيقٍ عن وضع المدرسة برمّته.

وسأله أحد طلاّبه بمرارة في ما إذا كانت جهوده لوقف اعتماد الكليّة قد تعني محاولة منعهم من الحصول على التعليم. وكان جواب (فيدروس) بالنفي.

ثمّ قال أحد الطلّاب الذي كان على ما يبدو داعماً للمحافظ إن المجلس التشريعي سيحول دون فقدان اعتماد المدرسة.

فسأله (فيدروس) عن النوعيّة؟

قال الطالب إنّهم سيخبرون الشرطة بضرورة منع ذلك.

فكّر (فيدروس) في إجابة الطالب لوهلة، ثمّ أدرك عظم سوء فهم الطالب بما يعنيه الاعتماد.

في تلك الليلة، وتحضيراً لمحاضراته في اليوم الذي يليه، كتب دفاعه عن تصرّفاته، وكانت المحاضرة عن كنيسة المنطق، التي كانت بالمماثلة مع محاضراته الاعتياديّة، طويلة ومفصّلة بعناية.

بدأت المحاضرة بالإشارة إلى مقالة في جريدة عن بناية كنيسة في الريف تحمل لافتة إلكترونيّة لنوع من البيرة مثبتة فوق المدخل الأمامي. وكان المبنى قد بيع وتمّ تحويله إلى بار. وتستطيع أنّ تتخيّل أنّ الطلّاب قد بدأوا بالضحك. كانت الكليّة مشهورة بالحفلات المخمورة، ولهذا ناسبتها هذه الصورة تماماً. وتقول المقالة إن عدداً من السكّان كان قد اشتكى إلى القائمين على الكنيسة عن هذا الأمر. كانت الكنيسة كاثوليكيّة وكان القدّيس الذي تمَّ انتدابه للاستماع إلى الانتقاد قد انزعج من الأمر برمّته. واعتبر الأمر جهلاً مفرطاً بماهية الكنيسة. هل اعتقدوا أنّ الطوب والألواح والزجاج هي ما يشكّل الكنيسة، أم هو شكل السقف؟ وتكلّف التقوى والتظاهر به في هذه الحالة كان أمراً دنيويّاً خالصاً تعارضه الكنيسة بالكامل. لم يكن البناء الذي عد مثار جدلٍ أرضاً مقدّسةً، بل تمّ تدنيسه. هذا هو القول الأخير في الموضوع. وبقيت لافتة البيرة فوق البار، وليس الكنيسة. وأولئك الذين لا يستطيعون أنّ يميّزوا بين الأمرين كانوا يقدِّمون دلائل على أنفسهم.

قال (فيدروس) إننا نشهد الفوضى ذاتها في حال الجامعة، الأمر الذي جعل فقدان الاعتماد صعب الفهم. فالجامعة الحقيقيّة ليست شيئاً ماديّاً، هي ليست مجموعةٌ من الأبنية التي يمكن أنّ تحميها الشرطة. ولّما فقدت الكليّة اعتمادها، لم يأتِ أحد ليغلق مبانيها. ولم يكن هناك عواقب قانونيّة، ولا غرامات، ولا أحكام بالسجن، ولن تتوقّف المحاضرات، وبقيت الأمور على ما هي عليه. حصل الطلّاب على نوعيّة التعليم ذاتها التي كانوا يحصلون عليها. وكلّ هذه الأشياء تحدث، كما يقول (فيدروس)، كاعتراف رسمي لوضع موجود مسبقاً. وسيكون الوضع مشابهاً للعزل الديني. ما

سيحدث هو أنّ الجامعة الحقيقيّة، التي لا يمكن تكريس هيئة تشريعيّة لها، ولا يمكن تحديدها بمكان محدّد من الطوب والألواح والزجاج، ستعلن أنّ هذا المكان لم يعدّ «أرضاً مقدّسة». وستختفي الجامعة الحقيقيّة من هذا الموقف، وكلّ ما سيبقى هو الطوب، والكتب، والمظاهر الماديّة.

لابدّ أنّ هذا المفهوم كان غريباً لجميع الطلّاب، وأستطيع أنّ أتخيله ينتظر لمدّةٍ طويلةٍ قبل أنّ يفهمه الجميع وعندها ينتظر السؤال: في رأيك ما هي الجامعة الحقيقيّة؟

تضمّنت ملاحظاته في إجابته عن هذا السؤال ما يأتي:

ليس للجامعة الحقيقيّة مكان، ولا تملك أيّة عقار، ولا تدفع رواتب، ولا تتلّقى استحقاقات ماديّة. الجامعة الحقيقيّة هي حالة عقليّة، هي ذلك الإرث العظيم من التفكير العقلي الذي وصلنا على امتداد قرون من الزمن. وهي لا توجد في أيّ مكان محدّد. هي حالة عقليّة تتجدّد عبر قرون من الزمن على يد مجموعة من الناس يحملون لقب بروفيسور، لكن هذا اللقب ليس جزءاً من الجامعة الحقيقيّة. والجامعة الحقيقيّة ليست سوى التفكير المنطقي المستمّر نفسه.

وبالإضافة إلى هذه الحالة العقليّة، «العقل والمنطق»، هناك كيان قانوني يحمل - لسوء الحظ- الاسم نفسه، لكنّه يختلف تماماً. فهي مؤسّسة لا ربحيّة، فرع من الولاية بعنوان محدّد، وتملك عقاراً، وقادرة على دفع رواتب وتلقّي المال والاستجابة للضغوط القانونيّة.

غير أنّ هذه الجامعة الثانيّة، المؤسّسة القانونيّة لا تستطيع أنّ تعلّم، ولا تخلق معرفةً جديدةً أو تقييماً لأفكارٍ. وهي ليست الجامعة الحقيقيّة على

الإطلاق، وإنّما هي بناية الكنيسة أو الخلفيّة أو المكان الذي جعلت فيه الشروط مواتية لوجود لكنيسة الحقيقيّة.

يحدث الاضطراب على الدوام لدى الناس الذين لا يستطيعون رؤية الفرق، ويعتقدون أنّ السيطرة على بناية الكنيسة يعني السيطرة على الكنيسة ذاتها. وهم يرون الأساتذة موظّفين في الجامعة الثانيّة وعليهم التخلّي عن المنطق حين يطلب منهم، وتلقّي الأوامر دون ردّ، كما يفعل الموظّفون في المؤسّسات الأخرى. وهم يرون الجامعة الثانية، ويفشلون في رؤية الأولى.

أذكر أنّني قرأت هذا لأوّل مرّة، وعلّقت على المهارة التحليليّة الموجودة. لقد تجنّب تقسيم الجامعة إلى حقول أو أقسامٍ والتعامل مع نتائج هذا التحليل. كما تجنّب التقسيم التقليدي إلى طلّاب، وأعضاء هيئة تدريس وإدارة. ولّما يتمّ تقسيم الجامعة حسب أيّ طريقة من الطريقتين، فإنّك تحصل على أشياء مملّة، ربّما لا تقودك إلى أيّ مكان، ولن تستطيع فهمها من النشرة الرسميّة للجامعة. لكن (فيدروس) قسّمها إلى «الكنيسة» و«المكان». ولّما يتمّ تبنّي هذا التقسيم فإنّ المؤسّسة المملّة والمتأرجحة الموجودة في النشرة سيتم مشاهدتها بوضوح لم يشاهد من قبل. وقدّم على أساس هذا التقسيم بعض التفسيرات لعددٍ من الجوانب المحيّرة لكن لطبيعة الحياة الجامعيّة.

وعاد بعد هذه التفسيرات إلى حالة الكنيسة الدينيّة. يعتقد المواطنون الذين يبنون هذه الكنيسة، ويدفعون المال لها، أنّهم يفعلون هذا للمجتمع. والموعظة الجيّدة قادرة على وضع أبناء الأبرشيّة في صورة عقليّة صحيحة لأسبوع قادم. وتساعد مدارس يوم الأحد في تنمية الأطفال تنمية صحيحة. ويفهم القسّ الذي يلقي الموعظة ويدير مدرسة يوم الأحد، هذه الأهداف،

ويتصرّف وفقاً لها. لكنّه يعلم أنّ هدفه الحقيقي ليس خدمة المجتمع، وإنّما خدمة الله. وفي العادة ليس هناك من اختلاف بين الأمرين. لكن في بعض الأحيان قد يتسرّب أحدهما إلى الآخر عندما يعارض الأمناء مواعظ القس، ويهدّدون بتخفيض النفقات. وهذا ما يحدث عادة.

ويتصرّف القسّ الحقيقي في مثل هذه المواقف كما لو أنَّه لم يسمع التهديدات. فهدفه الحقيقي ليس خدمة أفراد المجتمع، وإنّما الله على الدوام.

يقول (فيدروس) إن الهدف الحقيقي لكنيسة العقل هو هدف (سقراط) القديم من الحقيقة، بأشكالها المتغيّرة على الدوام كما تظهر في العمليّة العقلانيّة. وكلّ شيء غير ذلك خاضع لهذا الهدف، الذي في العادة، لا يتضارب مع الهدف الموضعي لتحسين المواطنة. لكن قد يظهر في مناسبات بعض التضارب كما في حالة (سقراط) نفسه. ويحدث هذا عندما يتّخذ الأمناء والمشرّعون الذين أسهموا بأموال ضخمة وبساعات طوال من وقتهم لهذا المكان مواقفَ معارضةً لمحاضرات الأساتذة أو لبياناتهم العامّة. ويلجأون إلى الإدارة عبر التهديد بقطع المال إن لم يقل الأساتذة ما يحبّذون سماعه. وكثيراً ما يحدث هذا.

وعلى رجال الكنيسة الحقيقيّين التصرّف كما لو سمعوا بهذه التهديدات من قبل. فهدفهم الحقيقي لم يكن دوماً خدمة المجتمع فقط، وإنّما خدمة هدف الحقيقة عبر المنطق.

هذا ما عناه بـ«كنيسة المنطق». كان المفهوم مغروساً فيه. وعُدَّ مثيراً للمشاكل، لكن لم توجّه إليه أصابع الاتّهام من جرّاء هذا المفهوم، بالمماثلة مع مدى الإزعاج الذي سبّبه المفهوم. وما قد صدَّ عنه غضب الجميع عليه

جزئيّاً كان عدم رغبته في إبداء أيّ دعمٍ لأعداء الكليّة، وجزئيّاً أيضاً إلى فهم مزعج مفاده أنّ كلّ اضطراب يستند في النهاية إلى تفويض ملزم لهم: تفويض التكلّم باسم الحقيقة العقلانيّة.

وتفسرّ ملاحظات المحاضرات لماذا تصرّف على هذا النحو، لكنّه ترك شيئاً واحداً غير مفهوم، وهو حدته المعتصبة. إذ يستطيع الشخص أنّ يؤمن بالحقيقة وبإجرّاءات المنطق لاكتشافها، وبمقاومة التشريعات، لكن لماذا عساه يحرق نفسه يوماً تلو الآخر في الموضوع نفسه؟

تبدو التفسيرات النفسيّة التي تمَّ اقتراحها غير كافية، فرهبة المسرح لا تسبّب دوام هذا المجهود شهراً تلو الآخر. ولا تبدو فكرة محاولته خلاص نفسه من فشله في بداية حياته مقبولة. وليس هناك من دليل يمكن من خلاله أنّ نجزم أنَّه اعتبر فصله من الجامعة فشلاً، بل مجرّد لغز. والتفسير الوحيد الذي أؤمن أنَّه ينبع من التناقض بين انعدام إيمانه بالمنطق العلمي في المختبر، وإيمانه المتعصّب الذي بثّه في محاضرة كنيسة المنطق. وفي أحد الأيّام كنت أفكّر بالتناقض لاكتشف أنَّه ليس تناقضاً على الإطلاق. فانعدام إيمانه بالمنطق هو السبب الذي جعله ينكبّ عليه بتعصّب.

فالشخص لا ينكب على شيء لديه ثقة عمياء فيه. فليس هناك من يصرخ مغالياً أنّ الشمس ستشرق غداً. لأنّه يعلم تمام العلم أنّها ستشرق غداً. وعندما يتعصّب الناس على اعتقادات دينيّة أو سياسيّة أو نوع من العقائد أو الأهداف، ينتهون إلى مثل هذه الحالة حين تكون هذه العقائد موضع شك.

فتشدّده يشبه تشدد اليسوعييّن، الذين ينبع حماسهم من ضعف الكنيسة

الكاثوليكيّة في مواجهة الإصلاح لا من قوّتها. وانعدام إيمان (فيدروس) بالمنطق هو ما جعله معلّماً متعصّباً. هكذا تبدو الأمور في نصابها الصحيح، وهذا يجعلنا نفهم كثيراً من الأشياء التي ستأتي لاحقاً.

قد يكون هذا هو السبب الذي جعله على علاقة قويّة بالعديد من الطلّاب الراسبين في المقاعد الخلفيّة في الصفوف. وكانت نظرات الازدراء الموسومة على وجوههم تظهر المشاعر نفسها التي كانت لديه نحو العمليّة العقلانيّة الفكريّة برمّتها. بيد أنّ الفارق بينهم هو أنّهم كانوا يزدرون المواضيع لعدم فهمهم إيّاها، في حين أنّه كان يزدريها لأنّه فهمها. ولأنّهم لم يفهموها لم يكن لديهم حلّ سوى الرسوب وتذكّر هذه التجربة بحسرة لبقيّة حياتهم. لكنّه شعر أنّه ملزم بشدّة لفعل أمر حياله. ولهذا كانت محاضرة «كنيسة المنطق» معدّة بشكل جيّد وقال لهم فيها إن عليهم أنّ يؤمنوا بالمنطق، لأنّه ليس له بديل، لكنّه كان إيماناً لم يمتلكه هو نفسه.

علينا أنّ نتذكّر هنا أنّ تلك المدّة كانت خميسينيّات القرن العشرين وليست سبعينيّاته، وسرى بين روّاد ثقافة فرقة (الخنافس) والهيبيّين تذمر من «النظام» وحول التيّار العقلي التربيعي الذي كان يدعمه. لكن لم يتوقّع أيّ شخص أنّ يتمّ التشكيك بهذا الصرح بشكل كبير. ولهذا أخذ (فيدروس) يدافع بتعصّب عن مؤسّسة، كنيسة العقل، التي لم يكن لدى أيّ شخص في (بوزمان) في ولاية (مونتانا) الحقّ بالتشكيك فيها. وكانت كجامعة (لويولا) قبل الإصلاح. وكان كالمسلّح الذي ضمن للجميع أنّ الشمس ستشرق غداً، وهو الأمر الذي لم يشكّ فيه أحد. لكن كان الجميع مستغربين منه هو نفسه.

نستطيع الآن، وقد صار يفصلنا عنه أكثر عقود القرن العشرين هيجاناً، وهو العقد الذي تمّت فيه مهاجمة العقل بدرجة لم نكن نتصوّرها في الخميسينيّات، أنّ نفهم في هذه التشوتوكوا المستندة على اكتشافاته المزيد ممّا كان يقوله، حلّ لجميع القضايا العالقة... لو كان هذا صحيحاً، لكن كثيراً منه قد ضاع إلى درجة لم يعدّ المجال متاحاً لمعرفتها.

ربّما لهذا السبب أشعر بأنّني عالم آثار. فلديّ توتّر كبير حياله. كلّ ما أملكه هو شظايا الذاكرة، وأجزاء يخبرني بها الناس، وأواصل التساؤل إن كان ترْكُ بعض القبور مغلقة أفضلَ من نبشها.

فجأة يقفز إلى ذهني (كريس)، الذي كان يجلس خلفي، فأتساءل كم يعرف؟ وكم يتذكّر؟

ها نحن نصل إلى تقاطع تلتقي فيه الطريق القادمة من المنتزه بالطريق السريع الممتد بين الغرب والشرق، فنقف عنده وننعطف ومنه نجتاز ممرّاً منخفضاً إلى (بوزمان). فتأخذ الطريق بالصعود، متّجهة نحو الغرب، وفجأة أتطلّع لما أراه أمامنا.

14



نقود درّاجاتنا إلى سهل صغير أخضر. وإلى الجنوب المباشر نرى جبالاً مغطّاة بغابات الصنوبر ما زال على قممها ثلج من العام الماضي. ففي جميع الاتّجاهات تظهر جبال أقلّ ارتفاعاً، بعيدة من حيث المسافة، لكنّها واضحة وحادّة. وهذا المنظر الذي يصلح ليكون بطاقة بريديّة يناسب ذاكرتي، لكن ليس تحديداً. فلا بدّ أنّ هذا الطريق السريع داخل الولاية لم يكن موجوداً حينئذٍ.

تتردّد على بالي العبارة القائلة «أن تسافر خيرٌ لك من أنّ تصل»، وتظلّ عالقة فيه. كنّا مسافرين، ونحن الآن على وشك الوصول. وتنتابني عادة نوبةٌ من الكآبة عندما أصل هدفاً مؤقتاً كهذا، وعليّ أنّ أعيد توجيه نفسي نحو هدف آخر. وسيعود (جون) و(سيلفيا) أدراجهما خلال يومين، وعلينا أنا و(كريس) أنّ نقرّر ما يجب أنّ نفعل بعد ذلك. علينا أنّ نعيد ترتيب كلّ شيء.

يبدو الشارع الرئيس في المدينة مألوفاً بشكل غامض، لكن ينتابني شعور السائح الآن، وأنا أرى اللافتات تخاطبني أنا السائح، ولا تخاطب الناس الذين كانوا يقيمون في المدينة. ليست هذه مدينة صغيرة، يتحرّك الناس فيها بسرعة وباستقلاليّة عن بعضهم. بل هي واحدة من المدن التي يتراوح عدد سكّانها بين خمسة عشر وثلاثين ألفاً، فهي لا تعدّ مدينة ريفيّة ولا مدينة ضخمة، ولا تعدّ شيئاً محدّداً.

نتناول غداءنا في مطعم مليء بالكروم والزجاج، لم تتولّد لديّ أيّ ذكرى منه. ويبدو المطعم كما لو أنَّه بني منذ أنّ كان يعيش هنا، ويظهر انعدام الهويّة الذاتيّة التي ترى في الشارع الرئيس.

أتوجّه إلى كشك تلفون، وأبحث عن رقم (ديويز)، لكنّي لا أجده. فأتصل بعاملة المقسم، التي لم تسمع باسمه، ولم تعطني الرقم. لا أصدّق ما يحدث، هل كانوا في خياله فقط؟ تركت جملة عاملة المقسم شعوراً مرعباً لدَّي دام للحظة، ثمّ تذكّرت ردّهم على رسالتي التي أخبرتهم فيها أنّنا قادمون. فالناس الخياليّون لا يستخدمون البريد على الإطلاق.

يقترح (جون) أنّ أتّصل بقسم الفنون أو بعض الأصدّقاء. أدخّن قليلاً، وأشرب القهوة، وعندما أستريح مرّة أخرى، أفعل هذا أيضاً، فأتعلّم كيف الوصول إليهم. والتكنولوجيا ليست مصدر إرعاب. بل ما تفعله للعلاقات بين الناس، كمتّصلين وعاملي مقسم، هو الأمر المرعب حقّاً.

لابدّ أنّ المسافة بين المدينة إلى الجبال عبر الوادي أقلّ من عشرة أميال، فنقطع تلك المسافة على طرق ترابيّة محوطة بنبات الفصفصة الخضراء المرتفعة والجاهزة للقطاف، وتبدو كثيفة جدّاً بحيث يصعب علينا أنّ نمرّ

عبرها بسهولة. تمتدّ الحقول إلى الخارج قليلاً إلى الأعلى نحو أسفل الجبل حيث تنمو أشجار صنوبر ذات لون أخضرٍ داكن فجأة. هنا تقيم عائلة (ديويز)، حيث يلتقي الأخضر الفاتح الأخضر الداكن. كانت الريح محمّلة بروائح التبن الأخضر المجزوز حديثاً وروائح الأغنام. وفي نقطة ما، مررنا بموجة باردة من الهواء، فامتزجت برائحة الصنوبر، ثمّ عاد الهواء ساخناً مرّة أخرى. أشعّة الشمس، والمروج، والجبل المطلّ علينا.

حين نقترب من أشجار الصنوبر، تصبح الحصباء في الطريق عميقةً جدّاً. فنخفّف من سرعتنا إلى الغيار الأوّل، عشرة أميالٍ في الساعة، وأبقي قدمي خارج حاملات القدم لأدفع الدرّاجة إلى الأمام إن علقت بالحصباء وبدأت بالانخفاض. نلتفّ عن الزاوية فتظهر لنا فجأة أشجار صنوبر ووادي منحدرٍ جدّاً على شكل الحرف (V)، ونرى بجانب الطريق بيتاً ضخماً رمادي اللون مع منحوتةٍ حديديّةٍ ضخمةٍ مثبّتةٍ على أحد جوانبه، وتحت المنحوتة في كرسيٍ مائلٍ إلى الخلف نحو المنزل تعيش صورة حيّة لـ(ديويز) نفسه، وبيده التي حيّانا بها، علبة بيرة. كما هو في الصور القديمة تماماً.

كنت مشغولاً بإبقاء الآلّة واقفة فلم أستطع أنّ أرفع يدي عن المقبض، فحيّيته بقدمي عوضاً عن يدي. وكشفت الصورة الحيّة لـ(ديويز) عن نواجذها لّما رأتنا نتوقّف.

قال: «وجدت البيت، أليس كذلك؟» وضحك ضحكة هادئة، وكانت بعيونٍ سعيدةٍ.

فقلت: «لقد مضى وقتٌ طويلٌ». كنت سعيداً أيضاً، لكنّني كنت مستغرباً من رؤيتي الصورة تتحرّك وتتكلّم فجأة.

ننزل عن درّاجاتنا ونخلع لوازم قيادة الدرّاجة، ونرى أنّ الشرفة التي كان يجلس عليها وضيوفه غير مكتملة، ولم تتغيّر بسبب عوامل الطقس. ينظر (ديويز) إلى حيث كنّا واقفين في الأسفل، إزاء الشرفة التي ترتفع عن الطريق بضعة أقدام، لكن الوادي كان ينحدر بشكل حادٍّ جدّاً، بحيث أصبحت المسافة بين الشرفة والشارع على الجهة الأخرى من الأرض خمسة عشر قدماً. ويظهر الجدول بعد خمسين قدماً إلى الأسفل من المنزل، بين الأشجار والعشب وحصان يرعى دون أنّ يرفع رأسه. الآن كان علينا أنّ ننظر عالياً لنرى السماء، فكنّا محوطين بالغابة الخضراء الداكنة التي كنّا نشاهدها ونحن نقترب.

قالت (سيلفيا): «المنظر جميل حقّاً».

تبتسم لها الصورة الحيّة (لديويز) وتقول: «شكراً، أنا سعيد أنّك أحببت المنظر». كانت الطريقة التي تحدّث فيها تدلّ على الاسترخاء. فأدركت حينها أنَّه قد تكون هذه الصورة صورة حقيقيّة لـ(ديويز)، لكنّه شخصٌ جديدٌ بالكامل. وكان يحاول أنّ يجدّد نفسه باستمرار، وعليّ إعادة التعرّف إليه من جديد.

نصعد الشرفة، التي كانت ألواحها الخشبيّة بعيدة عن بعضها، فكان بينها فراغات، تبدو كالنافذة المشبّكة. أستطيع رؤية الأرض من خلال الفراغات بين الألواح. يعرّفنا (ديويز) بضيوفه بطريقة لا تخلو من الركاكة، فتدخل كلماته من أذن وتخرج من أخرى. لا أستطيع تذكّر الأسماء. من ضيوفه مدرّس فنون من الكليّة، يرتدي نظّارات مصنوعة من العظم، وزوجته التي كانت تضحك من تلقاء نفسها. لابدّ أنّهما جديدان.

نتحدّث لمدّة، يشرح لهم فيها (ديويز) من أنا، وفجأة تظهر من المكان الذي تختفي فيه الشرفة عبر زاوية المنزل، (جيني ديويز) حاملة صينيّة عليها علب بيرة. وهي أيضاً رسّامة، حسب ما فهمت، ولمّاحة. ترتسم على وجهينا ابتسامة، لأنني أكاد أمسك يدها بدلاً من علبة البيرة. قالت: «جاء إلينا بعض الجيران بمجموعة من سمك السلمون المرّقط للعشاء. أنا سعيدة جدّاً». حاولت أنّ أفكّر بشيء جيّدٍ لأقوله لكن لم أقلّ شيئاً وإنّما هززت رأسي فقط.

نحن نجلس، أنا في ضوء الشمس، فيصعب عليّ أنّ أميّز تفاصيل الجانب الآخر من الشرفة في الظلّ.

ينظر (ديويز) إليّ، وكان كما يبدو يحاول التعليق على شكلي الذي كان مختلفاً عمّا كان يتذكّر. لكن هناك ما يمنعه فيستدير إلى (جون) ويسأله عن الرحلة.

يردّ (جون) أنّها جميلة جدّاً، وأنّه و(سيلفيا) كانا بحاجة لها منذ سنوات. وتثنيّ (سيلفيا) على كلامه فتقول: «إنّ التواجد في مكان مفتوح كهذا أمرٌ جميلٌ حقّاً».

يقول (ديويز): «هناك كثير من الأماكن في (مونتانا)». ثمّ ينشغل مع (جون) ومدّرس الفنّ في حديث تعارف عن الفروق بين (مونتانا) و(منيسوتا).

يأكل الحصان العشب بسلام في الأسفل، وماء الجدول خلفه يتلألأ. فيتحوّل الحديث ليصبح عن أرض (ديويز) هنا، وعن مدّة إقامته فيها، وعن تدريس الفنّ في الكليّة. وكان لـ(جون) موهبة حقيقيّة للمشاركة في حديث

عرضي كهذا لم أمتلكها أنا، ولهذا كنت أستمع فقط.

بعد قليل تبلغ حرارة الشمس ذروتها فأخلع جاكيتي، وأفتح قميصي، وأخرج نظّارة شمسيّة أرتديها لأتمكّن من الرؤية جيّداً، لكنّها تحجب الظلّ بشكل كاملٍ فلا أتمكّن من رؤية الوجوه ، فأغدو كأنّني معزول بصريّاً عن كلّ شيء باستثناء الشمس وانعكاساتها على منحدرات الوادي. أفكّر لحظة بفكّ أمتعتنا، لكن أقرّر أنّ أتناسى الموضوع، فهم يعلمون أنّنا سنقضي ليلتنا في منزلهم. وعلينا أنّ ندع الأشياء تحدّث تدريجيّاً، أوّلاً نستريح ثمّ نفك أمتعتنا. ولم العجلة؟ تبدأ الشمس والبيرة بتحميص رأسي كحلوى الخطمي. شيء جميل.

لا أعرف كم من الوقت انقضى قبل أنّ أسمع عبارة «نجم الأفلام هنا» من فمّ (جون)، فأدرك أنَّه يتحدّث عنّي وعن نظّاراتي. أتطلّع إلى الظلّ فأجد أنّهم كانوا يبتسمون لي. لابدّ أنّهم أرادوا أنّ أشاركهم الحديث، المتعلّق بمشاكل الرحلة.

قال (جون): «يريدون أنّ يعرفوا كيف ستتصرَّف إن حدث خلل ميكانيكي»؟

رويت لهم ما حدث معي ومع (كريس) لّما كنّا في العاصفة المطريّة وتعطّل المحرّك. كانت قصّة جيّدة، لكنّني أدركت أثناءها أنّها بلا هدف. وحقّق السطر الأخير المتعلّق بنفاد البنزين التأوّه المطلوب.

فقال (كريس): «حتّى أنتّي أخبرته أنّ يتفقّد البنزين».

علّق (ديويز) وزوجته على حجم (كريس) فقالا إنّه يكبر ويصير أكثر وعياً وأكثر تألّقاً. سألوني عن أمّه وأخيه، فأجبنا بأفضل ما نستطيع.

أخيراً يصير الحرّ شديداً بحيث لم أستطع تحمّلَهُ، فأحرّك كرسيّ إلى الظل، فيغادرني شعور حلوى الخطمي في لحظة البرد المفاجئ. واضطرني بعد مدّة أنّ أعيد تزرير قميصي. لاحظت (جيني) ما فعلت فقالت: «في العادة يصبح الجوّ بارداً جدّاً حين تختفي الشمس وراء قمّة ذلك الجبل».

تصير المسافة الآن بين الجبل والشمس قصيرة جدّاً. أعتقد أنّ الوقت المتبقّي، مع أنّنا ما نزال في منتصف النهار، هو أقلّ من نصف ساعة. يسأل (جون) عن الجبال في الشتاء، ويتحدّث و(ديويز) ومدّرس الفنّ في هذا الموضوع، وعن التنقّل مرتدين أحذية الثلج. أستطيع أنّ أجلس هنا إلى الابد.

تتحدّث (سيلفيا)، و(جيني)، وزوجة مدرّس الفنّ عن المنزل، وتدعوهم (جيني) إلى الدخول.

تندفع أفكاري نحو العبارة التي دارت عن (كريس) ونضجه السريع، وفجأة تنتابني مشاعر القبر. لقد سمعت بشكل غير مباشر عن المدّة التي عاش فيها (كريس) هنا، وبالنسبة إليهم بدا الأمر كما لو أنّه لم يغادر من قبل. فنحن نعيش في بناءين زمنيّين مختلفين.

يتحوّل الحوار إلى الحديث عن الفنّ والموسيقى والمسرح، فأدهش من قدرة (جون) على مواصلة حديثه في هذه المواضيع. لم أكن مهتّماً بما هو جديد في هذه المواضيع، وهو على الأرجح خبير بها، ولهذا لا يتحدّث فيها معي على الإطلاق. وهذا عكس موقف صيانة الدرّاجة الناريّة تماماً. أتساءل إن كانت عيناي تلمعان الآن مثل عينيه وأنا أتحدّث عن القضبان والمكابس.

لكن القاسم المشترك بينه وبين (ديويز) هو (كريس) وأنا. وهنا تتكوّن

في الجلسة لزوجة مضحكة، بدأت بعبارة تهكميّة من (جون) نجم الأفلام. وتزعج (ديويز) رفيق دربه قليلاً، فيكيل لي عبارات مليئة بالاحترام. وتزيد هذه من تهكّم (جون) بطريقة تدلّ على انزعاجه، فيحسّ الاثنان بهذا، فيغيّران الموضوع، ويتناولان مواضيع اتّفق كلاهما عليها، ثمّ يعاودان الرجوع إليّ، وإلى مواضيع اتّفقا فيها.

قال (جون): «على أيّة حال، أخبرنا هذا الشخص هنا أنّنا سنصاب بخيبة أمل عندما نصل إلى هنا، لكنّنا لم نتغلّب على هذا «الخذلان».

ضحكت، ولم أرد أنّ يكبر الموضوع، وضحك (ديويز) أيضاً، وعندها نظر (جون) إليّ وقال: «يا إلهي، لابدّ أنّك مجنون بحقّ، أعني تلاشت تلافيق عقلك لتترك هذا المكان. لا أبالي كيف كانت الكليّة».

أرى (ديويز) ينظر إليه مصدوماً. ثمّ غضباناً. ينظر (ديويز) إليَّ، فأشيح بنظري عنه. يبدو أنّنا قد وصلنا إلى طريق مسدودٍ، ولا أعرف كيف أتجاوزه، فقلت بفتور: «إنّه مكان جميلٌ».

قال (ديويز) مدافعاً: «لو قضيت بعض الوقت هنا، لرأيت جانباً آخرَ للمكان». فهزَّ المدرّس رأسه موافقاً.

يقود الموقف الشائك إلى صمت. من المستحيل معه التوصّل إلى حلّ وسط. ما قاله (جون) لم يكن فظّاً. وإنّما كان ألطف من كلام أيّ شخص آخر. لكن ما يعرفه هو وما أعرفه أنا، وما لا يعرفه (ديويز) هو أنّ الشخص الذي كانا يتحدثان عنه مختلف تماماً هذه الأيّام. لقد أصبح شخصاً آخر متوسّط العمر من الطبقة الوسطى، يحاول أنّ يمضي أيّامه بسلام. ربّما يقلق على (كريس)، وبمعزل عن ذلك ما من شيء خاص.

لكن ما يعرفه (ديويز) وما أعرفه أنا وما لا تعرفه عائلة (سذرلاند) هو أنّه كان شخصٌ يقطن هنا، ويحمل مجموعة من الأفكار لم يسمع بها شخص من قبل، ومن ثمّ حدث خطأ لا يمكن تفسيره، ولا يعرف (ديويز) كيف أو لماذا، ولا أعرف أنا ذلك أيضاً. والسبب وراء هذا الطريق المسدود هو أنّ (ديويز) يعتقد أنّ ذلك الشخص موجود هنا الآن، وليس هناك من طريقة أستطيع أنّ أقول له عكس ذلك.

للحظة وجيزة، تتلاشى الشمس بين الأشجار، وتصلنا هالة ضوئيّة، وتتسّع الهالة، لتغطّي كلّ شيء في وميض مفاجئ، بل تغطيني فجأة أنا نفسي.

أقول: «لقد رأى الكثير». كنت أفكّر بالطريق المسدود، لكن بقي (ديويز) محتاراً، ولم ينبس (جون) بكلمة. وأدركت الخاتمة الكاذبة متأخّراً جدّاً. في الخلاء يرتفع صوت عصفور وحيد بحزن.

فجأة تختفي الشمس وراء الجبل، ويعتّم الوادي بأكمله في ظلّ كئيب.

أرى أنّ هذا التصرّف غير مبرّر على الإطلاق. فأنت لا تصدر عبارات كهذه، وتترك المستشفى مدركاً أنّك لم تفعل ذلك.

تظهر (جيني) مع (سيلفيا) التي تقترح أنّ نفكّ أمتعتنا، فنوافق، وتقودنا إلى غرفنا. وأرى أنّ في غرفتي الجميلة لحافاً ثقيلاً ليبقيني دافئاً.

أنقل جميع أمتعتي من الدرّاجة إلى الغرفة على ثلاث دفعات. ثمّ أذهب إلى غرفة (كريس) لأرى ما يلزم فكّه لكنّه كان مرحاً، ولشعوره ببلوغه سن النضج لم يحتج إلى مساعدتي.

نظرت نحوه وقلت: «هل أحببت المكان؟»

قال: «المكان جميل، لكنّه لا يشبه المكان الذي تحدّثت عنه في الأمس».

- «متى؟»

- «قبل أنّ تذهب إلى النوم مباشرة، في المقصورة».

لم أعلم عمّا كان يتحدّث.

وأضاف: «لقد قلت إن المكان معزول».

- «ولماذا أقول ذلك»؟

- «لا أعلم». أحبطه السؤال، لذا لم أتابع الأمر. لابدّ أنّه كان يحلم.

حين ننزل إلى غرفة المعيشة أستطيع أنّ أشمّ عبق رائحة قلي سمك التروت في المطبخ. في نهاية الغرفة ينحني (ديويوز) فوق الموقد حاملاً عود كبريت لإشعال جريدة تحت المادّة المشتعلّة. نراقبه لهنيهة.

قال: «نحن نستخدم هذا الموقد طوال الصيف».

فقلت: «أنا مندهش من شدّة البرد هنا».

قال (كريس) إنّه يشعر بالبرد أيضاً: فأرسلته إلى الغرفة لإحضار جاكيتته وجاكيتتي.

قال (ديويز): «إنّها ريح المساء، التي تجتاح الوادي من الأعلى، فتحيل الجوّ بارداً جدّاً».

تشبُّ النار فجأة، ثمّ تخمد، وتشبُّ مرّة أخرى. لابدّ أنّ الجوّ عاصف، أفكّر وأنظر عبر النوافذ الواسعة التي تصطف على جدار غرفة المعيشة. أرى عبر الوادي عند الغروب حركة الأشجار العنيفة.

قال (ديويز): «لكنّك تعلم جيّداً كم الجوّ باردٌ جدّاً في الأعلى، فلقد كنت تقضي كلّ وقتك في الأعلى».

فقلت: «لقد أعاد الجوّ البارد لي الذكريات».

راودتني ذكرى عن رياح الليل ونار المعسكر. كانت أصغر من التي نراها أمامنا، وحميناها من ريح الليل القويّة بالصخور، ووضعنا على جانب النار أدوات الطبخ، وحقائبنا لنمنع الريح من الوصول إلى النار. كانت هناك مطرة مليئة من ماء جمعناه من الثلج الذائب. كان علينا جمع الماء باكراً لأنَّ الثلج فوق خطّ نمو الأشجار يتوقّف عن الذوبان عندما تنخفض الشمس.

قال (ديويز): «لقد تغيّرت كثيراً». ينظر إليّ باحثاً عنّي. يبدو تعبيره كما لو كان يسأل إذا ما كان الموضوع ممنوعاً أم لا. وحين يجد من النظر إليّ أنّ الأمر كذلك، يضيف: «أعتقد أنّنا جميعاً تغيّرنا».

أجبت: «لم أعدّ الشخص نفسه على الإطلاق». يبدو أنّ كلماتي قد أراحته، ولو كان مدركاً الحقيقة الحرفيّة لكلامي، لأصبح أقلّ ارتياحاً. فقلت: «حدث الكثير، حدثت بعض الأشياء جعلت من المهمّ أنّ نحاول تفكيك الأمور قليلاً، في ذهني على الأقلّ وهذا هو سبب وجودي هنا».

ينظر إليّ متوقّعاً المزيد، غير أنّ مدرّس الفنّ، وزوجته يقتربان من الموقد، فننهي الموضوع.

قال المدرّس: «يشعرنا صوت الريح بقدوم عاصفة هذا المساء».

قال (ديويز): «أظنُّ غير ذلك».

يعود (كريس) ويجلب معه الجاكيتات، ويسأل إن كان هناك أشباح في أعلى الجبل.

ينظر إليه (ديويز) باستمتاع، ويقول: «لا، لكن هناك ذئاب».

يفكّر (كريس) بالموضوع، ويقول: «وماذا تفعل؟»

قال (ديويز): «تسبّب المشاكل لأصحاب المزارع». يقطّب وجهه ثمّ

يكمل كلامه فيقول: «تقتل العجول والخرفان».

- « وهل تلاحق الناس».

- «لم أسمع أنّها فعلت من قبل». لكن عندما رأى أنّ جملته قد أحبطت (كريس) قال: «لكنّها تستطيع أنّ تفعل ذلك».

وفي العشاء تُحضر سمكة التروت مع بعض الكؤوس من نبيذ (باي كاونتي تشابيلز). نجلس متفرّقين على كراسٍ وكنباتٍ في غرفة المعيشة. وفي جانب الغرفة، تصطفّ النوافذ المطلة على الوادي، لكن كان الوقت ليلاً، فيعكس الزجاج ضوء الموقد. ويرافق وهج النار توهّج داخلي ناجم عن الخمر والسمك، فلا نتبادل سوى كلمات المديح.

تهمس (سيلفيا) إلى (جون) مشيرة إلى الأواني والمزهريّات الموزّعة في أطراف الغرفة.

يقول (جون): «كنت أنظر إليها، رائعة».

قالت (سيلفيا): «هذه صنعها (بيتر فولكاس)».

- «هل هذا صحيح؟»

- «كان أحد طلّاب السيّد (ديويز)».

- «يا إلهي، كدتُ أنّ أوقع واحدة منها».

يضحك (ديويز).

يردّد (جون) كلاماً لم يكن مفهوماً عدَّة مرّات، ومن ثمّ ينظر إلى الأعلى، ويعلن: «هذا يكفي. هذا يكفينا، نستطيع الآن أنّ نقضي ثمان سنوات أخرى في البيت رقم (20649) في شارع (كولفاكس).

تجيب (سيلفيا) بحزن: «دعنا لا نتحدّث عن هذا الآن».

ينظر (جون) إليّ للحظة ويقول: «أعتقد من هو قادر على تقديم أمسية كهذه لأصدّقائه ليس سيّئاً على الإطلاق». ويهزّ رأسه بوقار، ويقول: «سأسحب كلّ الأشياء التي كنت أظنها موجودة فيك».

أسأله: «كلّها»؟

- «بعضها، على الأقل».

يضحك (ديويز) ومدّرس الفنّ، ويتلاشى التعقيد الذي كان مهيمناً.

بعد العشاء يصل (جاك) و(ويلا بارسنيز). المزيد من الصور الحيّة. ما أتذكّره عن (جاك) أنّه شخص جيّد، ويدّرس الإنجليزيّة في الكليّة ويكتب. ويصل بعدهم نحّات من شمال (مونتانا)، يعمل في رعي الأغنام. أعرف من الطريقة التي قدّمه فيها (ديويز) لنا أنّني لم أقابله من قبل.

يقول (ديويز) إنّه يحاول أنّ يقنع النحّات بالانضمام إلى أعضاء هيئة التدريس، ويقول: «سأحاول أنّ أقنعه بهذا الأمر». ويجلس إلى جانبه، لكن كان الحوار معلّقاً، لأنَّ النحّات كان جادّاً وشكّاكاً جدّاً، ربّما لأنّي لست فنّاناً. يتصرّف كما لو كنت تحرّياً يحاول توريطه، ويبقى الحوار على هذا الشكل حتّى اكتشف أنّني مداوم لحام المعادن. فصيانة الدرّاجات الناريّة تفتح أبواباً غريبة، يقول إنّه يلحم بعض الأشياء للسبّب نفسه. فاللحام، بعد أنّ تمتلك المهارة يمدّك بشعور كبير بالقوّة والتحكّم بالمعدن. وتستطيع فعل بها تريد به. ويخرج بعض صور الأشياء التي لحمها. تظهر الصور عصافير وحيوانات جميلة ذات أسطح معدنيّة متشابهة ليس لها مثيل.

أنتقل لاحقّاً لأتحدّث مع (جاك) و(ويلا). سينتقل (جاك) ليرأس قسم اللغة الإنجليزيّة في (بويز) في ولاية (إيداهو). ويبدو أنّ آراءه تجاه القسم

هنا مشوبة بالحذر، لكنّها سلبيّة، ولابدّ أنّ تكون سلبيّة وإلاّ لما غادر. يبدو وأتذكّر أنّه في الأساس كاتب خيال علمي، ويدرّس الإنجليزيّة، وليس عالماً منهجيّاً يدرّسها. وبرز في القسم انقسام مستمّر عن هذه الأفكار التي أسهمت بشكل جزئي بنشأة أفكار (فيدروس) الجامحة، أو سارعت في نموّها، ولم يسمع أحد بها من قبل. كان (جاك) مؤيداً لـ(فيدروس) لأنّه رأى أنّ أفكار (فيدروس) مناسبة له ككاتب خيال علمي أفضل من التحليل اللغوي، مع أنّه لم يفهم ما كان (فيدروس) يتحدّث عنه. وهذا انقسام قديم؛ كالانقسام القائم بين الفنّ وتاريخ الفنّ. فالأوّل يمارسه والثاني يتحدّث عن نوعيّة تأديته. والحديث عن الشيء لا يشبه الشيء نفسه.

يزوّدنا (ديويز) بتعليمات لتجميع أجزاء شوّاية خارجيّة أرادني أنّ أقيّمها ككاتب تقني محترف. لقد قضى مدّة ما بعد الظهر بأكملها محاولاً تجميع الأجزاء، وأرادني أنّ أنتقد هذه التعليمات بشدّة.

لكنّي حين قرأت التعليمات، بدت لي طبيعيّة واحترت لأنّني لم أجد عيباً فيها. لم أرد أنّ أقول ذلك بالطبع، فحاولت جاهدا أنّ أتوقّف عند شيء. ولن تستطيع أنّ تحدّد إذا ما كانت التعليمات جيّدة أم لا حتّى تختبرها على الأداة، أو الإجرّاء الذي تصفه، لكنّني أعدُّ الفصل بين الكلام والصورة والحاجة لقلب الصفحة أكثر من مرّة أمراً مُعيقاً للقراءة وممارسة سيّئة. أقفز عن هذه النقطة كثيراً، ويشجّعني (ديويز) كثيراً. ويتناول (كريس) التعليمات ليرى ما أعني.

لكن بينما كنت أعلّق على هذه النقطة، وأصف بعض الآلام التي قد يسبّبها سوء التفسير الناتج عن الإشارات الرقميّة المتقاطعة السيّئة، شعرت

أنّ هذا ليس هو السبب الحقيقي الذي جعل (ديويز) يجدها صعبة الفهم. وإنّما انعدام الانسيابيّة والاستمراريّة هو ما خذله. فهو لا يستطيع أن يفهم الأشياء عندما يتمّ الحديث عنها باستخدام أسلوب الجمل الغريبة المقطعة البشع الشائع في الهندسة وفي الكتابة التقنيّة. والعلم يعمل بقطع كبيرة وصغيرة وأجزاء من الأشياء التي تفترض الاستمراريّة، في حين أنّ (ديويز) يفهم الأشياء بالاستناد إلى استمراريّها بقطعها الكبيرة والصغيرة وأجزائها المفترضة. فما يريدني أنّ أدينه هو فقدان الاستمراريّة الفنيّة، وهو شيء لا يهتمّ به المهنّدس مطلقاً. ولا تبعد القضيّة عن الانقسام بين الكلاسيكي والرومانسي الذي تحدّثنا عنه سابقاً.

في هذه الأثناء يتناول (كريس) التعليمات ويطويها بشكل لم أفكّر فيه مسبقاً فيظهر النصّ إلى جانب الصورة. أدقق النظر مرّة ثانية وثالثة، وأشعر شعور إحدى شخصيّات أفلام الرسوم المتحرّكة الذي واصل المشي فوق حافة الجرف دون أنّ يدرك ورطته. أومئ برأسي، ويسود الصمت، فأدرك مأزقي، ثمّ تنطلق ضحكة طويلة عندما أضرب (كريس) على رأسه. وعندما تخبو الضحكة، أقول: «حسناً، على أيه حال ...». وينطلق الضحك مرّة أخرى.

ما أردت قوله: هو أنّه «الديّ مجموعة من التعليمات في البيت تفتح حقولاً جديدة في تحسين كتابة التقنيّة، وتبدأ بالتالي «تجميع الدرّاجة الهوائيّة اليابانيّة يتطلّب تركيزاً».

تثير جملتي مزيداً من الضحك، لكن تنطبع على وجه (سيلفيا) و(جني) والنحّات نظرة حادّة تفيد التقدير.

يقول النحّات: «هذه تعليمات جيّدة». وتهزّ (جيني) رأسها موافقة.

أردُّ: «لهذا السبب احتفظت بها. في بداية الأمر ضحكت على ذكريات الدرّاجات الهوائيّة التي جمعت أجزائها، وبالطبع على النقد غير المبرّر للصناعة اليابانيّة. لكن العبارة كانت تنطوي على حكمة كبيرة».

ينظر إليّ (جون) بوجل. وأنظر إليه بالطريقة نفسها، فنضحك. ويقول: «سيشرح لنا البروفسور، الآن».

أقول: «صفاء الذهن ليس أمراً سطحيّاً، على الإطلاق، وإنّما هو الأمر برمّته. وما يقود إليه هو الصيانة الجيّدة، وتفسده الصيانة الرديئة. وقدرة الآلّة على العمل على خير ما يرام إنّما هو مثال حيّ على صفاء الذهن، والاختبار الحقيقي له. فإنّ لم تكن صافي الذهن عندما تبدأ، وتحافظ على الوتيرة نفسها أثناء عملك، فإنّك ستنقل مشاكلك إلى الدرّاجة نفسها».

ينظر الجميع إليّ، وهم يفكّرون في ما قلته.

أقول: «إنّه مفهوم غير تقليدي، يؤكّده منطق تقليدي، فمادّة الملاحظة نفسها، كالدرّاجة الناريّة أو الشّوّاية، لا يمكن أنّ تكون صحيحة أو خاطئة. فالجزيّئات هي الجزئّيات، وليس لها قوانين أخلاقيّة لتتبعها باستثناء القوانين التي سنّها الناس. واختبار الآلّة يكمن في الشعور في الرضا الذي تمدّك به. وليس هناك من اختبار آخر. فإن زوّدتك الآلّة بالطمأنينة، فهذا هو الوضع الصحيح، لكن إن أزعجتك الآلّة، فالوضع خاطئ حتّى تتغيّر الآلّة أو يتغيّر ذهنك، فاختبار الآلّة متعلّق بعقلك دوماً، وليس هناك من اختبار آخر».

يسأل (ديويز): «لكن ماذا يحدث إن كانت الآلّة خاطئة، وأشعر بصفاء

الذهن حيالها؟»

يضحك الجميع.

أجيب: «هذا تناقض شخصي، فلو كنت لا تبالي حقاً، فلن **تعرف** أنّ هناك خطأً ما، ولن تخطر على بالك الفكرة. ويعدّ تطبيق الفكرة بشكل خاطئ أحد أشكال الاهتمام».

أضيف: «والحالة الأكثر شيوعاً الشعور بالقلق عندما لا يكون هناك داعٍ لذلك. وأعتقد هذا هو الوضع في هذه الحالة. وعندما تقلق، يصبح الوضع غير صحيح. وهذا يعني أنَّه لم يتمّ فحص الدرّاجة بعناية كافية. والآلّة التي لا يتمّ تفقّدها بشكل صحيح في أيّ موقف صناعي، هي آلة معطوبة، ولن يتمّ استخدامها حتّى لو عملت بشكل ممتاز. وقلقك على الشّوّاية هو الأمر بعينه. فإنّك لم تحقّق الغاية المثلى للوصول إلى صفاء الذهن، لأنّك تشعر أنّ هذه التعليمات معقّدة جدّاً ولأنّك لم تفهمها جيّداً».

يسأل (ديويز): «كيف لي أنّ أغيّر التعليمات لأصل إلى صفاء الذهن؟»

- «قد يتطلّب الأمر دراسة أكثر من تلك التي أجريتها قبل قليل، فالأمر عميق جدّاً، وتعليمات الشّوّاية تبدأ وتنتهي بشكل حصري بالآلّة نفسها. لكن المنهج الذي أفكّر فيه لم يحسم الأمر تماماً. وما يزعج في هذه التعليمات هو الافتراض أنّ هناك طريقة واحدة لتجميع الشّوّاية، وهي طريقتهم. وهذا الافتراض يلغي الإبداع برمّته. وفي الحقيقة هناك مئات الطرق لتجميع الشّوّاية، وعندما يجعلونك تتبع طريقة واحدة، دون أنّ يعرضوا لك المشكلة بأكملها، فإنّ التعليمات تصبح صعبة أمامك بطريقة لا ترتكب معها أخطاء. وعندها تفقد رغبتك بالعمل، وعلى الأرجح أنّهم لم يخبروك

بأفضل طريقة ممكنة.

يقول (جون): «لكنّها من المصنع».

أجيب: «وأنا من المصنع أيضاً، وأنا أعلم نوعيّة وضع تعليمات كهذه. وفي العادة، حين تتوجّه إلى خطّ التجميع حاملاً مسجلاً، سيرسلك رئيس العمّال إلى الشخص الذي قلّما يريده، إلى أكثر الأشخاصّ حماقة، وما يخبرك به هذا الشخص هو التعليمات. وقد يخبرك الشخص المجاور له في خطّ الإنتاج شيئاً مختلفاً، وربّما أفضل، لكنّه مشغول جدّاً».

يبدو الجميع مندهشين لما قلت.

يقول (ديويز): «كان يجب أنّ أعرف»

أقول: «إنّه التصميم، ولن يستطيع أيّ كاتب أنّ يرفضه. تفترض التكنولوجيا وجود طريقة واحدة لعمل بالأشياء، وفي الحقيقة ليس هناك من طريقة. وعندما تفترض وجود طريقة واحدة لعمل الأشياء، فإنّ التعليمات بالطبع ستبدأ وتنتهي بالشّوّاية فقط. لكن لو تسنّى لك أنّ تختار بين عدد لا محدودٍ من الطرق لتجميع الأشياء فإنّ علاقة الآلّة بك وعلاقتك أنت والآلّة ببقيّة العلم يجب أخذها بعين الاعتبار، لأنَّ الاختيار من عدَّة خيارات، وهو فنّ العمل، يعتمد على عقلك وروحك كما يعتمد على مادّة الدرّاجة نفسها، ولهذا أنت بحاجة إلى صفاء الذهن».

أواصل القول: «في الحقيقة ليست هذه الفكرة غريبة. انظر إلى عامل جديد، أو عامل سيّء، وماثل عبارتيهما بعبارة حرفي يجيد عمله، وستلاحظ الفرق بنفسك. فالحرفي لا يتبع التعليمات حرفيّاً، ويتّخذ قراراته أثناء عمله، ولهذا تجده منهمكاً ومنكّباً على ما يفعله حتّى لو لم يصممه هو، وتعمل

حركاته والآلة على وتيرة واحدة وبانسجام. ولا يتبع أيّ مجموعة من التعليمات المكتوبة، لأنَّ طبيعة المادّة في ذلك الموقف تحدّد أفكاره وحركاته التي بدورها تغيّر طبيعة المادّة الموجودة. وتتغيّر المادّة وأفكاره في تسلسل متغيّر حتّى يرسو عقله على الوضع الصحيح للمادّة».

يقول مدرّس الفنّ: «يبدو الأمر كالفنّ».

أقول «في الحقيقة إنّه فنّ. فابتعاد الفنّ عن التكنولوجيا أمرٌ غير طبيعي، وقد استمّر لمدّة طويلة جدّاً، وقد يتطلّب الأمر عالم آثار لاكتشاف النقطة التي تفرّق عندها الاثنان. وتجميع أجزاء الشّوّاية هو في الحقيقة فرع مفقود من فروع النحت، وانفصل عن جذوره عبر قرون من الانعطافات الذهنيّة الخاطئة التي جعلت من الربط بين الفرعين ضرباً من السخف».

لم يكونوا متأكّدين في ما إذا كنت أمزح أم جادّاً.

يسأل (ديويز): «هل قصدت أنّني لمّا كنت أجمع أجزاء الشّوّاية، كنت في الحقيقة أنحت؟»

- «بالتأكيد».

يقلّب الأمر في عقله، ويبتسم أكثر وأكثر، ويقول: «أتمنّى لو أنّني كنت أعرف ذلك». ويتبع كلامه المزيد من الضحك.

فيردُّ (كريس) بأنّه لم يفهم ما كنت أقول.

يقول (جاك بارسينز): «لا بأس يا (كريس)، فنحن لم نفهم أيضاً». فيرتفع الضحك.

يقول النحّات: «أعتقد أنّني سألازم النحت بمعناه الاعتيادي».

يقول (ديويز): «أعتقد أنّني سألازم الرسم».

يقول (جون): «أعتقد أنّني سألازم العزف على الطبول».

ويسأل (كريس): «وأنت، ماذا ستلازم؟»

أجيب: «سألازم البنادق، نعم البنادق، فهي شفرة الغرب».

يضحك الجميع كثيراً على هذا، ويصرفون النظر عن كلامي. فعندما يخامر عقلك موضوع ما، من الصعب عليك ألاّ تنقله إلى الناس الأبرياء.

تتفرّع المحاورة إلى مجموعات صغيرة، وأقضي بقيّة السهرة أتحدّث مع (جاك) و(ويلا) عن التطوّرات في قسم اللغة الإنجليزيّة.

يسترجع (ديويز) بعد أنّ انفضّ الجميع وذهب (كريس) و(جون) و(سيلفيا) للنوم، محاضرتي، فيقول: «إنّ ما قلته عن تعليمات الشّوّاية جميل جدّاً».

تقول (جيني) بجديّة: « بدت كما لو كنت تفكّر فيها طويلاً».

أقول: «لقد كنت أفكّر في المفاهيم التي تمدّها ما يزيد على عشرين عاماً».

تتطاير من المدخنة إلى جانب الكرسي الموضوع أمامي بعض الشرارات، بسبب الريح التي بدت أقوى من قبل.

أضيف كما لو كنت أتحدّث مع نفسي: «قد تنظر إلى مسارك المستقبلي، ووضعك الآن، فتصاب بالذهول، لكن إن نظرت إلى الخلف مرّة أخرى إلى حيثما كنت، ستكتشف نمطاً محدّداً. ولو تسنّى لك أنّ تمتدّ إلى المستقبل من ذلك النمط، لاستطعت الخروج بشيء. فالحديث عن التكنولوجيا والفنّ جزءٌ من نمطٍ يبدو أنّه جزءٌ برز من حياتي، فهو يمثّل الارتقاء عن شيء أفكّر فيه كثيراً، ويحاول الآخرون الارتقاء عليه».

- «وما هو؟»

- «في الحقيقة، ليس الأمر فنٌّ وتكنولوجيا، وإنّما تباعد بين العقل والشعور، وما يعيب التكنولوجيا هو ابتعادها عن قضايا الروحانيّة والقلب. ولهذا تتعامى عن بعض الأشياء البشعة والمتهورة، وليس لها جزاء على هذا سوى الكراهية. لم يتنبه الناس لهذا من قبل، لأنَّ اهتمامهم الأكبر كان تأمين الجمع بالطعام واللباس والملجأ وقد أمدّتهم التكنولوجيا بهذه المتطلّبات».

«لكن وبعد أنّ تحقّقت هذه الأشياء، أصبحت البشاعة أكثر وضوحاً، وتزايد عدد الناس الذين تساءلوا إن كان مكتوباً علينا أنّ نعاني روحانيّاً، وجماليّاً في سعينا لتحقيق هذه الحاجيّات الماديّة، وأصبحت القضيّة لاحقّاً أزمة وطنيّة - كالحملات ضدّ التلوث، والجماعات وأنماط الحياة المعاديّة للتكنولوجيا. وغيرها كثير.

يفهم (ديويز) و(جيني) كلّ ما قلته لذا لم يكن هناك أيّ تعليق.

أضيف: «وما برز عن نمط حياتي هو الاعتقاد بأنَّ الأزمة ناجمة عن عدم قدرة أشكال الفكر الحاليّة على التأقلم مع الموقف. ولا يمكن حلّ الأزمة بطرق عقلانيّة لأنَّ العقلانيّة نفسها هي مصدر المشكلة. ووحدهم من يحلّون الأزمة، إنّما على مستوى شخصي عن طريق هجر العقلانيّة المريعة كليّاً والميل نحو المشاعر وحدها. وهذا هو وضع (جون) و(سيلفيا)، والملايين غيرهم. وهذا كما يبدو اتّجاه خاطئ أيضاً. وأعتقد أنّ ما أحاول قوله هو حلُّ المشكلة لا يكمن في هجر العقلانيّة، وإنّما بتوسيع طبيعة العقلانيّة لتستطيع الإتيان بحل».

تقول (جيني): «أعتقد أنّني لا أفهمك هنا».

- «في الحقيقة، إنّها عمليّة تحسين ذاتي مشابهة لنوع المعضلة التي وجد (إسحق نيوتن) فيها نفسه لمّا أراد حلَّ مشاكل ذات نسب تغيّر فوريّة. وكان من غير المناسب في وقته أنّ يتحدّث شخص ما عن أيّ شيء يتغيّر خلال مدّة زمنيّة تقارب الصفر. لكن من الضروري جدّاً أنّ نعمل رياضيّاً مع كميّات صفريّة أخرى، كنقاط في مكان وزمانٍ لم يعتقد أحد أنّها غير معقولة على الإطلاق مع أنَّه ليس هناك فرق حقيقي بين الاثنين. لهذا فما قاله (نيوتن) هو «الافترض بوجود شيء ذي تغييرٍ فوري، وسنحاول إيجاد طرق لتحديد ماهية هذا الشيء عبر عدَّة تطبيقات». ونتج عن هذا الافتراض فرعٌ من فروع الرياضيّات يسمّى التفاضل والتكامل، وهي ما يستخدمه كلّ مهنّدس حاليّاً. اخترع (نيوتن) شكلاً جديداً من المنطق. فلقد وسّع المنطق ليتناول تغيرات متناهية في الصغر. وأعتقد أنّ ما نحتاجه اليوم هو توسّع مشابه في المنطق ليتناول بشاعة التكنولوجيا، وتكمن المشكلة في أنّ التوّسع يجب أنّ يتمّ في الجذور وليس في الفروع، وهذا ما يجعلها صعبة الملاحظة».

- «نحن نعيش في وقت انقلبت فيه الأمور رأساً على عقب، والسبب وراء هذه الحالة هو عدم قدرة أشكال الفكر القديمة على التعامل مع التجارب الجديدة. لقد سمعت مرَّة أنّ التعلّم الحقيقي الوحيد هو الصادر عن المعضلات، التي تجبرك بدلاً من توسيع فروع المعرفة التي تعلمها، على الانجراف أفقياً لمدّة حتّى تجد شيئاً قد يجبرك على توسيع جذور ما تعرفه. وكلّ شخص على معرفة بهذا. أعتقد أنّ الأمر نفسه

قد حدث في جميع الثقافات عندما يكون التوّسع مطلوباً في الجذور».

- «حين تعيد النظر في آخر ثلاثة آلاف سنة، وتعتقد بإدراك متأخّر أنّك ترى أنماطاً وسلاسلَ أنيقة من السبب والنتيجة التي قادت لحدوث الأشياء التي تعلمها. لكن إن عدت إلى المصادر الأصليّة، في أدبيات كلّ مرحلة زمنيّة، فستكتشف أنّ هذه الأسباب لم تكن ظاهرة في وقتها. وتبدو الأشياء خلال مراحل التوّسع الجذري محيّرة، ومقلوبة رأساً على عقب، وعديمة الهدف كما هي الآن. ويفترض أنّ عصر النهضة قد نتج عن الشعور الفوضوي الذي سبّبه اكتشاف (كولمبوس) لعالم جديد. فقد صدم الناس، وتمّ توثيق حالة الاضطراب التي كانت سائدة حينها. ولم يكن هناك من توقّع أو وجدَ دليلاً سواء في العهد القديم أو الجديد على حدوث هذا الاكتشاف. بيد أنّ الناس لم ينكروه. وكانت الطريقة الوحيدة المتوفّرة لهم لينخرطوا فيها تتمثّل في هجر النظرة القروسطيّة بأكملها والدخول في توسّع جديد للعقل.

- «وأصبح (كولمبوس) صورة نمطيّة في الكتب المدرسيّة، حتّى أصبح من المستحيل أنّ تتخيّله إنساناً. لكن لو حاولت أنّ تمسك عليك معرفتك بعواقب رحلة (كولمبوس)، وأنَّ تضع نفسك مكانه، لاكتشفت أنّ الرحلات الاستكشافيّة للقمر إنّما هي حفلة شاي بالمماثلة بما مرّ به. فاستكشافات القمر لم تتضمّن أيّ توسّع جذري حقيقي للفكر. وليس لدينا سبب للشكّ بأنَّ أشكال الفكر الموجودة حاليّاً قادرة على التعامل مع هذا الأمر. وإنّما هي فرع توسّعي لما فعله (كولمبوس).

فأيّ اكتشاف جديد حقّاً، قد يبدو لنا كما بدا العالم لـ(كولمبوس)، عليه أنّ يكون في اتّجاهٍ جديدٍ بالكامل».

- «مثل ماذا؟»

- «مثل حقول ما وراء المنطق. أعتقد أنّ منطق هذه الأيّام مشابه لفكرة الأرض المنبسطة في القرون الوسطى، وإن ابتعدت عنها كثيراً، فمن المفترض أنّها ستفضي إلى الجنون، والناس خائفون من حدوث هذا. أعتقد أنّ هذا الخوف من الجنون مشابه لخوف الناس من السقوط عن الأرض المنبسطة، أو خوفهم من الهرطقة، وهناك شبه كبير هنا».

- «لكن ما يحدث هو أنّه في كلّ عام يصبح منطقنا التقليدي غير قادر على التعامل مع تجارب مررنا بها. وهذا يقود إلى شعور عام بالاضطراب. ونتيجة لهذا، تزايد عدد الناس المتّجهين نحو حقول فكريّة غير عقلانيّة كالسحر والتنجيم والتصوّف والتغيّرات المرتبطة بالمخدّرات، لأنّهم يشعرون بعدم قدرة الفكر الكلاسيكي على التعامل مع ما يعتبرونه تجارب حقيقيّة.

- «لست متأكّداً ممّا تعني بالمنطق الكلاسيكي».

- «المنطق التحليلي، المنطق الجدلي. المنطق الذي يعدّ الفهم الكلّي في الجامعات. وما عليك أنّ تفهمه مطلقاً. ويعدّ هذا المنطق مفلساً عند الحديث عن الفنّ المجرّد. والفنّ غير الممثّل واحد من التجارب الجذريّة التي أتحدّث عنها. فبعض الناس يلعنونه لأنّ لا معنى له عندهم، ولا يكمن الخطأ في الفنّ وإنّما في المعنى الذي لا يستطيع

التعبير عنه. ويواصل الناس البحث عن توسّعات في فروع المنطق قادرة على تفسير أحداث الفنّ الأخيرة، لكن لا تكمن الإجابات في الفروع وإنّما في الجذور».

تهبُّ ريح قويّة الآن من الجبل.

أقول: «عرف الإغريق القدماء، مخترعو الفكر الكلاسيكي، ما هو أكثر من استخدام الفكر لتوقّع المستقبل، فقد استمعوا للريح وتنبّأوا بالمستقبل منها. قد يبدو الأمر ضرباً من الجنون، لكن لماذا يبدو مخترعو الفكر غير عقلاء؟»

يجيب (ديويز) مندهشاً: «لكن كيف تمكّنوا من التنبّؤ بالمستقبل عن طريق الريح؟»

- «لا أعلم، ربّما بالطريقة نفسها التي يستطيع الرسّام فيها أنّ يتنبّأ بمستقبل لوحته عن طريق النظر على قماش اللوحة. إن نظامنا المعرفي بأكمله مستمدّ من نتائجهم، لكن علينا أنّ نفهم الطرق التي قادت إلى هذه النتائج».

أفكّر قليلاً ثمّ أتابع: «هل تحدّثت كثيراً عن كنيسة الفكر لمّا كنت هنا آخر مرة؟»

- «نعم، تحدّثت كثيراً عنها».
- «وهل تحدّثت يوماً عن فردٍ يسمّى (فيدروس)؟»
- «لا».
- «سألت (جيني): «من هو؟»
- «كان يونانياً قديماً؛ أحد البلغاء... متخصّصاً في إنشاء عصره. كان أحد

الموجودين لمّا اخترع المنطق».

- «لكنّك لم تتحدّث عنه مطلقاً على ما أذكر».

- «لا بدّ أنَّه جاء لاحقاً. كان بلغاء الإغريق القدامى أوّل المعلّمين في تاريخ العالم الغربي. وذمّهم (أفلاطون) في جميع أعماله، ليعطي بريقاً لعمله، لأنَّ كلّ ما نعلّمه عنهم جاء عن طريقه، فبقي هؤلاء ملعونين دون أنّ تتسنّى لهم الفرصة ليخبرونا بقصتّهم. وكنيسة المنطق التي تحدّثت عنها قامت على قبورهم، وبقيت قائمة بفضل قبورهم. وعندما تحفر عميقاً في قواعدها، ستجد أشباحاً.

أنظر إلى ساعتي فأكتشف أنها تجاوزت الثانيّة فجراً فأقول: «إنّها قصّة طويلة».

تقول (جيني): «عليك أنّ تكتب كلّ هذا».

أهزّ رأسي موافقاً: «أفكّر بكتابة سلسلة مقالات على شكل محاضرات- كتشوتوكوا. وأنا أحاول أنّ أصوغها في ذهني طوال طريقنا... قد يكون هذا هو السبب وراء كوني مستعداً لهذا. إنّها ضخمة وصعبة. كمحاولتك السفر عبر هذه الجبال عاري القدمين. تكمن المشكلة في أنَّه على هذه المقالات أنّ تبدو صحيحة على الدوام، وهذا ليس حالها على الدوام. وعلى الناس أنّ يعلموا أنّ الأمر لا يتطلّب سوى شخصٍ واحدٍ يتحدّث من مكان محدّد وفي وقت ومكان وظرف. وهي ليست سوى ذلك. لكنّك لا تستطيع أنّ تعبّر عن ذلك في مقالة».

تقول (جيني): «ينبغي عليك القيام بها، مهما كانت الظروف دون أنّ يكون مبتغاك الكمال».

أقول: «هذا ما عليَّ فعله».

ويسأل (ديويز): «وهل لهذا علاقة بما كنت تعينه عن النوعيّة؟»

- «إنّها نتيجة مباشرة له».

أتذكّر شيئاً، فأقول لـ(ديويز): «ألم تنصحني أنّ أترك الموضوع؟»

- «قلت إنّ أحداً لم ينجح مطلقاً بعمل بما تفكّر فيه».

- «وهل تعتقد أنّ هذا ممكن؟»

- «لا أعلم. من يعلم؟» ودلّ تعبيره على اهتمام كبير. وقال: «كثير من الناس يحسنون الاستماع هذه الأيّام، والأطفال خاصّة، هم يستمعون حقّاً.... وليس مجرّد - إليك- إليك أنت. هذا فرق كبير».

تخفق الرياح القادمة من الحقول الثلجيّة في أعالي الجبال في أرجاء المنزل، وتعلو وتشتدّ كما لو كانت تحاول اقتلاع المنزل برمّته بما فيه وتقذفه إلى اليباب، تاركة الوادي كما كان مرّة. لكن البيت يثبت، وتخفت شدّة الريح مرَّة أخرى، فتتراجع مهزومة. ثمّ تعود مرَّة أخرى، متظاهرة بضربة حقيقيّة من الجانب البعيد، ثمّ تضرب بقوّة من جانبنا.

أقول: «استمع إلى الرياح على الدوام». وأضيف: «أعتقد أنّني و(كريس) سنتسلّق بعد مغادرة (جون) و(سيلفيا) الجبل إلى حيث تهبّ الريح. أعتقد أنّ الوقت قد حان له ليطلّع جيّداً على تلك الأراضي».

يقول (ديويز): «تستطيع أنّ تبدأ من هنا، وتتجّه إلى أعلى الجبل، فليس هناك طريق على طول خمسة وسبعين ميلاً».

أقول: «إذاً سنبدأ هناك».

حين أصعد إلى الأعلى أشعر بالسعادة لرؤية اللحاف الثقيل. فقد

15



أقضي أنا و(كريس) و(سيلفيا) و(جون) اليومين التاليين في التسكّع، والحديث والقيادة إلى مدينة مناجم قديمة والعودة منها، ثمّ يحين موعد مغادرة (جون) و(سيلفيا)، فنقود درّاجاتنا نحن جميعاً لآخر مرَّة نحو (بوزمان).

تلتفت (سيلفيا) للمرّة الثالثة إلى الخلف لتطمئن علينا. كانت هادئة جدّاً في آخر يومين، وكانت نظراتها أمس قلقة، لكن فزعة. كانت قلقة كثيراً عليّ وعلى (كريس).

وفي البار في (بوزمان) نتناول البيرة لآخر مرَّة معاً، ونناقش طريق العودة مع (جون). ثمّ نقول أشياء سطحيّة عن جمال رحلتنا، وكيف سنرى بعضنا مرَّة أخرى قريباً. ومن المحزن جدّاً أنّ نتحدّث حديثاً كهذا - كمن يعرفون بعضهم لمدّة وجيزة.

تلتفت (سيلفيا) نحونا مرَّة أخرى في الشارع وتتوقّف، ثمّ تقول:

«ستكون أموركما على أكمل وجه، فليس هناك ما يدعو إلى القلق».

أقول: «بالطبع».

ثمّ أرى على وجهها النظرة الفزعة مرَّة أخرى. يشّغل (جون) الدرّاجة وينتظرها، فأقول: «أنا أصدّقك».

تلتفت، وتركب الدرّاجة، وتراقب مع (جون) حركة المرور القادمة ليتمكّنا من دخول الشارع. فأقول: «أراكما قريباً».

تنظر إلينا مرَّة أخرى، نظرة تخلو من التعبير، ويجد (جون) الفرصة المناسبة لدخول الطريق، ثمّ تلّوح لنا (سيلفيا)، كما لو كانت في فيلم، فنلوح لها. وتختفي درّاجتهما بين المركبات التي بقيت أراقبها لمدّة طويلة.

أنظر إلى (كريس) وينظر إليّ. ولم يقل شيئاً.

نقضي الصباح جالسين في مقعد منتزه مكتوب عليه **كبار السن فقط**، ثمّ نشتري طعاماً، ونغيّر إحدى عجلات الدرّاجة، ونستبدل حلقة منظّم السلسلة في محطّة وقود، وكان يجب توليف الحلقة لتصبح مناسبة، ولهذا ننتظر ونتمشّى بعيداً عن الشارع الرئيس، ونصل كنيسة ونجلس على المرج أمامها. يستلقي (كريس) على العشب ويغطّي عينه بسترته.

أسأله: «هل أنت متعب؟»

- «لا».

تجعل الحرارة بين هذا المكان وحافّة الجبل إلى الشمال الهواء منعشاً. وتتعلَّق حشرة شفافّة الجناح على سويقة العشب بالقرب من قدم (كريس). أراقبها تثني جناحيها، وأنا أشعر بالنعاس يمتدّ إلى عيوني. أستلقي لأنام بدون جدوى. وبدلاً من ذلك أصابني شعور مزعج. فأنهض وأقول

لـ(كريس): «دعنا نمشي قليلاً».

- «إلى أين؟»

- «نحو المدرسة».

- «حسناً».

نمشي تحت الأشجار، ذات الظلال على أرصفة أنيقة عبر بيوت أنيقة أيضاً. وتمدّني الطريق المشجرة بمفاجآت إدراكيّة صغيرة. استرجاع ثقيل. لقد مشى عبر هذه الشوارع عدَّة مرات، وحاضر هنا. ولقد أعدّ محاضرته. متبّعاً الطريقة المشائيّة متّخذاً من هذه الشوارع أكاديميّة له. والمواضيع التي تمَّ التعاقد معه ليدرّسها كانت البلاغة والكتابة، وكان يفترض أنّ يلقي محاضرات متقدّمة في الكتابة التقنيّة، وبعض شعب طلّاب السنة الأولى في اللغة الإنجليزيّة.

أسأل (كريس): «هل تتذّكر هذا الشارع؟»

ينظر حوله ويقول: «كنّا نقود سيّارتنا بحثاً عنك».

- ثمّ يشير إلى الجهة الأخرى من الشارع ويقول: «أتذكّر ذلك المنزل ذا السقف المضحك... ومن يراك أوّلاً سينال نكلاً، ومن ثمّ نتوقّف وندخلك في السيّارة من الخلف، وتبقى صامتاً دون أنّ تتحدّث معناً».

- «لا بد أنّني كنت أفكّر بشدّة».

- «هذا ما قالته أمّي».

كان يفكّر بجدٍّ، ويكفيه سوءاً عبء التدريس المرهق، لكن ما كان أكثر سوءاً هو اكتشافه - عبر طريقته التحليليّة المحدّدة - أنّ الموضوع الذي كان

يدرّسه كان بلا أدنى شكٍ أكثر موضوع غير دقيق وغير تحليلي، وغير متبلور في كنيسة المنطق بكاملها. ولهذا كان يفكّر بجدٍ كبير. وتعدّ البلاغة لعقل منهجي مدرّب في المختبر عديمة النفع على الإطلاق. وهي كبحر سرقوسة الضخم من المنطق الآسن.

والمطلوب منك كمدرس الدروس الابتدائيّة في البلاغة أنّ تقرأ مقالة قصيرة، أو قصّة قصيرة، وأنَّ توضح كيف تمكّن الكاتب من تحقيق تأثيرات صغيرة عبر شرح أشياء صغيرة، ومن ثمّ تطلب من الطلّاب أنّ يكتبوا مقالة مقتضبة أو قصّة قصيرة مشابهتين لما قرأوا، لترى إن كان باستطاعتهم فعل أشياء صغيرة. لقد جرّب هذا مرَّة تلو الأخرى لكن لم يحصل على ما يريد. فنادراً ما حقّق الطلّاب شيئاً، ولم تقترب أعمالهم من محاكاة النماذج التي قدّمها لهم. وأصبحت كتاباتهم في معظم الأحيان أسوأ. وبدا الأمر كما لو أنّ كلّ قاعدة حاول أنّ يستكشفها ويتعلّمها معهم بإخلاص مليئة بالاستثناءات والتناقضات والمؤهّلات والتضاربات التي دفعته ليتمنّى لو أنَّه لم يعرف القاعدة في الأصل.

ولمّا كان أحد الطلبة يسأل عن نوعيّة تطبيق القاعدة في ظرف خاصّ محدّد، كان لدى (فيدروس) خياران، فإمّا أنّ يخدعهم بأنَّ يبتكر تفسيراً ليس له وجود، أو أنّ يتبع الطريق الغيريّة، ويقول ما يفكّر فيه بحقّ، وهو أنّ القاعدة قد ألصقت بالكتابة بعد أنّ انتهت الكتابة. فكانت لاحقة للحقيقة بدلاً من أنّ تكون سابقة لها. وأصبح مقتنعاً أنّ كلّ الكتّاب الذين يفترض بالطلّاب محاكاتهم قد كتبوا دون قواعد، مدوّنين ما بدا لهم صحيحاً ثمّ عادوا إليه ليروا ما كان صحيحاً ليبقوه أو سيّئاً فغيّروه. وهناك بعض الكتّاب

الذين كتبوا بتأمّل دقيق. وهذا ما ظهر على عملهم. وبدت هذه الطريقة له سيّئة لرؤية الأشياء. ولها مذاق خاص، كما تقول (غرترود شتاين)، لكنّه لا يسكب. لكن كيف لك أنّ تدرّس شيئاً عفوياً؟ بدا الأمر مستحيلاً. ولهذا اختار نصّاً، وعلّق عليه بشكل عفوي، وأمل أنّ يفهموا شيئاً منه. لكن لم يكن الأمر مقنعاً.

ها هي أمامنا، يصيبني التوتّر، الشعور نفسه المرتبط بالمعدة أثناء مشينا نحوها.

- «هل تذكّر هذه البناية؟»
- «كنت تدرّس هنا.... لكن لِمَ نحن ذاهبون إليها؟»
- « لا أعلم، أردت أنّ أراها فقط».

لم يكن هناك كثير من الناس، ولن يكون هناك كثير! فقد بدأ الفصل الصيفي. سقوف مثلّثة ضخمة وغريبة فوق طوب بني غامق اللون. بناية جميلة حقّاً، وهي الوحيدة التي تبدو أنّها تنتمي إلى المنطقة. ويقود إليها درج من حجار قديمة، كان قد تقعّر من أثر ملايين الأقدام.

- «لماذا سندخل؟»
- «صه! لا تتلفظ بكلمة الآن».

أفتح الباب الثقيل الضخم وأدخل. في الداخل مزيد من الأدراج الخشبيّة المهترئة، تصرّ تحت وقع الأقدام، وتصدر رائحة مائة عام من المسح والتشميع. وفي منتصف الطريق إلى الأعلى أتوقّف وأنصت. لم أسمع صوتاً على الإطلاق.

يهمس (كريس): «لماذا نحن هنا؟»

أهزّ رأسي فقط، وأسمع صوت سيّارة في الخارج.

يهمس (كريس): «لا أحبّ المكان هنا، هو مخيف في الداخل!»

- «اذهب إلى الخارج إذاً».

- «اخرج معي أنت».

- «سآتي لاحقاً».

- «لا، الآن»، ينظر إليّ ويرى في عينيّ أنّي باقٍ. نظراته مليئة بالرعب حتّى أنّني كنت على وشك أنّ أغيّر رأيي، لكن ملامحه تتغيّر فجأة، فيستدير ويركض أسفل الدرج خارج الباب قبل أنّ أتبّعه.

ينطبق الباب الكبير الثقيل، فأبقى وحدي الآن هنا. أسمع صوتاً.. لمن؟ ..... له؟ ... أنصت لمدّة طويلة.

تطلق ألواح السقف الخشبيّة صريراً غريباً أثناء مشيي عبر الممر، ترافقها فكرة غريبة أنَّه هو. في هذا المكان، هو الحقيقة وأنا الشبح. أرى على مقبض أحد أبواب الصفوف يده تستريح لوهلة، ومن ثمّ تدير ببطء المقبض وتفتح الباب.

تنتظر الغرفة في الداخل، كما أذكرها تماماً كما لو كان هنا الآن. هو هنا الآن. يعي كلّ ما أراه، وكلّ شيء يقفز إلى ذهني ينتفض في ذاكرته.

كانت الألواح الطويلة ذات اللون الأخضر الداكن المثبتة على جانبي الغرفة متقشّرة وبحاجة لتصليح، كما كانت دوماً، والطباشير، ولم تكن سوى أعقاب في حوضٍ، ما تزال موجودة هنا. وخلف اللوح، كانت النوافذ، ومن خلالها كانت الجبال التي كان يراقبها بتأمّل ينشغل الطلّاب

بالكتابة. كان يجلس بجانب المدفأة حاملاً عقب طبشورة بيده، وينظر عبر النافذة إلى الجبال لمدّة طويلة قد يقاطعه خلالها أحد الطلّاب ليسأل عمّا يجب أنّ يفعلوه، فيجيب عن السؤال دون أنّ ينظر في الطالب، ويعاود الرجوع إلى حالة الوحدانية التي لم يعرفها من قبل. كان هذا المكان الذي تلقى فيه باعتباره ذاته. لا لما يستطيع أنّ يفعله أو ينبغي أنّ يكون، بل هو لذاته فقط. كان مكاناً تفاعليّاً، فهو يستمع جيّداً. وقد منحه كلّ ما في جعبته. ولم تكن هذه غرفة واحدة، وإنّما ألف غرفة، تتغيّر كلّ يوم مع العواصف، والثلوج، وأشكال الغيوم على الجبال، مع كلّ صفّ، ومع كلّ طالب. لم تكن أيّ ساعتين فيها متشابهتين، فالساعة التالية كانت لغزاً له على الدوام.

أفقد إحساسي بالوقت حين أسمع صوت الأقدام في القاعة. ترتفع الأصوات أعلى، ثمّ تتوقّف عند مدخل غرفة الصف، يستدير مقبض الباب، وينفتح الباب وتنظر امرأة إلى الداخل.

لها وجه عدواني، كما لو أنّها تحاول القبض على شخص هنا. كانت في العشرينيّات ولم تكن جميلة جدّاً، تقول: «اعتقدت أنّي رأيت شخصاً، اعتقدت..». تبدو محتارة.

تدخل الغرفة وتمشي نحوي، وتنظر إليّ عن قرب، فتختفي النظرة العدوانيّة التي تتحوّل ببطء إلى دهشة. تندهش تماماً.

تقول: «يا إلهي، أأنت هو؟»

لم أعرفها على الإطلاق. لا أعرف أيّ شيءٍ عنها.

نادت اسمي فهززت رأسي، نعم أنا هو.

- «لقد عدت».

أهزّ رأسي وأقول: «لعدّة دقائق فقط».

تواصل النظر حتّى يبدو الأمر محرجاً، وتدرك هذا بنفسها فتسألني: «هل لي بالجلوس للحظة؟» تدلّ الطريقة الخجولة التي سألت فيها على أنّها كانت إحدى طالباته.

تجلس في أحد مقاعد الصف الأمامي، ويدها التي تخلو من خاتم زواج ترتعش. أنا حقّاً شبح.

تحس بالإحراج الآن فتسأل: «كم ستبقى؟»... لا، لقد سألتك هذا السؤال».

أقول: «سأقيم مع (بوب ديويز) لبضعة أيّام، من ثمّ سأذهب إلى الغرب. وقررّت أنّ أزور الكليّة لأنَّ لديّ بعض الوقت لأقضيه في المدينة».

تقول: «حسناً، أنا سعيدة أنّك قررّت هذا.... لقد تغيّرت.... لقد تغيّرنا جميعاً... كثيراً منذ غادرت.....». تستولي لحظة صمت محرجة.

- «سمعنا أنّك كنت في المستشفى...».

- «نعم».

يزيد الصمت المحرج. ويعني عدم متابعتها للموضوع أنّها تعلم السبب. تتردّد كثيراً، وتبحث عن شيء لتقوله. ممّا يجعل الأمر أكبر من أنّ يطاق.

وأخيراً تسأل: «أين تدرّس؟»

أجيبُ: «لا أدرس الآن، لقد توقفت عن التدريس».

تنظر بشكٍ وتقول: « توقّفت؟» تقطّب وتحدّق بي مرّة أخرى كما لو أنّها تريد أنّ تتأكدّ إن كانت تتحدّث مع الشخص الصحيح. تقول: «لا تستطيع أنّ تفعل ذلك».

«بل تستطيع».

تهزّ رأسها في حالة من النكران، وتقول: «ليس أنت».

- «بل أستطيع».

- «لماذا؟»

- «انتهى كلّ شيء بالنسبة إليَّ، أفعل أشياء أخرى الآن».

أبقى أتساءل من هي، وتظلّ تعابيرها تشير إلى دهشتها.

«لكن هذا...». وتنقطع الجملة. تحاول مرَّة أخرى، وتقول: «لقد كنت دوماً..». ولم تستطع إكمال الجملة أيضاً.

والكلمة التالية هي «مجنون»، لكنّها تمتنع عن قولها مرّتين. تدرك شيئاً ما، وتعض على شفتها، فتبدو محرجة. لو كنت أستطيع قول شيء لقلته، لكن ليس هناك مكان أبدأ منه.

وأنا على وشك إعلامها أنني لا أعرفها، تقف وتقول: «عليَّ الذهاب الآن». أعتقد أنّها علمت أنّني لا أعرفها.

تذهب إلى الباب، وتقول وداعاً بسرعة، دونما اكتراث، وتخرج وتغلق الباب. أسمع وقع أقدامها مسرعةً كما لو كانت تركض عبر الممر.

ينطبق الباب الخارجي للبناية، فتعود غرفة الصف ساكنةً كما كانت، باستثناء الموجات العصبيّة المتقلّبة التي تركتها خلفها. لقد تغيّرت غرفة الصف بأكملها بسبّبها. فأصبحت تحتوي عواقب حضورها، واختفى ما جئت لرؤيته هنا.

أفكّر مع نفسي، هذاجيّد، فأقف مرَّة أخرى، أنا مسرور أنّني زرت هذه الغرفة، لكن أعتقد أنّني لا أريد أنّ أزورها مرَّة أخرى. وأفضّل إصلاح

الدرّاجات الناريّة، وأحدها تنتظر في الخارج.

وفي خروجي، أفتح باباً جديداً، شيء ما دفعني لفتحه. فأرى على اللوح شيئاً بثّ رعشة غريبة في جسمي.

لوحة مرسومة. لم أتذكّرها، لكنّي أعلم الآن أنّه اشتراها ووضعها هنا. وفجأة عرفت أنّها ليست لوحة وإنّما نسخة عن لوحة طلبها من نيويورك، ولم تعجب (ديويز) لأنّها كانت لوحة مقلّدة، واللوحات المقلّدة ليست فناً، وإنّما تدور عن الفنّ، وهذا فرق لم يعرفه حينها. راقت له اللوحة المقلّدة التي كانت لـ(فينينغر) واسمها «كنيسة الأقليّات» بغضّ النظر عن جوانبها الفنيّة بسبب موضوعها لأنّها نوع من الكاتدرائيّة القوطيّة المكوّنة من خطوط وأسطح مستوية وألوان وظلال. لكنّه أحبّها لأنّها تعكس الصورة التي تصوّرها لكنيسة العقل. ولهذا وضعها هناك. كلّ هذه الأشياء جاءت إلى ذهني الآن. كان هذا مكتبه. ياله من كنز. هذه هي الغرفة التي أبحث عنها.

أخطو في الغرفة فتغمرني عواصف من الذكريات تحرّكت بفعل اللوحة. والضوء الساقط عليها يأتي من نافذة بائسة في الجدار المجاور، حيث كان ينظر عبرها إلى الوادي إلى (ماديسون رانج). كان يراقب العواصف، وأثناء مراقبته للوادي المائل أمامي عبر هذه النافذة هنا، بدأ كلّ شيء؛ الجنون برمّته، هنا في هذه المنطقة، في هذه النقطة بالتحديد.

وهذا الباب يقود إلى مكتب (سارة).. (سارة)! الآن أتذكّر! جاءت حاملة إبريق الماء لتسقي نباتاتها. وقالت: «آمل أنّك ستدرّس النوعيّة لطلّابك». قالت جملتها بصوت مضطرب كما لو كانت تُغنّي، وكانت في سنتها الأخيرة قبل التقاعد. تلك هي اللحظة التي بدأ بها كلّ شيء، كانت

هذه البذرة البلوريّة.

البذرة البلوريّة. وها أنّ قطعة قويّة من الذاكرة تعاودني الآن. المختبر. الكيمياء العضويّة كان يعمل بمحلول شديد التركيز لمّا حدثت أشياء مشابهة.

والمحلول شديد التركيز هو المحلول الذي يتمّ تجاوز نقطة الإشباع فيه. وهي النقطة التي لا يمكن لأيّ شيء أنّ يذوب بعدها. وهذا يحدث حين تصبح نقطة التركيز أعلى عندما تزداد حرارة المحلول... فحين تذيب المادّة على درجة حرارة عالية، ومن ثمّ تبرّد المحلول، فإنّ المادّة لا تتشكّل على شكل بلوّرات لأنَّ الجزئيّات لا تعرف الطريق إلى ذلك. وتتطلّب شيئاً لتبدأ، كبذرة بلوريّة، أو ذرّة غبار أو حتّى احتكاك مفاجئ، أو نقر على الزجاج المحيط.

مشى نحو صنوبر الماء لتبريد المحلول، لكن لم يصل إلى النقطة المطلوبة. ولمّا هم بالمغادرة رأى أمام عينه نجماً من المادّة المتبلورة في المحلول يظهر فجأة، ثمّ امتدت إلى باقي المادة، رآها تنمو. وتحوّل السائل بأكمله إلى كتلة صلبة بقيت ملتصقة بالوعاء لمّا حاول قلبه.

سمع جملة واحدة: «أتمنّى أنّ تدرّس طلّابك النوعيّة». وخلال أشهر قليلة، تشكّلت لديه كتلة كبيرة ودقيقة، ومنظمّة جدّاً من المنطق، كما لو كان الأمر سحراً.

لا أعلم ما كان ردّه عليها لمّا سمع هذه الجملة. على الأرجح لم يقل شيئاً، مشت خلف كرسيه جيئةً وذهاباً نحو مكتبها ومنه عشرات المرّات. وكانت في بعض الأحيان تتوقّف لتعتذر بكلمة أو كلمتين عن مقاطعتها إيّاه، أو

لتخبره شيئاً. وكان معتاداً على هذا كجزءٍ من حياته المكتبيّة. أعرف أنّها جاءت مرَّة ثانية، وأعادت عليه السؤال في ما إذا كان حقّاً يدرّس النوعيّة لطلّابه، وهز رأسه بالإيجاب، ونظر من كرسيّه لثانية، وقال: «بالتأكيد». وواصلت مشيها، كان يعدّ مادّة المحاضرة التالية باكتئاب.

وما كان مُحبِطاً هو النصّ الذي عُدّ أحد أكثر النصوص عقلانيّة في موضوع البلاغة، لكنّه مع ذلك لم يبدُ صحيحاً حتّى الآن. وإضافة إلى ما سبق، اتّصل بالمؤلفين الذين كانوا أعضاء هيئة التدريس في القسم. فسألهم، واستمع منهم، وتحدّث معهم ووافقهم بطريقة عقلانيّة، لكنّه بقي غير مقتنعٍ بإجاباتهم.

يبدأ النصّ بفرضيّة مفادها أنَّه لو تمَّ تدريس البلاغة في الجامعة، فيجب أنّ تدرّس كفرع من المنطق لا كفنّ صوفي. ولهذا أكّد النصّ إتقان القواعد العقلانيّة للتواصل ليتمّ فهم البلاغة. ولهذا يتمّ الحديث عن المنطق الابتدائي، والنظريّة الأوليّة للحافز وردّ الفعل، وكلاهما كانا نقطة انطلاق لفهم نوعيّة كتابة مقالة.

كان (فيدروس) في سنته التدريسيّة الأولى راضياً بهذا الإطار، لكنّه شعر أنّ هناك خطأً ما. لكن لا يكمن الخطأ في تطبيق المنطق على البلاغة، وإنّما في الشبح القديم لأحلامه العقلانيّة نفسها. ولقد وصفها بأنَّها هي الخطأ ذاته الذي كان يزعجه لسنوات، ولم يجد حلاً له. وشعر أنَّه ليس هناك كاتب تعلّم أنّ يكتب مستخدماً هذه الطريقة المنهجيّة والموضوعيّة المربّعة باستخدام الأرقام. لكن هذا ما تقدّمه العقلانيّة. وليست هناك طريقة للتعامل بها إلاّ أنّ تكون لا عقلانيّاً. وإن كان هناك من شيءٍ يستطيع عمله في كنيسة العقل

فهو أنّ يكون عقلانياً. ولهذا اضطّر أنّ يترك نقاش هذا الموضوع عند هذا الحد.

بعد عدَّة أيّام، جاءت (ساره) وقالت: أنا سعيدة جدّاً أنّك تدرس **النوعيَة** هذا الفصل. فقليل من الناس يدرسها هذه الأيّام».

قلت: «حسناً، أنا أدرّسها، وأريد أنّ أثبت شيئاً من ورائها».

قالت: «جيّد» وواصلت مشيها.

فعاد إلى ملاحظاته، لكن سرعان ما انقطع تفكيره باسترجاع عبارتها الغريبة. ما الذي كانت تتحدّث عنه؟ **النوعيَة**؟ **بالطبع** هو يدرّس النوعيّة. ومن غيره؟ وواصل ملاحظاته.

ما سبّب له الكآبة أيضاً البلاغة التوجيهيّة، التي يفترض أنّ تكون انقرضت، لكنّها ما تزال موجودة، وكثيراً ما ترتبط بالعقاب في قضايا كاستخدام المقيّدات النحويّة بشكل صحيح، والتهجئة **الصحيحة**، والترقيم **الصحيح** والقواعد **الصحيحة**. مئات من القواعد الصغيرة لأناس صغار. لا يستطيع أحدٌ أنّ يتذكّر كلّ هذه الأشياء ويبقى مركّزاً على ما كان يحاول أنّ يكتبه. البلاغة التوجيهيّة كآداب المائدة، التي لم تكن مستمدّة من أيّ إحساس باللطف أو اللباقة أو الإنسانيّة، وإنّما من رغبة ذاتيّة لتبدو كالنبلاء والنبيلات. فهم يحسنون التصرّف إلى المائدة ويتكلّمون ويكتبون بقواعد سليمة. وهذه هي ما كانت تحدّد انتماء الشخص للطبقة العليا.

لكن في (مونتانا)، ليس للبلاغة التوجيهيّة التأثير نفسه، فهي وسيلة لمعرفة إذا ما كان الشخص شرقيّاً مستفحل الغباء. وكان في الكليّة حدّ أدنى متطلّب من البلاغة التوجيهيّة. لكنّه مثل بقيّة المدرّسين الآخرين تجنّب

بشكل كبير أيّ دفاع عن البلاغة التوجيهيّة باستثناء كونها متطلّباً في الكليّة.

سرعان ما انقطعت أفكاره مرَّة أخرى. **النوعيَة**؟ هناك شيءٌ مزعج، أو حتّى مثير للغضب في هذا السؤال. فكّر فيه، ثمّ فكر أكثر، ثمّ نظر عبر النافذة، ثمّ فكر مرَّة أخرى، **النوعيَة**؟

مضت أربع ساعات، وكان ما يزال جالساً في مكانه واضعاً قدميه على رف النافذة محدّقاً في ما أصبح سماء مظلمة. رن الهاتف، وكانت زوجته تسأل عمّا حدث، أخبرها أنَّه سيعود قريباً، ثمّ نسي الأمر وكلّ أمرٍ آخر. عند الساعة الثالثة صباحاً اعترف مقرّاً أنّ ليس لديه دليل عمّا تعنيه كلمة « النوعيّة»، فتناول حقيبته وقفل عائداً إلى البيت.

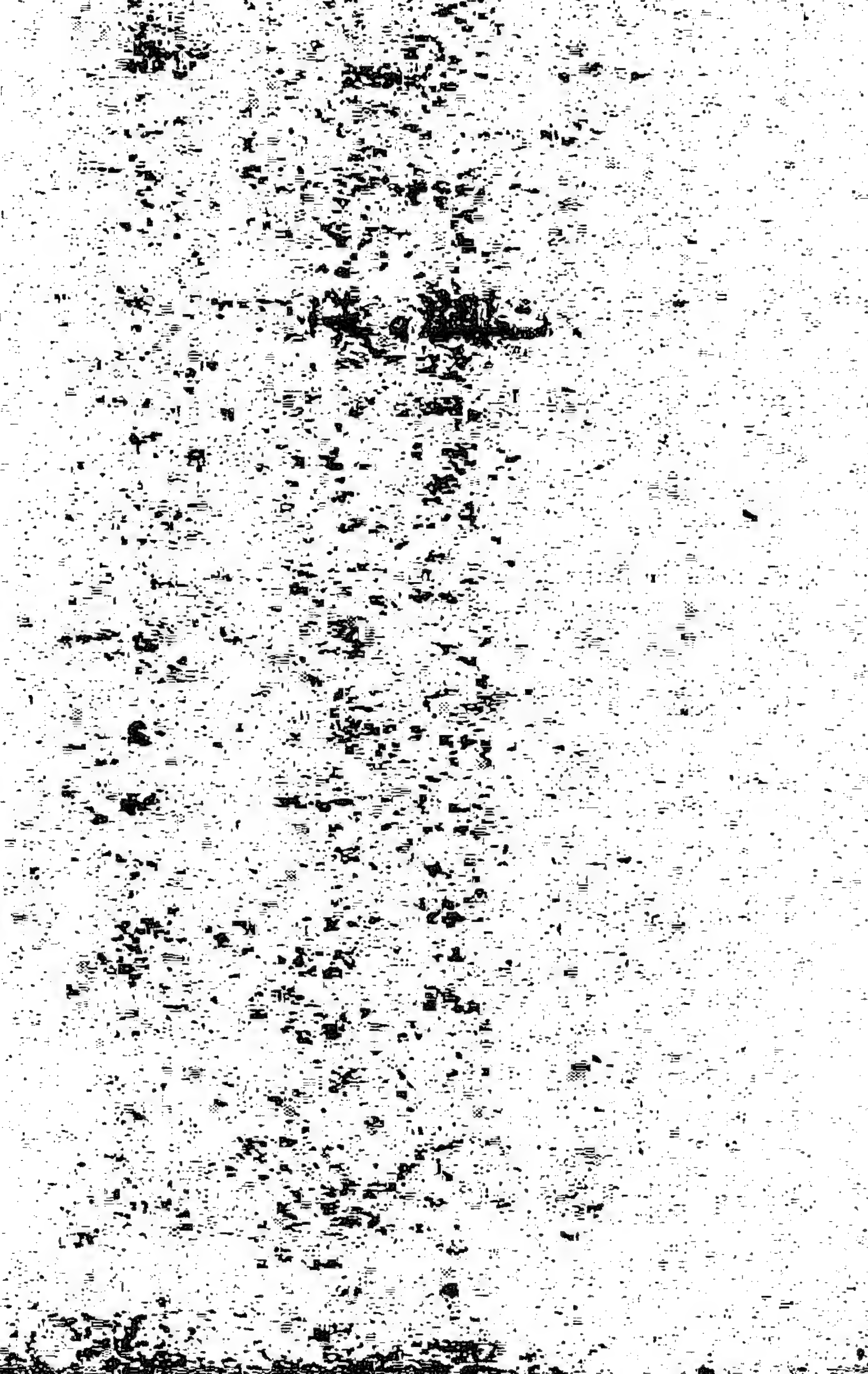
لابدّ أنّ معظم الناس قد نسوا ما تعنيه النوعيّة، أو أنّهم تركوها معلّقة لأنّهم كانوا غير ذوي وجهة محدّدة، وكان لديهم ما يفعلونه. لكنّه كان جزعاً حيال عدم قدرته على تدريس ما يؤمن به، ولم يكن يكترث بأيّ شيء كان يفترض تأديته. وحالما استيقظ في الصباح التالي، كانت «النوعيّة» تحدّق فيه. لم ينم سوى ثلاث ساعات، وكان متعباً جدّاً. وعرف أنَّه لن يتمكّن من الاستيقاظ لإعطاء محاضرة في ذلك اليوم. وإضافة إلى ذلك لم تكن ملاحظاته مكتمله، ولهذا كتب على اللوح: «اكتب مقالاً من ثلاثمائة وخمسين كلمة إجابة عن السؤال الآتي: ما هي النوعيّة في الفكر والقول؟» ثمّ جلس بجانب المدفأة بينما كانوا يكتبون، وفكّر هو نفسه بالنوعيّة.

وفي نهاية الساعة، لم يكن أحد قد انتهى من إجابة السؤال، ولهذا سمح للطلّاب بأخذ أوراقهم إلى البيت. ولم يجتمعوا إلاّ بعد يومين ممّا أعطاه المزيد من الوقت للتفكير بالموضوع. وخلال ذلك الفاصل الزمني، رأى بعض

الطلّاب يتمّشون خلال الصفوف، فهزّ رأسه نحوهم، وتلّقى نظرات غضب وخوف منهم. أدرك أنّهم يعانون من المشكلة نفسها.

النوعيّة... نعرف ما هي ولا نعرف ما هي! وهذا تناقض شخصّي، وبعض الأشياء أفضل من أخرى. ونقصد بقولنا هذا أنّ كيفيّتها أفضل. لكن عندما تحاول أنّ تقول ما النوعيّة بعيداً عن الأشياء التي تمتاز بها، تجد أنّها تختفي تماماً فلن تجد ما تتحدّث عنه. وإنّ لم تستطع تحديد ما النوعيّة، كيف لك أنّ تعرف ما هي؟ أو كيف تعرف أنّها موجودة؟ فإنّ لم يكن هناك من يعرفها، فهي من ناحية عمليّة ليست موجودة على الإطلاق. لكن من ناحية عمليّة هي موجودة حقّاً. فدرجات الطلّاب ليست مبنّية إلاّ على النوعيّة، ولماذا قد ينفق الناس ثروات في سبيل الحصول على أشياء ورمي أشياءٍ أخرى في القمامة إلاّ بسبب النوعيّة؟ من الواضح أنّ بعض الأشياء أحسن من غيرها لكن ما هو الاستحسان؟ قد تدور في دوائر ذهنيّة إلى الأبد، دون أنّ تجد نقطة اجتذاب. لكن ما هي النوعيّة بحقّ الجحيم؟ ما هي؟.

الجزء الثالث



(16)



حظينا أنا وكريس بنوم ليلة طيّبة، وفي الصباح رتّبنا أمتعتنا بحرص شديد، وبدأنا بتسلّق صفحة الجبل منذ ما يقرب من ساعة. تنتشر في الغابة في أسفل الوادي أشجار الصنوبر في الأغلب، مع بعض الحور وبعض الشجيرات عريضة الأوراق. وترتفع جدران الوادي الشاهقة فوقنا على الجانبين. وينفتح الدرب أحياناً على بقعة من أشعّة الشمس، والعشب الذي يحيط بجدول الوادي، لكنّه سرعان ما يدخل في ظل أشجار الصنوبر العميق. والدروب مغطّاة بشبكة ناعمة من إبر الصنوبر. الهدوء عميق هنا.

لا يقتصر وجود جبالٍ كهذه ورحّالةٍ في الجبال، وما قد يحدث معهم من أحداث على أدب زِن فحسب، وإنّما هي موجودة في قصص كلّ دين رئيس! فأمثولة الجبل الجسدي بالنسبة إلى الشخص الروحاني الذي يقف بين كلّ روحٍ وهدفها إنّما هو رمز سهل طبيعي. ومعظم الناس، كحال هؤلاء الواقفين في الوادي خلفنا، يقفون أمام جبال روحانيّة دون أنّ يتسلّقوها مهما

طال بهم العمر، ويرضون البقاء في الأسفل قانعين بالاستماع إلى أشخاصٍ آخرين ذهبوا هناك متجشّمين المصاعب. يسافر بعضهم إلى الجبال بمرافقة أدلّة متمرّسين يعرفون أفضل الدروب وأقلّها خطورة ليصلوا إلى مقصدهم، وآخرون، وهؤلاء غير متمرّسين وغير واثقين، يحاولون أنّ يسلكوا دروبهم الخاصّة، القليل من هؤلاء ينجح. وفي بعض الأحيان قد ينجح بعضهم بمحض العزيمة والحظ والنعمة التي قد تصيبهم. لكنّهم عندما يصلون هدفهم يدركون تمام الإدراك أنّ ليس هناك من طريق واحدة أو عدد محدّدٍ من الطرق. بل دروب بعدد الأرواح البشريّة.

أريد أن أتحدّث الآن عن استكشافات (فيدروس) في معنى مصطلح (النوعيّة)، وهي استكشافات رآها درباً عبر جبال الروح. وأستطيع القول إن أسعفني التعبير إن هناك مرحلتين مختلفتين.

لم يُجرِ في المرحلة الأولى أيّ محاولة لتقديم تعريف محدّد ومنهجي لمّا كان يتحدّث عنه، وكانت هذه المرحلة إبداعيّة، ومُرْضية وسعيدة. واستمرت معظم الوقت الذي درّس خلالها في الكليّة في الوادي خلفنا.

وبرزت المرحلة التالية نتيجةً للنقد العقلاني الطبيعي لعدم وجود تعريف لما كان يتحدّث عنه، وأصدر في هذه المرحلة عبارات صارمة منهجّية عن (النوعيّة)، كما أنتج هيكلاً تراتبيّاً ضخماً من الفكر لدعم عباراته، وبذل قصارى جهده للوصول إلى هذا الفهم المنهجي. وحين انتهى، أدرك أنّه قد أوجد تفسيراً للوجود، وأصبح إدراكنا له أفضل من أيّ إدراك له من قبل. وإن كان بحقّ درباً جديداً فوق الجبال، فلا بدّ أنّه كان مطلوباً جداً. وخلال القرون الماضية الثلاثة، تعرّضت الدروب القديمة في نصف الكرة الشمالي

للقصقصّة والمسح عبر عوامل الحتّ الطبيعيّة، وتغيّر شكل الجبل بوساطة الحقيقة العلميّة. وقد خطّ المتسلّقون الأوائل دروباً أرضيّة ثابتة وطرقَ وصولٍ راقت للجميع، لكن الدروب الغربيّة الآن مغلقة تقريباً بأكملها بسبب انعدام المرونة العقائديّة في وجه التغيير. والتشكيك في المعاني الحرفيّة لكلمات (النبي) عيسى أو (النبي) موسى قد يورثك عداوة من لدن معظم الناس، ويعلم الجميع أنَّه لو عادا إلينا هذه الأيّام دون أنّ يعرفهما الجميع لغيّرا في رسالتيهما لتناسبا هذا العصر. ولا يعود السبب في أنّ ما قالاه غير صحيح، أو لأنَّ المجتمع المعاصر خاطئ، وإنّما لأنَّ الدرب الذي سلكاه لا يشابه الطرق الموجودة حاليّاً. و«الجنّة في الأعلى» لا تصبح ذات معنى إن سأل الإدراك الزماني- المكاني «أين في الأعلى؟» لكن الحقيقة هي أنّ الدروب القديمة قد فقدت معناها اليومي وأصبحت مغلقة، والسبب يعود لجمود اللغة، وهذا لا يعني أنّ الجبل لم يعدّ موجوداً هناك، بل هو موجود.

كانت المرحلة الميتافيزيقيّة الثانيّة كارثة بحقّ على (فيدروس). وخلالها فقد الإحساس بأيّ شيء قبل توصيل الأقطاب الكهربائيّة إلى رأسه. فقد المال والأملاك والأطفال وسُلب حقّه كمواطن بحكم المحكمة. وكلّ ما بقي له حلمه المجنون الوحيد بالنوعيّة والكيفيّة والجودة، الذي عدّ خريطة الدروب عبر الجبال. ذلك الحلم الذي ضحّى من أجله بالكثير، لكنّه بعد توصيل الأقطاب، فقد هذا الحلم أيضاً.

لن أعرف أبداً إن كان كلّ هذا في رأسه في ذلك الوقت، ولن يعرف أيّ شخص ذلك. وما بقي الآن هو شظايا، حطام ملاحظات مبعثرة يمكن وصلها ببعضها، ولكن سيبقى فيها فجوات كبيرة دون توضيح.

حين اكتشفتُ هذا الحطام لأوّل مرّة، شعرتُ بما يشعره مزارع قروي بالقرب من ضواحي مدينة كـ(أثينا) اكتشف مصادفةً أثناء حرثه الأرض حجارة منقوشاً عليها تصاميم غريبة. كنت أعرف أنّها كانت جزءاً من تصميم كلّي كان موجوداً في الماضي. لكنّه كان يتخطّى حدود فهمي. في بداية الأمر تجنّبت ذكرها عن قصد، ولم أعطها الاهتمام الكافي لأنّي عرفت أنّ هذه الحجارة قد سبّبت نوعاً من المشاكل يجب عليَّ أنّ أتجنّبها. لكنّي كنت قادراً حينها أنّ أرى أنّها كانت جزءاً من بناء ضخمٍ من الفكر، كنت محتاراً حياله بطريقة سرية نوعاً ما.

لكن حين زادت ثقتي في مناعتي ضدّ هذا الوباء، أصبحت مهتمّاً بهذا الحطام بطريقة إيجابيّة، وبدأت بتدوين هذه الشظايا على غير شكل محدّد، وإنّما حسب الترتيب الذي وصلتني فيه. وجاءت معظم هذه العبارات غير المتبلورة عن طريق أصدقائه. وأصبح عددها بالآلاف الآن، ومع أنّ نزراً يسيراً منها يناسب هذه التشوتوكوا، إلاّ أنّ التشوتوكوا قائمة عليها بشكل واضح.

لابدّ أنّها طريقٌ بعيدةٌ عمّا كان يُعتقد. عندما نحاول إعادة تشكيل نمط بأكمله عبر الاستقراء/ الاستنباط من الشظايا، فإنّني على الأرجح سأرتكب أخطاء، وسأضع تعارضات، أطلب الصفح عن بعضها. والشظايا في بعض الأحيان غامضة، وعندها نستطيع أنّ نستنتج عدداً كبيراً من النتائج. وإن كان هناك خطأ ما، فالاحتمال كبير أنّ الخطأ ليس في تفكيره، وإنّما في إعادة بنائي لفكره، ويمكن الوصول إلى إعادة بناء أفضل في المستقبل.

يصدر صوت طنين، ويختفي طائر حجل في الأشجار.

يقول (كريس): «هل رأيت هذا؟»

أقول: «نعم».

- «ما كان هذا؟»

- «طائر حجل».

- «كيف تعرف هذا؟»

أقول: «تهتزّ إلى الأمام والخلف هكذا لّما تطير». لستُ متأكّداً من هذا، لكن تبدو المعلومة صحيحة، فأكمل: «وتبقى قريبة من الأرض، أيضاً».

يجيب (كريس): «آه» ثمّ نواصل المشي. تحدث أشعّة الشمس تأثيراً كاتدرائيّاً بين أشجار الصنوبر.

أودّ اليوم وفي هذه اللحظة أنّ أتحدّث عن المرحلة الأولى في رحلته نحو «النوعيّة»، المرحلة غير الغيبيّة، وسيكون هذا سارّاً. من الجيّد أنّ تبدأ الرحلة بشكل جميل، حتّى إن كنت تعلم أنّها لن تنتهي على هذه الشاكلة. وأريد باستخدام ملاحظات الصف مادة مرجعيّة أنّ أبني الطريقة التي أصبحت فيها النوعيّة مفهوماً كبيراً في تدريس البلاغة. كانت مرحلته الثانيّة، مرحلة ما وراء الطبيعة غير واضحة المعالم وتأمليّة، في حين أنّ المرحلة الأولى، التي اعتمدها ببساطة بتدريس البلاغة، كانت صلبة، وعمليّة وجديرة بأنَّ يحكم عليها وفق امتيازاتها بعيداً عن المرحلة الأخرى.

كان كثيراً ما يبتكر، وكان يواجه مشاكل مع الطلّاب الذين لا يقولون رأيهم في شيء. في بداية الأمر، اعتقد أنّ السبب هو الكسل، لكنّه أدرك أنّ السبب مختلف. فهم لا يستطيعون التفكير في شيء ليقولوه.

أرادت إحدى طالباته وكانت تضع نظّارات بعدسات سميكة أنّ تكتب مقالة من خمسمائة كلمة عن الولايات المتّحدة، كان معتاداً على الشعور المثير للاكتئاب الناجم عن عبارات كهذه، واقترح عليها دون تحقير أنّ تحصر الموضوع ليصبح عن (بوزمان) فقط.

ولمّا حلّ موعد تسليم المقالة، لم تكن معها وكانت منزعجةً تماماً، حاولت وحاولت ولكن لم تفكّر بشيء تقوله.

تحدّث مع مدرّسيها السابقين عنها، وأكدّوا انطباعه عنها. كانت جادّة جدّاً، ومنتظمةً، وجادّةً في العمل، لكنّها كانت مملّة. ولم تظهر ما يدلّ على قدرتها على الإبداع. وكانت عيونها خلف نظّاراتها الثقيلة تشير إلى وضاعتها الأكاديميّة. لم تكن تخدعه، فلم تفكّر بحقٍ بأيّ شيءٍ يمكن أنّ تقوله، وكان منزعجاً من عدم قدرتها على تنفيذ ما كانت تعد به.

لقد أذهله الموقف. فلم يستطع أنّ يقول شيئاً. وغطّى الصمت المكان، ثمّ أجابها قائلاً: «تحدّثي عن الشارع الرئيس في (بوزمان)». لقد كان الجواب نوعاً من البصيرة. ضربة حظ.

هزّت رأسها بالموافقة وخرجت، لكن جاءت قبل محاضرتها التالية والبؤس والدموع في عينيها، بؤس موجود منذ مدّة طويلة، ما تزال لا تعلم ما تقول، ولا تعلم لماذا. لو استطاعت التفكير في شيء عن (بوزمان) كلّها، لتمكّنت من التفكير بشيء عن شارع واحد.

كان مغتاظاً فقال: «أنت لا تبحثين». ورجعت إليه ذكرى صرفه من الجامعة، لأنّه كان لديه الكثير ليقوله. فلكلّ حقيقة، هناك عددٌ لا محدودٌ من الفرضيّات. وكلّما بحثت أكثر وجدت أكثر. لم تكن تبحث بحق، ومع

هذا لم تعرف لماذا.

أخبرها بغضب: «تحدّثي عن واجهة بناية واحدة فقط في الشارع الرئيس في (بوزمان) كدار الأوبرا! ابدأي بالحجر الأيسر من الأعلى».

فتحت عينيها من وراء النظّارات على وسعها. وجاءت المحاضرة القادمة وعليها نظرة مرتبكة، وناولته مقالة من خمسمائة كلمة عن واجهة دار الأوبرا في الشارع الرئيس في (بوزمان)، في (مونتانا). قالت فيها: «جلست على منضدة الهامبرغر في الطرف الآخر من الشارع، وبدأت أكتب عن أوّل طوبة، ثمّ الطوبة الثانيّة، ثمّ الثالثة، ثمّ بدأت الأفكار تتدفّق ولم أستطع أنّ أوقفها. اعتقدوا أنّني مجنونة، وواصلوا إلقاء النكت عليَّ، لكن ها هي المقالة ولا أفهم ما حدث».

لم يفهم ما حدث هو أيضاً. لكنّه فكّر فيها خلال جولاته الطويلة عبر شوارع المدينة، واستنتج أنّها قد واجهت العائق نفسه الذي منعه من عمله في يوم تدريسه الأوّل. غُمَّ عليها لأنّها كانت تحاول أنّ تعيد عبر كتاباتها أشياء سمعتها من قبل، كما حاول هو في يومه الأوّل أنّ يعيد أشياء قرّر مسبقاً أنّ يقولها. لم تستطع أنّ تقول شيئاً عن (بوزمان) لأنّها لم تستطع أنّ تتذّكر شيئاً قيل عن (بوزمان) من قبل. وممّا هو مثير للاستغراب عدم إدراكها أنّها تستطيع البحث عن شيءٍ جديدٍ بنفسها، كما كتبت، دون أنّ تعير انتباهها لما قيل سابقاً. وأزال تضييق الموضوع إلى طوبة واحدة هذا العائق، لأنّه أصبح واضحاً عليها أنّ تشاهد مباشرة.

ذهب في تجاربه إلى أبعد من ذلك. فقد طلب في أحد الصفوف أنّ يكتب جميع الطلّاب لمدّة ساعة عن الجزء الخلفي من إبهامهم. ونظر الجميع في

بداية الأمر نظرة الاستغراب، لكن أدّى الجميع ما هو مطلوب منهم في النهاية، ولم يتذمّر أحد لأنّه يستطيع أنّ يقول شيئاً.

في صفّ آخر، غيّر الموضوع من إبهام إلى قطعة نقد، وكتب الطلّاب لساعة كاملة عنها. كانت الصفوف الأخرى على المنوال نفسه. وسأل بعض الطلّاب: «هل علينا أنّ نكتب عن الجهتين؟» لكن لّما انغمسوا في فكرة المشاهدة المباشرة بأنفسهم، أدركوا أنّه ليس هناك حدٌ لما يمكن أنّ يقولوه. كان واجباً لبناء الثقة أيضاً، لأنَّ ما كتبوه، على سخافته، كان لهم ومنهم ولم يكن تقليداً لأيّ شخص. وكانت الصفوف التي استخدم فيها تمرين قطعة النقود أقلّ امتعاضاً وأكثر حماساً.

استنتج من تجاربه أنّ التقليد كان شرّاً بحقّ ويجب التخلّص منه قبل التدريس الحقيقي للخطابة. وبدا التقليد إجباراً خارجيّاً. فالأطفال الصغار لا يملكونه، وإنّما يأتي لاحقاً نتيجة للمدّرسة نفسها.

يبدو هذا صحيحاً، وكلّما فكّر في الأمر أكثر، بدت صحيحة أكثر، فالمدارس تعلّمك التقليد، وإن لم تقلّد ما يريده المعلّم ستحصل على درجة سيّئة. والأمر في الكليّة هنا معقد جدّاً بالطبع، ومطلوب منك أنّ تقلّد المدرّس بطريقة تقنع فيها المدرّس أنّك لم تكن تقلّده، وإنّما تأخذ منه جوهر التدريس، لتستمرّ وحدك به. وهكذا ستحصل على (أ). والأصالة من ناحية أخرى قد تمكّنك من الحصول على أيّ درجة من (أ) إلى (إف). ونظام العلامات بأكمله حذّر من الأصالة.

ناقش (فيدروس) هذا الأمر مع بروفيسور في علم النفس كان جاره في المنزل، وقد عُدَّ معلّماً حقيقيّاً فقال: «أنت محقّ تماماً، لكن عليك لتحصل على

تعليم حقيقي أنّ تتخلّص من نظام العلامات بأكمله».

فكّر (فيدروس) بالموضوع، ولمّا لم تستطع طالبةٌ لامعةٌ التفكير بموضوعٍ لبحثها بعد عدَّة أسابيع، كانت الفكرة ما تزال في رأسه، ولهذا اقترح عليها الفكرة موضوعاً لبحثها. لم تحبّ الموضوع في البداية، لكن وافقت على الكتابة فيه.

أصبحت خلال أسبوع واحد تتحدّث لجميع من يقابلها عن الموضوع، وخلال أسبوعين أنتجت بحثاً رفيع المستوى. ولم يأخذ الطلّاب الذين ألقت البحث على مسامعهم وقتاً للتفكير بالموضوع، وإنّما كانوا معارضين لفكرة اجتثاث الدرجات والعلامات. لكن لم ينل هذا من عزيمتها، واكتسب أسلوبها عزيمة دينيّة قديمة جدّاً. توسلّت إلى الطلّاب الآخرين ليستمعوا لها، ويفهموا أنّ هذه الفكرة كانت **صحيحة**، وقالت لهم: «أنا لا أقول هذا الكلام له» وأشارت إلى (فيدروس) «وإنّما لكم».

لقد أدهشه أسلوبها التوسّلي، واندفاعها الديني، إضافة إلى أنّ أداءها في امتحان القبول كان باهراً، فصنّفت ضمن أعلى واحد بالمائة من الصف. اختار (فيدروس) لّما كان يدرس «الكتابة الإقناعية» في الربع التالي من الفصل الموضوع ذاته نصّاً توضيحيّاً، وهو نصّ من الكتابة الإبداعيّة يكتبه المدرّس بنفسه يوماً بعد يوم أمام الطلّاب وبالتعاون معهم.

استخدم النصّ التوضيحي ليتجنّب الحديث عن مبادئ الإنشاء، التي لديه شكّ عميق فيها. وقد شعر أنّه إن عرّض الطلّاب لجمله كما وضعها، بما تحتمل من شكوك، وحرج وإزالات، فإنّه سيعطيهم صورة أمينة عن كنه الكتابة. وهذا سيكون أفضل من إضاعة وقت الصف في تصيّد

أخطاء الطلّاب، أو الإشادة بعمل طالب ماجستير لتقليده. وفي هذه المرّة طوّر الفكرة، فتمّ فيها استئصال نظام العلامات بأكمله، ولجعل الفكرة مستساغة لدى الطلّاب، أمسك عن إعطاء الطلّاب علاماتهم خلال ذلك الفصل.

نستطيع أنّ نرى الثلج الآن فوق قمّة الجبل. غير أنّ رحلتنا قد تستغرق أيّاماً على الأقدام. فالصخور تحت الثلج شديدة الانحدار ولا يمكن تسلّقها بشكل مباشر، بما نحمله خاصّة من أمتعة ثقيلة، إضافة إلى أنّ (كريس) كان أصغر من استخدام الحبال والأوتاد. علينا أنّ نجتاز الجبل الذي نقترب منه، وأن ندخل وادياً آخراً، وأن نمشي إلى آخره، ثمّ نتسلّق إلى أعلى الجبل. وقد يكون من الصعب علينا اجتياز الثلوج في ثلاثة أيام، لكن أربعة أيّام أسهل. وإن لم نظهر خلال تسعة أيّام، سيبدأ (ديويز) بالبحث عنا.

نتوقّف لنستريح، نجلس ونستند إلى شجرة لكي لا نقع إلى الخلف بفعل أمتعتنا. وبعد مدّة أمدّ يدي فوق كتفي، وأتناول المدية من أعلى أمتعتي. أعطيها لـ(كريس).

- «هل ترى شجرتي الحور الطويلتين على الحافّة هناك؟» وأشرت إليها. «اقطعهما من على ارتفاع قدم فوق الأرض».

- «لماذا؟»

- «سنحتاج لهما لاحقاً كعصي تسلّق، وعمدان خيم».

يأخذ (كريس) المدية، ويرفع يده ليقطعهما ثمّ أنزلها. ويقول: «اقطعهما أنت».

فأتناول المدية، وأذهب إليهما وأقطع العصي بضربة واحدة، باستثناء آخر قشرة من لحاء الشجرة، التي فصلتها بالخطاف الخلفي للمدية. نحتاج العصي عند تسلّق الصخور في الأعلى للمحافظة على التوازن، فأشجار الصنوبر في الأعلى ليست مناسبة كعمدان. وهذه البقعة هي آخر مكان قد نجد فيه أشجار حور. ولقد أقلقني قليلاً رفض (كريس) تلبية ما طلبت منه. هذه علامة غير جيّدة في الجبال.

سنغادر بعد استراحة قصيرة. لن أعتاد حمل هذه الحمولة قبل مضي مدّة طويلة. فهناك ردّة فعل سلبيّة لهذا الوزن. لكن ستصبح طبيعيّة مع الوقت.

* * *

أثارت مطالبة (فيدروس) بإلغاء نظام العلامات ردّة فعل ساخطة وسلبيّة لدى معظم الطلّاب، إلاّ قلّة قليلة منهم في بداية الأمر، لأنَّ هذه الفكرة من شأنها، للوهلة الأولى، تدمير نظام الجامعة بـأكمله. وقد أعلنتها إحدى الطالبات صراحة لمّا قالت: «لا تستطيع بالطبع أنّ تلغي نظام العلامات، فنحن موجودون هنا لهذه الغاية».

قالت الطالبة الحقيقة كاملة. وفكرة أنّ معظم الطلّاب يدرسون في الجامعة من أجل التعليم بعيداً عن الدرجة العلميّة والعلامات هي نوع من النفاق الذي يحاول كلّ شخص أنّ يخفيه. وأحياناً، قد يأتي بعض الطلّاب من أجل التعليم فقط، لكن الرتابة والطبيعة الميكانيكيّة للمؤسّسة قد تدفعهم بسرعة إلى تبنّي أفكار غير مثاليّة.

كان النصّ الدالّ عبارة عن حجّة تقول إن إلغاء نظام العلامات والدرجات العلميّة سيقضي على هذا النفاق. لأنّه بدلاً من أنّ يتعامل مع

العموميّات، يتعامل مع سيرة طالب خيالي يُعدّ مثالاً لما هو موجود في غرفة الصف. طالب يعمل من أجل العلامة، لا من أجل المعرفة التي يفترض بالعلامة تمثيلها.

يفترض النصّ الدالّ أنّ هذا الطالب سيذهب إلى صفّه الأوّل، وسيحصل على واجبه الأوّل، ويؤديه على الأرجح كنوع من العادة. وسيذهب إلى محاضرته الثانيّة والثالثة أيضاً. لكن بعد وقت ليس بطويل ستزول أصالة الدروس، ولأنّه ليس مكّرساً لحياته الأكاديميّة، سيخلق ضغط الالتزامات الأخرى أو الرغبات الأخرى ظروفاً ربّما لا يتمكّن معها من أداء واجباته.

ولأنّه ليس هناك درجة علميّة أو نظام علامات، فلن يعاقب لعدم تأديته الواجب، وستكون المحاضرات التالية، التي تفترض أنّه قد أدّى الواجب أصعب عليه، وستوهن هذه الصعوبة من اهتمامه إلى درجة لا يستطيع فيها أداء الواجب التالي لأنّه أكثر صعوبة. ولن ينال عقوبة لقاء عدم تأديته ذلك.

وبمرور الزمن، سيجعل استيعابه الذي يزيد ضعفاً لموضوع المحاضرة متابعتها أمراً صعباً عليه. وسيدرك في نهاية الأمر أنّه لم يكن يتعلّم كثيراً، وسيتوقّف عن الدراسة لتلبية الضغوطات الخارجيّة، وسيشعر بالندم، وسيتوقّف عن حضور المحاضرات. ولن يعاقب.

لكن ماذا حدث بالتحديد؟ فالطالب الذي لا يكنّ أيّ عداوة تجاه الآخرين قد يطرد نفسه من المدرسة. جيّد! هذا ما كان يجب حدوثه، فهو لم يذهب إلى الجامعة من أجل تعليم حقيقي في المقام الأوّل، وليس له مقام هناك. وسيوفّر على نفسه مبالغَ ضخمة وجهوداً كبيرة، ولن تلاحقه وصمة

الفشل بقيّة حياته. ولم يقطع على نفسه سبيل الرجعة.

وأكبر مشكلة للطالب هي عقليّة العبد التي ترسّخت فيه عبر سنوات من التقويم القائم على فكرة الجزرة والسوط. وهي عقليّة البغل التي تقول: «إنّ لم أضرب لن أعمل». ولهذا إن لم يعاقب فلن يعمل. وستتعرض عربة الحضارّة التي كان مدرباً على جرّها للتأخير قليلاً بدونه.

تكمن الكارثة إذا افترضنا أنّ عربة الحضارّة، أو بمعنى آخر، «النظام» تجرّها بغال، وقد يكون هذا رأياً مهنيّاً عاماً منحصراً بمكان محدّد، لكنّه ليس موقف الكنيسة. فموقف الكنيسة هو أنّ الحضارّة أو «النظام» أو «المجتمع» - بصرف النظر عن المسمّى - يخدمه على أفضل وجه رجال أحرار لا بغال. والغاية من إلغاء الدرجات العلميّة والعلامات ليس معاقبة البغال أو التخلّص منهم، وإنّما توفير بيئة يمكن فيها للبغل أنّ يتحوّل إلى رجل حرّ.

سينجرف الطالب الافتراضي، الذي ما زال بغلاً في تلك المرحلة، لمدّة من الزمن. وسيحصل على نوع آخر من التعليم يوازي في أهميّته التعليم الذي هجره، ويسمّى «مدرسة الصدمات القاسية». وبدلاً من إضاعة ماله ووقته كبغلٍ من طراز رفيعٍ سيضطّر لإيجاد عملٍ كبغلٍ وضيعٍ، ربّما كميكانيكي. وفي الحقيقة سترتفع مكانته، لأنّه يسهم في إحداث تغيير ما. وقد يقضي بقيّة حياته على هذه الشاكلة. وقد يكون وجد مستواه. لكن لا تعتمد على هذا.

مع الوقت، ربّما ستّة أشهر أو خمس سنوات، سيبدأ التغيير بالحدوث، سيصبح أقلّ رضىً بنوع العمل اليومي الممل. وسيستيقظ ذكاؤه الإبداعي الذي اختنق بالنظريّات والعلامات أثناء الجامعة، بسبب الملل الناجم عن عمله. وقد تكون آلاف الساعات من العمل المحبط على مشاكل الآلات قد

زادت من اهتمامه في تصميم الآلات. وقد يرغب هو نفسه في تصميم آلة. ويعتقد أنَّه قادر على أداء وظيفة أفضل، فقد يحاول تعديل بعض المحرّكات. وقد يبحث إن حالفه الحظ عن مزيد من النجاح، لكنّه سيشعر أن ليس لديه إلى ذلك سبيل بسبب عدم امتلاكه المعلومات النظريّة. وسيكتشف أنَّه لمّا شعر في الماضي أنَّه غبّي بسبب عدم اهتمامه بالمعلومات النظريّة أن الآن قد وجد نوعاً من المعلومات النظريّة التي يكنّ لها احتراماً كبيراً اسمها الهندسة الميكانيكيّة.

ولهذا سيعود إلى مدرستها التي لا تعطي علامات ولا تمنح درجات لكن مع فارق كبير. فلن يعود شخصاً تقوده العلامة، وإنّما ستقوده المعرفة. ولن يحتاج إلى عاملٍ خارجي يدفعه للتعلّم. وإنّما سيكون دافعه داخليّاً. سيكون رجلاً حرّاً. لن يحتاج إلى الكثير من الانضباط لصياغته. ولو كان مدرّسوه متراخين في عملهم، سيكون هو من يصوغهم بتوجيه أسئلة جريئة لهم. سيكون هناك ليتعلَّم شيئاً، وسيدفع ليتعلَّم شيئاً، وعليهم أنّ يعلّموه شيئاً.

والدافع على هذا الشكل، عند الوصول إليه، قوّة وحشيّة. وفي مؤسّستنا التي لا تعطي علامات ولا تمنح درجات لن يكتفي الطالب الملتحق بها بالمعلومات الهندسيّة الروتينيّة، وإنّما ستدخل الرياضيّات والفيزياء ضمن نطاق اهتمامه لأنّه سيدرك حاجته لهما. كما سيدخل ضمن اهتمامه علم استخلاص المعادن والهندسة الكهربائيّة. وفي غمار النضج العقلي الذي منحته له هذه الدراسات، سيتفرّع إلى حقول نظريّة أخرى ليست ذات علاقة بالآلات، لكنّها أصبحت جزءاً من هدف كبير وجديد. ولن يكون

هذا الهدف تقليدَ التعليم في الجامعات هذه الأيّام، الذي تظهر وتخفيه العلامات والدرجات التي تعطي انطباعاً بأنَّ ثمّة شيئاً يحدث في الجامعات، لكن في الحقيقيّة ليس هناك ما يحدث. وسيكون هذا التعليم تعليماً حقيقيّاً.

هذه كانت حجّة (فيدروس) غير المنطقيّة، وعمل عليها طوال فصل كامل، مقدّماً لها، ومكيّفاً إياها وداعماً لها ومدافعاً عنها. وطوال فصل كامل كانت الأوراق ترجع إلى الطلّاب دون علامات عليها لكن بتعليقات، مع أنّ العلامات كانت تثبت عنده في سجل العلامات.

وكما قلت سابقاً، في بداية الأمر كان الجميع مندهشين. وربّما تصوّروا أنّهم علقوا بين أيدي شخص مثالي اعتقد أنّ التخلّص من العلامات سيجعلهم أسعد، وبالتالي سيعملون بجدٍّ أكثر، وكان واضحاً أنّه بدون علامات سيصبح الجميع أقلّ اكتراثاً.

في بداية الأمر صار كثير من الطلّاب الذين حصلوا على (أ) في معظم موادهم في الفصول السابقة منزعجين وغاضبين من تصرّفه، لكنّهم أدُّوا المطلوب منهم بسبب انضباطهم الشخصي. أمّا طلّاب الدرجة (ب) وطلّاب الدرجة (ج) فلم يؤدّوا بعض الواجبات في بداية الأمر أو سلّموا واجبات غير متقنة. أمّا الطلّاب في أدنى الدرجة (ج) وطلّاب العلامة (د) فلم يأتوا إلى الصف. في هذا الوقت سأله مدرّس آخر عمّا سيفعله إزاء عدم تفاعلهم.

فقال: «سأصبر عليهم».

وقد ارتاب الطلّاب في بداية الأمر ثمّ أصبحوا مُشكّكين. وبدأ بعضهم يسأله أسئلة ساخرة ليتلقّوا إجابات غير مقنعة. وكانت المحاضرات

والخطابات تستمّر كالعادة لكن دون درجات.

ثمّ بدأت ظاهرة يأمل الجميع في حدوثها. فخلال الأسبوع الثالث أو الرابع أصبح بعض الطلّاب المتميّزين متوتّرين وسلموا أعمالاً رفيعة المستوى، وبدأوا ينتظرون بعد المحاضرة، ويوجّهون أسئلة حاولوا بها أنّ يصطادوا أيّ مؤشّر قد يشير إلى مستواهم. وقد لاحظ طلّاب العلامة (ب) وطلّاب العلامة (ج) هذا التصرّف، فبدأوا يقضون ساعات أطول على واجباتهم ليحسّنوا من جودتها. وبدأ الطلّاب في أدنى العلامة (ج) وطلّاب العلامة (د) المتوقّع رسوبهم بالحضور ليشاهدوا ما سيحدث.

بعد منتصف الفصل حصلت ظاهرة كان يأمل حدوثها فَقَدْ فَقَدَ طلّاب العلامة (أ) عصبيّتهم وأصبحوا مشاركين فاعلين في كلّ نشاط بحميمية غير معهودة في صفٍ عرف طلّابه علاماتهم . وأصبح طلّاب العلامة (ب) و(ج) مرتعبين، وسلّموا واجبات دلَّت على قضائهم عليها ساعات طويلة من العمل المضني. وبدأ طلّاب (د) والطلّاب المتوقّع رسوبهم بتسليم واجبات مقنعة.

وفي الأسابيع الأخيرة من الفصل، وهو الوقت الذي يعرف فيه الجميع ما ستكون علامته، كان (فيدروس) ينعم بمشاركة صفيّة حازت ملاحظة المدرّسين الآخرين. وانضّم طلّاب (ب) و(ج) إلى طلّاب (أ) في نقاشات أكاديميّة بحتة جعلت الصف يبدو كحفلة ناجحة. وجلس طلّاب (د) و(هـ) في مقاعدهم في حالة من الذعر الداخلي.

فسّر طالبان حالة الاسترخاء والوداد التي مرّ بها الطلّاب فأخبراه: «اجتمع معظمنا خارج الصف أكثر من مرَّة لنعرف كيف نستطيع التغلُّب

على هذا النظام. وقرّر الجميع أنّ أفضل طريقة أنّ تتصوّر أنّك سترسب، ومن ثمّ تحاول كلّ جهدك ليحدث العكس، وعندها ستبدأ بالاسترخاء، وإلاّ ستجن».

وأضاف الطالبان أنّك عندما تعتاد الأمر، ستعلم أنّه ليس سيّئاً، وستصبح عندها مُهتمّاً أكثر بالمادة. لكنّهما أعادا القول إن الأمر لم يكن سهلاً.

وفي نهاية الفصل، طلب من الطلّاب الذين لم يعرفوا علاماتهم حينها أنّ يكتبوا مقالةً لتقييم النظام، وتبيّن أنّ خمسة وأربعين من بالمائة من الطلّاب عارضوا النظام، وسبعة وثلاثين حبّذوه، وتسعة من المائة لم يكن لديهم أيّ مشاعر اتّجاه النظام.

وعلى أساس صوت لكلّ طالب، لم يلق النظام شعبيّة. إذ أراد معظم الطلّاب بكلّ تأكيد معرفة علاماتهم أثناء تقدّمهم في الفصل. لكن لمّا أعطاهم (فيدروس) العلامات المدرجة في سجل العلامات، لم تكن العلامات مختلفة عن العلامات المتوقّعة لصفوف سابقة، وامتحانات القبول. تغيّر كلّ شيء. أصبح طلّاب العلامة (أ) منقسمين بين معارضين للنظام ومحبّذين له، وكذلك كان طلّاب العلامات (ب) و(ج) في حين أنّ طلّاب العلامات (د) و(هـ) كانوا معارضين له بإجماع.

لقد دعمت هذه النتيجة المدهشة حدساً لازمه مدّة طويلة، وهو أنّ الطلّاب الألمع والأكثر جدّية كانوا أقلّ الطلّاب رغبة بالعلامات، ربّما لأنّهم كانوا مهتمّين بموضوع الدروس أكثر، في حين أنّ الطلّاب الكسالى كانوا أكثر الطلّاب اهتماماً بالعلامات، ربّما لأنّ العلامات تخبرهم إن كانت جيّدة أم لا.

***

كما قال (ديويز)، يمكنك أنّ تقطع مسافة خمسة وسبعين ميلاً من هنا وبشكل مستقيم إلى الجنوب دون أنّ تقابل شيئاً سوى الغابات والثلوج، مع أنّ هناك طرقاً إلى الشرق وإلى الغرب. ولقد رتّبت الأمر بحيث لو حصل مكروه في نهاية اليوم الثاني، سنكون بالقرب من طريق تعيدنا بسرعة. لم يعلم (كريس) بهذا، وإن أخبرته بذلك سيعدّ الأمر خدشاً لروح المغامرة التي اكتسبها في مخيّم جمعيّة الشباب المسيحيّين. لكن روح مغامرة جمعيّة الشبّان المسيحيّين قد تضاءلت بعد ترحالٍ طويل في البلاد العالية، وحلت محلها رغبة في تجنّب المخاطر والتقليص منها. قد يكون هذا البلد خطراً. فإن اتخذّت خطوة خاطئة واحدة، قد ينكسر كاحلك، ثمّ ستجد إلى أيّ حدّ أنت بعيد عن الحضارّة.

إذ من الواضح أنّ هذا وادٍ قلّما يدخله أحد إلى هذا الارتفاع، وبعد ساعة كاملة أخرى من التسلّق نرى أنّ الدرب قد اختفى تماماً.

كانت فكرة (فيدروس) في حجب العلامات جيّدة، كما يقول في ملاحظاته، لكنّه لم يعطها أيّة دلالة علميّة. ففي التجارب العلميّة الحقيقيّة، عليك أنّ تُبقيَ ثابتاً كلّ سبب يمكن أنّ تفكّر فيه باستثناء سببٍ واحدٍ، ثمّ ترى ما هي النتائج المتغيّرة. ولن تستطيع فعل هذا الشيء في الصف. فمعرفة الطالب، وتوجّهاته، وتوجّهات المعلّم كلّها تختلف عن جميع أنواع الأسباب التي لا يمكن التحكّم بها، وغير المعروفة بمعظمها. إضافة إلى ذلك، يعدّ الملاحظ نفسه أحد الأسباب التي لا يمكن التحكّم بها. ولن

يستطيع إطلاق أحكامٍ على دوره المؤثّر دون التغيير فيه. ولهذا لم يحاول أنّ يخرج بنتائج صارمة من كلّ هذا، وإنّما واصل ما يجب عمله.

حدث الانتقال من هذا الموضوع إلى النوعيّة بسبب الجانب المشؤوم للعلامات الذي كشف عنه لمّا قرّر حجب العلامات. وتكشف العلامات بحقّ عن فشلٍ في التعليم. ويستطيع المدرّس السيّء أنّ يقضي الفصل كاملاً دون أنّ يترك في عقول الطلبة ما يتذكّرونه، ويعدّل علامات الطلبة في امتحان ليس له أيّة دلالة، ويترك انطباعاً أنّ بعض الطلبة قد تعلّم وبعضهم لم يتعلَّم. لكن إن تخلّصنا من العلامات فسيقضي الطلّاب الفصل في التساؤل عمّا تعلّموه بحقّ. وستصبح الأسئلة: ما الذي تمَّ تدريسه؟ ما الهدف؟ وكيف تحقّق المحاضرات والواجبات الهدف؟ أسئلة مشؤومة. فالتخلّص من العلامات سيخلق فراغاً ضخماً ومخيفاً.

لكن، ما الذي كان (فيدروس) يحاول عمله على أيّة حال؟ صار السؤال مُلحّاً كلّما تقدّم في تجربته. فالإجابة التي بدت صحيحة لمّا بدأ تجربته لم تعدّ ذات معنى. أراد أنّ يصبح طلاّبه مبدعين وأنَّ يتخذوا قرارهم بأنفسهم حيال الكتابة الجيّدة وغير الجيّدة، لا أنّ يسألوه على الدوام. فالهدف الحقيقي لحجب العلامات هو إجبارهم على أنّ يبحثوا داخل أنفسهم. وهو المكان الوحيد الذين قد يجدون فيه جواباً شافياً.

لكن لم يعدّ لهذا أيّ معنى الآن. فلو كانوا يعلمون ما هو الجيّد وما هو السيّء، لما كانوا بحاجة إلى تسجيل الدروس في المقام الأوّل. وتعني حقيقة وجودهم كطلّاب أنهم لا يعلمون ما هو الجيّد وما هو السيّء. وهذه وظيفته كمدرّس - أنّ يخبرهم ما هو جيّد وما هو سيّء- لأنَّ فكرة الإبداع والتعبير

الفردي برمّتها هي فكرة في الأساس معارضة لفكرة الجامعة بأكملها.

ولدت فكرة حجب العلامات لدى الطلّاب موقفاً كافكوياً رأوا فيه أنّهم سيعاقبون لفشلهم بعمل أشياء دون أنّ يخبرهم أحد ما هي تلك الأشياء. بحثوا داخل أنفسهم، ولم يروا شيئاً، ونظروا إلى (فيدروس) ولم يروا شيئاً، وجلسوا هناك بلا عنّ ولا قوّة، لا يعلمون ما يفعلون، كان الفراغ مميتاً. وعانت إحدى الطالبات من انهيار عصبي، فأنت لا تستطع أنّ تمسك العلامات وأنَّ تصمت مشكّلاً فراغاً عقيماً. عليك أنّ تقدّم هدفاً للصف ليعملوا وفقه، وبذا ستقضي على الفراغ، وهذا ما لم يفعله هو.

لم يستطع فعل ذلك، لم يستطع التفكير بطريقة ممكنة يمكنه إخبارهم بها ليعملوا وفقاً لها دون أنّ يلجأ إلى مصيدة التعليم السلطوي التهذيبي. لكن كيف لنا أنّ نحدّد الهدف الداخلي الغامض لكلّ شخص مبدع على حدة؟

لهذا تخلّى عن الفكرة تماماً في الفصل التالي. ورجع إلى نظام العلامات الاعتيادي، وكان محبطاً، ومشوشاً، لأنّه شعر أنّه كان محقّاً مع أنّ النتيجة كانت خطأ. ولمّا يضم الصف حالات من الفرادة والعفويّة والأشياء المتأصلّة بحقّ، فإنّ هذه الأشياء تحدث رغماً عن التدريس لا بسببه. ويبدو هذا معقولاً. كان مستعدّاً للاستقالة. فالتدريس القائم على التقليد الممل لطلّاب كارهين لم يكن ما أراد تحقيقه وطمح إليه.

وسمع أنّ كليّة (ريد) في ولاية (أوريغون) تمسك العلامات حتّى التخرّج، فذهب هناك خلال عطلة الصيف، لكنّه علم أنّ أعضاء هيئة التدريس كانوا منقسمين إزاء قيمة إمساك العلامات، ولم يكن أحدٌ سعيداً جدّاً بالنظام. أصبح مزاجه باقي الصيف مكتئباً وكسولاً. خيّم هو وزوجته

كثيراً في تلك الجبال، وكانت تسأله عن صمته الدائم، لكنّه لم يجبها بشيء.
لم يستطيع التفكير، وواصل انتظار بذرة البلورة التي ستكشف أفكاراً كثيرة غيرها.

17



يبدو الوضع سيّئاً لـ(كريس)، كان يمشي أمامي معظم الوقت، لكنّه الآن يجلس تحت شجرة. لا ينظر نحوي، ولذا أعرف أنّ الأمر سيّء.

أجلس بجانبه، وتعبير وجهه المحمرّ شارد، وأستطيع أنّ أجزم أنَّه منهك. نجلس وننصت إلى صوت الريح عبر أشجار الصنوبر.

أعلم أنَّه في نهاية المطاف سينهض ويواصل المسير، لكنّه لا يعرف ذلك، وهو خائف من مواجهة احتمال قد يولّده خوفه؛ ولن يكون قادراً على تسلّق الجبل على الإطلاق. أتذكّر شيئاً كتبه (فيدروس) عن هذه الجبال

أقول له: «قبل سنوات، كنّا أنا ووالدتك عند خطِّ نموِّ الأشجار في مكان لا يبعد كثيراً من هنا، وخيمّنا بالقرب من بحيرة تنتهي بسبخة في إحدى أطرافها».

لا يرفع رأسه لكنّه يستمع.

- «وعند الفجر سمعنا صوت صخور تتساقط، واعتقدنا أنَّه صوت

حيوان، إلاّ أنّ الحيوانات لا تصدر صوت قرقعة. ثمّ سمعت صوت السحق في المستنقع. واستيقظنا تماماً من نومنا. خرجت من كيس النوم ببطء وأخرجت مسدسي من سترتي وكمنت خلف شجرة».

بدأ الآن اهتمام (كريس) يتشتت.

- «ثمّ سمعنا صوت سحقٍ آخر، اعتقدت أنّها خيول ومعها شبان يحزمون أمتعتهم، لكن ليس في هذه الساعة. ثمّ سمعت صوت سحق آخر. ثمّ صوت همرجة عالياً. لم يكن حصاناً، ثمّ صوت همرجة، وهمرجة. وهناك في الضوء الرمادي الخافت من الفجر جاء نحوي عبر وحل المستنقع أكبر ذكر أيّل رأيته في حياتي. كانت قرونه عريضة كطول رجل طويل، وهو إلى جانب الدب الأشمط أكثر الحيوانات خطورة في الجبال، وربّما هو أسوأها».

تلتمع عينا (كريس) مرّة أخرى.

«**همرج**! أنزلت المطرقة على المسدس معتقداً أنّ مسدس (38 سبيشل) ليس نداً للأيل. **همرج**! لم يرني. وهمرج! لم أستطع أنّ أبتعد عن طريقه. كانت أمّك في كيس نومها. أمامه مباشرة. و**همرج**! يا له من عملاق. و**همرج**! كان يبعد عشرة أقدام. **همرج**! وقفت أمامه واستقبلته. **همرج**!... **همرج**!.... **همرج**!..... توقّف، على بعد ثلاثة أقدام ورآني، ووجهت فوهة البندقية بين عينيه ... كنّا بلا حراك».

أمدّ يدي لأتناول بعض الجبن

- «وماذا حدث بعد ذلك؟» يسأل (كريس).

- «انتظر حتّى أقطع الجبنة».

أتناول سكيّن الصيد، وأمسك بغلاف الجبن لكي لا تلامسه يدي، وأقطع قطعة كبيرة، وأقدمّها له، فيتناولها.

يقول: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

أنتظر حتّى يتناول أوّل قضمة من الجبن، فأقول: «نظر الأيل إليّ لما نحو خمس ثواني، ثمّ نظر إلى أمّك، ثمّ نظر إليّ مرّة أخرى، وعلى المسدس الذي كان عملياً مصوّباً نحو أنفه المستدير الكبير، ثمّ مشى بعيداً».

يقول (كريس): «لااااااا» ويبدو محبطاً.

أقول: «في العادة عندما يتمّ مواجهتها على هذا الشكل فإنّها تهجم، لكنّه فكّر لوهلة وقال إنّه صباح جميل، وكنّا هناك قبله فلماذا المشاكل؟ ولهذا السبب ابتسم».

- «هل يستطيع الأيل أنّ يبتسم؟»
- «لا، لكنّه بدا كذلك».

أضع الجبن جانباً وأقول: «ولاحقاً في ذلك اليوم، كنّا نقفز من جلمود إلى آخر إلى أسفل المنحدر، وكنت على وشك أنّ أدوس على جلمود بني ضخم لمّا تحرّك ذلك الجلمود فجأة في الهواء، وركض نحو الغابة. كان الأيل نفسه. أعتقد أنّه قد سأم وجودنا».

أساعد (كريس) على الوقوف وأقول: «لقد كنتَ مسرعاً قليلاً. ستصبح حافة الجبل من الآن فصاعداً أكثر انحداراً، وعلينا أنّ نسير ببطء. إن أسرعت المشي فسينقطع نفسك، وإن حدث معك ذلك ستصاب بدوخة، وسيضعف ذلك روحك وعزيمتك، وستعتقد أنّك غير قادر على متابعة السير. ولهذا خفّف من سرعتك الآن».

يقول: «سأبقى خلفك».

- «حسناً».

نمشي بعيداً عن الجدول الذي كنّا نتبعه الآن إلى أعلى الوادي في أضيق زاوية وجدتها.

ينبغي تسلّق الجبال بأقلّ جهد مبذول وبدون اندفاع. وطبيعتك يجب أنّ تحدّد سرعتك. فإنّ انتابك القلق أسرع. وإن لهثتَ خفف من سرعتك، وعليك تسلّق الجبل بتوازن بين الضجر والإنهاك. وعندما لا تفكّر في ما هو أمامك، فإنّ كلّ خطوة ستكون حدثاً خاصّاً بذاته، وليست وسيلة إلى النهاية. فهذه الصخرة الرقيقة ذات أطراف مسنّنة، وهذه الصخرة طليقة. يصبح الثلج من هذه النقطة غير مرئي تماماً مع أنَّه أقرب. وهذه أشياء عليك ملاحظتها على أيّة حال. فإنّ عشت لهدف مستقبلي فقط ستصبح حياتك ضحلة. فجوانب الجبل هي التي تؤمّن بيئة مناسبة لحياة الأشجار، وليس القمّة. فهنا تنمو الأشياء.

وبالطبع بدون القمّة لن تكون جوانب. فالقمّة هي التي تحدّد الجوانب. ولهذا نواصل مسيرنا... أمامنا الكثير لنقطعه... دون عجلة... خطوة تلو خطوة... مع بعض التشوتوكوا للمتعة... التأمّل الذهني أفضل بكثير من التلفزيون. ومن المخزي ألاّ يمارسه كثير من الناس. فهم قد يعتقدون أنّ ما يسمعونه غير مهمّ، لكنّه في الحقيقة مهمّ جدّاً.

هناك شذرة متعلّقة بمحاضرة (فيدروس) الأولى بعد أنّ أعطى ذلك الواجب عن النوعيّة في الفكر والبيان. كان الشعور العام متوتّراً. وكان كلُّ

شخص تقريباً محبطاً وغاضباً كحال (فيدروس) في بحثه.

قالوا: «كيف لنا أنّ نعرف ما هي النوعيّة»؟ أنت من يجب أنّ يخبرنا بذلك».

ثمّ قال لهم إنّه لا يعلم ما النوعيّة، وأراد حقّاً أنّ يعرف. وقد أوكل الأمر لهم، لعلَّ شخصاً يأتي بجواب جيّد.

أشعل كلامه الجوّ العام في الصف. وهزّت الغرفة زمجرة من السخط. وقبل أنّ يهدأ الهياج، دسّ أحد المدرّسين رأسه عبر الباب ليرى ما يحدث.

قال له (فيدروس): «الأمور جيّدة، لقد تعثّرنا بسؤال مهم، وكانت الصدمة أكبر من أنّ نتعافى منها بسهولة». بدا بعض الطلّاب محتارين، وانخفضت حدّة الصوت.

ثمّ استخدم هذه الحادثة ليعود سريعاً إلى موضوعه «فساد واضمحلال كنيسة المنطق». ومن مظاهر هذا الفساد أنّ يغضب الطلّاب إن حاول أحد استخدامهم للوصول إلى الحقيقة. ويفترض بك أنّ تزيّف هذا البحث عن الحقيقة، وأنَّ تقلّده. إذ يعدّ البحث الحقيقي عن الحقيقة عبثاً بغيضاً.

والحقيقة أنّه أراد بحقّ أنّ يعرف ما الذي كانوا يفكّرون فيه، لا ليقيّمه، وإنّما لأنّه أراد أنّ يعرف.

وبدوا محتارين.

قال أحدهم: «صحوت طوال الليل».

وقالت طالبة تجلس بجانب النافذة: «كنت على وشك أنّ أبكي. أوشكت أنّ أصاب بالجنون».

وقال ثالث: «كان عليك أنّ تحذّرنا».

وقال: «كيف لي أنّ أحذرّكم، وأنا لا أعرف ردود أفعالكم».

نظر إليه بعض الطلّاب المحتارين لأوّل مرّة، وأدركوا أنّه لم يكن يلعب، لقد أراد بحقّ أنّ يعرف.

شخص غريب جدّاً.

ثمّ قال أحدهم: «وما رأيك أنت؟»

فأجاب: «لا أعلم».

صمت لمدّة طويلة ثمّ قال: «أعتقد أنّ هناك شيئاً يسمّى جودة النوعيّة، لكنّك إن حاولت تعريفها، ستدرك أنّ هناك خطأً ما. ولن تستطيع تعريفها».

سادت همهمّة دلّت على الاتّفاق معه.

واصل كلامه: «وما سبب هذا! لا أعلم. اعتقدت أنني أستطيع أنّ أحصل على أفكار من أوراقكم. لا أعلم».

ساد الصمت في الصف.

وطبعت معظم الصفوف اللاحقة ذلك اليوم بالهياج نفسه. لكنْ قدّم عدد من الطلّاب في كلّ صف إجابات مقبولة أخبروه فيها أنّ الموضوع قد تمّت مناقشته خلال الغداء.

بعد عدّة أيّام صاغ تعريفاً خاصّاً به ووضعه على السبوّرة لينسخه من شاء من الأجيال القادمة. وكان التعريف: «النوعيّة هي خاصيّة الفكر والبيان يتمّ التعرّف إليها عبر عمليّة غير فكريّة. ولأنّ التعريفات نتاج تفكير رسمي صارم، لا يمكن تعريف النوعيّة».

وحقيقة هذا التعريف أنّه في الواقع رفضٌ للتعريف لا داع للتعليق عليه، ولا يمتلك الطلّاب التدريب الشكلي الذي قد يخبرهم أنّ عبارته

كانت بالمعنى الشكلي غير عقلانيّة على الإطلاق. وإن لم تستطع تعريف شيءٍ، فليس لديك طريقة عقلانيّة شكليّة يمكنك من خلالها أنّ تعرف وجود ذلك الشيء. وليس هناك في الحقيقة فرق شكلي بين عدم القدرة على التعريف وبين الغباء. فعندما أقول: «لا يمكن تعريف النوعيّة». فإنا في الحقيقة أقول: «أنا جاهل بالنوعيّة».

لحسن الحظّ، لم يعرف الطلّاب هذا، ولو أنّهم أبدوا هذه الاعتراضات، لما تمكّن من إجابتهم في ذلك الوقت. لكنّه كتب تحت التعريف: «لكن مع أنّنا لا نستطيع تعريف النوعيّة، إلاّ أنّنا نعرف ما النوعيّة». عندها بدأت تهب العاصفة.

- «لا، لا، لا نعرف!»

- «بل تعرفون».

- «لا، لا لا نعرف».

- «بل تعرفون». وجهز مادّةً ليدعم قوله، فاختار مثالين من مواضيع الطلّاب. الأوّل كان غير مترابط، لكن بأفكارٍ مثيرة لم تستخدم من قبل. أمّا الثاني فكان نصّاً رائعاً كتبه طالب كان هو نفسه يضلّل نفسه بخصوص النصّ الجيّد. قرأ (فيدروس) الموضوعين ثمّ طلب من الطلّاب رفع أيديهم إذا ما كانوا يعتقدون أنّ الموضوع الأوّل هو الأفضل. رفع طالبان يديهما. وسأل من يعتقد أنّ الثاني هو الأفضل فرفع ثمانية طلّاب أيديهم.

- «ومهما كان السبب الذي دفع الأغلبيّة العظمى منكم لرفع أيديهم على الموضوع الثاني، فهو ما أعنيه بالنوعيّة، ولهذا أنتم تعلمون ما هي».

ساد صمت تأملي طويل بعد كلامه، ممّا جعله هذا يستمر.

من الناحية الفكريّة يعدّ هذا الأمر شائناً. وهو يعلم ذلك. لذا لم يعدّ يدرّس، وإنّما أصبح يلّقن، فلقد بنى كياناً خياليّاً، وعرّفه بأنّه لا يمكن تعريفه، وأخبر الطلّاب مع اعتراضهم أنّهم يعرفون ما النوعيّة، وبرهن على كلامه بتقنية مربكة كما هو المصطلح نفسه، وقد تمكّن من الإفلات من هذا لأنَّ عمليّة الدحض العلمي تتطلّب موهبة أكبر من التي يمتلكها الطلبة. وفي الأيّام اللاحقة دعا الطلّاب باستمرار لدحض أفكاره، لكن لم يتقدّم أحد، ولهذا ارتجل أكثر.

لتعزيز فكرة أنّهم يعرفون ما النوعيّة، اعتاد قراءة أربع أوراق للطلّاب في المحاضرة، وطلب منهم تقسيمها حسب نوعيّتها على ورقة منفصلة. ونقل الأمر ذاته بالمثل، وجمع الأوراق، وحسب الدرجات التي أعطاها الطلّاب للمواضيع على اللوح، واستخرج المتوسّط الترتيبي لرأي الطلّاب العام. ثمّ كشف عن ترتيبه الذي كان قريباً جدّاً، إن لم يكن مطابقاً لمتوسط الطلّاب. لكن إن كان هناك خلافات فهي موجودة لأنَّ الأوراق متشابهه في النوعيّة.

كانت الصفوف مبتهجة بهذا التمرين في بداية الأمر، لكن أصبحت مع مرور الوقت تعاني من الضجر. فما عناه بالنوعيّة واضح جدّاً، وقد عرفوا تماماً ما كان يعني، ولهذا فقدوا الاهتمام بالاستماع إليه. وأصبح سؤالهم الحالي: «حسناً، نحن نعلم ما النوعيّة، كيف نستطيع الحصول عليها؟»

وأخيرا حان دور نصوص البلاغة المعياريّة. ولم تعدّ المبادئ المفصلّة فيها قواعد يمكن دحضها. لم تعدّ بذاتها غايات قصوى، وإنّما تقنيات وحيل لإنتاج ما يعدّ منفصّلاً عن التقنيات، ونعني به النوعيّة. ما بدأ كهرطقة في الخطابة التقليديّة أصبح مقدّمة جميلة لها.

حدّد معالم النوعيّة، كالوحدة والحيويّة والسلطة والتوفير والحساسية والوضوح والتأكيد والتوقّف والتشويق واللمعان والدقّة والتوازن والعمق إلى آخره، لكنّه لم يعط هذه الأشياء تعريفاً محدّداً كحال النوعيّة، وإنّما برهن عليها باستخدام طرق القراءة المتّبعة في الصف. وأظهر كيف أنّ عنصر النوعيّة المسمّى وحدةً، يعني ترابط أجزاء القصّة ببعضها، يمكن تحسينه عبر تقنية تسمّى الخطاطة. ويمكن توضيح سلطة المحاجّة باستخدام تقنيّة تسمّى الهوامش السفلية، التي تمدّنا بإشارات مرجعيّة موثوقة. وتدرّس كلّ من الخطاطة والحواشي في جميع صفوف الإنشاء لطلّاب السنة الأولى، لكنّها الآن أدوات لتحسّين النوعيّة تنطوي على هدفها الخاص. وإن أُعطي الطالب مجموعة من المراجع غير الموثوقة، أو الأشكال المتهلّهلة، التي تظهر أنّه أدّى الواجب بطريقة متبّعةٍ، علينا أنّ نخبره أنّ ورقته مع تحقيقها شروط الواجب إلاّ أنّها لم تحقّق هدف النوعيّة، لذا فهي عديمة القيمة.

جواباً عن سؤال الطالب الدائم: «كيف لي أنّ أفعل ذلك؟» الذي أحبطه إلى حدّ الاستقالة، يمكن أنّ يقول: «ليس مهمّاً كيف تصل لها، لكن المهمّ أنّ تكون جيّدة». وقد يسأل الطالب المواظب: «كيف نعرف ما الجيد؟» لكنّه سيدرك قبل إتمام سؤاله أنّ الإجابة قد ذكرت من قبل، وقد يخبره بها طالب آخر بقوله «تراها فقط». وإن قال: «لا، لا أراها»، سيرد عليه: «بلى، تراها، ويثبت له ذلك». وسيشعر الطالب في نهاية المطاف أنّه محاصر تماماً، وسيصدر أحكاماً نوعيّة بنفسه. هذا وليس غيره هو ما يعلّمه الكتابة.

اضطُرّ (فيدروس) حتّى تلك النقطة إلى قول ما يفرضه عليه النظام الأكاديمي، مع أنّ هذا الأمر قد أجبر الطلّاب الانضباط مع أشكالٍ صناعيّة

أتت على قدرتهم على الإبداع. وقد لاقى الطلّاب الذين طبقّوا قواعده انتقاداً واسعاً لعدم قدرتهم على الإبداع أو إنتاج عملٍ يعكس مقاييسهم عمّا هو جيّد.

والآن انتهى كلُّ هذا. وعن طريق عكس القاعدة الرئيس فكلّ ما يدرّس يجب أوّلاً أنّ يعرّف، بإيجاد مخرجٍ لكلّ هذا. فهو لم يشر إلى أيّ مبدأ، أو قاعدة للكتابة الجيّدة أو نظريّة، وإنّما كان يشير إلى شيء كان مع كلّ ما ذكر حقيقيّاً جدّاً، ولا يستطيعون أنّ ينكروا حقيقته. والفراغ الذي تشكّل بعد الإمساك بالعلامات، ثمّ تعبئته فجأة بهدف النوعيّة الإيجابي، وارتبط كلّ شيء ببعضه. وقال له الطلّاب الذين أصابتهم الدهشة: «كنت أكره مادّة اللغة الإنجليزيّة، أمّا الآن أكرّس لها وقتاً أكثر من أيّ مادّة أخرى». لم يقل طالب واحد، ولا اثنان ذلك بل كثيرون. فمفهوم النوعيّة برمّته مفهوم جميل. ويعمل جيّداً، فهو على اللوح في النهاية الهدف الداخلي الشخصي المحيّر، لكلّ شخص مبدع.

أنظر نحو (كريس) لأتفقّد أمره. يبدو وجهه متعباً.

أسأله: «كيف تشعر؟»

يقول: «بخير»، لكن طريقته كانت توحي بالتحدّي.

أقول: «نستطيع أنّ نتوقف في أيّ مكان ونخيّم فيه».

ينظر نحوي نظرة شرسة، ولهذا لم أقلّ شيئاً بعد ذلك. وسرعان ما أراه يشقّ طريقه حولي في المنحدر، ويتقدّم إلى الأمام بجهد كبير، فنواصل مسيرنا.

وصل (فيدروس) بمفهوم النوعيّة إلى هذا الحدّ عن قصدٍ، لأنّه رفض أنّ ينظر خارج تجربة غرفة الصف. وقد ينطبق على هذا الوضع عبارة (كرومويل): «لا أحد يسافر عالياً وهو لا يعلم أين يذهب». و(فيدروس) لم يكن يعلم أين هو ذاهب. وكلّ ما كان يعلمه أنّ طريقته تعمل جيّداً.

بدأ مع الوقت يتساءل لماذا نجحت طريقته، لمّا علم أنّها غير عقلانيّة. خاصّة ولماذ قد تنجح طريقة غير منطقيّة في وقت أصبحت فيه كلّ الطرق المنطقيّة عفنة؟ انتابه حدس نما بسرعة كبيرة أنّ ما توصلّ إليه لم يكن حيلة. بل أبعد من ذلك. لكن إلى أيّ مدى! هذا ما لم يكن يعلمه.

كانت هذه بداية البلّورة التي تحدّثت عنها من قبل. وتساءل الآخرون: «ولماذا عساه يقلق كثيراً في ما يتعلَّق بالنوعيّة؟» لكنّهم رأوا الكلمة وسياقها البلاغي فقط، ولم يروا بؤسه القديم بصدد الأسئلة المجرّدة المتعلّقة بالوجود التي تركها يائساً.

لو أنّ شخصاً آخراً سأل ما النوعيّة؟ لكان هذا سؤالاً مختلفاً تماماً. لكنّه لّما سأل هذا السؤال، انتشر السؤال مباشرة بسبب تاريخه كالأمواج في كلّ اتّجاه، ليس كبناء تراتبي وإنّما متداخل المركز. وفي المركز، كانت الجودة التي شكّلت كلّ الأمواج. ومع امتداد هذه الأمواج، كنت متأكّداً أنّه توقّع وصول كلّ موجة أحد شواطئ الفكر النمطي. ولهذا كان له ما يمكن عدُّهُ علاقة موحّدة بهذه البناءات الفكريّة، لكنّه لم يصل الشاطئ حتّى النهاية، هذا إن وصله مطلقاً. وبالنسبة إليه لم يكن هناك شيء سوى الأمواج الصادرة من البلّورة. سأحاول الآن أنّ أتتبّع أمواج البلّورة هذه، وهي المرحلة الثانيّة من سعيه نحو النوعيّة.

يبدو (كريس) أمامي متعباً وغاضباً. يتعثر ببعض الأشياء. فلم يحاول إبعاد الأغصان من طريقه، وإنّما تركها تشتبك بملابسه.

أشعر بالأسف لرؤية هذا. يقع بعض اللوم على مخيّم الشبّان المسيحيّين الذي انضمّ إليه قبل أسبوعين من رحلتنا. وممّا أخبرني، أستطيع القول إنّهم قد هوّلوا هذه التجربة الخارجيّة، واعتبروها إثباتاً للرجولة. التحق بدايةً بصف وضيع في المخيّم، كانوا حريصين على التقليل من شأن الملتحقين به..... خطيئة قديمة. ثمّ سمحوا له بإثبات نفسه عبر سلسلة طويلة من الإنجازات كالسباحة وشدّ الحبل وغيرها من النشاطات التي لا أستطيع تذكّرها الآن.

جعل المخيّم الأولاد أكثر اندفاعاً وتعاوناً عندما يكون لديهم أهداف ذاتيّة ليحققّوها، لكن هذا النوع من الحافز مدمّر للذات في نهاية المطاف. فأيّ جهد ينظر إلى تمجيد الذات كغاية مصيره أنّ ينتهي بالدمار. ونحن الآن ندفع الثمن. حين تحاول تسلّق جبل لتثبت كم أصبحت كبيراً، فإنّك لن تستطيع تسلّق الجبل. وحتّى إن تمكّنت من تسلّق الجبل، فإنّ النصر سيكون نصراً فارغاً، وعليك لكي تثبت استحقاقك النصر، أنّ تثبت نفسك مرّة تلو الأخرى، مدفوعاً إلى الأبد لرسم صورة خاطئة، فيطاردك خوف بأنّ الصورة ليست حقيقيّة، وهذه ليست هي الطريق الصحيح.

كتب (فيدروس) رسالة من الهند عن الحجّ إلى الجبل المقدّس (كايلاس)، منبع نهر (الغانغ) ومقرّ (شيفا) في جبال (الهمالايا)، وهو يرافق رجلاً مقدّساً وأتباعه.

لم يصل الجبل مطلقاً، فلقد استسلم بعد اليوم الثالث، وكان منهكاً،

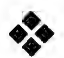
واستمّر الحجّ بدونه؟ قال إن لديه القوّة الجسديّة لكنّها لم تكن كافية، وكان لديه الحافز الذهني، لكنّه لم يكن كافياً أيضاً. لم يعتقد أنّه كان مغروراً، لكنّه اعتقد أنّه كان يحاول الحجّ ليوسّع خبراته، وليفهم نفسه بشكلّ جيّد. كان يحاول أنّ يستخدم الجبل لأهدافه الخاصّة، والأمر ينطبق على الحجّ أيضاً. عدَّ نفسه الكيان الثابت، ولم يكن الحجّ أو الجبل بالنسبة إليه كذلك. ولهذا لم يكن جاهزاً له، وظنّ أنّ الحجّاج الآخرين الذين وصلوا الجبل، قد أحسّوا بقداسة الجبل كثيراً، حتّى أنّ كلّ خطوة خطوها عُدَّت فعلاً تكريسياً، فعلاً دالاً على الخنوع لهذه القداسة، وأنَّ قداسة الجبل قد بثّت في أرواحهم القدرة على التحمّل بشكل لا يستطيع هو بكلّ قواه الجسمانيّة فعلَ ما فعلوه.

قد يبدو تسلّق العين الذاتي والتسلّق غير النفسي للعين غير المدرْبة الأمر ذاته. فالمتسلّقون في كلتا الحالتين يضعون قدماً أمام الأخرى، ويتنفّسون شهيقاً وزفيراً بوتيرة واحدةٍ. وكلّهم يتوقّفون إن أصابهم التعب. وكلّهم يتقدّمون عندما يستريحون، لكن ما الفرق؟ إن المتسلّق الذاتي مثل أداة لا يمكن إصلاحها، فقد يضع قدمه في لحظة سابقة أو لاحقة لما هو مطلوب، وقد يفوته معبر جميل لضوء الشمس خلال الأشجار، وقد يستمّر عندما يدلّ انزلاق قدمه على تعبه، وقد يستريح في أوقات غريبة. وينظر إلى أعلى الدرب محاولاً أنّ يكتشف ما الذي أمامه حتّى عندما يعلم ما الذي أمامه، لأنّه نظر قبل لحظة قصيرة. وقد يمضي أسرع من اللازم أو يبطئ من اللازم، وعندما يتحدّث يكون حديثه عن مكان آخر، أو شيءٍ آخر، فهو هنا لكنّه ليس هنا. فهو يرفض وجوده الآني. وهو غير سعيد به، ويريد أنّ يكون في أعلى الدرب، لكنّه عندما يصله يصبح غير سعيد لأنَّ أعلى الدرب قد أصبح

«هنا» بالنسبة إليه. وكلّ ما يبحث عنه، وما يريده حوله، لا يريده لأنّه حوله، وتعدُّ كلّ خطوة مجهوداً كبيراً له على المستويين الجسماني والروحاني، لأنّه يتخيّل هدفه خارجيّاً وبعيداً.

يبدو أنّ هذه هي مشكلة (كريس) الآن.

18



هناك فرع كامل من الفلسفة يهتمّ بتعريف النوعيّة، اسمه علم الجمال يعود إلى أقدم الأزمنة. وسؤاله المحوري: «ماذا نعني بالجميل؟». وقد أعرض (فيدروس) حين كان طالب فلسفة بعنف عن دراسة هذا الفرع من المعرفة. ولقد شارف على الرسوب في هذه المادّة عن قصدٍ، وكتب عدداً من الأوراق هاجم فيها المدرّس والمواد هجوماً شنيعاً. كان يكره كلّ شيء، ويحتقر كلّ شيء.

لم يكن تصرّفه هذا ردّة فعل ضدّ مختصّ بعينه في علم الجمال، وإنّما كانوا جميعاً السبب، ولم يزعجه أيّ موضوع أكثر من أنّ تكون النوعيّة تابعة لأيّة وجهة نظر. كانت العمليّة العقليّة تدفع النوعيّة إلى الاستعباد والانتهاك. أعتقد أنّ هذا كان مصدر غضبه.

كتب مرّةً: «يعتقد علماء الجمال هؤلاء أنّ موضوعهم كحلوى النعنع التي يستطيعون إطباق شفاههم المدهّنة عليها، أو تصوّرها شيئاً يمكن

التهامه، أو تقسيمه بسكيّن، وتناوله بالشوكة والملعقة لقمّةً لقمّةً بعبارات رقيقة، لكنّني على وشك أن أتقيأ - فما يطبقون شفافهم عليه هو شيءٍ عفن قتلوه منذ مدّة طويلة جدّاً».

ورأى كخطوة أولى في عمليّة البلّورة أنّنا إن أبقينا النوعيّة دون تعريف، فإنّ علم الجمال بأكمله سيختفي، وسيسلب كلّ امتيازاته، وسيعمّه الدمار. ولّما رفض تعريف النوعيّة، فقد وضعها خارج العمليّة التحليليّة. فإن لم تستطع تعريف النوعيّة، فلن تستطيع أنّ تخضعها لأيّ قاعدة عقليّة. ولن يكون لدى علماء الجمال ما يقولونه. وسيختفي تماماً حقّهم القائم في تعريف النوعيّة.

أسعدته الفكرة كثيراً، إذ كانت أشبه باكتشاف علاج للسرطان، وليس هناك تفسيرات أخرى لماهية الفنّ. ولن تجد بعد الآن مجموعات من الخبراء اللامعين من مدارس نقديّة يخبرونك منطقيّاً بالنقطة التي نجح المؤلف أو التي فشل فيها. وعلى هؤلاء كلّهم - أدعياء المعرفة الشاملة- أنّ يبقوا أفواههم مغلقة. فهذه لم تكن فكرة جميلة، بل حلم.

أعتقد ليس هناك من رأى ما توصلّ إليه في بداية الأمر. فلم يروا فيه سوى مفكّر حاول إيصال رسالة تملك كلّ بهارج التحليل المنطقي لموقف تدريسي. ولم يدركوا أنّ لديه هدفاً مختلفاً تماماً عن أيّ هدف كانوا معتادين عليه. فهو لم يكن يدعم التحليل المنطقي، وإنّما كان يحجبه، وكان يقلب الطريقة العقلانيّة على نفسها. وقلبها ضدّ نوعها دفاعاً عن مفهوم منطقي، عن كيانٍ غير معرف اسمه النوعيّة.

وكتب: «(1) يعرف كلّ مدرّس إنشاء اللغة الإنجليزيّة ما النوعيّة، وأيّ

مدرّس لا يعرفها، عليه أنّ يبقي هذه الحقيقة مخفيّة بشكل كامل، لأنَّ هذه الحقيقة قد تكون دليلاً على عدم الأهليّة. (2) إن أيّ مدرّس يعتقد أنّ جودة نوعيّة الكتابة ممكنة وينبغي تعريفها قبل تدريسها، عليه أنّ يمضي قدماً ويعرفها. (3) كلّ من يشعر أنّ جودة نوعيّة الكتابة موجودة لكن لا يمكن تعريفها، ويجب تدريسها على أيّة حال، سيستفيد من اتباعه طريقة تدريس النوعيّة المحضة في الكتابة دون أنّ يعرفها».

ثمّ مضى قُدماً ووصف بعض طرق المقارنة التي دارت في الصف.

أعتقد أنّه كان يأمل بحقٍ أنّ يأتي شخص، ويتحدّاه ويحاول تعريف النوعيّة، لكن لم يجرؤ أحد على هذا.

لكن، عبارته المعترضة عن عدم القدرة على تعريف النوعيّة صارت دليلاً على عدم أهليّة الشخص وجعلت كثيراً من الطلّاب يفتحون عيونهم مستغربين. فهو في نهاية المطاف العضو الأحدث، ولا يتوقّع أنّ يقدّم معايير لأداء من هو أقدم منه.

كان حقّه بأنَّ يقول ما يحبّذ، وكان زملاؤه الأقدمون يستمتعون باستقلاله الفكري، ويدعمونه بطريقة لا تتمّ إلاّ في الكنائس. لكن لم يكن موقف الكنيسة على عكس الاعتقاد السائد لدى مؤيّدي الحريّة الأكاديميّة متسامحاً على الإطلاق مما يسمح للمدرّس بالتفوّه بأيّ شيء قد يخطر على باله دون تحمّل المسؤوليّة. وموقف الكنيسة هو أنّ المسؤوليّة يجب أنّ تكون لربّ المنطق، وليس لزعماء القوّة السياسيّة. وكونه كان يوبّخ الناس لم يكن ذا علاقة بصحّة أو عدم صحته ما كان يقوله، ولا يمكن عقابه أخلاقيّاً على ما يقول. لكن كانوا مستعدّين لهزيمته أخلاقيّاً وبتلذذٍ عبر الإشارة إلى عدم

صحّة ما يقوله. لكنّه يستطيع أنّ يفعل أيّ شيء يريده، ما دام قادراً على تبريره منطقيّاً.

لكن كيف تستطيع منطقيّاً تبرير رفضه لتعريف أيّ شيء؟ فالتعريفات هي أساس المنطق. ولا تستطيع أنّ تجادل بمنطق دونها. ويستطيع أنّ يؤخر الهجوم لمدّة عبر إعمال القدمين بشكل ممنهج جميل وعبر الشتائم عن القدرة وعدم القدرة، لكن عليه عاجلاً أو آجلاً أنّ يخرج بشيء أكثر أهميّة من هذا. وقد أفضت محاولاته للخروج بشيء أكثر أهميّة إلى المزيد من التبلور خارج أطر البلاغة التقليديّة نحو نطاق الفلسفة.

يلتفت (كريس) نحوي ويرمقني بنظرة يأسٍ. لن يطول الأمر كثيراً. كانت هناك دلائل قبل أنّ نغادر أنّ هذا حادث لا محالة. ولمّا أخبر (ديويز) جاره أنّني متمرّس في تسلّق الجبال، أظهر (كريس) إعجابه. كان ملء عينيه. لابدّ أنَّه متعب الآن، وسنتوقّف لاحقاً لبقيّة اليوم.

يا الله! لقد وقع! ولم يحاول الوقوف، لقد كان سقوطاً ظريفاً جدّاً، لم يكن مفاجئاً، وهو الآن ينظر إليّ بغضب وألمٍ، باحثاً عمّا يدينني. لا أظهر له أيّ مشاعر. أجلس بجانبه وأرى أنَّه كان يشعر بالهزيمة نوعاً ما.

أقول له: «حسناً، نستطيع أنّ نتوقّف هنا، أو نستطيع أنّ نستمر، أو نستطيع أنّ نعود. أيّ الأشياء تريد أنّ نفعل؟»

يقول: «لا أعلم، لا أريد أنّ ...».

- «لا تريد ماذا؟»

- « لا أعلم، لا أهتم».

أردُّ: «لأنّك لا تهتمّ، سنواصل مسيرنا».

فيجيب: «لا أحبّ هذه الرحلة، فهي ليست ممتعة، كما اعتقدت».

ينتابني الغضب فأقول: «قد يكون كلامك صحيحاً، لكن من غير اللائق ما قلته».

تظهر ومضة خوف في عينيه وهو يحاول الوقوف.

نواصل مسيرنا.

أصبحت السماء فوق الجانب الآخر من الوادي ملّبدة بالغيوم، وأصبحت الرياح حولنا أبرد وتنذر بما هو أسوأ. على الأقل، تجعل البرودة التسلّق أسهل.

كنت أتحدّث عن أوّل موجة من التبلور خارج البلاغة الناتجة عن رفض (فيدروس) تعريف النوعيّة. فعليه أنّ يجد إجابة عن السؤال: إن كنت لا تستطيع تعريف النوعيّة، فما الذي يدلّ على وجودها؟

كان جواباً قديماً يعود إلى مدرسة فلسفيّة **الواقعيّة** القديمة.. وقال: «إنّ الشيء موجود إذا كان العالم بدونه لا يعمل بشكل طبيعي. وإذا استطعنا أنّ نبرهن أنّ العالم بدون النوعيّة لا يعمل بشكل طبيعي، فهذا بحدّ ذاته دليل على وجود النوعيّة، سواءً عرفناها أم لا». ولهذا مضى قدماً ليجرّد النوعيّة من وصف العالم كما نعرفه.

وأوّل ضحيّة لهذا التجريد هو الفنون. فإن لم تستطع أنّ تميّز الخبيث من الطيّب في الفنون، فالفنون الجميلة تختفي برمّتها. وليس هناك غاية من تعليق لوحة على الحائط، إذا كان الحائط جميلاً كاللوحة. وليس هناك غاية

من وراء السمفونيّات إذا كانت أصوات التشخيط الصادرة عن الأسطوانة أو صوت الهمهمّة الصادر عن مشغّل الأسطوانات بجمال السمفونيّات.

سيختفي الشعر، لأنّه لن يكون معقولاً، ولا غاية له. وستختفي الكوميديا أيضاً، ولن يفهم أيّ شخص النكات، لأنَّ الفرق بين خفّة الروح وانعدامها هو النوعيّة.

ومن ثمّ جعل الرياضات تختفي. وستختفي كرة القدم، وكرة القاعدة، وجميع الألعاب بصرف النظر عن نوعها. ولن تبقى النتائج أداة قياس لأيّ شيء ذي معنى، وستصبح إحصائيّات فارغةً، كعددِ الحجارة في كومةٍ، فمن سيرقبها؟

ثمّ حذف النوعيّة من السوق وتوقّع التغيّرات التي قد تحدث! وحين تصبح نوعيّة الطعم ليست ذات معنى، فإنّ المحال التجاريّة ستضم الحبوب الأساسّة فقط كالأرز والذرة وحبوب الصويا والقمح وبعض اللحوم غير المصنّفة والحليب للرضّع الباكين، والمدعّمات الفيتامينّية والمعدنيّة للتعويض عن أيّ عجز ممكن حدوثه. وستختفي المشروبات الكحوليّة والشاي والقهوة والتبغ. وستختفي الأفلام أيضاً والرقصات والمسرحيات والحفلات. وسنستخدم جميعاً وسائل النقل العامّة. وسنلبس أحذية جنود الجيش الأمريكي. وسيصبح قسم كبير منّا بلا عمل، على الأقلّ لمدّة قصيرة جدّاً حتّى يتمّ توزيعنا في أعمال أساسّة ليست ذات نوعيّة. وستتغيّر العلوم التطبيقيّة والتكنولوجيّة تغيراً كبيراً، لكن العلوم البحتة والرياضيّات والفلسفة والمنطق خاصّة ستبقى دون تغيير.

اعتقد (فيدورس) أنّ آخر ملاحظة كانت ممتعة جدّاً. فالدروب العلميّة

البحتة كانت الأقلّ تأثّراً بحذف النوعيّة، فإن اسقطنا النوعيّة، ستبقى العقلانيّة فقط دون تغيير. وهذا غريب! لكن لماذا؟

لم يكن يعرف، لكنّه كان يعلم أنّنا لو حذفنا النوعيّة من صورة العالم كما نعرفه الآن، قد يظهر أهميّة هذا المصطلح الذي لم يكن يُعلم أنَّه موجود أصلاً في ذلك الجانب. وقد يستمرّ العالم بدون النوعيّة، لكن الحياة ستصبح مملّة جدّاً، إلى درجة يصعب معها العيش. وفي الحقيقة لا تستحقّ أنّ نعيشها. فمصطلح «القيمة» هو مصطلح نوعيّة. والحياة بدون النوعيّة تعني العيش دون قيم أو أهداف.

تطلّع نحو الخلف إلى المسافة التي مكّنه هذا التفكير من قطعها، وقرّر أنَّه قد أثبت حجّته. فإن كان العالم لا يعمل جيّداً عندما تحذف النوعيّة، لكنّها موجودة سواءً عرفناها أم لم نعرفها.

وبعد أنّ رسم صورة لعالم يخلو من النوعيّة، شعر أنَّه ينجذب إلى ما يشبهها في عدد من المواقف الاجتماعيّة التي قرأ عنها سابقاً. وما خطر على ذهنه كانت سبارطة القديمة، وروسيا الشيوعيّة وأقمارها الاصطناعيّة، والصين الشيوعيّة، و«العالم الجديد الجريء» لـ(آلدوس هكسلي) ورواية «1984» لـ(جورج أورويل). كما تذكر أشخاصّاً عايشهم كانو سيؤيدّون فكرة العالم الخالي من النوعيّة، وهم الأشخاص الذين حاولوا إقناعه بوقف التدخين، وكانوا بحاجة لأسباب منطقيّة ليبرّر لهم تدخينه، والذين عندما لم يقدّم أيّ سبب منطقي، تصرّفوا بغطرسة كما لو أنَّه فقد كرامته وهيبته. كانوا دائمي البحث عن أسبابٍ وخطط وحلولٍ لكلّ شيء. كانوا مثله تماماً. من نوع، وهو النوع الذي هاجمه هذه الأيّام، وبحث طويلاً عن اسم مناسب

لوصفهم ليمسك بزمام هذا العالم الذي يفتقد إلى النوعيّة.

الفكرة في الأساس عقليّة تماماً، لكن ليس الذكاء هو الفصل هنا، بل هو موقف أساس محدّد تجاه الطريقة التي كان يظهر فيها العالم، رؤية تفترض سيره وفقاً لقوانين- المنطق، وأنَّ التحسّين الإنساني يكمن بشكل أساسٍ في اكتشاف هذه القوانين وتطبيقها لتحقيق رغباته. وهذا الإيمان هو ما جعل الأشياء متماسكة ببعضها. ثمّ نظر إلى هذا العالم الخالي من الجودة للحظة، وخرج بالمزيد من التفاصيل، وفكّر فيها ثمّ فكر أكثر، ثمّ عاد راجعاً إلى حيث كان في بداية الموضوع.

الجمود

تلك هي النظرة، والتي تلّخص الجمود في كلّ شيء. فعندما تحذف النوعيّة، لا تحصل على شيء سوى الجمود، وغياب النوعيّة هو روح التسوية.

عنَّ على فكره بعض أصدّقائه من الفنانّين الزنوج الذين سافروا معه عبر الولايات المتّحدة. كانوا دائمي التذمّر من فقدان النوعيّة التي كان يتحدّث عنها. جامد! تلك وصفهم لها. ولقد نعتوا كلّ شيء عقلي بتلك الكلمة، ولم يريدوا أنّ يكون لأيّ شيء علاقة بها قبل أنّ تلتقط وسائل الإعلام الكلمة، وتصبغها بصبغة وطنية بيضاء.

دارت بينهم حوارات كيديّة ومواقف جميلة، لأنّه كان أحد أكثر المؤيّدين لفكرة الجمود التي كانوا ينادون بها. وكلّما حاول تضييق الخناق عليهم في ما يتحدّثون عنه، أصبح كلامهم أشدّ غموضاً. وأصبح الآن مع مفهوم النوعيّة يردّدُ ما يقولونه، ويتحدّث بغموض كما يفعلون هم مع أنّ ما كان

يتحدّث عنه، كان واضحاً وصعباً وراسخاً كأيّ مفهوم عقلي تمَّ تعريفه.

النوعيّة هي ما كان يتحدّث عنه الجميع طوال الوقت. تذكّر قول أحدهم: «هلّا تفضلت وأخبرتنا بالمزيد عنها؟» توقّف عند كلّ سؤال من أسئلة الدولارات السبع الرائعة، وإن واصلت السؤال عن كنهها على الدوام، فلن يتسنّى لك الوقت لتعرف. هل الروح والنوعيّة هما سيّان؟

تقدّمت موجة التبلور إلى الأمام. كان يرى عالمين مختلفين في الوقت نفسه. ففي الجانب العقلي، وهو الجانب الجامد، رأى أنّ النوعيّة مصطلح تقسيمي، وهو ما يبحث عنه كلّ محللّ أكاديمي. وكلّ ما عليك فعله هو أنّ تتناول سكيّنك التحليلي، وأنَّ تضع نصل السكيّن على مصطلح النوعيّة، وأن تنقر عليه نقراً خفيفاً، وسينقسم العالم إلى نصفين - إلى عصري وتقليدي، وكلاسيكي ورومانسي، وتكنولوجي وإنساني، وسيكون الانقسام واضحاً جدّاً، بلا لغط أو وسخ! ولن تجد أشياءَ صغيرةً جدّاً يمكن أنّ تكون هذا أو ذاك. ليس كسراً محكماً وإنّما كسر لائق جدّاً. وفي بعض الأحيان حتّى أفضل المحللين الذين يعملون بأفضل خطوط الانقسام قد ينقرون ولا يحصلون إلاّ على كومة من القمامة. مع هذا، نجد النوعيّة هنا. فالجوّدة خطٌّ دقيق غير ملحوظ تقريباً، خطّ اللّامنطق في مفهومنا للكون، وننقره، فينقسم الكون فجأة إلى قسمين بشكل دقيق لا يصدّق. تمنّى لو كان (كانت) هنا، لكان قدّر الموضوع. فله الكلام الفصل فيه. والفضل في إبقاء النوعيّة دون تعريف. هذا هو السر.

كتب (فيدروس) بوعيٍ كان يسير به نحو حالة من الانتحار العقلي: «ويمكن تعريف الجمود بإيجاز وبعمق بأنّه عدم القدرة على رؤية الخاصيّة

قبل أنّ يتمّ تعريفها أكاديمياً، أو بمعنى آخر قبل أنّ يتمّ تشذيبها وصياغتها في كلمات. وإن أثبتنا خاصيّة ما، مع عدم قدرتنا على تعريفها، فهذا دليل على وجودها. ويمكن إثبات وجودها علمياً في الصفّ، ويمكن إثباتها منطقيّاً عبر البرهنة أنّ العالم بدونها لن يكون كما نعرفه. وما يمكن رؤيته، وهو الشيء الذي يمكن تحليله، ليس هو الخاصيّة نفسها، وإنّما تلك العادات الخاصّة بالفكر الذي يمكن تسميته «الجمود أو التقليديّة»، وهذا ما يمنعنا في بعض الأحيان من رؤية الأشياء».

هكذا سعى لصدِّ الهجوم، فموضوع التحليل، المريض المسجى على الطاولة، لم يعدّ النوعيّة، وإنّما التحليل نفسه. فالنوعيّة كانت بصحّة جيّدة وعلى خير ما يرام. لكن التحليل هو ما يعاني من خطإٍ يمنعه من رؤية الواضح.

أتطلّع خلفي فأرى (كريس) بعيداً جدّاً فأصرخ «هيّا».

لا يجيب.

فأصرخ مرّة أخرى: «هيّا».

ثمّ أراه يسقط على جنبه، ويجلس على العشب على صفحة الجبل. أترك أمتعتي وأتوجّه نحوه. الانحدار شديد، حتّى أنني كنت مضطراً إلى أنّ أحفر بقدمي في الجوانب. وحين أصل أجده يبكي.

يقول: «لقد آذيت كاحلي»، ولا ينظر إليّ على الإطلاق.

حين يكون المتسلّق مجرّد صورة نفسه عليه أنّ يحميها، ولو اضطّر إلى الكذب. لكن الوضع كان سيّئاً. وقد لمت نفسي لحدوث هذا. ها أنّ رغبتي

بالاستمرار تضمحلّ بسبب دموعه وإحساسه الداخلي بالهزيمة الذي تسرّب إليَّ. أجلس للحظة وأراجع الموقف، ثمّ أحمل حقيبته وأقول له: سأحمل الأمتعة بالتناوب. سأحمل هذه إلى حيث حقيبتي، ثمّ تتوقّف عندها لكي لا نفقدها، ثمّ سأحمل حقيبتي إلى الأعلى، وأنزل لأحمل حقيبتك. وبهذا سترتاح كثيراً. سيكون الوضع أبطء، لكن سنصل إلى مقصدنا في نهاية الأمر».

اقترحت هذه الأشياء قبل الوقت المناسب، فما يزال يتلمّس في كلامي بعض الاشمئزاز والاستياء، الأمر الذي جعله يشعر بالخجل. يلجم غضبه، لكنّه لا يقول شيئاً خشية أنّ يحمل حقيبته مرَّة أخرى. وإنّما يتجهّم، ويتجاهلني بينما كنت أحمل الحقائب بتناوب إلى الأعلى، وأتخلّص من حنقي لاضطراري تأدية هذا العمل لمّا أدرك أنّ هذه العمليّة لا تشكّل عملاً إضافيّاً لي، وإنّما هي على العكس تماماً. فهي عمل إضافي للوصول إلى أعلى الجبل، وهذا هو الهدف الأسمى. يبدو أنّ الهدف الحقيقي وهو استغلال الوقت دقيقة بدقيقة، مماثل للهدف الأسمى، إن لم يكن أفضل. فنحن نتسلّق ببطء إلى الأعلى، ويختفي الحنق تماماً.

نتحرّك ببطء إلى الأعلى خلال الساعة اللاحقة. كنت خلالها أحمل الأمتعة بالتناوب إلى حيث حدّدت بداية الجدول. أرسل (كريس) إلى الأسفل ليحضر بعض الماء، وهذا ما يفعله. وعندما يرجع يسألني: «لماذا توقّفنا هنا؟ فلنواصل مسيرنا».

- «قد يكون هذا الجدول أخر جدولٍ نراه لمدّة طويلة، وأنا متعب».

- «لماذا أنت متعب؟»

هل يحاول أنّ يستفزّني؟ إن كان هذا ما يريد فهو على وشك أنّ ينجح.

- «أنا متعب يا (كريس) لأنّي كنت أحمل الأمتعة. إن كنت في عجلة من أمرك، احمل أمتعتك واصعد، وسألحق بك بعد قليل».

ينظر إليّ نظرة فيها خوف شديد، ثمّ يجلس ويقول وهو على وشك أنّ يبكي: «لا أحبّ الوضع، أكره ما يحدث، أنا نادم على قدومي. لماذا جئت إلى هنا؟» ويجهش بالبكاء الشديد.

أجيبه: «تجعلني أشعر بالندم أيضاً، من الأفضل أنّ تتناول بعض الطعام».

- «لا أريد شيئاً، معدتي تؤلمني».

- «كما تشاء».

يمشي بعيداً ثمّ يتناول بعض الأعشاب ويضعها في فمه ثمّ يغطّي وجهه بيده. أعدّ الغداء لنفسي وأستريح. وحين يستيقظ مرّة أخرى يبكي، وليس ثمّة مكان لكلينا يمكنّنا الذهاب إليه. ليس هناك ما يمكنّنا فعله سوى مواجهة الوضع الحالي. لكنّني لا أعلم ما الوضع الحالي.

أقول: «(كريس)».

لا يجيب.

أنادي عليه مرّة أخرى: «(كريس)».

لا يجيب في بداية الأمر ثمّ يقول بعصبيّة: «ماذا تريد؟»

- «كنت أريد أنّ أقول لك ليس عليك أنّ تثبت شيئاً لي، هل تفهم ما أقوله؟»

يعلو وجهه وميض من الرعب، فيهزّ رأسه بعيداً بعنف شديد.

أقول: «أنت لا تفهم ما أعنيه بكلامي، أليس كذلك؟» يواصل النظر بعيداً ولا يجيب. كانت الريح تئنّ عبر أشجار الصنوبر.

لا أفهم ما يحدث. لا أفهم ما هو السبب. فليست نرجسيّة جمعيّة الشبّان المسيحيّين هي ما يجعله منزعجاً إلى هذا الحد. بل هناك شيء جانبي انعكس بشكل سلبي عليه. فعندما يحاول أنّ يفعل شيئاً، ولا يفعله كما يجب ينفجر غاضباً أو يجهش في البكاء.

أستلقي على العشب مرّة أخرى وأستريح. قد يكون عدم الحصول على إجابات هو سبب هزيمتنا نحن الاثنين. لا أريد المضي قُدماً لأنّه لا تبدو هناك إجابات، ولا في الخلف أيضاً. وإنّما انجراف جانبي. وهذا ما يجري بيني وبينه. الانجراف الجانبي وانتظار حدوث شيء ما.

أسمعه لاحقاً يبحث في الحقيبة. ألتفت وأراه ينظر إليّ بعيون غاضبة، ويقول: «أين الجبنة؟» بلهجةٍ تدلّ على غضبه.

لكنّني لن أرضخ، فأقول له: «ساعد نفسك بنفسك، لست قائماً على خدمتك».

يبحث في الحقيبة، ويجد الجبنة وبعض الموالح، فأعطيه سكيّني لمدِّ الجبنة على الموالح.

أقول له: «أعتقد أنّني يجب أنّ أضع الأمتعة الثقيلة في حقيبتي، والأمتعة الخفيفة في حقيبتك، ولهذا لن أحمل الأمتعة بالتناوب».

يوافق على اقتراحي، ويتحسّن مزاجه، ويبدو أنّ اقتراحي قد حلّ مشكلة لديه.

لابدّ أنّ حقيبتي قد أصبحت أربعين أو خمسة وأربعين باوناً الآن. وبعد

تسلّقنا لمدّة، أصبح هناك توازن، وكنّا مع كلّ نفس نخطو خطوة.

نصل إلى مرحلة قاسية، ونصير نأخذ نفسين في كلّ خطوة، وعلى أحد الأطراف، نأخذ أربعة أنفاس في الخطوة. كانت خطوات كبيرة، عموديّة تقريباً. نتشبّث بالجذوع والأغصان. أشعر بالغباء لأنّه كان يجب عليّ تخطيط طريقي مُسبقاً. تصير عصيُّ الحور في المتناول الآن، ويبدي (كريس) اهتماماً في استخدام عصاه، وجعلتنا الحقائب أثقل من الأعلى، والعصيُّ كانت تضمن عدم سقوطنا إلى الأمام، فمع كلّ خطوة نخطوها نغرس العصا في الأرض، ثمّ نتأرجح عليها عالياً، ثمّ نأخذ ثلاث أنفاس قبل أنّ نغرس القدم التالية، ونغرس العصا، ونتأرجح.

لا أعلم أيّ درس أستطيع أنّ أتكلّم عنه اليوم. أصبح رأسي مشوّشاً بعد الظهيرة، ربّما أستطيع أنّ أعطي نظرة عامّة، وهذا كلّ شيء اليوم.

تحدّثت حين انطلقنا في رحلتنا قبل وقت طويلٍ كيف أنّ (جون) و(سيلفيا) يهربان من قوّة موت غامضة تجسّدت بالنسبة إليهما في التكنولوجيا، وهناك مثلهما الكثير. وتحدّثت لمدّة كيف أنّ بعض الناس المعنيّين بالتكنولوجيا يحاولون أنّ يتجنّبوها أيضاً. والمشكلة الأساس هي أنّهم نظروا إلى التكنولوجيا من «المنظور المبهر» الذي يهتمّ بالجوانب السطحيّة للأشياء، في حين أنّني أهتمّ بالشكل الضمني. فسمّيت أسلوب (جون) رومانسيّاً وأسلوبي كلاسيكيّاً.

كان أسلوبه في لغة الستينيّات، مواكباً للموضة، في حين أسلوبي كان تقليديّاً. ثمّ بدأنا نزوِّر هذا العالم التقليدي لنرى ما الذي جعله شائعاً،

وناقشنا المعطيات، والتراتبات والتصنيفات والسبب والنتيجة والتحليل، وتحدّثنا عن قبضة رمل، والعالم الذي نعيه، لأنّها مأخوذة من منظر الوعي اللامتناهي حولنا. قلت إن عمليّة التصنيف تتمّ بناءً على قبضة الرمل هذه وتقسمها إلى قسمين. فالفهم الكلاسيكي التقليدي مهتّم بأكوام الرمل، وطبيعة الذرّات، وأسّس التصنيف والعلاقات بينهما.

كان رفض (فيدروس) تعريف الجودة وفقاً لهذا القياس، محاولة لكسر النمط الكلاسيكي للفهم، وإيجاد نقطة مشتركة للفهم بين العالمين الكلاسيكي والرومانسي. ويبدو أنّ النوعيّة، وهي مصطلح انقسامي بين التقليدي والمعاصر، هي هذه النقطة. وكلا العالمين استخدم المصطلح، وكلا العالمين عرّف ما هي. وما فعله الرومانسيّون هو أنّهم تركوها لوحدها وقدروها لما كانت عليه، في حين أنّ الكلاسيكيّين حاولوا تحويلها إلى مجموعة من كتل بنائيّة عقليّة لأهداف أخرى. والآن مع حجب التعريف، اضطّر الكلاسيكيون لأنّ ينظروا إلى النوعيّة كما نظر إليها الرمانسيّون، غير مشوّهة بالبناءات الفكريّة.

أحاول هنا أنّ أخرج بخلاصة ذات قيمة من هذا الموضوع، وأعني به الفروق بين الرومانسيّة والكلاسيكيّة. لكن لم يفعل (فيدروس) هذا، فهو غير مهتمّ بحقّ بأيّ التئام يمكن أنّ يحدث بين العالمين. كان يبحث عن معاني أوسع للنوعيّة، وهو الأمر الذي سحبه بعيداً جدّاً إلى نهايته. لكنّني اختلفت عنه لأنّي لا أريد أنّ استمرّ لأصل إلى تلك النهاية، فكل ما فعله هو المرور عبر هذه المنطقة وفتحها لغيره. ما أريد فعله هو أنّ أمكث فيها، وأن أستصلحها وأحاول زراعة شيء فيها.

أعتقد أنّ دلالة وجود مصطلح قادر على تقسيم العالم إلى معاصر وتقليدي، إلى كلاسيكي ورومانسي، إلى تكنولوجي وإنساني هو كيان قادر على توحيد العالم المنقسم حاليّاً وفق هذه الأطر. ولا يخدم الفهم الحقيقي للنوعيّة النظام أو يهزمه أو حتّى يفرّ منه. فالفهم الحقيقي للنوعيّة يمسك بزمام النظام، ويروّضه، ويجعله يعمل لاستخدامه الشخصي، جاعلاً الشخص حرّاً تماماً لتحقيق قدره الداخلي.

الآن حين نصبح على قمّة أحد صفحات الوادي نستطيع أنّ نرى ما خلفنا وفي الأسفل والجهة الأخرى. ينحدر الجانب الآخر كما هو هذا الجانب - فهناك سجادّة خضراء داكنة من أشجار الصنوبر التي تمتدّ عالياً إلى قمّة الجبل. نستطيع قياس تقدّمنا بالنظر إليها على خلفيّة ما يبدو زاوية أفقيّة.

الحمد لله. كان هذا على ما أعتقد كلّ ما أريد قوله عن النوعيّة اليوم. لا أهتمّ بالنوعيّة، والحديث الكلاسيكي بأكمله عن النوعيّة لا يمتُّ للنوعيّة بصلة، فالنوعيّة هي النقطة الرئيسة التي يتمّ ترتيب الكثير من الأثاث الفكري عليها.

نتوقّف للاستراحة، وننظر إلى الأسفل. تتحسّن معنويات (كريس) الآن، لكنّني أخشى أنّ تتكرّر موضوعة الذات مرّة أخرى.

يقول: «انظر كم أصبحنا بعيدين؟»

- «أمامنا الكثير لنقطعه».

يصرخ (كريس) لاحقاً ليسمع صدى صوته، ويرمي صخوراً ليرى أين ستسقط. يبدأ يشعر ببعض الغرور. ولهذا أزيد من سرعتي بمقدار مرَّة ونصف المرّة، فيهدّؤه هذا الأمر ونواصل مسيرنا.

لا تعود قدماي بحلول الساعة الثالثة ظهراً تحتملان المزيد من المسير. يأزف وقت التوقّف. لم أكن بوضع جيّد. وإن حاولت المسير بعد الوصول إلى هذه الحالة، ستبدأ بجر عضلاتك. وفي اليوم التالي لن يكون لديك سوى الألم.

نصل إلى بقعة منبسطة، هضبة كبيرة بارزة من صفحة الجبل. أقول لـ(كريس) سنتوقّف هنا، فيبدو راضياً سعيداً، ربّما تقدّمنا إلى الأمام بفضله. أكاد أغفو قليلاً، لكن الغيوم فوق الوادي تدلّ على أنّها ستمطر بشدّة. وقد ملأت الغيوم الوادي فلم نعد نرى قاع الوادي، بل لا نكاد نرى الجبل في الطرف الآخر.

أفتح الحقائب لأخرج الخيمة، ومعاطف الجيش، وأربطها ببعضها. أخرج حبلاً وأربطه بين الشجرتين، وأرمي أجزاء الخيمة عليه. وأقطع بعض العصي من الشجيرات، وأربطها ببعضها، ثمّ أحفر خندقاً صغيراً حول الخيمة لأمنع مياه الأمطار من الوصول إليها. وقد وضعنا كلّ شيء في الداخل حين بدأت تمطر.

معنويات (كريس) مرتفعة في ما يتعلّق بالمطر. نستلقي على ظهورنا على أكياس النوم، ونرى المطر ينهمر، ونسمع صوت طرقه على الخيمة. تكتسب الغابة منظراً ضبابيّاً، فنستغرق في التأمّل، ومراقبة أوراق الشجيرات تهتزّ عندما تطرقها قطرات المطر، ونهتزّ نحن أيضاً مع صوت قرقعة الرعد، لكنّنا

سعداء لأنّنا في مأمنٍ حين يتبلّل كلّ شيء حولنا.

أمدّ يدي بعد مدّة إلى حقيبتي بحثاً عن كتاب ذي غلاف ورقي لـ(ثورو) وأجده، وأجهد نفسي لأقرأ لـ(كريس) في ضوء رمادي مليء بالمطر. أعتقد أنّني قد وضّحت سابقاً أنّنا فعلنا هذا الأمر مع كتب أخرى. كتب متقدّمة ربّما لا يفهمها وحده. وما يحدث أنّني أقرأ جملة، ويوجّه لي سلسلة طويلة من الأسئلة فأجيب عنها ولا ننتقل إلى الجملة الأخرى حتّى يرضى.

نفعل هذا ما يقارب النصف ساعة عن (ثورو)، لكن ولدهشتي وخيبة أملي اكتشفت أنّ (ثورو) غير متجلٍّ لنا. تعب (كريس) وتعبتُ أنا أيضاً. وبدا بناء اللغة غير مناسب للغابة الجبليّة التي كنّا فيها. هذا ما أشعر به على الأقل.

يبدو الكتاب وديعاً وهادئاً، وهو شيء لم أعلمه عن (ثورو)، لكن هذا ما يحدث. وهو يتحدّث إلى موقفٍ آخر، ووقتٍ آخر، مكتشفاً مساوئ التكنولوجيا دون أنّ يقدّم حلاً للمشكلة. لم يكن يتحدّث معنا. وعلى مضض، وضعت الكتاب جانباً. كنّا صامتين ومتأمّلين. وكلّ ما كان هناك هو أنا و(كريس)، والغابة والمطر، وليس هناك من كتاب يرشدنا بعد الآن.

تبدأ الأواني التي وضعناها في الخارج تمتلي بماء المطر، فنضعها وقد حصلنا على ما نريد في إناء أكبر، ونضيف مكعبّات من مرق الدجاج، ونسخنّها على موقد (ستيرنو). مذاقه جميل كأيّ طعام أو شراب قد تتناوله بعد تسلّق صعب.

يقول (كريس): «أحبّ التخييم معك أكثر من التخييم مع عائلة (سذرلاند)».

أقول: «الظروف مختلفة».

حين تنتهي الشوربة، أخرج علبة فاصوليا باللحم، وأفرغها في وعاء، فتأخذ وقتاً طويلاً لتسخن. لكنّنا لم نكن على عجلة.

يقول (كريس): «رائحتها شهيّة».

يتوقّف المطر، ونسمع صوت قطرات متفرّقة تضرب الخيمة».

أقول: «اعتقد أنّ يوم غدٍ سيكون مشمساً».

نمرّر قدر الفاصوليا واللحم لبعضنا ونأكل من أطراف مختلفة.

- «أبي، ما الذي تفكّر به طوال الوقت؟ أنت دائم التفكير طوال الوقت».

- «آه، بكلّ شيء».

- «مثل ماذا؟»

- «المطر، والمشاكل التي قد تحدث، وأشياء عامّة أخرى».

- «مثل ماذا؟»

- «كيف سيكون وضعك لّما تكبر».

يبدو مهتّماً. ويقول: «وكيف سيكون الوضع؟»

أرى ومضة ضئيلة من الغرور في عينيه حين يسأل هذا السؤال، ولهذا يأتي الجواب عاماً «لا أعلم، فهذا ما أفكّر فيه».

- «هل تعتقد أنّنا سنصل إلى قمّة الجبل غداً؟»

- «في الصباح؟»

- «أعتقد ذلك».

بعد مدّة قصيرة يسقط نائماً. تهبُّ ريح ليليّة رطبة من الجبل فتصدر

صوت تنّهدٍ عبر أشجار الصنوبر. تتمايل ظلال رؤوس الأشجار مع الريح. تستسلم ثمّ تعود، ثمّ تستسلم مع التنّهد وتعود، دون استراحة بسبب قوىً ليست من طبيعتها. وتسبّب الريح رفرفة في أحد جوانب الخيمة فأنهض وأثبتها بإسفين. ثمّ أمشي على الأعشاب الرطبة للهضبة لبعض الوقت، ثمّ أدخل خيمتي وأنتظر لأنام.

19



تُخبرني شبكة إبر الصنوبر التي كانت بجانب وجهي أين أنا ببطء وتساعدني في طرد حلم.

في الحلم كنت أقف في غرفة مطلوّة باللون الأبيض، أنظر إلى باب زجاجي. وفي الجانب الآخر، كان (كريس) وأخوه وأمّه، كان (كريس) يلوح لي بيده من الجانب الآخر من الباب، وكان أخوه يبتسم، لكن كان في عيني أمّه دموع، ثمّ رأيت أنّ ابتسامة (كريس) ثابتة ومصطنعة، وكان وراءها خوف عميق.

تحرّكت نحو الباب، وأصبحت ابتسامته أفضل، وأشار إلي بفتحه، وكنت على وشك فتحه، لكن لم أفعل، فرجع إليه خوفه، واستدرت ومشيت بعيداً.

حلم تكرّر أكثر من مرَّة سابقاً. كان معناه واضحاً ويناسب بعض أفكار الليلة الماضية. كان يحاول إخباري بشيء، لكنّه يخشى ألاّ يقدر. أصبحت الأمور أوضح هنا.

خارج طرف الخيمة أصبحت إبر الصنوبر تصدر أبخرة من الضباب نحو الشمس، الهواء رطب وبارد. أخرج من الخيمة، إذ كان (كريس) ما يزال نائماً، وأقف وأمدّ يدي.

قدماي وظهري متيبّسان، لكن دون ألم. أمارس بعض الألعاب الجمبازيّة لدقائق، لأرخيها، ثمّ أقفز من الهضبة إلى أشجار الصنوبر. فأشعر بالراحة.

رائحة الصنوبر ثقيلة، تجعل الصباح رطباً. أجلس القرفصاء وأنظر إلى الأسفل إلى ضباب الصباح في الوادي في الأسفل.

أعود إلى الخيمة لاحقاً، فأعرف من الضجّة أنّ (كريس) قد استيقظ، ولمّا أنظر في الخيمة، أجد وجهه يحدّق في المكان في صمت. هو مستيقظ بطيء، وسيستغرق الأمر خمس دقائق لكي ينشّط عقله إلى النقطة التي يستطيع فيها أنّ يتكلّم. يدير عينيه نحو الضوء.

أقول: «صباح الخير».

لا يجيب، وتسقط بعض قطرات المطر من أشجار الصنوبر.

- «هل نمت جيّداً؟»

- «لا».

- «هذا سيّء تماماً».

يسألني: «لماذا استيقظت باكراً؟»

- « الوقت ليس باكرا».

- «كم الساعة؟»

- «التاسعة».

- «أظنّ أنّنا لم ننم قبل الثالثة».

الثالثة؟ لو بقي مستيقظاً، سيدفع الثمن هذا اليوم.

أقول: «في الحقيقة، أنا نمت».

ينظر إليّ باستغراب، ويقول: «أبقيتني مستيقظاً».

- «أنا؟»

- «كنت تتحدّث».

- «أثناء نومي، تعني».

- «لا، عن الجبل».

- هناك شيء غريب: «لا أعرف شيئاً عن الجبل، يا (كريس)».

- «في الحقيقة تحدّثت طوال الليل عنه، وقلت إننا سنرى كلّ شيء في قمّة الجبل، وقلت إنّك ستقابلني هناك».

أعتقد أنّه كان يحلم: «كيف سأقابلك هناك وأنا معك؟»

- «لا أعرف، أنت قلت ذلك». يبدو منزعجاً، ثمّ يقول: «بدوت كما لو كنت سكراناً أو شيئاً كهذا».

ما يزال نصف نائم. من الأفضل أن أدعه يستيقظ بهدوء. لكنّني عطشان، وأتذكّر أنّني تركت المطرة خلفنا، معتقداً أنّنا سنجد ماءً كافياً أثناء سفرنا. يا لي من غبي. لن نستطيع أنّ نفطر الآن حتّى نتسلّق الجبل، وننزل إلى الجهة الأخرى حيث سنجد ينبوعاً. أقول له: «من الأفضل لنا أنّ نحزم أمتعتنا إن كنّا نريد أن نحصل على ماء لفطورنا». الجوُّ دافئ، وسيكون حارّاً بعد الظهر.

تتداعى الخيمة بسهولة، ويسرّني أن أرى كلّ شيء جافّاً. نحزم أمتعتنا خلال نصف ساعة، وتبدو المنطقة كأنّما لم يزرها زائر.

ما يزال أمامنا الكثير من التسلّق، ونكتشف أثناء مسيرنا أنّه أسهل من الأمس. نشارف على الوصول إلى القسم المستدير الأعلى من الجبل، وليس المنحدر شديد الوعورة. تبدو أشجار الصنوبر كما لو لم تقطع مطلقاً. فالضوء المباشر يختفي تماماً أمام الغابة، وليس هناك خمائل على الإطلاق. وإنّما سطح ناعم من إبر الصنوبر. مفتوح وواسع وسهل التسلّق.

حان الوقت لأواصل التشوتوكوا، والموجة الثانية من التبلور، مرحلة ما وراء الطبيعة.

حدثت هذه المرحلة كردّة فعل على تمسّك (فيدروس) الشديد بموضوع النوعيّة، فوجّه له أحد أعضاء هيئة التدريس في قسم اللغة الإنجليزيّة في (بوزمان) السؤال التالي: «هل النوعيّة غير المعرّفة التي تتحدّث عنها موجودة في الأشياء التي تشاهدها؟ أم هل هي شخصيّة، وموجودة في الملاحظ نفسه؟» كان هذا سؤالاً بسيطاً واعتيادياً، ولم يكن هناك داعٍ للعجلة في الإجابة.

نعم، ليس هناك داعٍ للتعجّل. كان السؤال عرضاً نهائيّاً، الضربة القاضية، الضربة الموجعة، عرض يوم السبت الخاص. هو سؤال لن تتعافى منه أبداً.

فإن كانت النوعيّة موجودة في الشيء، فعليك أنّ تفسّر لماذا لا تتمكّن المعدّات العلميّة من ملاحظتها. وعليك أنّ تقترح معدّات يمكنها ملاحظتها، أو عليك أنّ تعيش مع التفسير الذي يقضي أنّ المعدّات لا تلتقط مفهوم النوعيّة لأنّه برمّته ليس سوى كومة من الهراء.

لكن إن كانت النوعيّة شخصيّة وموجودة لدى الملاحظ فقط، فإنّ

النوعيّة التي لطالما أزعجتنا بها ليست سوى اسم جميل لما نحب.

ما كان يواجهه (فيدروس) عبر هذا السؤال الموجّه من لدن عضو هيئة التدريس في قسم اللغة الإنجليزيّة في (كليّة ولاية مونتانا) إنّما هو مصطلح منطقي قديم يسمّى «المعضلّة». وقد شُبّهت المعضلة قديماً، وهي كلمة مشتقة من كلمة إغريقيّة تعني «مقدّمتين»، برأس ثور هائج مندفع.

فإنّ سلّم بالمقدّمة القائلة إن النوعيّة موضوعيّة، فكأنّما جلس على أحد قرني الثور، وإن قبل المسلّمة الأخرى، التي تقضي بأنَّ النوعيّة شخصيّة، فكأنّما جلس على القرن الآخر للثور. فالنوعيّة إمّا أنّ تكون موضوعيّة أو شخصيّة، وسيكون في وضع لا يحسد عليه في الحالتين.

لاحظَ بعض ابتسامات ذات طبيعيَّة طيّبة على وجوه المدرّسين.

لكن (فيدروس) كان مدركاً بسبب تدريبه في المنطق أنّ أيّ معضلة تحتمل ثلاثة تفنيدات لا اثنين، وعلم أنّ الكثير من المدرّسين لم يكونوا كلاسيكيّين، ولهذا بادلهم الابتسام. يمكنه أنّ يقبل بالقرن الأيسر ويدحض فكرة موضوعيّة الكيفيّة التي تعني إمكانيّة قياسها علميّاً. أو يستطيع أنّ يقبل القرن الأيمن، ويدحض فكرة أنّ الشخصيّة تعني «أيّ شيءٍ تحبُّ». ويمكن له أنّ يجلس بين القرنين، وأنَّ ينكر أنّ الشخصيّة والموضوعيّة هما الخياران الوحيدان. وثق أنَّه جرّب الخيارات الثلاثة.

بالإضافة إلى هذه الخيارات المنطقيّة الكلاسيكيّة الثلاثة، هناك خيارات غير منطقيّة وبلاغيّة. ولكونه بليغاً كان له معرفة بهذه أيضاً.

قد يرمي شخص رملاً في عيني الثور، وهذا ما عناه بعبارته أنّ الجهل بماهية النوعيّة يشير إلى انعدام المقدرة. وهناك قاعدة منطقيّة قديمة تقول إن

قدرة المتكلّم ليس لها علاقة بصحّة ما يقوله. ولهذا كان الحديث عن انعدام المقدرة كالرمل الخالص. فأجهل من في العالم قادر على أنّ يقول إن الشمس تشرق، لكن هذا لا يجعلها تغيب. وكان يمكن لـ(سقراط)، عدوّ الجدل البلاغي القديم، أنّ يثبّط (فيدروس) لو قال له: «نعم، أقبل مسلّمتك بأنّي عاجز في قضيّة النوعيّة، وأرجوك الآن أنّ تبيّن لرجل عجوز عاجز ما هي النوعيّة. وبمعنى آخر، كيف لي أنّ أتحسّن؟» وكانوا سيعطون (فيدروس) الوقت الكافي ليقلّب السؤال في ذهنه، ثمّ سيمطرونه بأسئلة تثبت عدم معرفته بالنوعيّة. وعندها سيكون هو نفسه وبمعاييره عاجزاً.

قد يحاول أحد الأشخاصّ أنّ يغنّي للثور لينام. وكان بإمكان (فيدروس) إخبار سائله أنّ إجابة سؤاله ليست في متناول يده. لكن عدم قدرته على إيجاد إجابة ليس دليلاً على عدم وجود إجابة. وكان حرياً بهم، مع ما يملكون من معرفة واسعة، أنّ يساعدوه على إيجاد جواب؟ لكن كان الوقت متأخّراً على ترنيمات كهذه. وكان بإمكانهم الإجابة: «لا، فنحن جامدون جدّاً، وحتّى تخرج بجواب متقيّدٍ بمخطّط المادّة لكي لا ترسّب طلّابك عندما تدرّسهم السنة القادمة».

في رأيي هناك حلٌ بلاغي ثالث أنسب حلّ للمعضلة، وهو أن ترفض دخول الحلبة. كان بإمكان (فيدروس) أنّ يقول: «إنّ محاولة تصنيف النوعيّة إلى شخصيّة وموضوعيّة هي محاولة لتعريفها. وكنت قلت من قبل إنّها لا تُعرَّف». وأعتقد أنّ (ديويز) كان قد نصحه بهذا.

لكن لماذا اختار ألاّ يستمع إلى النصيحة، واختار الإجابة عن هذه المعضلة منطقيّاً ومنهجيّاً، بدلاً من أنّ يسلك طريق الهرب الصوفي السهل.

لا أعلم. لكنّي أستطيع أنّ أخمن. أظنّ أنّه في المقام الأوّل شعر أنّ كنيسة العقل برمّتها كانت قد دخلت حلبة المنطق بشكلّ لا يمكن عكسه. وعندما يضع الشخص نفسه خارج الأطروحة المنطقيّة، يضع نفسه خارج أيّ اعتبار أكاديمي مهما كان شكله. وفكرة التصوّف الفلسفي التي تقول إنّ الحقيقة لا يمكن تعريفها، ويمكن فهمها عبر وسائل غير عقليّة موجودة بيننا منذ بداية التاريخ، هي أساس ممارسة (زِن). لكنّها ليست موضوعاً أكاديمياً. والأكاديميّة، ونعني بها كنيسة العقل، تهتمّ بشكل خاصّ بتلك الأشياء التي يمكن تعريفها. وإن أراد شخص أنّ يصبح صوفيّاً، فمكانه في الدير وليس في الجامعة. فالجامعات أماكن يجب توضيح الأمور فيها.

وأمّا السبب الثاني لقراره دخول الحلبة فهو سبب ذاتي. فقد عرّف نفسه عالماً بالمنطق ومجادلاً متمّكناً، وكان فخوراً بنفسه، واتّخذ من هذه المعضلة تحدِّياً لمهارته. وأعتقد أنّ مسحة الغرور هذه هي بداية كلّ مشاكله.

أرى غزالاً يتحرّك على بعد مائتي ياردة تقريباً، فوقنا عبر أشجار الصنوبر. أحاول أنّ أريه لـ(كريس)، لكنّه يختفي.

كان القرن الأوّل لمعضلة (فيدروس) هو إن كانت النوعيّة موجودة في الشيء، فلماذا لا تستطيع الأدوات العلميّة التقاطها؟ كان هذا القرن هو الأسوأ. وأدرك (فيدروس) مدى سوءه. إذا ادّعى أنَّه أحد العلماء الخارقين القادرين على رؤية النوعيّة في الأشياء، ولا يستطيع غيره أنّ يفعل ذلك، فهو بهذا سيثبت أنَّه مجنون، أو غبي، أو كلاهما، والأفكار التي لا تنسجم

مع المعرفة العلميّة، هذه الأيّام لا يصدّقها أحد.

تذكّر عبارة (لوك) ليس هناك من شيء سواء أكان علميّاً أو غير علمي، يمكنّنا معرفته إلاّ عبر خصائصه. ويبدو أنّ هذه الحقيقة التي لا يمكن دحضها تلمّح إلى أنّ علماء المنطق لا يستطعون ملاحظة الجودة في الأشياء لأنَّ النوعيّة هي كلّ ما يلاحظونه. وليس «الشيء» إلاّ بناءً ذهنيّاً مستخلصاً من خصائصه. وأتى الجواب، إن كان صحيحاً، على القرن الأوّل للمعضلة، وأسعده كذلك.

لكنّه تبيّن أنَّه خاطئ، فالنوعيّة التي كان وطلاّبه يلاحظونها في غرفة الصف مختلفة تماماً عن خصائص اللون أو الحرارة أو القساوة الملحوظة في المختبر، فكلّ هذه الخصائص الفيزيائيّة يمكن قياسها بأدوات، في حين أنّ خاصيّة جودة النوعيّة- وتتمثّل في «التميّز» و«الجدارة» و«الحسن»- لم تكن خاصيّة فيزيائيّة يوماً، ولهذا لا يمكن قياسها. وقد خدعه الغموض في مصطلح النوعيّة / الخاصيّة. وتساءل عن سبب وجود هذا الغموض، وقرّر البحث في الجذور التاريخيّة للكلمة النوعيّة وما يزال قرن المعضلة موجوداً.

أولى اهتمامه القرن الثاني من المعضلة، لأنّه كان يبشّر بدحضٍ أسهلَ. ولهذا فكّر: أنّ النوعيّة هي ما يحبّذه الشخص. لكن الفكرة أغضبته. فأعظم الفنانّين على مرّ العصور كـ(رفائيل) و(بيتهوفن) و(مايكل أنجلو) كانوا يقدّمون ما يحبّه الناس، ولم يكن لديهم أيّ هدف سوى إمتاع الحواس بطريقة كبيرة. لكن هل هذا كلّ شيء؟ إنّه أمر مغضب، وما أزعجه أكثر كان عدم قدرته على إيجاد طريقٍ فوري للبتّ في الأمر منطقيّاً. لذا درس العبارة جيّداً، بالطريقة التي يدرّس فيها أيّة عبارة قبل نقدها.

ثمّ رأى ما كان يبحث عنه، فأخرج سكيّنه النقديّة، واستأصل الكلمة التي سبّبت التأثير المغضب بأكمله في الجملة، والكلمة هي «فقط». فلماذا يجب أنّ تكون النوعيّة فقط كما تحب؟ ولماذا ينبغي «ما تحبّ» أنّ يكون «منصفاً»؟ وما معنى الكلمة فقط هنا؟ لمّا فصلنا الكلمة عن الجملة لاختبارها بشكل مستقل، أصبح واضحاً أنّ الكلمة في هذه الحالة لم تكن تعني شيئاً سيّئاً. كانت مصطلحاً سلبيّاً تماماً ليس له مكان في الجملة على الإطلاق. والآن بعد حذف الكلمة، أصبحت الجملة: «النوعيّة هي ما تحبّ». ومعناها تغيّر بالكامل، فلقد أصبحت حقيقة غير مؤذية على الإطلاق.

تساءل لماذا أغضبته هذه الجملة في المقام الأوّل! فهي طبيعيّة تماماً. ولماذا أخذ الكثير من الوقت ليكتشف أنّ المراد هو: «إنّ ما تحبّه سيّء، أو على الأقلّ سخيف». وما كان متضمناً في هذا الافتراض المتعالي أنّ ما يسّرك أمرٌ سيّء، أو على الأقلّ غير مهمّ بالمماثلة بأشياء أخرى. وكان على ما يبدو ضدّ جوهر التقليديّة. فالأطفال الصغار مدرّبون لا لفعل «بما يحبّون فقط»، وإنّما ما...؟ بالطبع، ما يحبّه الآخرون. ومن هم الآخرون؟ الآباء، والمعلّمون والمشرفون، ورجال الشرطة والقضاة، والمسؤولون، والملوك والطغاة وجميع السلطات. وعندما تتلقّى تدريباً لتمقت «فقط ما تحبّ»، فإنّك ستصبح خادماً مطيعاً للآخرين أكثر من الآخرين، عبداً جيّداً. وعندما تتعلّم ألاّ تعمل «فقط ما تحبّ»، فإنّ النظام سيحبك.

لكن لنفترض أنّك تمارس ما تحب، هل هذا يعني أنّك ستقتل البطلة، وستسرق البنك وستغتصب السيّدات المسنّات؟ إن الشخص الذي يقدّم لك النصح لكي لا تفعل «بما تحبّ فقط»، يفترض بعض المسلّمات بما يتعلّق

بما هو محبوب. ويبدو أنّه لا يدرك أنّ الناس ربّما لا يسلبون المصرف لأنّهم يفكّرون بعواقب فعلتهم، وقرّروا أنّهم لا يحبّون سرقة المصرف. وهذا الشخص لا يرى أيضاً أنّ المصارف موجودة في المقام الأوّل، لأنّها «ما يحب بعض الناس فعله فقط»، ونعني بهولاء، الدائنين. وبدأ (فيدروس) يستغرب كيف أنّ استنكار فكرة «ما تحبّ» قد بدت اعتراضاً طبيعيّاً في المقام الأوّل.

سرعان ما أدرك أنّ هناك أكثر ممّا كان يفكّر فيه في بداية الأمر. فلمّا يقول الناس لا تفعل ما تحبّ عمله فقط، هم لا يعنون فقط أطع السلطة، وإنّما أشياء أخرى.

هذه الأشياء الأخرى قد قادت إلى حقل واسع من الاعتقاد العلمي الكلاسيكي فيقول «ما تحبّ» هو في الحقيقة أمرٌ غير مهمّ، لأنّه مكوّن من مشاعرَ غير عقلانيّة داخلك. درس هذه الحجّة وقتاً من الزمن، ثمّ قسمها إلى مجموعتين أصغر حجماً سمّاها الماديّة العلميّة والشكليّة الكلاسيكيّة، وقال إن المجموعتين موجودتان بشكل مترابط في الشخص نفسه، لكنّهما مفصولتان منطقيّاً.

تفترض الماديّة العلميّة، وهي شائعة بين أتباع العلم المغمورين لا بين العلماء أنفسهم، أنّ ما تشكّله المادّة أو الطاقة ويمكن قياسه بأدوات العلم هو حقيقي، وكلّ شيء عدا ذلك غير حقيقي أو ليس بذي أهميّة. و«ما تحبّ» لا يمكن قياسها، هذا غير حقيقيّة، و«ما تحبّ» يمكن أنّ يكون حقيقة أو نوعاً من الهلوسة. والحبّ لا يميّز بين الاثنين. والهدف الحقيقي للطريقة العلميّة هو إيجاد فروق حقيقيّة بين الخطأ والصواب في الطبيعة، واستئصال

العناصر غير الحقيقيّة والشخصيّة والخياليّة من عمل الباحث للوصول إلى صورة حقيقيّة موضوعيّة للحقيقة. ولمّا قال إن النوعيّة ذاتيّة، كان بالنسبة إليهم يقول إن النوعيّة خياليّة، ويمكن استبعادها في أيّ فهم جادّ للحقيقة.

تصرّ الشكليّة الكلاسيكيّة من جهة أخرى على أنَّ ما لا يمكن فهمه عقليّاً لا يمكن فهمه على الإطلاق. والنوعيّة هنا غير مهمّة لأنّها فهم عاطفي غير مترافق مع عناصر المنطق العقليّة.

شعر (فيدروس) أنّ الماديّة العلميّة أسهل من الشكليّة الكلاسيكيّة في التعامل معها كمصدر للعبارة الرئيسة «فقط». ويمكن تشريحها إلى جزئّيات. وقد عرف هذا الأمر من تعليمه الأوّلي، فهذه المعلومة تُعَدُّ علماً سخيفاً. لهذا بدأ بها أوّلاً مستخدماً طريقة في المحاجّة تسمّى برهان الخلف (Reduction and absurdum). ويرتكز هذا النوع من المحاجّة على صحّة القول: «إن كانت النتائج الحتميّة المترتّبة على مجموعة من الحجج غريبة، فهذا يعني بالضرورة أنّ واحدة من الحجج التي أدّت إليهم غريبة أيضاً». ودعونا نختبر ما قد ينجم عن الحجّة التي تقول إن أيّ شيء لا يتكوّن من مكون الكتلة والطاقة غير حقيقي أو غير مهم.

واستخدم الرقم صفر بداية. فالصفر وهو في الأصل رقم هندي، أدخله العرب إلى الغرب في العصور الوسطى، وكان غير معروفٍ لدى الإغريق القدماء والرومان. لكن كيف؟ سأل مستغرباً. هل اختفى العدد صفر تماماً فلم يستطع الإغريق والرومان بأعدادهم الضخمة إيجاده؟ قد يعتقد بعضهم أنّ العدد صفر كان موجوداً وينتظر من يكتشفه. وبين سخافة محاولة اشتقاق الصفر من أيّ شكل من أشكال الكتلة - الطاقة. ثمّ سأل ببلاغة إن

كان هذا يعني أنّ العدد صفر «غير علمي» وإن كانت الحال هي كذلك، هل هذا يعني أنّ الحواسيب الرقميّة التي تعمل بشكل خاصّ باستخدام الآحاد والأصفار سوف تقتصر على استخدام الآحاد فقط للعمل العلمي؟ أعتقد أنّك لن تبذل جهداً كبيراً لتجد الغرابة هنا.

بعد ذلك انتقل إلى مفاهيم علميّة أخرى، واحداً تلو الآخر، موضحاً كيف أنّه لا يمكن لهذه المفاهيم أنّ توجد مستقلّة عن الاعتبارات الشخصيّة. وانتهى بقانون الجاذبيّة في المثال الذي أعطيته لـ(جون) و(سيلفيا) و(كريس) في الليلة الأولى من رحلتنا. فلو استأصلنا الشخصيّة لكونها غير مهمّة، فعلينا أنّ نستأصل العلم برمّته حينها.

يبدو أنّ دحض الماديّة العلميّة قد وضعه في مخيّم المثاليّة الفلسفيّة المرتبطة بـ(بيركلي) و(هيوم) و(كانت) و(فيشته) و(شيلنغ) و(هيغل) و(برادلي) و(بوزانكيت)، وجميعهم جيّدون، ومنطقيّون جدّاً. لكن بدا من الصعب عليه أنّ يستعين بهم في دفاعه عن النوعيّة. فالحجّة القائلة إن العالم بمجمله فكري قد تكون ذات موقف منطقي سليم، لكنّها لم تكن سليمة من الناحية البلاغيّة. وهي مملّة وصعبة ليتمّ إقرارها في درس إنشاء لطلّاب السنة الأولى. هدف بعيد المنال!

وبدا القرن الذاتي للمعضلة برمّته حينها غير واعد، حاله في هذا حالة القرن الموضوعي. وجعلت حجج الشكليّة من الكلاسيكيّة، الأمر أصعب، وأكثر تعقيداً لمّا بدأ بتفحّصها. وكانت هذه هي الحجج الأقوى التي ينبغي عليك ألاّ توظفّها للاستجابة إلى نبضاتك العاطفيّة دون التفكير بالصورة العقليّة الكبيرة.

كثيراً ما نقول للأطفال: «لا تنفق مصروفك بأكمله على العلكة [دافع عاطفي فوري] لأنكم ستصرفونه لاحقاً على شيء آخر. [صورة كبيرة]». ونقول للبالغين «مطحنة الورق هذه قد تصدر روائح عطنة. حتّى باستخدام أفضل وسائل الوقاية [عواطف فوريّة] لكن بدونها سينهار اقتصاد البلدة بأكملها [صورة كبيرة]». وما تمَّ قوله، وفقاً لقاموسنا القديم: «لا تضع قراراتك وفقاً لمظاهر سطحيّة رومانسيّة دون النظر في الشكل الضمني الكلاسيكي». وهذا قول يوافق عليه تماماً.

ما عناه الشكلّيون الكلاسيكّيون بقولهم: «النوعيّة هي ما تحبّ فقط» هو أنّ هذه النوعيّة الموضوعيّة غير المعرَّفة التي كان يدرّسها إنّما هي مثار إعجاب الرومانسيّين. ويمكن لمسابقات القبول في الصف أنّ تحدّد ما إذا كان موضوع الإنشاء قد لاقى استحساناً. لكن هل هذا نوعيّة؟ هل النوعيّة شيءٌ «تراه فقط» أم هي شيء أكثر دقّة من ذلك؟ ولهذا لن تتمكّن من رؤيته على الفور مطلقاً وإنّما بعد مدّة طويلة جدّاً.

كلّما تفحص هذا المحاجّة تصبح أكثر تعقيداً، وبدت كتلك التي يمكن استخدامها في رسالة ماجستير.

والذي جعلها مشؤومة جدّاً هي كأنّها تجيب عن سؤالٍ تمَّ طرحه كثيراً في الصف، وكان يجيب عنه على الدوام بطريقة سفسطائيّة. والسؤال هو: «إن كان الجميع يعرف ما النوعيّة، فلماذا يوجد اختلاف كبير فيها؟ وجوابه السفسطائي هو أنَّه مع أنّ النوعيّة الخالصة هي نفسها لكلّ شخص، إلاّ أنّ الأشياء التي يقول الناس النوعيّة موجودة فيها تختلف من شخصٍ لآخر. وطالما ترك النوعيّة بدون تعريف، فليس هناك من طريقة للشكّ في ذلك،

لكنّه علّم، وعلم أنّ الطلّاب يعلمون أنّ هناك أمراً غير صحيحٍ، فهو لم يجب عن السؤال على أكمل وجه.

الآن هناك تفسير بديل وهو أنّ الناس يختلفون في النوعيّة، لأنَّ بعضهم استخدم عواطفه الآنيّة في حين أنّ آخرين استخدموا معرفتهم الكليّة. وعلم أنَّه في أيّ مسابقة شعبيّة بين مدّرسي الإنجليزيّة أنّ الحجّة الثانيّة التي دعمت سلطتهم ستفوز بتأييد ساحق. لكن هذه الحجّة وخيمة جدّاً.

فبدلاً من نوعيّة واحدة منتظمة، أصبح هناك نوعيتان: إحداهما رومانسيّة وهي ما يملكه الطلّاب، والأخرى كلاسيكيّة، وتعني الفهم الكلي، وهي ما يمتاز به المدرّسون. إحداهما تقليديّة والأخرى معاصرة. والتقليديّة لا تعني بالضرورة غياب النوعيّة، وإنّما هي نوعيّة كلاسيكيّة. والمعاصرة لا تعني وجود النوعيّة، وإنّما هي نوعيّة رومانسيّة. واكتشف أنّ الانقسام بين المعاصر والتقليدي ما يزال موجوداً، لكن النوعيّة لا تنتمي إلى أحد القسمين دون الآخر، كما افترض سابقاً. وبدلاً من ذلك، علينا أنّ نقول إن النوعيّة قد انقسمت إلى نوعين: كلّ نوع موجود في أحد طرفي الانقسام. وبذا أصبحت نوعيته الجميلة البسيطة الأنيقة، أكثر تعقيداً.

لم ترق له الطريقة التي كانت تسير بها الأمور. فالمصطلح الانقسامي الذي كان يفترض به أنّ يوحّد طرق التحليل الكلاسيكيّة والرومانسيّة قد انقسم هو نفسه إلى قسمين، ولا يستطيع توحيد أيّ شيء. فقد تمَّ الإيقاع به في مفرمة التحليل. وقد قسّمت سكيّن الذاتيّة / الموضوعيّة النوعيّة إلى قسمين، وقضت عليه كمفهوم كامل. ومن يريد إنقاذه، عليه ألاّ يدع السكيّن تغوص عميقاً.

في الحقيقة، لم تكن النوعيّة التي يتحدّث عنها نوعيّة كلاسيكيّة أو نوعيّة رومانسيّة، فقد كانت بعيدة عن كليهما. ولم تكن حتّى ذاتيّة أو كلاسيكيّة أيضاً، فقد كانت بعيدة عن هذين النوعين. في الحقيقة، تعدّ هذه المعضلة المتعلّقة بالموضوعيّة- الذاتيّة، والمادّة الذهنيّة المرتبطة بالنوعيّة غير عادلة. فهذه المادّة الذهنيّة كانت موضوعاً معلّقاً منذ قرون. وتمّ ربط هذه المادّة الذهنيّة بالنوعيّة لجذب النوعيّة إلى الأسفل. فكيف له أنّ يقرّر إذا ما كانت النوعيّة عقليّة أم ماديّة في ظل عدم وضوح ما هو العقل، وما هي المادّة في المقام الأوّل.

لهذا، رفض القرن الشمالي، فالنوعيّة ليست موضوعيّة، كما قال. فهي غير موجودة في العالم المادي.

وبعد ذلك، رفض القرن الأيمن، وقال إن النوعيّة ليست ذاتيّة، فهي غير موجودة في العقل.

ثمّ قرّر (فيدروس) سلوك دربٍ لم يسلكه أحد من قبل في تاريخ الفكر الغربي، فدخل بين قرني المعضلة الموضوعي والذاتي وقال إن النوعيّة ليست جزءاً من العقل، ولا جزءاً من المادة، وإنّما هي كيان ثالث مستقل عن كليهما.

وسُمِعَ في الممرات، وعلى الأدراج في قاعة مونتانا (Montana Hall) وهو يغنّي بصوت منخفض: « يا لقداسة الرب».

هناك شظيّة ذكرى ضعيفة جدّاً، وقد تكون خاطئة، أو قد تكون شيئاً أتخيّله تقول إنّه ترك البناء الفكري الثابت دون تغيير لأسابيع دون أنّ يعاود التفكير فيه.

يصرخ (كريس): «متى سنصل القمّة؟»

أقول: «ربّما بعد قليل».

- «هل سنرى كثيراً؟»

- «أعتقد ذلك. انظر إلى السماء الزرقاء بين الأشجار، فما دمنا لا نرى السماء، فهذا يعني أنّها بعيدة. سنرى الضوء من خلال الأشجار عندما نلتف حول القمّة».

بللّ مطر الليلة الماضية أوراق الصنوبر العفنة الناعمة، فأصبحت مناسبة للمشي عليها. فأحياناً عندما تكون الإبر جافّة على منحدر تصبح زلقة، وعليك أنّ تدوس بقوّة بقدمك بشكل زاوية وإلاّ ستنزلق.

أقول لـ(كريس): «أليس الأمر جيّداً عندما لا تكون هناك خمائل لتعيق تقدّمنا؟»

يسأل: «لماذا ليس هناك خمائل؟»

- «لابدّ أنّ هذه المنطقة لم تتعرّض للتحطيب نهائيّاً، فعندما نترك الغابة على حالها لقرون، تمنع الأشجار الفسائل من النمو».

يقول (كريس): «إنّها كالمنتزه، تستطيع أنّ ترى كلّ ما فيها مرّة واحدة».

مزاجه اليوم أفضل بكثير من الأمس: أعتقد أنّه سيصبح مسافراً جيّداً من الآن فصاعداً. فصمت الغابة يحسّن مزاج الجميع.

العالم الآن، عند (فيدروس)، مكوّن من ثلاثة أشياء: العقل والمادّة والنوعيّة. ولم يزعجه أنّه لم يجزم بوجود علاقة بين الثلاثة. وإن كانت

العلاقة بين العقل والمادّة محطّ شدّ ونزاع لقرونٍ، ولم يتمّ الحسم فيها، فلماذا عليه أنّ يصدر قراراً حاسماً خلال أسابيع عن النوعيّة؟ لذا ترك الأمر دون حسم. فوضعها على ما يمكن اعتباره رفّاً ذهنيّاً يضع عليه جميع الأسئلة التي لا يجد إجابة فوريّة لها. أدرك أنّ العلاقة الميتافيزيقيّة للعقل والمادّة والنوعيّة ستتداخل عاجلاً أم آجلاً، لكنّه لم يكن في عجلة من أمره. وكان سعيداً بالابتعاد عن خطر القرنين، فاستراح واستمتع بالهدوء بقدر ما يستطيع.

لكنّه أعاد النظر في الأمر عن قرب. ومع أنَّه ليس هناك من اعتراض يمنع وجود الثلاثّية الميتافيزيقيّة، أو الحقيقة ذات الرؤوس الثلاثة، إلاّ أنّ هذه الثلاثيات غير شائعة. فالميتافيزيقيّون يفضِّلون الأحاديّة: كالإله، الأمر الذي يفسّر طبيعة العالم كتجلٍ لشيءٍ مفردٍ واحدٍ، وقد يسعى الميتافيزيقيّون وراء ثنائيّة كالعقل والمادّة، وهذا يحمل تفسيراً ثنائيّاً، أو قد يسعون وراء التعددّية، وهذا يفسّر طبيعة العالم بعدد لا ينتهي من الطرق. لكن العدد ثلاثة عدد أخرق! وتريد أنّ تعرف مباشرة لماذا ثلاثة؟ وما العلاقة بين الأشياء الثلاثة؟ مع تضاؤل حاجته للراحة أخذ (فيدروس) يفكّر بهذه العلاقة هو أيضاً؟

لاحظ أنَّه مع ربط النوعيّة بالأشياء، إلاّ أنّ مشاعر النوعيّة قد تحدّث دون أيّ شيء على الإطلاق. وهذا ما جعله في بداية الأمر يعتقد أنّ النوعيّة ذاتيّة خالصة. لكن المتعة ليس ما كان يعنيه بالنوعيّة أيضاً. فالنوعيّة تنتقص من الذاتيّة. والنوعيّة تأخذك خارج نفسك، وتجعلك واعياً للعالم حولك، والنوعيّة تتعارض مع الذاتيّة.

لا أعلم كم من الفكر انقضى قبل أنّ يصل إلى هذه الخلاصة. لكنّه رأى

في نهاية المطاف أنّ النوعيّة لا يمكن أنّ تكون مرتبطة بشكل مستقل مع الذات أو الموضوع، ويمكن أنّ تنتج عن العلاقة بين الاثنين ببعضهما فقط. وهي النقطة التي تلتقي عندها الذات بالموضوع.

بدا هذا ممتعاً.

فالنوعيّة ليست شيئاً، هي حدث.

أصبح أكثر تشويقاً.

هي الحدث الذي تصبح فيه الذات مدركة للموضوع.

ولأنّه بدون مواضيع لن يكون هناك ذات - فالمواضيع هي ما تخلق وعي الذات بنفسها - والنوعيّة هي الحدث الذي يصبح عنده الوعي بالذات والموضوع ممكناً.

أصبح الموضوع شيّقاً.

علم أنّ الأمر يشارف على نهايته.

هذا يعني أنّ النوعيّة ليست نتاج صدام بين الذات والموضوع، فوجودهما مستخلص من حدث النوعيّة. وحدث النوعيّة هو مصدر الذات والموضوع، ويصنّفان أحياناً خطأً باعتبارهما مصدر النوعيّة.

والآن أمسك بزمام هذه المعضلة وضيّق عليها الخناق. ولطالما أخفت هذه المعضلة افتراضاً ذمياً لم يكن له مبرّر على الإطلاق مفاده أنّ الجودة هي نتائج الذوات والموضوعات. لم تكن كذلك. وأخرج سكيّنه.

وقال: «إنّ شمس النوعيّة لا تدور على ذوات وجودنا وموضوعاته. وهي لا تنيرها بشكل سلبي، ولا تخضع لها بأيّ شكل، وإنّما أوجدتها، وهذه الذوات والموضوعات خاضعة للنوعيّة».

شعر عند تلك اللحظة التي كتب فيها هذه الجملة أنَّه قد وصل إلى نوعٍ من القمم الفكريّة، كان يسعى لاهثاً وراءها لمدّة طويلة».

يصرخ (كريس): «سماء زرقاء».

ها هي فوقنا، بقع زرقاء صغيرة بين جذوع الأشجار.

نزيد سرعتنا، فتصبح البقع الزرقاء أكبر وأكبر عبر الأشجار، وسرعان ما نرى أنّ الأشجار قد أصبحت تنحصر في بقعة صغيرة في القمّة. وحين تصير القمّة بعيدة عنّا بنحو خمسين باردة، أقول: «لتنطلق». أبدأ أركض نحوها، بكلّ ما بقي لي من جهد وقوّة.

أبذل قصارى جهدي، لكن يسبقني (كريس) ويتجاوزني وهو يضحك. ونحاول بما نحمل من متاع على هذا الارتفاع إلاّ نسجل رقماً قياسيّاً، وإنّما فرحين مندفعين بكلّ ما أوتينا من قوّة.

يصل (كريس) هناك أوّلاً، في حين أحاول أنّ أتخلّص من الأشجار. يرفع يديه ويقول: «الفائز».

يا له من أناني.

حين أصل أتنفّس بصعوبة، ولا أستطيع التحدّث. نسقط حقائبنا ونستلقي مستندين على بعض الصخور. قشرة الأرض جافّة بفعل الشمس، لكن تحتها طين من مطر الليلة الماضية. إلى الأسفل منّا ولأميال، خلف المنحدرات المكسوة بالأشجار والحقول التي كانت خلفها يمتدّ وادي غلالم (Gallalm Valley). وتحتلّ إحدى زوايا الوادي (بوزمان). يقفز جندب من أعلى الصخرة، ويحلّق عالياً بعيداً عنّا فوق الأشجار.

يقول (كريس): «نجحنا». هو الآن سعيد جدّاً. وحتّى تلك اللحظة لم أزل متعباً جدّاً، فلم أجب. أخلع حذائي وجواربي المبلّلة بالعرق. وأضعها على صخرة لتجف، وأنظر إليها بتأمّل أثناء صعود أبخرة منها نحو الشمس.

20



لابدّ أنّني نمت. تسطع الشمس، وتشير ساعتي إن الوقت يقارب الظهيرة. أنظر من فوق الصخرة التي أستند إليها، وأرى (كريس) يغطْ في نومٍ عميق في الطرف الآخر. وفي الأعلى خلفه تتوقّف الغابة، ويظهر صخر رماديّ قاحل يمتدّ إلى مساحات ثلجّية. نستطيع تسلّق ذلك الجبل من الخلف مباشرة إلى الأعلى، لكن سيكون الوضع خطراً في الأعلى. أنظر إلى قمّة الجبل لوهلة. ما الذي قلته لـ(كريس) الليلة الماضية؟ «سأراك على قمّة الجبل! لا، سأقابلك على قمّة الجبل».

كيف سأقابله على قمّة الجبل وهو معي بالفعل؟ لابدّ أنّ هناك أمراً غريباً؛ أنّني قد أخبرته شيئاً آخر الليلة الماضية، وهو أنّ المكان موحش هنا. وهذا يتناقض مع ما أعتقده، بأن المكان موحش هنا.

يشدّ انتباهي صوت صخرة ساقطة على صفحة الجبل. لا يتحرّك شيء. كلّ شيء ثابت تماماً. والوضع طبيعي، فنحن نسمع صوت انهيارات

صخريّة كهذا طوال الوقت.

قد تبدو صغيرة أحياناً. والانهيارات الجليديّة تبدأ كهذه، وستكون متعة للناظر إن كنت فوقها أو بجانبها. لكن إن كانت فوقك فلا مجال للمساعدة. كلّ ما عليك فعله أنّ تراقبها وهي تنزل.

يقول الناس أشياء غريبة أثناء نومهمّ، لكن لِمَ عساني أقول له سأقابلك؟ ولماذا أعتقد أنّني كنت مستيقظاً؟ لا بدّ أنّ هناك شيئاً خاطئاً قد ولّد هذا الشعور من النوعيّة السيّئة تماماً، لكن لا أعلم ما هو؟ ففي بداية الأمر يتولّد لديك الشعور، ثمّ تحاول معرفة لماذا.

أسمع (كريس) يتحرّك، فأستدير لأراه ينظر حوله.

يسأل: «أين نحن؟»

- «على متن الجبل».

- «آه» ثمّ يبتسم.

أجهّز غداءً مكوّناً من جبنة سويسريّة وببروني، وبعض الموالح. أقطع الجبنة، ثمّ الببروني إلى شرائح جميلة وأنيقة، فالهدوء يمكّنك من فعل كلّ شيء كما يجب.

يقول: «لنبني قمرة هنا».

أقول: «لا، وتريد أنّ نتسلّق إليها كلّ يوم؟»

يحاول إغاظتي، فيقول: «بكلّ تأكيد. لم يكن التسلّق إلى هنا صعباً».

يوم أمس ماضٍ بعيدٍ في ذاكرته. أعطيه بعض الجبن، وبعض الموالح.

يسألني: «في ما تفكّر دائماً؟»

-أجيبه: «بأشياء كثيرة جدّاً».

- «مثل ماذا؟»

- «ربّما لا يكون لمعظمها معنى عندك».

- «مثل ماذا؟»

- «مثل لماذا قلت لك إنّني سأقابلك على قمّة الجبل؟»

يقول: «آه» ثمّ يشيح بنظره عني.

- «قلت لي: إنّني بدوت كالسكران».

يقول وما زال ينظر إلى الأسفل: «لا، ليس كالسكران». وتدلّ الطريقة التي كان يشيح بها نظره عني أنّه لم يكن يقول الحقيقة.

- «كيف إذاً؟»

لا يجب

- «كيف إذاً، (كريس)؟»

- «فقط مختلف».

- «كيف؟»

- «حسناً، لا أعلم». ينظر نحوي وألاحظ في عينيه وميض خوف، ويكمل قوله: «كما كنت قبل وقت طويل جدّاً». ثمّ ينظر إلى الأسفل.

- «متى؟»

- «لمّا كنّا نعيش هنا».

أبقي وجهي على شاكلته لكي لا يلحظ أيّ تغيّر في تعبيره، ثمّ أنهض ببطء، ثمّ ألتفت وأقلّب الجوارب على الصخرة. لقد جفت منذ مدّة طويلة، وألاحظ وأنا أعود بها أنّ نظرته تركّزت عليّ، فأقول له دون اكتراث: «لم

أعرف أنني كنت مختلفاً».

لا يجيب عن ملاحظتي.

أضع جواربي وأرتدي حذائي.

يقول (كريس): «أنا عطشان».

أقول له أثناء وقوفي: «سنجد ماءً خلال مدّة قصيرة أثناء نزولنا. وأنظر الثلج وأقول: «هل أنت جاهز للإنطلاق؟»

يهزّ رأسه موافقاً فنحمل أمتعتنا.

ونحن نمشي على طول القمّة نحو بداية الوادي نسمع صوت قرقعة صخور ساقطة، كان صوتها أعلى من تلك التي سمعتها قبل مدّة. أنظر إلى الأعلى لأرى مكانها، ولا ألاحظ شيئاً.

يسأل (كريس): «ما كان هذا؟»

- «انهيار صخري».

نتوقّف للحظة مستمعين، ويسأل (كريس): «هل هناك شخص في الأعلى؟»

- «لا، إنّه الثلج الذائب الذي يحرّك الحجارة، فلمّا يصبح الجوّ حارّاً جدّاً في بداية الصيف، ستسمع صوت الكثير من الانهيارات الصخريّة. وقد تكون في بعض الأحيان كبيرة. إنّها جزء من عمليّة حت الجبل؟»

- «لم أكن أعلم أنّ الجبال تتآكل»

- «الجبال لا تتآكل، وإنّما تتعرّض للحتّ، فتصبح مدوّرة ورقيقة. وهذه الجبال لم تتعرّض للحتّ».

كان كلّ مكان حولنا، باستثناء ما علانا، مغطىً باللون الأخضر الداكن

للغابات، والغابات ذات لون مخملي.

أقول: «عندما تنظر إلى الجبال، تظنّها دائمة وهادئة، لكنّها متغيّرة على الدوام، والتغيّرات ليست هادئة على الدوام. فتحتنا، وإلى الأسفل منا، هناك قوىً يمكنها تمزيق الجبل برمّته».

- «هل تفعل ذلك يوماً؟»

- «تفعل ماذا؟»

- «تمزيق الجبل برمّته إلى أجزاء؟»

أقول: «نعم» ثمّ أتذكّر فأقول: «ليس بعيداً من هنا، لقي تسعة عشر شخصاً حتفهم تحت ملايين الأطنان من الصخور. كان الكلّ مندهشاً لوجود تسعة عشر شخصاً فقط».

- «ماذا حدث؟»

- «كانوا سيّاحاً من الشرق، توقّفوا لقضاء ليلتهم في مخيّم أرضي، وأثناء الليل، تحرّرت القوى تحت الأرضية. ولّما رأى المنقذون ما حدث في الصباح التالي، لم يفعلوا شيئاً سوى هزّ رؤوسهم. ولم يحاولوا أنّ يحفروا بحثاً عن أحياء. فكلّ ما كان بوسعهم هو الحفر خلال مئات الأقدام من الصخر بحثاً عن جثثٍ سيتم دفنها مرَّة أخرى. لذا تركوهم في مكانّهم، وما يزالون هناك حتّى الآن.

- «كيف عرفت أنّهم تسعة عشر؟»

- «هذا ما ذكره جيرانهم وأقرباؤهم، من مسقط رؤوسهم أنّهم مفقودون».

ينظر (كريس) إلى أعلى الجبل المائل أمامنا.

يقول: «ألم يتمّ تحذيرهم؟»

- «لا أعلم».

- «هل تعتقد أنّه كان هناك تحذير؟»

نمشي إلى مكان انحرف فيه حيد الجبل نحو الداخل ليشكّل بداية الوادي. أعتقد أنّنا نستطيع أنّ نتبع الوادي إلى الداخل لنجد ماءً. يصدر صوت قرقعة صخور في الأعلى. فينتابني الخوف فجأة.

أقول: «كريس».

- «ماذا؟»

- «هل تعرف ما أفكّر فيه؟»

- «لا، ماذا؟»

- «أعتقد، أنّنا من الأفضل التخلّي عن الوصول إلى قمّة الجبل، والعودة في الصيف القادم».

يبقى صامتاً، ثمّ يقول: «لماذا؟»

- «لديّ شعور سيّء تجاه الأمر».

- لا يقول شيئاً لمدّة طويلة، ثمّ أخيراً يقول «مثل ماذا؟»

«أعتقد أنّنا قد نحاصر في عاصفة، أو انهيار، أو شيء مشابه، وعندها سنقع في مشكلة كبيرة».

يطول صمته. أنظر إلى الأعلى، فأرى المزيد من خيبة الأمل في وجهه. أعتقد أنّه يعلم أنّي أخفي شيئاً عنه. فأقول له: «فكّر في الموضوع، وسنقرّر عندما نجد ماءً ونتناول غداءنا».

نواصل المشي نحو الأسفل، وأقول له: «هل أنت موافق؟»

يقول بصوت لا يدلّ على الالتزام «موافق».

يغدو النزول سهلاً الآن، لكنّه سيصبح شديد الانحدار قريباً. ما تزال المنطقة مفتوحة ومشمسة، وسنكون بين الأشجار قريباً.

لا أعلم ماذا عساني أنّ أفعل بكلّ هذا الحديث الغريب الذي جرى ليلاً وهو سيّء لكلينا، ويبدو إن للقياده والتخييم والتشوتوكوا وهذه الأماكن القديمة تأثيراً عليّ يظهر ليلاً. أريد أنّ أنتقل من هذا المكان بأسرع ما أستطيع.

أعتقد أنّ ذلك الموقف لا يشبه الأيّام القديمة لـ(كريس) أيضاً. يدب الرعب في أوصالي بسهولة هذه الأيّام، ولا أخجل من أنّ أعترف بذلك. أمّا هو فلا يرتعب من أيّ شيء أبداً. هذا هو الفرق بيننا، وهذا هو السبب أنّي حيّ وهو ميت. وإن كان هناك في الأعلى، ككيان نفسي، أو كشبح أو كنسخة مطابقة لي تنتظرني في أيّ شكل كان.... عليه أنّ ينتظر لمدّة طويلة جدّاً.

سوف تنهار هذه المرتفعات اللعينة بعد مدّة. أريد أنّ أنزل إلى الأسفل، إلى أدنى ما أستطيع.

إلى المحيط. يبدو هذا صحيحاً. إلى حيث تتقلّب الأمواج ببطء، وحيث الصخب الدائم، ولا تستطيع السقوط إلى الأسفل، فأنت الآن هناك.

ندخل في الأشجار مرّة أخرى، فتختفي قمّة الجبل وراء أغصان الأشجار. وأشعر بالسعادة.

أعتقد أنّنا تتبّعنا درب (فيدروس) إلى أبعد حدّ، بقدر يماثل ما نريد الوصول إليه في هذه التشوتوكوا. أريد أنّ أترك مساره الآن. لقد أعطيته حقّه من المديح لقاء ما فكّر وقال وكتب. أريد الآن أنّ أتناول بعض النقاط التي تجاهل الحديث عنها. وعنوان هذه التشوتوكوا: «زِن وفنُّ صيانة

الدرّاجة الناريّة»، وليس «زِن وفنّ تسلّق الجبال». فليس هناك درّاجات نارية على قمم الجبال، وفي رأيي ليس هنال كثير من (زِن) أيضاً. و(زِن) هي «روح الوادي» وليس قمّة الجبل. و(الزِن) الوحيد الذي قد نجده هناك هو (الزِن) الذي قد تحضره معك. دعونا نغادر هذا المكان.

أقول: «من الجيّد أنّ ننزل إلى الأسفل، أليس كذلك؟»

لا يجيب.

أخشى أنّنا سنتعارك قليلاً.

قد تصل قمّة الجبل، وكلّ ما ستحصل عليه هو لوح حجري كبير، وصل مكتوب عليه بعض القواعد.

هذا هو ما حدث معه تقريباً.

ربّما اعتقد أنّه مسيح لعين.

لستُ أنا، يا بنيَّ. فالساعات الطويلة جدّاً، والجزاء ضئيل كذلك. دعنا نذهب، دعنا نذهب.

سرعان ما أشرع بنزول المنحدر باندفاع كما لو كنت معتوهاً. حتّى أسمع (كريس) يصرخ: «تمهّل». وعندما أنظر خلفي أجد أنَّه ما يزال بعيداً عنّي مائتي ياردة عبر الأشجار.

لهذا أخفّف من سرعتي، وبعد مدّة أكتشف أنَّه يتعمّد التلكأ. هو محبط بالطبع.

أعتقد أنَّه ما يجب عليَّ فعله في التشوتوكوا هو توضيح الدرب الذي سلكه (فيدروس) بإيجاز دون تقييم، ثمّ الانتقال إلى موضوعي الخاص. صدّقني أنَّه لمّا نظر إلى العالم من منظور ثلاثي مكوّن من نوعيّة وعقل ومادة،

فإنّ فنَّ صيانة الدرّاجة الناريّة وغيره من الفنون سيأخذ معنىً جديداً لم يكن متوافراً عند النظر من منظور ثنائي. فشبح التكنولوجيا الذي تهرب منه عائلة (سذرلاند) أصبح شيئاً ممتعاً إيجابيّاً. وستكون مهمّة إثبات ذلك طويلة وممتعة.

لكن لأعطيَ هذا الشبح ما يستحقّ من كلام، عليَّ قولُ ما يلي:

لو كانت موجة التبلور الثانيّة، الموجة الميتافيزيقيّة، قد سارت نحو النهاية التي سأقودها إليها الآن، وأعني بها، عالمنا اليومي، لكان (فيدروس) قد سلك الاتّجاه الذي سأسلكه الآن. أعتقد أنّ الميتافيزيقيا جيّدة إذا كانت تحسّن حياتنا اليوميّة، وإن لم تكن كذلك، فالأولى نسيانها. لكن، لسوء الحظ، لم تتبين له هذه الفكرة، بل انتقلت إلى موجة صوفيّة ثالثة من التبلور لم يشف منها قط.

كان يفكّر في علاقة النوعيّة بالعقل والمادّة، وحدّد النوعيّة بوصفها والدة العقل والمادّة، وهي الحدث الذي تترتب عليه ولادة العقل والمادّة. وقد يكون هذا القلب الكوبرنيكي لعلاقة النوعيّة بالعالم الموضوعي غامضاً إن لم نفسره بشكل جيّد، لكنّه لا يريد أنّ يكون غامضاً. فما عناه هو أنّه في الوقت الذي يسبق تمييز الموضوع، كان هناك وعي غير عقلاني سمّاه وعي النوعيّة. فأنت غير واعٍ أنّك رأيت شجرة إلاّ بعد أنّ تراها. ولابدّ أنّ هناك فارقاً زمنياً بين مدّة الرؤيا ومدّة الوعي. ونحن نعتبر هذا الفارق الزمني في بعض الأحيان غير مهمّ، دون أنّ يكون هناك مبرّر، ولن يكون هناك مبرر.

فلا يوجد الماضي إلاّ في ذكرياتنا، والمستقبل إلاّ في خططنا، والحاضر هو

حقيقتنا الوحيدة. فالشجرة التي تدركُها عقليّاً، موجودة على الدوام، بسبب ذلك الفارق الزمني في الماضي، ولهذا فهي غير حقيقيّة على الدوام. وأيّ شيء يتمّ إدراكه ذهنيّاً هو دائماً جزء من الماضي، ولهذا هو غير حقيقي. والحقيقة على الدوام هي لحظة الرؤيا قبل أنّ يتمّ الإدراك الذهني. وليس هناك حقيقة أخرى. الحقيقة قبل العقليّة هي ما شعر (فيدروس) أنّه النوعيّة. لأنَّ جميع الأشياء المعرفة عقليّاً يجب أنّ تنبثق عن هذه الحقيقة قبل العقليّة. والنوعيّة هي مصدر جميع الذوات والموضوعات.

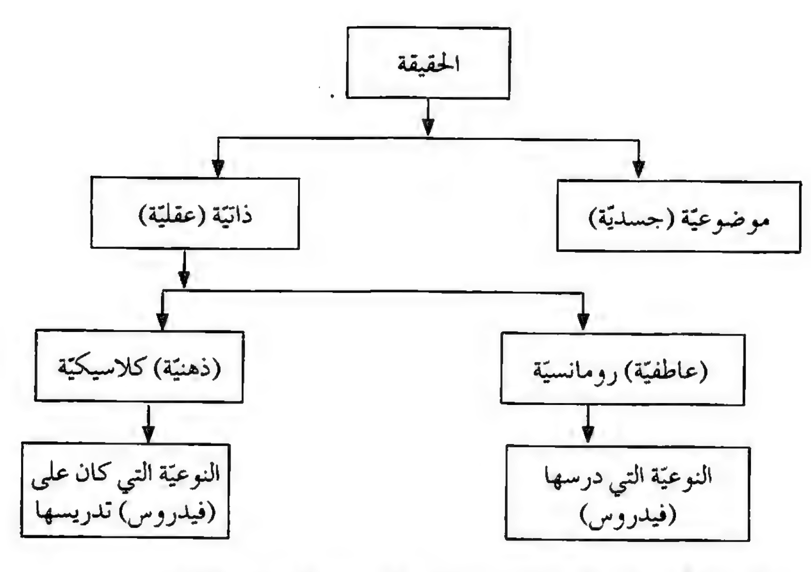
شعر أنّ المفكّرين يجدون صعوبة عظيمة في رؤية هذه النوعيّة، لأنّهم متعجّلون وإطلاقيّون في ما يتعلّق في تصنيف الأشياء إلى أشكال عقليّة. والأشخاصّ الذين لا يجدون مشكلة في رؤية النوعيّة هم الاطفال الصغار، وغير المتعلّمين والأشخاصّ المحرومون ثقافيّاً، فهم يملكون أقلّ ميل فطري نحو العقلانيّة لانعدام مصادرها الثقافيّة، ولديهم أقلّ خبرة رسميّة لغرس العقلانيّة لاحقّاً فيهم. ولهذا شعر أنّ التقليديّة مرض عقلي فريد. وشعر أنَّه محصَّن ضدّه بمحض المصادفة، أو أنَّه إلى حدٍ ما قد كسر العادة عن طريق رسوبه في المدرسة. ولم يشعر بعد ذلك بأيّ تطابق إلزامي بالعقلانيّة، واستطاع بهذا اختبار المبادئ المضادة للعقلانيّة بتعاطف كبير.

والتقليديّون يعدّون النوعيّة الحقيقيّة قبل العقلانيّة، بسبب تحيّزهم تجاه العقلانيّة، غير مهمّة، ويعتبرونها مجرّد مرحلة انتقالية تخلو من الأحداث بين الحقيقة الموضوعيّة والإدارك الذاتي لها. وبسبب تصوّراتهم المسبقة لعدم أهميّتها، لم يحاولوا أنّ يكتشفوا إن كانت بأيّ طريقة مختلفة عن تصوّرهم العقلي لها.

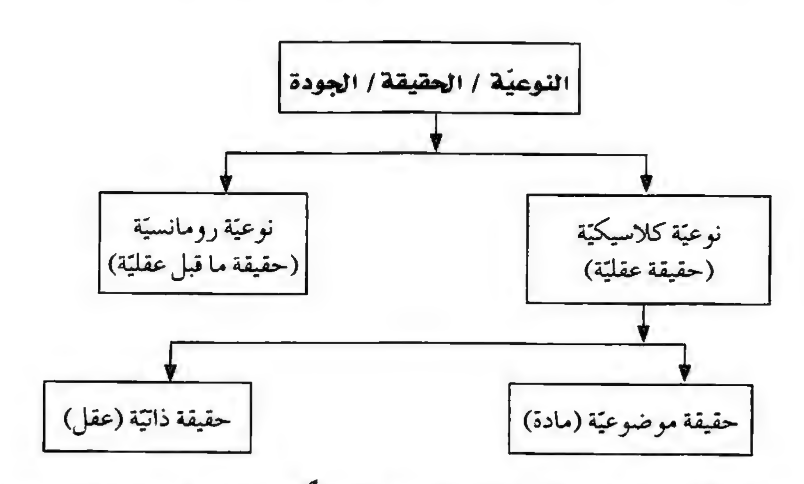
وهي له كذلك. فلمّا تبدأ بسماع صوت النوعيّة، وترى ذلك الجدار الكوري، تلك الحقيقة غير العقلانيّة بشكلها النقي، سترغب بنسيان كلّ تلك المواضيع التي ستبدأ في نهاية المطاف برؤيتها في مكان آخر.

والآن بعد أنّ تسلّح بثلاثيّته الميتافيزيقيّة المترابطة زمنياً، أوقف انقسام النوعيّة بين الكلاسيكي والرومانسي، وهو الانقسام الذي شكل تهديداً كبيراً له. فلم يعودوا قادرين على قسيم النوعيّة الآن. وهو يستطيع الآن الجلوس بعيداً، وتقسيمهم حسب ما يريد. فالنوعيّة الرومانسيّة مترابطة بالانطباعات الآنيّة دائماً، في حين أنّ النوعيّة التقليديّة متعلّقة باعتبارات متعدّدة ممتدّة لمدّة زمنيّة. والنوعيّة الرومانسيّة هي الحاضر، من الأشياء الآن، بينما النوعيّة الكلاسيكيّة مهتمّة دائماً بأكثر من الحاضر. فعلاقة الحاضر بالماضي والمستقبل كانت دائماً محطّ اعتبار. وإن اعتقدت أنّ الماضي والمستقبل متضمّنان في الحاضر، فخطوتك خرقاء. فالحاضر هو ما نعيش له. وإذا كانت درّاجتك تعمل جيّداً، فلِمَ القلق بشأنها! لكن إن اعتبرت الحاضر مجرّد لحظة بين الماضي والمستقبل، لحظة عابرة، فإنّ إهمال الماضي والمستقبل لصالح الحاضر أمرٌ يفتقد إلى النوعيّة تماماً. قد تعمل الدرّاجة كما ينبغي الآن، لكن متى تفقدت الزيت آخر مرّة؟ يعدّ هذا الأمر قلقاً لا ضرورة له من المنظور الرومانسي، لكنّه منطقي من المنظور الكلاسيكي.

صار لدينا الآن نوعان مختلفان من النوعيّة، لكنّهما لا يقسّمان النوعيّة نفسها إلى قسمين، وإنّما هما وجهان زمنيّان مختلفان للنوعيّة؛ طويل وقصير. وما تمَّ طلبه في الماضي هو تراتب ميتافيزيقي كما هو في الشكل التالي:



لكن ما أعطاهم هو تراتب ميتافيزيقي على الشكل التالي:



فلم تكن النوعيّة التي كان يدرّسها جزءاً من الحقيقة، بل كانت هي الحقيقة ذاتها.

ثمّ واصل مسيره مستخدماً الثلاثيّة التي قدّمها للإجابة عن السؤال

التالي: لماذا يرى كلّ شخص النوعيّة بشكل مختلف؟ هذا هو السؤال الذي كان عليه الإجابة عنه بالتحديد؟ فقال «النوعيّة لا شكل ولا حجم لها، ولا يمكن وصفها. وعندما نتحدّث عن الأحجام والأشكال، فنحن نتحدّث عن استخدام العقل، والنوعيّة مستقلّة عن أيّ حجم أو شكل. فالأسماء والأحجام والأشكال التي قد نعطيها للنوعيّة تعتمد بشكل أساس على الخاصيّة ذاتها. وتعتمد أيضاً على الصورة المسبقة التي راكمناها في ذاكرتنا. ونحاول دائماً أنّ نجد في الحدث المتعلّق بالنوعيّة نظائر لتجاربنا السابقة، وإن لم نقدر، لن نكون قادرين على أنّ نتّخذ أيّ إجرّاء. فنحن نبني لغتنا وفقاً لهذه النظائر، ونبني ثقافتنا برمّتها وفقاً لهذه النظائر».

والسبب في أنّ الناس يرون النوعيّة بشكلٍ مختلفٍ تماماً هو أنّهم يقتربون منها بمجموعة مختلفة من النظائر. وأعطى أمثلة لغويّة على قوله، فبالنسبة إلينا، تبدو الحروف الهنديّة (da)، و(ḍa)، و(dha) متطابقة، لأنّنا لا نملك نظائر لها لتجعلنا نحس بهذه الفروق. وعلى النحو نفسه، لا يستطيع معظم الناطقين بالهنديّة التمييز بين (da) و(the)، لأنّهم لا يحسّون بهذه الفروق. ومن غير المستغرب أنّ يرى القرويّون الهنود أشباحاً، لكنّهم يجدون صعوبة كبيرة في فهم قانون الجاذبيّة.

يفسّر هذا تشابه علامات النوعيّة التي يتوصّل لها صفّ كامل من طلّاب السنة الأولى في الإنشاء، فلديهم جميعاً تقريباً خلفيّات متشابهة ومعرّفة متشابهة. لكن إن أدخلنا عليهم مجموعة من الطلّاب الأجانب، أو لنقل عرضنا على الطلّاب ذاتهم قصائد لم يعتادوا عليها، فإنّ قدرة الطلّاب على تقييم النوعيّة لن تكون متشابهة على الإطلاق.

وبمعنىً آخر، فاختيار الطالب للنوعيّة، حسب قوله، هو ما يميزه. فالناس يختلفون في النوعيّة، ليس لأنَّ النوعيّة مختلفة، وإنّما لأنَّ الناس مختلفون في ما يتعلَّق بتجربتهم. وافترض أنَّه لو كان هناك شخصان لهم نظائر مسبقة متطابقة، فإنّهما سيريان النوعيّة متطابقة في كلّ مرّة. ولأنّه ليس هناك طريقة لاختبار هذا، يبقى مجرّد افتراض.

وكتب إجابة لزملائه في الكليّة:

«إنّ أيّ تفسير فلسفي للنوعيّة سيكون صحيحاً وخاطئاً لأنّه تفسير فلسفي. فعمليّة التفسير الفلسفي هي عمليّة تحليلية، يتمّ فيها تجزئة الأشياء إلى موضوعات ومحمولات. ما أعنيه يعنيه الجميع بكلمة «نوعيّة» لا يمكن تقسيمها إلى موضوع ومحمول، ليس لأنَّ النوعيّة محيّرة، وإنّما لأنّها بسيطة وفورية ومباشرة.

«وأسهل نظير عقلي للنوعيّة البحتة يمكن أنّ يفهمه الناس في بيئتنا هو «أن النوعيّة استجابة العضو لبيئته» (واستخدم هذا المثال لأنَّ سائليه يرون الأشياء وفق نظريّة الفعل وردّ الفعل). ستبتعد الأميبا الموضوعة في صحن من الماء مع قطرة من حامض الكبريت المخفّف موضوعة بالقرب منها، عن الحامض كما أعتقد. ولو استطاعت الأميبا التحدّث لقالت، دون أنّ تعلم شيئاً عن حامض الكبريت، «إنّ هذه البيئة ذات نوعيّة سيّئة». ولو كان لها جهاز عصبيّ لتصرّفت بطريقة معقّدة جدّاً للتغلب على النوعيّة السيّئة للبيئة. وستبحث عن نظائر، ونقصد بها صوراً ورموزاً من تجاربها السابقة لتعريف الطبيعة غير المسرّة لطبيعتها الجديدة لتتمكّن من فهمها.

«في الحالة العضويّة المعقّدة جدّاً كما في حالتنا نحن الكائنات المتقدّمة،

فإنّنا نستجيب لبيئتنا عبر اختراع العديد من النظائر الرائعة. فنخترع الأرض والسماء، والأشجار والحجارة والمحيطات والآلهة والموسيقى والفنون واللغة والفلسفة والهندسة والحضارّة والعلوم. ونسمّي هذه النظائر الحقيقة. وهي في الواقع حقيقة. ونحن نفتن أطفالنا باسم الحقيقة عندما يعلمون أنّ كلّ هذه الأشياء حقائق. ونميل لوضع كلّ من يرفض هذه النظائر في ملجأ للجنون. لكن ما يدفعنا لخلق النظائر هو النوعيّة، وهي الحافز المستمّر الذي تفرضه بيئتنا علينا لتغيير العالم الذي نعيشه. كلّه وكلّ جزء منه.

«وأن نستوعب ما دفعنا لتصوّر العالم، ونضمّنه داخل العالم الذي تصورّناه أمرّ مستحيل. ولهذا لا يمكن تعريف النوعيّة. وإن عرّفناها، فإنّنا نعرف شيئاً أقلّ من النوعيّة نفسها».

أتذكّر هذه الجزئيّة بحيوّية أكثر من أيّ جزئية أخرى، ربّما لأنّها أهمّ ذكرى على الإطلاق. فلمّا كتبها شعر بهلع كبير، وكان على وشك شطب الكلمات: «كلّه وكلّ جزء صغير منه». فهناك جنون في هذه العبارة. أعتقد أنَّه رآه، لكنّه لم ير أيّ سبب منطقي لشطب هذه الكلمات. وكان الوقت قد تأخّر جدّاً للتردد، فتجاهل تحذيره، وترك الكلمات مكانها.

وضع قلمه ثمّ ... شعر بشيء يغادره. كما لو أنّ شيئاً داخليّاً قد تمَّ شدّه بشكل كبير فانتزع منه، ثمّ أصبح من الصعب تدارك الوضع.

بدأ يدرك أنَّه قد تحوّل بعيداً عن موقفه الأصلي، فهو لم يعدّ يتحدّث عن الثلاثية الميتافيزيقيّة، وإنّما عن واحدية مطلقة، فالكيفيّة هي مصدر كلّ شيء ومادته.

تدفّق إلى ذهنه سيل كبير جديد من العلاقات الفلسفيّة. تحدّث (هيغل) بهذه الطريقة عن العقل المطلق المستقل عن الموضوعيّة والذاتيّة.

لكنّه قال: إن العقل المطلق هو مصدر كلّ شيء، مستبعداً التجربة الرومانسيّة من «كل شيء» كانت مصدره. والمطلق عند (هيغل) هو كلاسيكي بالكامل وعقلاني بالكامل ومنظمّ بالكامل.

والنوعيّة ليست كذلك.

تذكّر (فيدروس) أنّ (هيغل) كان يُعدّ جسراً بين الفلسفة الغربيّة والشرقيّة. فمذهب (فيدانتا) الهندوسي، والطريقة الطاويّة، وحتّى البوذيّة قد وصفت جميعها بالواحديّة المطلقة كفلسفة (هيغل) نفسه. وشك (فيدروس) حينها ما إذا كانت الآحاد الصوفيّة وأنواع الواحديّات الميتافيزيقيّة قابلة للتحول باطنيّاً، ما دام الواحد الصوفي لا يتبع قواعد محدّدة، بينما الواحديّة الميتافيزيقيّة تتبع قواعدَ. والنوعيّة التي تحدّث عنها هي كيان ميتافيزيقي وليس صوفيّاً، أم كانت كذلك؟ وما الفرق؟

أجاب نفسه حين قال إن الفرق هو فرق في التعريف. فالكيانات الميتافيزيقيّة يمكن تعريفها، في حين أنّ الكيانات الصوفيّة غير قابلة للتعريف. وهذا يجعل النوعيّة صوفيّة. لا. بل هي في الحقيقة الاثنان معاً. ومع أنَّه فكّر فيها من وجهة نظرٍ فلسفيّة بحتة كمصطلح ميتافيزيقي، إلاّ أنَّه رفض على الدوام تعريفها. وهذا ما جعلها صوفيّة أيضاً. فعدم القدرة على تعريفها حرّرها من قيود الميتافيزيقيا.

ثمّ ذهب (فيدروس) على الفور إلى رفّ كتبه وأخرج كتاباً صغيراً بغلاف مقوى أزرق. لقد نسخ هذا الكتاب بيده وغلّفه قبل عدّة سنوات، لأنّه لم يجد

نسخة للبيع في أيّ مكان. وكان الكتاب نص «تاو تي تشينغ» الذي وضعه مؤسس الديانة الطاويّة (لاوتسو) قبل ألف وأربعمائة سنة. بدأ يقرأ سطوراً قرأها عدَّة مرَّات سابقاً، لكنّه في هذه المرّة درسها ليرى إن كان يصلح أنّ يجري بعض التغيّرات. بدأ يقرأ ويفسّر في الوقت نفسه.

إنّ النوعيّة التي يمكن تعريفها ليست نوعيّة مطلقة.

هذا هو ما قاله.

والأسماء المعطاة لها ليست اسماء مطلقة.

فهي أصل السماء والأرض.

وحين تسمّى فهي أم كلّ شيء.

تماماً.

النوعيّة [النوعيّة الرومانسيّة] وتجلّياتها [النوعيّة الكلاسيكيّة] هما في الأصل متطابقتان. وأعطيا أسماء مختلفة [الذوات والموضوعات] حين تصبح ظاهرة كلاسيكيّاً.

ويمكن تسمية النوعيّة الرومانسيّة والنوعيّة الكلاسيكية باسم «التصوّف»

والانتقال من لغز إلى آخر هو البوابة إلى سرّ الحياة.

النوعيّة حاضرة في كلّ مكان.

واستخدامها لا ينضب.

لا يمكن سبر غورها.

كما لو كانت منبع كلّ شيء.

لكنّها بقيت كالماء صافية كالبلور.

ولا أعلم ابنة من هي؟

على الدوام..... على الدوام باقية، أطرق بابها وستخدمك بكلّ راحة ..
ننظر إليها ولا نراها..... نستمع إليها ولا نسمعها....... نتشبث بها
ولا نستطيع لمسها..... وهذه
الثلاثة تفلت
أسئلتنا تختلط لتصبح واحداً.
وليس هناك من نور بارتفاعها
ليس هناك من ظلام بسقوطها.
لا تنتهي، متواصلة،
لا يمكن تعريفها
وتعود دوماً إلى نطاق اللاشيء.
ولهذا سمّيت شكل اللاشكل.
صورة اللاشيء
ولهذا سميت مراوغة
قابلها ولن ترى وجهها
اتبعها ولن ترى ظهرها
من يتبع نوعيّة القدماء
سيتمكّن من معرفة البدايات الأولى
التي هي استمراريّة النوعيّة.

قرأه (فيدروس) سطراً سطراً، ومقطعاً مقطعاً، وصفحة صفحة. ما من تعارض. تماماً. هذا هو ما كان يعنيه. وهذا هو ما كان يتحدّث عنه على

الدوام، فالنوعيّة التي كانت هنا هي الطاو، تلك القوّة المركزيّة الكبرى المولّدة لجميع الأديان، الشرقيّة والغربيّة. الماضية والحاضرة، وجميع المعارف، وكلّ شيء.

ثمّ تطلّعت عين عقله إلى الأعلى والتقطت صورته وأدرك أين كان، وماذا كان يرى... لا أعلم ما حدث بالتحديد... لكن الآن تجمع انزلاقه الذي شعر به سابقاً، وافتراقه الداخلي عن عقله، وتوحدا فجأةً كما تتجمّع الصخور في قمّة الجبل. وقبل أنّ يتمكّن من إيقافها، بدأت كتلة الوعي المتراكمة فجأة بالازدياد والنموّ حتّى أصبحت انهياراً جليديّاً من الفكر والوعي خارجاً عن السيطرة. ومع كلّ تدحرج إلى الأسفل كانت كتلة الفكر المتنامية تفقد من حجمها قدراً كبيراً، وتقتلع تلك الكتلة المزيد من حجمها. واستمرّت العمليّة على نطاق واسع حتّى لم يبق هناك شيء.

لم يبق أيّ شيء.

كل شيء اختفى من تحت قدميه.

21



يقول (كريس): « لستَ شجاعاً جدّاً، أليس كذلك؟»

- أجيب: «لا» وأشدّ قشرة شريحة السلامي بين أسناني وأكمل جملتي: «لكنّك ستدهش من مقدار ذكائي».

نهبط مبتعدين عن القمّة الآن، وتصير أشجار الصنوبر، والخمائل أعلى بكثير الآن وأكثر كثافة من تلك التي الجانب الآخر من الوادي. لا بدّ أنّ هذا الجانب يصله مطر أكثر. أتجرع كميّة كبيرة من الماء من وعاء كان (كريس) قد جمع فيه الماء من الجدول ثمّ أنظر إليه. أرى من خلال تعبيره أنّه قد حزم أمره بالنزول، وليس هناك من حاجة للتنظير عليه أو مجادلته في الموضوع. ننهي غداءنا مع جزء من الحلوى. لمياه الينابيع الجبليّة أفضل مذاق في العالم. يقول (كريس) بعد مدّة: «أستطيع أنّ أحمل حملاً أثقل الآن».

- «هل أنت متأكّد؟»

يقول بخيلاء: «طبعاً أنا متأكّد».

فأنقل شاكراً بعض المعدّات الثقيلة إلى حقيبته، ونحمل الحقائب ثمّ نقف. أستطيع أنّ أشعر بالفرق في الوزن. وهو يتفهّم جدّاً عندما يكون في مزاج جيّد.

من هنا يبدو النزول بطيئاً. لابدّ أنّ هذا المنحدر قد تمَّ تحطيب أشجاره من قبل، فهناك الكثير من الفسائل التي ترتفع فوق رؤوسنا، الأمر الذي يجعل تقدّمنا بطيئاً. علينا أنّ نكتشف طريقنا حوله.

ما أريد فعله في هذه التشوتوكوا هو أنّ أبتعد عن التجريدات الفعليّة ذات الطبيعة العامّة جدّاً، وأنتقل إلى بعض المعلومات العلميّة اليوميّة الصلبة. لكنّي لا أعلم كيف أشرع بذلك.

هناك أمرٌ ربّما لم تسمعه من قبل وهو أنّ الرواد الأوائل كانوا على العموم بطبيعتهم فوضويّين. فلقد مضوا قدماً، ولم يروا خلال تقدّمهم سوى هدفهم النبيل بعيد المنال، ولم يلاحظوا الحطام الذي تركوه خلفهم. وكان على أحدهم أنّ ينظّف ذاك الفوضى، ولم يكن هذا عملاً ممتعاً أو مبهجاً. وعليك أنّ تكتئب لمدّة قبل أنّ تباشر العمل فيه. وعندما تكتئب وتكتسب مزاجاً سيّئاً، تجد أنّ الأمر ليس بذلك السوء.

أمّا اكتشاف العلاقة الميتافيزيقيّة بين النوعيّة وبوذا في قمّة التجربة الشخصيّة فأمر رائع، وغير مهمّ على الإطلاق. وإن كانت هذه هي التشوتوكوا الخاصّة بهذا الموضوع، فعليّ التوقّف. المهمّ هنا هو أهميّة هذا الاكتشاف لجميع أودية هذا العالم، والوظائف المملّة الكبيرة والسنوات

الرتيبة التي تنتظرنا جميعاً فيها.

أدركت (سيلفيا) ما كانت تتحدّث عنه في اليوم الأوّل لمّا لاحظت جميع القادمين في الاتّجاه الآخر. وماذا سمّت هذا المشهد؟» «موكب جنائزي». وما يجب علينا فعله هو العودة إلى ذلك الموكب بفهم أكبر من ذلك الموجود الآن.

في بداية الأمر، أقول إنّني لا أعلم إن كان ادّعاء (فيدروس) عن النوعيّة هي (طاو) صحيحاً أم لا؟ ولا أعلم أيّ طريقة يمكن من خلالها تحديد صحّة هذه العبارة، لأنَّ ما فعله هو مماثلة فهمه بإحدى الكيانات الصوفيّة بكيان آخر. لابدّ أنَّه اعتقد أنّهما الشيء نفسه، لكن يبدو أنّه لم يفهم تماماً ما النوعيّة، أو على الأرجح لم يفهم ما (الطاو)! فهو بكلّ تأكيد لم يكن حكيماً. وهناك الكثير من النصائح لحكماء في ذلك الكتاب كان عليه اتّباعها ليهتدي بها.

وأعتقد أيضاً أنّ تسلّقه الميتافيزيقي لم يسهم مطلقاً في فهمنا للنوعيّة، ولا في فهمنا (للطاو) أيضاً، ولو بمقدار أنملة.

قد يبدو هذا رفضاً قاطعاً لأفكاره وأقواله، لكنّه ليس كذلك. أعتقد أنّها عبارة كان ليوافق عليها هو نفسه، لأنَّ أيّ وصف للنوعيّة هو تعريف لها، وهذا سينتقص من مكانتها. وأعتقد أنَّه على الأرجح قد قال إن عبارات كهذه من شأنّها أنّ تجعل الأمور أسوأ من السكوت، لأنَّ هذه العبارات قد تفهم خطأ، وبذا تعيق فهم النوعيّة.

لا، لم يقدّم شيئاً للنوعيّة ولا (للطاو)، والمستفيد الأعظم كان المنطق نفسه. ولقد أظهر طريقة يمكن من خلالها للمنطق أنّ يتوسّع ليضمّ عناصر

لم تكن قابلة للانخراط سابقاً، وبذا كانت تعدّ غير عقلانيّة. واعتقد أنّ الوجود الساحق لهذه العناصر غير العقليّة التي تنادي بالانخراط قد أدّى إلى النوعيّة السيّئة الحاليّة، وإلى الروح الفوضويّة، المفكّكة في القرن العشرين، وأريد أنّ أتحدّث عن هذه الأشياء بالترتيب بقدر ما أستطيع.

ها نحن نصل أرضاً موحلة ومنحدرةً من الصعب المشي عليها. نمسك بالأغصان والشجيرات لنوازن أنفسنا. أمشي خطوة واحدة. ثمّ أحاول أنّ أتصوّر أين سأضع قدمي الأخرى، فأضعها ثمّ أنظر مرّة أخرى. وسرعان ما تزداد الأشجار كثافة، فأدرك أنّ الأمر يتطلّب بعض التقطيع. أجلس، فيخرج (كريس) المدية من حقيبتي ويعطيني إيّاها، ثمّ أقوم بتقطيع بعض الشجيرات لأشقّ طريقي. العمليّة بطيئة، وعليّ قطع غصنين أو ثلاثة في كلّ خطوة، وقد يستمّر الأمر طويلاً.

تشكّل الخطوة الأولى انطلاقاً من عبارة (فيدروس) «إنّ النوعيّة هي بوذا» وهي لكون مثل هذه العبارات تمدّنا، إن كانت صحيحةً، بقاعدة عقليّة لتوحيد حقول ثلاثة من التجربة الإنسانيّة غير موجودة هذه الأيّام، وهي: الدين والفنّ والعلم. فإن كنّا قادرين على تبيان أنّ النوعيّة هي المصطلح الرئيس في هذه الثلاثة، وأنَّ هذه النوعيّة لا أنواع لها، وإنّما هي نوع واحد، فهذا يعني أنّ الحقول الثلاثة غير الموحّدة لها أساس للتحول الداخلي.

ولقد بيّنا وبشكل مطوّل العلاقة بين النوعيّة والفنّ من خلال تتبّعنا لفهم (فيدروس) للنوعيّة في فنّ البلاغة. وأعتقد أنّ طريقة التحليل هناك

ليست بحاجة إلى المزيد من الحديث عنها. فالفنّ مغامرة من طراز رفيع. وهذا كلّ ما نحتاج إلى قوله هنا. لكن إن كان هناك من يريد أنّ نصوغ كلامنا بطريقة أكثر تأثيراً فعلينا القول: الفنّ هو موهبة ربانيّة تجلّت في عمل إنسان. وقد أوضحت العلاقة التي أسّسها (فيدروس) أنّ العبارتين اللتين تبدوان مختلفتين تماماً هما في الحقيقة متطابقتان.

في حقل الدين، تحتاج العلاقة العقليّة بين النوعيّة والألوهيّة إلى المزيد من الاستكشاف، وهذا ما أحاول فعله لاحقاً. أمّا الآن فكلّ ما نستطيع النظر فيه هو الجذر الإنجليزي القديم لبوذا والنوعيّة، أيّ للكلمتين (إله) و(جيّد) وهما (God) و(good) على الترتيب، فيبدو من الواضح أنّهما متطابقتان.

وحقل العلم هو ما أودّ التركيز عليه الآن، لأنّ هذا الحقل هو الذي يحتاج العلاقة حاجة ماسّة. وعلينا أوّلاً أنّ نتخلّص من القول إن العلم ووليدته التكنولوجيا «خاليان من القيم». وهذا يعني أنّهما «خاليان من النوعيّة». ففكرة «غياب القيمة» هي التي تبرز أهميّة تأثير القوّة المميتة التي تحدّثت عنها في بداية التشوتوكوا. وأريد غداً أنّ أتحدّث في هذا الموضوع.

نحن نقضي ما تبقى من مدّة ما بعد الظهيرة في النزول بين جذوع أشجارٍ قديمة أصبحت رماديّة اللون بسبب الظروف الجوّية، نمشي جيئةً وذهاباً على منحدرٍ حاد.

نصل إلى جرف صخري، ونلتف حوله بحثاً عن طريق يقودنا إلى الأسفل، ثمّ نجد ممراً ضيّقاً نستطيع النزول منه، ويمتدّ على طول شقٍّ صخري كان يجري فيه جدول صغير. تتخلّله الشجيرات والصخور

والطين وجذوع الأشجار الضخمة التي تروى بماء الجدول الصدع. ثمّ نسمع صوت جدولٍ أكبر من مسافة بعيدة.

نعبر الجدول باستخدام الحبال، التي تركناها خلفنا. وعلى الطريق نجد بعض المخيّمين الذين يوصلوننا إلى المدينة.

في (بوزمان) الوقت متأخّر ومظلم. وبدلاً من أنّ نوقظ (ديويز) ونطلب منهم أنّ يأتوا إلينا، حجزنا في فندق، في وسط المدينة. يحدّق فينا بعض السواح الذين كانوا في بهو الفندق. أرتدي ملابس الجيش الطويلة، وعصا المشي، ولحيتي التي لم أحلقها من يومين وقبعتي السوداء فأبدو أشبه بثوري كوبي قديم قادم لشنٍّ غارة.

في غرفة الفندق نرمي كلّ شيء على الأرض. وأفرغ في سلة المهملات الحصيّات التي تجمّعت في حذائي من المياه الجارية للجدول، وأضع الحذاء بجانب النافذة الباردة ليجفّ. نرمي أجسادنا المتهالكة على الأسرة، دون أنّ ننطق بكلمة.

22



في الصباح التالي، نتحاسب في الفندق شاعرين بالانتعاش، ونوّدع عائلة (ديويز)، ونتّجه شمالاً لنخرج من (بوزمان). ودّت عائلة (ديويز) أنّ نمكث قليلاً، لكن دافع قويّ قادني نحو الغرب، وأواصل الأفكار التي كنت أفكّر فيها. سأتحدّث اليوم عن شخصٍ لم يسمع به (فيدروس) من قبل، لكنّني قرأت كتاباته بروية تحضيراً لهذه المحاضرة. كان هذا الرجل في الخامسة والثلاثين من عمره على عكس (فيدروس)، مشهوراً على مستوى العالم، واعتبر وهو بعمر الثامنة والخمسين أسطورة حيّة. وصفه (بيرتراند رسل) «أنّه باتّفاق الجميع أكثر رجل علمي بارز في عصره». كان فلكّياً، وفيزيائيّاً، ورياضيّاً، وفيلسوفاً، اسمه (جول هنري بوانكاريه).

بدا لي أمراً لا يصدّق، وما يزال كذلك على ما أظنّ، أنّ (فيدروس) قد قطع في خطّ المعرفة مسافة لم يصلها أحد من قبل. لابدّ أنّ شخصاً ما في مكانٍ ما، في زمانٍ ما قد فكّر في كلّ هذا من قبل، وكان (فيدروس) عالماً

بائساً، فهو من ضاعف بعض المعالم الأساسّة في الفلسفة دون أنّ يفكّر بعواقب ما فعل.

ولهذا قضيت ما يزيدُ على السنة في قراءة تاريخ الفلسفة الطويل جدّاً والملّ بحثاً عن أفكار مطابقة. وكانت قراءة تاريخ الفلسفة رائعة جدّاً، لكن نتج عنها شيءٌ لا أستطيع حتّى الآن أنّ أقرّر كيف أقف منه. إذ يعتبر الأنظمة الفلسفيّة التي يفترض أنّها يعارض بعضها بعضاً أنّ تقول شيئاً مشابهاً لما فكّر فيه (فيدروس) مع بعض التغييرات الطفيفة. وكنت طوال الوقت أعتقد أنّني وجدت الشخص الذي يقلدّه، لكنّه كان في كلّ مرّة، بسبب فروق طفيفة، ينحو منحىً مختلفاً. فـ(هيغل)، على سبيل المثال، رفض أنظمة الفلسفة الهندوسيّة، وقال إنّها ليست فلسفيّة على الإطلاق. لكن يبدو أنّ (فيدروس) دمجها أو لنقل تمَّ إدماجه بها. وليس هناك أيّ شعور بالتناقض.

وأخيراً، وصلت إلى (بوانكاريه). وجدت بعض المطابقة هنا أيضاً، لكنّها ظاهرة من نوع مختلف. فـ(فيدروس) تبع مساراً طويلاً مضنياً حتّى بلغ أقصى التجريدات، ثمّ قللّ من شططه فتوقّف. أمّا (بوانكاريه) فقد بدأ بأكثر الحقائق العلميّة صحّة، واستخلص التجريدات نفسها، ثمّ توقّف. وتوقّف كلّ مسار عند نهاية آخر. وهناك استمراريّة متكاملة بينهما. فعندما تعيش في ظلّ الجنون، يعدّ ظهور عاقلٍ آخر يفكّر كما تفكّر حدثاً مباركاً، كاكتشاف (روبنسون كروزو) آثار أقدام على الجزيرة.

عاش (بوانكاريه) بين الأعوام 1854 و1912، وكان أستاذاً في جامعة باريس، كانت لحيته ونظّارته الأنفيّة تذكّرنا بـ(هنري تولوا-لوتريك)،

الذي عاش في باريس في الوقت نفسه، لكنّه كان أصغر سنّاً بعشر سنوات.

حدثت خلال حياة (بوانكاريه) أزمة مفزعة في أسّس العلوم الدقيقة. كانت الحقائق العلميّة لسنوات بعيدة عن أيّ شكّ على الإطلاق، وكان منطق العلم لا يعاب بتاتاً. وإن كان بعض العلماء مخطئين، كان الافتراض أنّهم أخطأوا لأنّهم جانبوا قواعد العلم. وتمّت الإجابة عن جميع الأسئلة العظيمة. وأصبحت مهمّة العلم فرز الإجابات إلى أكبر دقّة ممكنة. وبالطبع، بقيت هناك بعض الحقائق دون تفسير، كالنشاط الإشعاعي، وانتقال الضوء عبر الأثير، والعلاقة المتميّزة بين القوّة المغناطيسيّة والقوّة الكهربائيّة، لكن هذه الظواهر، إذا ما أخذنا النزعات السابقة مؤشّراً، فمصيرها السقوط أيضاً. ولم يتوقّع الجميع أنّه خلال عقود محدودة لن يبقى هناك مكان مطلق وزمان مطلق ومادّة مطلقة أو حتّى حجم مطلق وستصبح الفيزياء الكلاسيكيّة، وهي قلعة العلم الحصينة على مرّ العصور، «تقريبيّة»، حتّى أنّ أكثر علماء الفلك احتراماً ووقاراً كان سيخبر البشريّة أنّها إن أمعنت النظر في منظار قوي جدّاً سترى رأسها من الخلف.

ولم يفهم الأساس الذي قامت عليه النظريّة النسبيّة، التي قلبت كلّ الموازين إلاّ قلّة قليلة من الأشخاص، كان (بوانكاريه) الذي كان أبرز علماء الرياضيّات في عصره، واحداً منهم.

شرح (بوانكاريه) في كتابه «أسّس العلم» أنّ مقدّمات الأزمة في أسّس العلم قديمة جدّاً، ولقد تمّ اللجوء إليها دون جدوى لشرح المسلّمة المعروفة بمسلّمة (إقليدس) الخامسة. وكان هذا البحث بداية هذه الأزمة. تقول مسلّمة (إقليدس) عن الخطوط المتوازية إنّه في لحظة ما، ليس هناك أكثر من

ثانويّة، ألقت بظلالها على الدليل، وعلى كلّ شيء آخر في حقل الرياضيّات. وأصبح حقل الرياضيّات فجأة، وهو حجر الأساس لليقين العلمي عرضة للتشكيك.

هكذا صار لدينا الآن رؤيتان متناقضتان للحقيقة العلميّة التي لا تهتزّ، صحيحتان لجميع الناس بجميع الأعمار، بغضّ النظر عن خياراتهم الشخصيّة.

كان هذا أساس الأزمة العميقة التي حطّمت الشعور بالرضا عن النفس خلال عصر التمويه. لكن كيف نعرف أيّ حقلي الهندسة هو الصحيح؟ وإن لم يكن هناك أساس للتمييز بين الاثنين، فإنّ علم الرياضيّات حينها سيقبل بتناقضات منطقيّة، وعلم الرياضيّات الذي يقبل تناقضات منطقيّة داخليّة ليس علم رياضيّات على الإطلاق. ولم تعدّ علوم الهندسة غير الإقليديّة سوى خزعبلات دام تصديقها عبر الإيمان لا عبر التطبيق.

ومن الصعب على أيّ منّا تصديق أنّ عدد الأنظمة المناقضة للحقيقة العلميّة غير القابلة للشكّ بمجرّد فتح هذا الباب سيقتصر على اثنتين. وظهر ألماني يدعى (ريمان) (Riemann) بنظام آخر من علم هندسة لا يعتريه الشك، فرمى عرض الحائط بمسلّمة (إقليدس)، وأيضاً المسلّمة الأولى التي قال فيها إن الخط المستقيم الواحد يمكنه المرور بنقطتين. وللمرّة الثانيّة ليس هناك تناقض داخلي، وإنّما تضارب مع علوم هندسة (إقليدس) و(لوباتشفسكي).

ووفق نظريّة النسبيّة، فإنّ هندسة (رايمان) أفضل ما يصف العالم الذي نعيشه الآن.

تفضي الطريق في مدينة (ثري فوركس) (Three Forks) إلى وادٍ ضيّق من الصخر الأبيض، ثمّ تمرّ بكهوف (لويس وكلارك)، وإلى الشرق من (بوت) (Butte) نصعد طريقاً منحدراً صعباً عبر خطّ الانقسام الطولي للقارتّين الأمريكتين، ثمّ ننزل إلى وادٍ، ولاحقاً نجتاز مدخنة مصهر (آناكوندا) (Anaconda)، وننعطف باتّجاه مدينة (آناكوندا)، لنجد مطعماً جيّداً، حيث نتناول القهوة ثمّ شرائح اللحم. ثمّ نسلك طريقاً مرتفعاً قادنا إلى البحيرة المحاطة بغابات الصنوبر، مجتازين بعض الصيّادين الذين كانوا يدفعون قارباً صغيراً نحو الماء، ثمّ تتعرّج الطريق مرّة أخرى عبر غابة الصنوبر. وأرى من ارتفاع الشمس أنّ الصباح قد قارب على نهايته.

نمرّ بمدينة (فيلبسبيرغ) (Phillpsburg) إلى مروج الوادي. تزداد الريح المقابلة لنا شدّةً في هذه المنطقة، لهذا أخفّف سرعتي إلى خمسة وخمسين للتخفيف من حدّة الريح، ونمر بـ(ماكسفيل) (Maxville)، وحين نصل مدينة (Hall) نكون بأمسّ الحاجة للراحة.

نجد فناء كنيسة بجانب الطريق فنتوقّف. الريح شديدة وباردة، لكن الشمس دافئة، فنضع سترتينا وخوذتينا على العشب، في الجهة المحميّة من الريح على سبيل الراحة. المكان منعزل ومفتوح هنا، لكنّه جميل. فعندما يكون المكان محاطاً بجبالٍ أو حتّى هضبات، تجد مساحة شاسعة. يخبئ (كريس) وجهه في سترته ويحاول النوم.

كلّ شيء مختلف الآن بدون عائلة (سذرلاند)، فالوحدة قاتلة. وإذا سمحت لي الآن سأتحدّث على طريقة تشوتوكوا الآن حتّى أتخلّص من الشعور بالوحدة.

قال (بوانكاريه) علينا، لحلّ المشكلة الحقيقة الرياضية، أنّ نسأل أنفسنا عن طبيعة المسلّمات الهندسيّة. فهل هي أحكام بديهيّة تركيبية كما قال (كانت)؟ أو بمعنىً آخر، هل هي موجودة كجزء من اللاوعي الإنساني، بشكل مستقلٍ عن التجربة ولا يمكن تشكيلها عبر التجربة؟ اعتقد (بوانكاريه) أنّها ليست كذلك. وإن كانت كذلك فإنّها ستفرض نفسها علينا بقوّة لا نستطيع معها تصوّر فكرة معاكسة، أو أنّ نبني عليها صرحاً نظريّاً. ولن يكون هناك أيّ علم هندسة غير إقليدي.

لذلك هل ينبغي علينا إذاً أنّ نعتبر مسلّمات الهندسة حقائق تجريبيّة؟ لم يعتقد (بوانكاريه) أنّها كذلك أيضاً. فلو كانت مسلّمات الهندسة حقائق تجريبيّة، لكانت عرضة للتغيير والمراجعة المستمرّين، كما هو الحال مع البيانات المختبريّة. وهذا يتناقض مع طبيعة علم الهندسة نفسه.

لهذا استخلص (بوانكاريه) أنّ مسلّمات الهندسة أعراف، ونحن نسترشد في خياراتنا من الأعراف بحقائق تجريّبية، لكنّها تبقى حرّة، ومقيّدة بضرورة تجنّب جميع التناقضات. وبهذا ستبقى المسلّمات صحيحة تماماً مع أنّ القوانين التجريبيّة التي حدّدت استعمالها تقريبيّة. وبمعنىً آخر، تعدّ مسلّمات الهندسة مجرّد تعريفات مقنعة.

بعد أنّ حدّد طبيعة المسلّمات الهندسيّة، تحوّل اهتمامه نحو السؤال: هل الهندسة الإقليديّة أم هندسة (ريمان) هي الصحيحة ؟

فأجاب أنّ السؤال ليس بذي معنى.

فهذا السؤال كما لو كنّا نسأل إذا ما كان النظام المتري صحيحاً أم نظام (أفردوبويز) خاطئاً. أو كنّا نسأل إذا ما كان النظام الإحداثي الديكارتي

صحيحاً والإحداثيّات القطبيّة خاطئة. فأحد علوم الهندسة لا يمكن أنّ يكون أكثر صحّة من الآخر. والعلم الذي يتبّناه معظم الناس هو الأكثر ملائمة.

ومفاهيمنا عن المكان والزمان هي تعريفات أيضاً، يتمّ اختيارها حسب ملاءمتها في التعامل مع الحقائق.

ولم يكتمل هذا الفهم الأساس لواحد من أكثر المفاهيم العلميّة صحّة. ويمكنّنا جعل ماهية الزمان والمكان أكثر وضوحاً باستخدام هذا الشرح، لكن أصبح عبء المحافظة على ترتيب الكون قائماً على الحقائق. لكن ما هي الحقائق؟

واصل (بوانكاريه) بحثه ليختبر هذه الأشياء على نحو نقدي. وسأل السؤال التالي: أيّ الحقائق علينا ملاحظتها؟ فعددها لا ينتهي. والملاحظة غير الانتقائيّة لن تقود إلى العلم.

ويصحّ الأمر نفسه على الفرضيّات. أيّ فرضيّات؟ قال (بوانكاريه): «لو أنّ ظاهرةً ما تقبل تفسيراً آليّاً تامّاً فإنّها تقبل أيضاً عدداً لا ينتهي من التفسيرات التي ستفسّر على حدّ سواء جميع التفصيلات التي خرجت بها التجربة».

هذه كانت العبارة التي قالها (فيدروس) في مختبره، فهي قدّمت سؤالاً جعله يفشل في الجامعة.

قال (بوانكاريه) لو أعطي العالم الوقت الذي يريده لكان من الضروري أنّ نقول له: «انظر ولاحظ جيّداً»، لكن لأنّه ليس هناك وقت لرؤيّة كلّ شيء، ولأنّه من الأفضل ألاّ نرى على أنّ نرى بشكل خاطئ، كان من

الضروري أنّ يتّخذ خياراً.

ووضع (بوانكاريه) بعض القواعد: هناك تراتب في الحقائق.

كلّما كانت الحقيقة عامّة، كانت قيّمة، والحقائق التي يمكن استخدامها أكثر من مرَّة أفضل من تلك التي لا يمكن استخدامها إلاّ مرَّة واحدة. ولن يتمكّن علماء الأحياء من بناء علم لو أنّ ما هو موجود هم أشخاصٌ لا أنواع ولو أنّ الوراثة لا تنتج أطفالاً كآبائهم.

لكن أيّ الحقائق مرشحة لتظهر مرَّة أخرى؟ الحقائق البسيطة. كيف نستطيع معرفتها؟ اختر تلك التي تبدو بسيطة. فإما أنّ تكون هذه البساطة حقيقيّة، أو أنّ العناصر المعقّدة لا يمكن تمييزها. وفي الحالة الأولى من المرجّح أنّنا سنواجه هذه الحقيقة البسيطة مرَّة أخرى لوحدها أو كعنصرٍ في حقيقة معقّدة. ويمكن للحالة الثانيّة أنّ تتكرّر لأنَّ الطبيعة لا تبني هذه الحالات بشكل عشوائي.

أين الحقيقة البسيطة؟ كان العلماء في بحث مستمرٍّ عنها في أقصى طرفي النقيض: إمّا في البالغ الأكبر بلا نهاية، أو في البالغ الأصغر بلا نهاية. فعلماء البيولوجيا، على سبيل المثال، قادتهم غريزتهم إلى أنّ يولوا الخليّة أهميّة أكثر من الحيوان برمّته، ويولوا منذ أيّام (بوانكاريه)، المكوّن البروتيني أهميّة أكثر من الخليّة برمّتها. وكانت النتيجة تعبيراً صارخاً عن الحكمة من وراء هذا؛ فالخلايا والجزيئات التي تنتمي إلى الكائنات الحيّة المختلفة يشبه بعضها بعضاً أكثر من الكائنات الحيّة نفسها.

كيف لنا إذاً أنّ نختار الحقائق المثيرة، تلك التي تتكرّر المرّة تلو الأخرى؟ يكمن المنهج في علميّة اختيار الحقائق؛ ولهذا علينا في المقام الأوّل إنشاء

طريقة للاختيار. وتمّ إنشاء عدد كبير منها، إذ ليس هناك من طريقة واحدة تفرض نفسها. ومن الملائم أوّلاً أنّ نبدأ بالحقائق الاعتياديّة. وبعد صياغة القاعدة بشكل لا يدع مجالاً للشك، تغدو الحقائق التي تتطابق معها مملّة، لأنّها لم تعدّ تعلّمنا أيّ شيء جديد. ولهذا يصبح الاستثناء هو المهم. ونحن لا نبحث عن أوجه تشابه وإنّما عن فروق، فنختار أكثر الفروق وضوحاً لأنّها أكثر إثارة وأكثر كشفاً.

نختار أوّلاً الحالات التي من المؤكّد أنّ القاعدة ستخفق فيها، وذلك عبر اختيار خيارات بعيدة جدّاً في المكان أو بعيدة جدّاً في الزمان. وقد نجد قواعدنا الاعتياديّة قد قُلِبَتْ رأساً على عقب. وتمكّننا هذه التقلّبات من أنّ نرى عن قرب التغيّرات الصغيرة التي قد تحدّث بشكل أقرب منّا. وما يجب أنّ نرمي إليه ليس التثبّت من أوجه التشابه والاختلاف وإنّما التعرف إلى أوجه التشابه المخفيّة تحت فروق واضحة. وقد تبدو بعض القواعد في بداية الأمر متعارضة، لكن عند النظر عن قرب نرى أنّها بشكل عام تشبه بعضها بعضاً. فهي مختلفة في ما يتعلَّق بالمادّة لكنّها متشابهة في ما يتعلَّق بالشكل، وفي ما يتعلَّق بترتيب أجزائها. وحين نراها بهذا الانحياز، فإنّنا نراها تكبر وتنطبق على كلّ شيء. وهذا ما يعطي قيمة لبعض الحقائق التي تبرز لإكمال تركيب ما، وتظهر أنّها الصورة الحقيقيّة لبعض التراكيب المعروفة الأخرى.

واستنتج (بوانكاريه) أنّ العالِم لا يختار الحقائق التي يراقبها اعتباطاً. بل يريد أنّ يكثّف أكبر قدر من التجربة الفكريّة في كتاب هزيل. ولهذا قد تجد كتاباً هزيلاً في الفيزياء، يضم عدداً من التجارب الماضية، وعدداً لا ينتهي من التجارب التي يمكن معرفة نتائجها مسبقاً.

ثمّ أوضح (بوانكاريه) كيف يتمّ اكتشاف الحقيقة، ووصف بشكل عام كيف يصل العلماء إلى حقائق ونظريّات. لكنّه ركزّ بشكل ضيّق على تجربته الشخصيّة ذات الوظائف الرياضيّة التي حقّقت له شهرته المبكّرة.

وقال إنّه طوال خمسة عشر عاماً سعى إلى أنّ يثبت أنَّه ليس هناك ما يمكن تسميته وظائف. وكان في كلّ يوم يجلس إلى مكتبه لساعة أو اثنتين، ويجرب عدداً ضخماً من التركيبات، لكن دون جدوى.

وفي إحدى الأمسيات، وعلى عكس ما كان يفعل، شرب قهوة سوداء، ولم يستطع النوم، وتزاحمت الأفكار أسراباً، وشعر بها تتضارب، حتّى ترابط زوج منها، مشكّلة مجموعة ثابتة.

وكان عليه في الصباح التالي كتابة النتائج فقط، فما حدث هو موجة من التبلور.

ووصف كيف أنّ موجة ثانية من التبلور مسترشدة بتناظرات قائمة في الرياضيّات قد أفضت إلى ما وصفه لاحقّاً بـ«سلسلة ثيتا-فوشيان». ترك (قايين) حيث كان يقطن للقيام لبعثة علميّة جيولوجيّة. كان على وشك ركوب الحافلة، وفي اللحظة التي وضع فيها قدمه على الدرّاجة، جاءته الفكرة. دون أنّ يسبقها ما يمهّد لها من أفكار. وكانت الفكرة أنّ التحوّلات التي استخدمها لتعريف الوظائف الفوشينيّة مطابقة لتلك الوظائف في الهندسة اللا- الإقليديّة. ولم يتحقّق من الفكرة، حسب قوله، وإنّما واصل حديثاً مع شخصٍ في الحافلة، لكنّه شعر بتيقن كاملٍ. وحقق النتيجة في ما بعد حسب ما يريد.

واكتشف اكتشافاً آخر بينما كان يمشي على شاطئ البحر. جاءته الفكرة

بإيجاز وعلى نحو مفاجئ ويقين مباشر. وحدث اكتشاف كبير آخر بينما كان يمشي في الشارع. أطرى بعضهم على هذه العمليّة باعتبارها نتاج العبقريّة المحيّرة، لكن (بوانكاريه) لم يقتنع بهذا التفسير المضحك، وحاول أنّ يسبر غور ما حدث.

قال إن الرياضيّات ليس مسألة تطبيق القواعد، وإنّما هي علم بحت. ولا يقوم بشكل أساس على إيجاد أفضل التركيبات الممكنة وفقاً لبعض القوانين الثابتة. وستكون التركيبات التي يتمّ الحصول عليها كثيرة جدّاً، وعديمة النفع ومرهقة. ويتكوّن العمل الحقيقي للمخترع من الاختيار من بعض هذه التركيبات، واستبعاد التركيبات عديمة النفع. أو حري بنا القول تجنّب مشقّة صياغتها. والقواعد التي يجب أنّ تتحكّم بالاختيار قواعد بالغة الدقّة. ومن المستحيل صياغتها بدقّة، ولابدّ أنّ نحسّ بها بدلاً من صياغتها.

ثمّ افترض (بوانكاريه) أنّ الاختيار يتمّ عبر ما سمّاه «الذات اللاواعيّة»، وهي كيان يشبه تماماً ما سمّاه (فيدروس) الوعي قبل العقلي. وقال (بوانكاريه) إن الذات اللاواعيّة تنظر في عدد كبير من الحلول لمشكلة ما، لكن الحلول المهمّة فقط هي التي تخترق نطاق الوعي. وتختار الحلول الرياضيّة عبر الذات اللاواعيّة على أساس «الجمال الرياضيّاتي»، وتناغم الأعداد والأشكال، والآناقة الهندسيّة. قال (بوانكاريه): «إنّ هذا شعور جمالي حقيقي يعرفه الرياضيّون جميعاً، لكن قد يجهله غير البارعين منهم الذين قد يدفعهم جهلهم للابتسام فقط». غير أنّ هذا التناغم وهذا الجمال، يشكّل محور كلّ شيء.

أوضح (بوانكاريه) أنّه لم يكن يتحدّث عن الجمال الرومانسي، وهو جمال

المظهر الذي قد يبهر الحواس. بل ما عناه هو الجمال الكلاسيكي الذي ينبع من الترتيب المتناغم للأجزاء الذي يدركه الذكاء الطبيعي، ويعطي الجمال الرومانسي بناءً. وستبدو الحياة دونه غامضة وزائلة، كحلم لا يستطيع الشخص فيه أنّ يميّز أحلامه، لأنّه لن يكون هناك أساس للتمييز بينها. فسعينا وراء هذا الجمال الكلاسيكي الخاص، وإحساسنا بتناغم الكون هو ما يمكنّنا من اختيار الحقائق الأكثر ملاءمة لتسهم في هذا التناغم. وليست الحقائق، وإنّما العلاقة بين الأشياء التي تقود إلى التناغم الكوني هي ما يمكن عدُّها الحقيقة الموضوعيّة.

وما يضمن موضوعيّة العالم الذي نعيش فيه هو أنّ هذا العالم مشترك بيننا وبين كائنات أخرى مفكّرة، ونتلّقى عبر التواصل بآخرين حلولاً فكريّة متناغمة وجاهزة. ونعلم أنّ هذه الحلول الفكريّة ليست صادرة عنّا، لكنّنا نتلمّس فيها بسبب تناغمها عمل كائنات مقنعة مثلنا تماماً. ونعتقد أنّ هذه الطرق الفكريّة تلائم عالم أحاسيسنا لأنَّ الأشخاصّ الآخرين قد مروا بالتجارب التي نمرّ بها. ولهذا ندرك أنّنا لم نكن نحلم. وهذا التلاؤم، وهذه الخاصيّة، هي القاعدة الوحيدة للحقيقة الوحيدة التي قد نعرفها.

رفض معاصرو (بوانكاريه) فكرة أنّ الحقائق يتمّ اختيارها بشكل مسبق، لأنّهم اعتقدوا أنّ هذه الفكرة تدحض صدق الطريقة العلميّة. وافترضوا أنّ «الحقائق المختارة مسبقاً» تعني أنّ الحقيقة «هي كلّ ما تحبّ». ونعتوا أفكاره بالتقليديّة، وتجاهلوا عن قصد حقيقة أنّ «مبدأ الموضوعيّة» الخاصّ بهم ليس حقيقة يمكن ملاحظتها - ولهذا علينا أنّ ندينهم من ألسنتهم، وعلينا انطلاقاً من منطقهم أنّ نضعهم في حالة حياة مع وقف التنفيذ.

شعر معاصرو (بوانكاريه) بالحاجة الماسّة للعمل هذا، وإلاّ تداعت ركائز العلم الفلسفيّة. ولم يقدّم (بوانكاريه) أيّ حلول لهذا المأزق. ولم يتقدّم بما يكفي نحو الدلائل الميتافيزيقيّة كما كان يقوله ليخرج بحلٍّ. وما تعمد إهمال قوله هو أنّ اختيار الحقائق قبل أنّ تلاحظها هو «ما تحبّ» في ظل نظام ثنائي ميتافيزيقي يتكوّن من الذات والموضوع. وعندما تدخل النوعيّة الصورة كمكون ميتافيزيقي ثالث، لن تعدّ عمليّة اختيار الحقائق بشكل مسبق عمليّة اعتباطيّة. وستصبح عمليّة الاختيار المسبق قائمة على الجودة، التي تعدّ الحقيقة نفسها، لا على مبدأ «ما تحبّ» الشخصي المتقلّب. وبهذا اختفى المأزق.

وكان الوضع كما لو أنّ (فيدروس) كان يعمل على أحجية خاصّة به، وترك، بسبب قلّة الوقت جانباً بأكمله غير مكتمل.

وكان (بوانكاريه) يعمل على أحجية خاصّة به. وحكمه أنّ العالم يختار الحقائق، والفرضيّات، والمسلّمات بناءً على التناغم ترك جانباً واضح الملامح من الأحجيّة غير مكتمل. أمّا إعطاء الانطباع في العالم العلمي بأنّ مصدر الحقيقة العلميّة برمّتها يكمن في تناغم ذاتي متقلّب هو حلّ لمشاكل نظريّة المعرفة، في حين أنّ ترك جانب غير مكتمل على حدود الميتافيزيقا يجعل نظريّة المعرفة غير مقبولة.

لكنّنا نعلم من ميتافيزيقا (فيدروس) أنّ التناغم الذي تحدّث عنه (بوانكاريه) ليس ذاتياً. وإنّما هو مصدر الذوات والموضوعات، ويوجد في علاقة داخليّة معهم. وهذا التناغم ليس نزوياً، وإنّما هو القوّة التي تعارض النزوات. وهو المبدأ المنظّم لجميع أشكال الفكر العلمي أو الرياضيّات التي

تقضي على النزوات، التي بدونها لن يكون هناك أيّ تقدم للفكر العلمي. وما جعلني أبكي امتناناً هو اكتشاف أنّ هذه الحواف غير المكتملة تتطابق بشكل كامل بتناغم تحدّث عنه (فيدروس) و(بوانكاريه)، لإنتاج هيكلٍ كاملٍ من الفكر قادرٍ على توحيد اللّغات المفصلّة للعالم والفنّ في لغة واحدة.

تنحدر الجبال في كلتا الجهتين لتشكّل وادياً ضيّقاً طويلاً ينتهي بـ(ميسولا). لقد أنهكتني الريح المقابلة، فصرتُ بأمسّ الحاجة للراحة. يربّت (كريس) على كتفي، ويشير إلى تلّة مرتفعة مكتوب عليها، حرف (م) ضخم.

أهزّ رأسي. لقد اجتزنا واحداً مثله هذا الصباح لمّا غادرنا (بوزمان). تعاودني إحدى الذكريات بأنَّ الطلّاب في السنة الأولى يصعدون إلى الأعلى ليرسموا حرف (M) في كلّ سنة.

في محطّة الوقود، يريد رجل يجرّ خلفه مقطورة تحمّل حصانين من نوع آبالوسا أنّ يخوض معنا في حوار. ومعظم الناس المغرمين بالخيول يكنّون مشاعر معاديّة للدرّجات الناريّة. لكن الحال لم تكن كذلك مع هذا الرجل. يسأل كثيراً من الأسئلة التي أجبت عن معظمها. يطلب (كريس) أكثر من مرَّة أنّ نذهب إلى الحرف (M)، لكنّني كنت أرى من مكاني هذا أنّ الطريق منحدرة وغير مستوية ومزدحمة. ولا أريد أنّ أحاول تسلّقها بمركباتنا الملائمة للطريق السريع بما تحمّل من متاع. نمد أقدامنا قليلاً، ثمّ نتمّشى في المنطقة، نتوجّه بعدها مباشرة نحو (لولو باس) (Lolo Pass).

أتذكّر أنّ هذه الطريق قبل بضع سنوات كانت مليئة بالتراب والمنعطفات

عن كلّ صخرة وانثناءة في الجبل. أمّا الآن فهي معبّدة، والانعطافات واسعة. لابدّ أنّ الحركة المروريّة الكثيفة التي كنّا جزءاً منها قد توجهت نحو كاليسبيل (Calispell) أو كوڤر دالين (Cover D` Alene)، فلم تعد هناك حركة مروريّة كثيفة الآن. نتّجه نحو الجنوب الغربي، والريح خلفيّة. فنشعر بالتحسّن معها. تأخذ الطريق بالتعرّج صعوداً نحو الممر.

تختفي الآن جميع آثار الشرق، على الأقلّ في خيالي، وكلّ الأمطار هنا تأتي من الرياح القادمة من المحيط الهادئ. وجميع الأنهار والجداول هنا تعيدها إلى المحيط الهادئ. سنصل المحيط في يومين أو ثلاثة.

نرى في (لولو باس) مطعماً، فنتوقّف أمامه بجانب درّاجة هارلي قديمة يشير مؤشّر السرعة فيها أنّها قد قطعت أميالاً كبيرة. وتحمّل خلفها سلة مصنوعة محلّياً، ويشير مؤشّر الأميال إلى (36) ألف ميل. يا له من رجل عابر للبلاد.

نتناول في الداخل البيتزا والحليب، ونغادر مباشرة بعد أنّ ننتهي. توشك الشمس على المغيب، والبحث عن مكان للتخييم في الظلام صعب ومزعج.

وعند المغادرة، نرى الرجل العابر للبلاد وزوجته فنحييهما. الرجل من (ميزوري)، وتقول النظرة المريحة على وجه زوجته إنّهما يقضيان رحلة جيّدة.

يسألنا الرجل: «هل كنت أيضاً تقارع الريح في الطريق إلى (ميسولا)؟»

أهزّ رأسي وأقول: «لا بد أنّها كانت ثلاثين أو أربعين ميلاً في الساعة».

يقول: «على الأقل».

نتحدّث عن التخييم لمدّة، وعن برودة الجوّ هنا. لم يتصوّرا أنّ الجوّ سيكون بارداً جدّاً إلى هذا الحدّ في (ميزوري) حتّى في الجبال، واضطرا أنّ

يشتريا ملابس وأحزمة.

أقول: «أعتقد أنّ الجوّ يكون بارداً جدّاً هذه الليلة، فنحن على ارتفاع خمسة آلاف قدم فقط».

يقول (كريس): «سنخيّم أسفل الطريق».

- «في أحد مواقع التخييم».

- «لا، إنّما في أيّ مكان بجانب الطريق».

لم يبديا أيّ رغبة في الانضمام إلينا، ولذا بعد مدّة صمت، دست زر التشغيل، ولوحت لهما وداعاً.

ظلال أشجار الجبال على الطريق أطول الآن. بعد خمسة أو عشرة أميال نرى بعض الطرق المتفرّعة بالأشجار، ونواصل المسير إلى الأمام.

الطريق الزراعيّة مليئة بالرمل، لهذا أحافظ على سرعة متدنّية، مع مدّ قدمي إلى الخارج تحسّباً لمنع الانزلاق. نرى طرقاً جانبيّة على الطريق الزراعيّة الرئيسة، لكنّني أبقى على الطريق الرئيسة لمسافة ميل حتّى نصل إلى بعض الجرّافات. وهذا يعني أنّهم ما يزالون يمهّدون الطريق هنا، ويقصّون الأشجار. نستدير ونسلك إحدى الطرق الجانبيّة، وبعد نصف ميل تصادفنا شجرة ساقطة على جانب الشارع. هذا جيّد فهذا يعني أنّ الطريق مهجورة.

أقول لـ(كريس): «هذا هو مقصدنا». فينزل عن الدرّاجة. المكان في أعلى منحدرٍ يمكنّنا من أنّ نرى من فوق الغابة لأميال».

يندفع (كريس) لاستكشاف المكان، لكنّني أشعر بالتعب وأريد أنّ أستريح، فأقول لـ(كريس): «اذهب وحدك».

- «لا، ستأتي معي».

- «أنا متعب جدّاً يا (كريس)، سنستكشف المكان في الصباح».

أفكّ الأمتعة، وأفرد أكياس النوم على الأرض. يذهب (كريس). وأتمدّد. يرخي التعب ذراعي وقدمي. يا لها من غابة جميلة وهادئة.

وبعد بعض الوقت يعود (كريس)، ويقول إنّه يعاني من إسهال.

أنهض وأقول له: «حسناً، هل أنت مضطر لأنَّ تغيّر ملابسك الداخليّة؟»

يجيب «نعم» وكان خجولاً.

- «حسناً، ملابسك في الحقيبة بجانب مقدّمة الدرّاجة غيّر ملابسك المتسخة، واجلب لوح الصابون من الحقيبة، وسنذهب إلى الجدول. لنغسلها». يبدو محرجاً من القصّة كلّها، وهو الآن مسرور لتلّقي الأوامر.

تجعل الطريق المنحدرة أقدامنا تضرب الأرض بشكل قوي أثناء توجّهنا نحو الجدول. يريني (كريس) بعض الحجارة التي جمعها بينما كنت نائماً. راحة الصنوبر الصادرة عن الغابة قويّة جدّاً. وقد أصبح الجوّ لطيفاً والشمس منخفضة. يعتريني الصمت، والإنهاك وهبوط الشمس بالاكتئاب، لكنّني أحتفظ بالأمر لنفسي.

بعد أنّ غسل (كريس) ملابسه الداخليّة بشكل كامل، نسلك طريق الأخشاب، وأشعر أثناء تسلّقنا إياها أنّني كنت أتسلّق هذه الطريق طوال حياتي.

- «أبي».

- «ماذا؟» يطير أمامنا طائر صغير.

- «ماذا سأفعل لمّا أكبر؟»

يختفي الطائر فوق غيمة بعيدة. لم أعلم ماذا أقول، فأرد: «أميناً».

- «أعني نوع من العمل؟».

- «أيّ نوع تريد؟».

- «لماذا تغضب عندما أسال هذا السؤال؟».

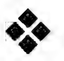
- «لست غاضباً» أنا أفكّر... لا أعلم... أنا متعب جدّاً فلا أستطيع التفكير ... لا يهم ما يجب أنّ تكون».

الطرق كهذه الطريق تصغر، وتصغر، ثمّ تتوقّف.

ألاحظ لاحقّاً أنّه لم يكن متابعاً.

تهبط الشمس الآن تحت الأفق، ويحلّ الغروب. نمشي كلّ على حدّة في الطريق الزراعيّة، ولمّا نصل الدرّاجة، ننسلّ داخل أكياس النوم وننام دون أنّ نقول كلمة واحدة.

23



هاهو (كريس) يقف في نهاية الممرّ وخلفه باب زجاجي، وبجانبه أخوه الأصغر وإلى جانبه الآخر أمّه. يضع (كريس) يده خلف الباب. ويلوّح لي بيده. فألوح له وأقترب من الباب.

أي صمت يستولي على كلّ شيء. كمشاهدة صور متحّركة عندما يتلاشى الصوت.

ينظر (كريس) إلى أمّه ويبتسم. فتبتسم له، لكنّني أرى أنّها تخفي حزنها. فهي مكتئبة جدّاً من شيء لم ترد أنّ يعرفوه.

ها أنا أرى هويّة الباب الزجاجي؛ إنّه باب كفني!

ليس كفناً وإنّما تابوت حجرّي. أنا في سرداب ضخم، ميّت، وهم يلقون إليَّ نظرة الوداع. لطف منهم أنّهم جاؤا. لم يكن واجباً عليهم، فأشعر بالامتنان.

يتحرّك (كريس) نحوي ليفتح الباب الزجاجي للقبو. أرى أنَّه كان

يريد التحدّث معي. ربّما أرادني أنّ أخبره ما هو الموت. أشعر برغبة بالردّ هذا. كان حسناً منه أن جاء ولوّح بيده. سأخبره أنّ الموت ليس سيّئاً. لكنّه موحش.

أمدّ يدي لأفتح الباب لكن شخصٌ مظلمٌ في الظلّ بجانب الباب يمنعني من لمس الباب. ترتفع إصبع على شفتين لم أستطع رؤيتها، فالموتى لا يسمح لهم بالحديث.

لكنّهم أرادوني أنّ أتكلّم. وكنت أريد ذلك دون أنّ يراه. لا بدّ أنّ هناك خطأً ما. ألاّ يرى أنّهم بحاجة لي. أتوسّل إلى الشخص لأتحدّث معهم. لم أنتهِ بعد. عليّ أنّ أخبرهم شيئاً. لكن الشخص في الظلام لا يبدي أيّة إشارة تدلّ على أنّه يسمعها.

أصرخ عبر الباب: «(كريس)، سأراك» يتحرّك الشخص المظلم نحوي مجدّداً، لكنّي أسمع (كريس) يقول بصوت ضعيف وخافت: «أين؟» لقد سمعني. يلقي الشخص المظلم الذي أثار غضبه ستارة يسحبها على الباب.

أقول في نفسي ليس الجبل. فالجبل اختفى. أصرخ: «في قاع المحيط».

ها أنا الآن أقف وحدي في أطلال مدينة مهجورة. تحيط بي الآثار إلى ما لا نهاية وفي كلِّ جانب، وعليّ أنّ أسيّرها وحدي.





ترتفع الشمس.

لستُ متأكّداً أين أنا الآن!

نحن بجانب طريق في غابة في مكان ما. حلم سيّء. ذاك الباب الزجاجي مرّة أخرى. يلمع طلاء الدرّاجة بجانبي، ثمّ أرى أشجار الصنوبر، فتقفز (أيداهو) إلى ذهني. الباب والشخصيّة الواقفة في الظلّ ضرب من الخيال.

نحن في طريق قطع الأخشاب، هذا صحيح... يوم مشرق... وهواء متلألئ. عجباً.. يا للجمال. نتوجّه نحو المحيط.

أتذكّر الحلم مرّة أخرى والكلمات «سأراك في قاع المحيط»، وأتعجّب منها. لكن أشجار الصنوبر وضوء الشمس أقوى من أيّ حلم. يتلاشى التعجّب. هذه هي الحقيقة القديمة الجميلة.

أخرج من كيس النوم، كان الجوّ بارداً، فأرتدي ملابسي بسرعة. (كريس) نائم. أخطو حوله، وأتسلّق جذع شجرة ساقطة، وأتمشى في

طريق التخشيب. ولكي أحسّ بالدفء أهرول صعوداً. جميل، جميل، جميل جدّاً. تظلّ الكلمة تواكب الهرولة. تطير بعض الطيور من التلّة المظلّلة إلى ضوء الشمس، فأراقبها حتّى تختفي عن الأنظار. جميل، جميل، جميل. تصدر الحصى على طريق صوتاً غضّاً. جميل، جميل، رمل أصفر لامع في الشمس. جميل، جميل، جميل. تمتدّ هذه الطرق لأميال بعض الأحيان. جميل، جميل، جميل.

أخيراً أصل إلى نقطة ينقطع فيها نفسي، ولا أستطيع الاستمرار بعدها. إذ ترتفع الطريق الآن. وأستطيع أنّ أرى لأميال فوق الغابة.

جميل.

أمشي وأنا ألهث، نحو الأسفل لكن بسرعة، ملاحظاً وجود نباتات صغيرة في الأماكن التي قطعت فيها الأشجار الصنوبر.

حين أصل الدرّاجة، أحزم أمتعتي بهدوء وبسرعة. أوضّب الأمتعة دون تفكير فقد كنت أعلم كيف أضع الأشياء ببعضها. وأخيراً أحتاج كيس النوم الخاصّ بـ(كريس). ألكزه لكزة خفيفة وأقول له: «يوم عظيم».

ينظر حوله، شاعراً بالحيرة. يخرج من كيس النوم، فأوضّبهُ أثناء ارتدائه ملابسه دون أنّ يعلم حقيقة ما كان يفعل.

أقول له: «ارتدِ سترتك ومعطفك سيكون الجوّ بارداً أثناء القيادة».

ينفّذ ما قلت له، ويركب الدرّاجة، ونسلك طريق التخشيب في السرعة الأولى أو الثانيّة إلى الأسفل، حيث تلتقي الشارع المغطّى بالإسفلت. وقبل أنّ نسلكها أنظر نظرة أخيرة إلى الخلف. جميل. بقعة جميلة، ومن هذه البقعة تأخذ الطريق المعبّدة بالتعرّج إلى الأسفل.

ستكون التشوتوكوا اليوم طويلة جدّاً. لقد كنت أتطلّع بشوقٍ إليها طوال الرحلة.

كنا نستخدم الغيار الثاني فالثالث على الدوام، لا نستطيع أنّ نسرع على هذه المنعطفات. ضوء الشمس جميل في هذه الغابات.

هناك شيء غامض، مشكلة إسناديّة في التشوتوكوا حتّى الآن. كنت قد تحدّثت في يومي الأوّل عن الاهتمام، لكن أدركت لاحقّاً أنّني لن أستطيع التحدّث عنه حتّى نفهم عالمه الخارجي، أعني النوعيّة. ومن المهمّ الآن أنّ نربط بين الاهتمام والنوعيّة عبر توضيح أنّهما وجهان داخلي وخارجي للشيء نفسه. فالشخص الذي يرى النوعيّة ويشعر بها أثناء عمله هو شخص مهتمّ. والشخص الذي يهتمّ بما يرى ويفعل هو شخص ملزم بامتلاك بعض خصائص النوعيّة.

لهذا، إن كانت مشكلة اليأس التكنولوجي ناجمة عن غياب الاهتمام، وإن كان الاهتمام والنوعيّة وجهين؛ خارجي وداخلي، للشيء نفسه، فمن المنطق أنّ نقول إن ما يسبّب اليأس التكنولوجي هو غياب الوعي بالنوعيّة من لدن التكنولوجيّين ومناهضي التكنولوجيا. وسعي (فيدروس) الحثيث وراء المعنى العقلي التحليلي، وبالتالي التكنولوجي في كلمة «نوعيّة» هو سعي للإجابة عن مشكلة اليأس التكنولوجي برمّتها. هذا ما يبدو لي على أيّة حال.

لهذا، أيدّت هذا الرأي، وتحوّلت نحو الانشقاق الكلاسيكي - الرومانسي الذي أعتقد أنّه يشكّل الأساس للمشكلة التكنولوجيّة الإنسانيّة، لكن هذا أيضاً يتطلّب دعماً لمعنى النوعيّة.

لكن، يتطلّب فهم معنى النوعيّة في المصطلحات الكلاسيكيّة دعماً في الميتافيزيقا وعلاقتها بالحياة اليوميّة. وللفعل ذلك علينا اللجوء إلى حقل ضخم يربط الميتافيزيقا بالحياة اليوميّة، وهذا ما نسمّيه بالمنطق الشكلي. لهذا تقدّمت بمرافقة المنطق الشكلي نحو الميتافيزيقا ثمّ نحو النوعيّة، ثمّ من النوعيّة رجوعاً إلى الميتزفيزيقا والعلم.

ونتقدّم الآن من العلم إلى التكنولوجيا. وأعتقد أنّنا أخيراً في المكان الذي أريد أنّ أكون فيه.

لدينا الآن بعض المفاهيم التي غيّرت بشكل كبير فهمنا للأشياء. النوعيّة هي بوذا، والنوعيّة هي الحقيقة العلميّة. والنوعيّة هي هدف الفنّ. وكلّ ما تبقّى هو أنّ تستخدم هذه المفاهيم في سياق علمي سهل. وليس هناك ما هو أكثر علميّاً وسهولةً من الموضوع الذي كنت أتحدّث عنه دوماً، أعني صيانة الدرّاجة الناريّة القديمة.

تواصل الطريق التعرّج إلى أسفل الوادي، فتحيط بنا من كلّ جانب بقع من ضوء شمس الصباح. تهمهم الدرّاجة عبر الجوّ البارد، وأشجار الصنوبر، فنجتاز لافتة صغيرة تقول إن مكاناً للإفطار يبعد ميلاً من هنا.

أهتف: «هل أنت جائع؟»

فيجيب (كريس): «نعم».

بعد وقت قصير، نرى لافتة عليها الكلمة «مقصورات» مع سهم تحتها يشير إلى اليسار. نخفّف من سرعتنا، ونستدير لنسلك طريقاً مغبّراً، حتّى نصل إلى بعض الأكواخ المصنوعة من الخشب والمدهونة تحت بعض

أشجار. فنوقف الدرّاجة تحت الشجرة، ونطفئ المحرّك، ونتوجّه نحو النزل الرئيس. تصدر الأرضيّات الخشبيّة صوتاً جميلاً تحت وقع عجلات الدرّاجات الناريّة. نجلس إلى إحدى الطاولات ونطلب بيضاً، وسجقاً، وعصير برتقال. فهذه الريح الباردة قد جعلتنا نتضوّر جوعاً.

يقول (كريس): «أريد أنّ أكتب رسالة لأمي».

يبدو لي الأمر جميلاً، فأذهب إلى مكتب الاستقبال، وآخذ بعض القرطاسيّة، وأجلبها لـ(كريس). يزوّده هواء الصباح المنعش ببعض الطاقة. فيضع الورقة أمامه، ويمسك بالقلم مسكة متثاقلة، ثمّ يركز على الورقة الفارغة لوهلة.

ينظر إليّ ويسألني: «ما اليوم؟»

فأخبره ويهزّ رأسه ويكتبه على الورقة.

ثمّ أراه يكتب: «أمي العزيزة».

ثمّ يحدّق في الورقة. ثمّ ينظر إليّ ويقول: «ماذا ينبغي أنّ أقول؟»

أبتسم. كان عليّ أنّ أطلب منه أنّ يكتب عن أحد جانبي قطعة النقود. في بعض الأحيان أعتبره طالباً، لكن ليس طالب بلاغة.

تقاطعنا قطعة الكعك الساخنة، فأطلب منه أنّ يضع الرسالة جانباً وسأساعده بها لاحقاً.

وبعد أنّ ننهي فطورنا أجلس أدخن، وينتابني شعور كئيب من الكعك الساخن، والبيض، وكلّ شيء. ألاحظ عندما أنظر من النافذة وجود بقع من الظلّ وضوء الشمس تحت أشجار الصنوبر.

يمسك (كريس) الورق مرّة أخرى، ويقول: «ساعدني الآن».

أقول: «حسناً». أخبره أنّ الحيرة هي المشكلة الأكثر شيوعاً في الكتابة. وأقول يحتار عقلك في العادة عندما تحاول فعل الكثير من الأشياء في الوقت نفسه. عليك ألاّ تحاول إجبار الكلمات على الخروج، وهذا سيزيد من حيرتك. وكلّ ما عليك فعله الآن هو فصل الأشياء وفعلها الواحد تلوَّ الآخر. فأنت تحاول أنّ تفكّر بما تقول، وما يجب قوله أوّلاً في الوقت نفسه. وهذا أمرٌ صعب. ولهذا أفصل الأمرين عن بعضهما. وشكّل قائمة بكلّ الأشياء التي تريد قولها في أيّ ترتيب، ثمّ ستكتشف لاحقّاً الترتيب المناسب.

يسألني: «مثل ماذا؟»

- «حسناً، ماذا تريد أنّ تقول لها؟»

- «عن الرحلة».

- «ما الأشياء التي تريد أنّ تخبرها بها عن الرحلة؟»

يفكّر للحظة ثمّ يقول: «عن الجبل الذي تسلّقناه».

أقول له: «حسناً، اكتب هذا في الورقة».

فيفعل.

ثمّ أراه يكتب شيئاً آخر، ثمّ آخر، بينما أنهي سيجارتي وقهوتي. يكتب قائمة من الأشياء التي يريد قولها في ثلاث صفحات.

أقول له: «احتفظ بهذه الاوراق وسنعمل عليها لاحقّاً».

فيقول: «لن أتمكّن من جمع كلّ هذه الأشياء في رسالة واحدة».

يراني أضحك فيقطّب.

أقول: «سنختار أفضلها». ثمّ نتّجه خارجاً نحو الدرّاجة.

نشعر أثناء قيادتنا إلى أسفل الوادي بالانخفاض المستقر للجبل عبر قرقعة الأذن. يصير الجوّ أدفأ، والهواء أثقل أيضاً. يأزف وقت وداع البلاد العالية، التي كنّا فيها منذ دخلنا (مايلز سيتي).

البهت. هو ما أريد التحدّث عنه اليوم.

لابدّ أنّك تتذّكر أنني قد تحدّثت عند خروجنا من (مايلز ستي) عن نوعيّة تطبيق الطريقة الرسميّة العلميّة على إصلاح الدرّاجة الناريّة عبر دراسة سلسلة السبب والنتيجة وتطبيق الطريقة التجريبيّة لتحديد هذه السلاسل. وكان الهدف حينها تبيان ما نعنيه بالعلاقة الكلاسيكيّة.

وأريد الآن أن أبيّن أنّ النمط الكلاسيكي في العقلانيّة يمكن تحسينه وتوسيعه، وجعله أكثر فعاليّة عبر الاعتراف الرسمي بالنوعيّة أثناء تطبيقها. وعليّ قبل أنّ أفعل هذا، أنّ أذكر بعض الجوانب السلبيّة لعمليّة صيانة الدرّاجة الناريّة التقليديّة لأبين بعض المشاكل.

أولى هذه المشاكل هي البهت، أعني البهت العقلي الذي قد يرافق البهت الجسدي في أيّ نشاط نفعله. وهذا ما كان (كريس) يعاني منه. على سبيل المثال، قد يعلّق أحد البراغي في غطاء أحد التركيبات، فتتفقّد الدليل لترى إن كان هناك سبب خاصّ قد يمنع خروج هذا البرغي. لكن كلّ ما يقوله لك الدليل: «أزل لوحة الغطاء الجانبيّة» بإسلوب تقني مقتضب جميل. لا يخبرك على الإطلاق ما تريد أنّ تعرفه. وليس هناك من إجرّاء سابق تغاضيت عنه يمكن أنّ يجعل عمليّة إزالة البراغي صعبة.

إذا كانت لديك الخبرة، فستستخدم سائلاً مرخيّاً ومفكّاً كهربائيّاً قويّاً.

لكن لنفترض أنّك غير متمرّس، ستتوصل حينها كماشة ذاتيّة الإقفال إلى عرقوب المفك، وستحاول لفّه بكلّ قوة. وقد تكون هذه العمليّة قد نجحت في الماضي، لكنّها لن تنجح إلاّ في تمزيق فتحة البرغي.

لا بدّ أنّ عقلك فكّر مسبقاً ماذا سيفعل بعدما تنجز عملك وتفك الغطاء، ولهذا قد تأخذ بعض الوقت لتدرك أنّ هذا الإزعاج الثانوي البغيض لفتحة البرغي الممسوحة ليس بغيضاً وثانويّاً وحسب، لكنّك علقت. وتوقّفت وانتهيت، وقد منعك تماماً من إصلاح الدرّاجة.

هذا موقف متكرّر الحدوث في العلم والتكنولوجيا، بل هو أحد أكثر المواقف تكراراً. بهت وتعلّق بالكامل. ويعدّ هذا الموقف في عمليّات الإصلاح التقليديّة أسوأ لحظة على الإطلاق. ويكمن سوءها في أنّها لم تخطر على بالك مطلقاً قبل أنّ تبدأ العمل.

الكتاب لا يفيدك الآن، كما لا يفيدك التفكير المنطقي، ولا تحتاج إلى تجارب علميّة لتكتشف ما الخطأ. فالخطأ واضح، وما تحتاجه فرضيّة تمكّنك من إخراج البرغي عديم الفتحة، ولا تقدّم لك الطريقة العلميّة أيا من هذه الفرضيّات. يمكن اتباعها بعد وجود مثل هذه الفرضيّات.

هذه اللحظة هي لحظة الصفر في الإدراك. فأنت عالق ومبهوت دون إجابة. عديم الحيلة وغير قادر على الاستمرار. وهذا الموقف تجربة بائسة عاطفيّاً. تخسر حينها الكثير من الوقت. فلستَ بكفؤ. ولا تعرف ما يجب فعله. وينبغي أنّ تخجل من نفسك، وعليك أنّ تأخذ الآلة إلى ميكانيكي حقيقي يعرف كيف يتعامل مع هذه الأمور.

من الطبيعي عند تلك المرحلة أن تمتلك متلازمة الخوف والغضب

صغيراً مظللاً لأجلس فيه وأستريح. يسود الهدوء المكان، فيدعو للتأمل.

هناك مكان يظهر أنّ حريقاً اندلع فيه قبل سنوات. ووفق المعلومات، تسترجع الغابة الكثير من الأشجار، لكنّها تحتاج لسنوات قبل أنّ تعود لما كانت عليه سابقاً.

أعرف من صوت الحصى رجوع (كريس) أسفل الدرب. لم يذهب بعيداً. وعندما يصل يقول لي: «دعنا نغادر». فنعيد حزم أمتعتنا وننطلق إلى الطريق السريع. وفجأةً يبرد العرق الذي تكون من الجلوس في ذلك المكان المريح.

ما نزال عالقين في ذلك البرغي، والطريقة الوحيدة التي يمكن عبرها فكّه هي بالتخلّي عن متابعة تفحّص البرغي وفق الطريقة العلميّة التقليديّة. فلن تجدي هذه الطريقة نفعاً. وما علينا فعله هو تفحص الطريقة العلميّة التقليديّة عن البرغي العالق.

كنّا ننظر إلى ذلك البرغي بطريقة «موضوعيّة». ووفق مبدأ «الموضوعيّة» الذي يعدّ جزءاً لا يتجزّأ من الطريقة العلميّة التقليديّة، فإنّ ما نحبّ وما لا نحبّ في البرغي ليس له علاقة بتفكيرنا الصحيح. وعلينا ألاّ نقيِّم ما نرى. وعلينا أنّ نبقي عقولنا كالألواح الفارغة التي ستملؤها الطبيعة لنا، ومن ثمّ نفكّر دون اهتمام بالحقائق التي نلاحظها.

لكن عندما تتوقّف وتفكّر فيها بلا مبالاة، سترى أنّ فكرة الملاحظة بلا اكتراث هي فكرة سخيفة. فأين هي تلك الحقائق؟ وما هي الأشياء التي ستلاحظها بلا مبالاة؟ الحفرة الممزّقة؟ لوحة الغطاء الجانبي الذي لا يتحرّك؟ لون الدرّاجة؟ مؤشّر السرعة؟ قضيب الدرّاجة المتأرجح؟

وكما كان (بوانكاريه) يقول هناك عددٌ غير محدود من الحقائق عن الدرّاجة. والحقائق الصحيحة لا تتقدّم وحدها لتقدّم نفسها. وربّما لا تكون الحقائق الصحيحة التي بأمسّ الحاجة لها سلبيّة وحسب، وإنّما مراوغة باحتراف، ولن تلاحظها بسهولة. وعلينا الولوج إلى حقول لم نسبرها من قبل بحثاً عنها، وإلاّ سنقضي وقتاً طويلاً إلى الأبد هنا. وكما قال (بوانكاريه)، يجب أنّ يكون هناك اختيار لاواعٍ للحقائق التي علينا ملاحظتها.

والفرق بين الميكانيكي الجيّد والميكانيكي السيّء كالفرق بين الرياضي الجيّد والرياضي السيّء، وهو يكمن في القدرة على اختبار الحقائق الجيّدة من السيّئة اعتماداً على النوعيّة، فعليه أنّ يهتمّ، وهذه قدرة لم تتحدّث عنها الطريقة العلميّة التقليديّة الرسميّة مطلقاً. وقد يتطلّب النظر في عمليّة الاختيار المسبق للحقائق القائمة على النوعيّة وقتاً طويلاً، علماً بأنّها عمليّة تمَّ تجاهلها عن قصد من لدن أولئك الذين يضعون الكثير من هذه الحقائق بعد أنّ تمَّ ملاحظتها. وأعتقد أنّهم سيجدون أنّ الاعتراف الرسمي بدور النوعيّة في ... لا ... الرؤيا العمليّة على الإطلاق، وإنّما

يوسّع ... اً للمما

أع ... كلة ال ... عقلانيّة

... يرى أ ... الذاتي

... أكمل ... الذاتي

ليكانيكي، والدرّاجة ... دائماً عن

ا وذاك، وهذه هي النتائج إن فعلت».

المزدوجة أبداً بين الذاتي والموضوعي في التعامل

مع الدرّاجة الناريّة صحيحة بالنس
صحيحة. ولقد كانت على الدوام
ولم تكن الواقع بذاته. ولمّا نتقبّل هذه الثنائيّة بشكل كامل، فإنّ علاقة
بين الميكانيكي والدرّاجة الناريّة لا يمكن تقسيمها، وهو شعور يُقضى عليه بالحرفيّة المستديمة للعمل. وعندما تقوّم العقلانيّة التقليديّة العلم إلى ذوات وموضوعات، فإنّها تسستبعد النوعيّة، وعندما تعلق تماماً فإنّ النوعيّة ، لا الذوات ولا الموضوعات، هي ما تخبرك بمسارك.

عند العودة إلى النوعيّة، فإنّنا نأمل بالحصول على عمل تكنولوجيٍّ من ثنائيّة الذات- الموضوع اللامباليّة لتنتقل إلى الحقيقة الحرفيّة الذاتيّة مرّة أخرى، وستكشف لنا الحقائق التي نحتاجها لمّا نبهت ونعلق.

يخطر في بالي الآن صورة لقطار طويل ضخم، قطار يسحب مائة وعشرين مقطورة، يعبر السهول على الدوام محمّلاً بالأخشاب والخضروات باتّجاه الشرق، ومحملاً بالمركبات وغيرها من البضائع المصنعة إلى الغرب. أريد أنّ أسمّي هذا القطار «المعرفة» وسأقسّمها إلى جزئين: المعرفة الكلاسيكيّة والمعرفة الرومانسيّة.

عند مقارنة النوعين ببعضهما نجد أنّ المعرفة الكلاسيكيّة هي المعرفة التي تدرّس عن طريق كنيسة العقل، تضمّ المحرّك وعربات النقل، كلّها وما فيها. وإن قسّمتَ القطار إلى أجزاء، فلن تجد معرفة رومانسيّة في أيّ مكان. وإذا لم تكن حذراً فمن السهل عليك أن تفترض أنّ هذا هو القطار كلّه، ليس لغياب المعرفة الرومانسيّة أو عدم أهميّتها، وإنّما لأنَّ تعريف القطار جامد، ولا يرمي إلى أيّ هدف. وهذا ما كنت أحاول التحدّث عنه لمّا كنّا